

صفوان الأكاديمي

(رواية)

د. حامد أبو أحمد

د. حامد أبو أحمد: صفوان الأكاديمي (رواية)

الحضارة للنشر

11 شارع نوال - الدقي 12311 - القاهرة

Al-Hadara Publishing

11 Nawal Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Mobile: (20-122) 316 48 67

[facebook/alhadara.books](https://facebook.alhadara.books)

الطبعة الأولى: ديسمبر 2016

رقم الإيداع بدار الكتب 2016/25383

I.S.B.N. 978-977-476-257-9

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

صفوان الأكاديمي

obeikan.com

قبل حلول المساء، وقبل أن أبدا في أي عمل من أعمالى الأكاديمية التى لا تكاد تنقطع منذ الصباح الباكر حتى فترة متأخرة من الليل، انطلقت من شقتى الكائنة فى منطقة شيراتون نحو الخلاء. كانت هذه المنطقة فى ذلك الوقت فى بداية الثمانينيات شبه خالية من السكان على الرغم من أن شركة مصر للتعمير أوشكت على الانتهاء من بناء عدد من المناطق - هكذا أسمتها - وانتهت كذلك من عمل التشطيبات اللازمة من أجل التسكين. كنت أسكن فى ذلك الوقت فى المنطقة الثالثة بعمانرها التى أدخل عليها كثير من التحسينات فى المباني والتشطيب وغير ذلك. وكانت أسرتى التى عادت معى من فرنسا مكونة من أربعة أفراد: أنا وزوجتى وولدان ولدا فى باريس. عهد إلى سكان العمارة بتولى مسئولية "المأمور"، وهى مسئولية اهتمت بها إدارات الأحياء المختلفة فى القاهرة بعد انتشار المناطق الجديدة التى فتحت عملية تمليك الشقق للسكان نظير بضعة آلاف من الجنيهات يدفعها الساكن مرة واحدة أو يقسطها لعدد من الشهور أو السنوات. جمعت كل ما عدت به من أموال أثناء البعثة لكنها كانت أقل من قيمة المقدم المطلوب، فحولت نظري إلى القرية وبعث قيراطا ونصف القيراط من أرض للمباني كانت بجوار البيت الذى ورثناه عن أبى. أخذت حقي الشرعى وأضفته إلى المبلغ الذى معى، وبهذا استطعت أن أسكن فى مصر الجديدة.

كانت مصر الجديدة فى فترة دراستى بالجامعة تمثل لى حلما مستحيلا. فقد كنت أسكن فى منطقة شعبية عشوائية، وأركب المترو فى بعض الأحيان،

وأجلس بجوار النافذة لكي أستمتع بمشاهدة الشوارع الواسعة في هذه المنطقة التي تعتبر جديدة وحضرارية ومنظمة لاسيما إذا قارناها بالمناطق العشوائية المهملة تماما. كنت أهتم بالنظر إلى الأشجار الوارفة المزهرة الممتدة علي جانبي الشارع، وأتطلع إلي شرفات المساكن الجميلة المنظمة المليئة بأصص الورود والرياحين، وأقول في نفسي: لماذا كتب علينا أن نعيش في مناطق لا تهتم بها الحكومة ولا تري أن فيها بشرا يستحقون نوعا من الحياة الكريمة بدلا من العشوائيات والحفر والمطبات وتدني مستويات المعيشة، والزحام الذي لا مثيل له في أي مكان من العالم، والألفاظ النابية، والقفشات السخيفة التي نسمعها صباح مساء، والبلطجة، وأكوام الزباله، والخروج عن الحدود المعروفة دينيا وأخلاقيا وسلوكيا، والانتشار المزعج للعاطلين والمهمشين والمتسولين، علي الرغم من أن هذه الظاهرة في ذلك الوقت كانت في بدايتها.

أنا الآن أسكن في مصر الجديدة وأتولى مسئولية عمارة كاملة من خمسة أدوار وبها عشرون شقة، مساحة الشقة مائة وخمسون مترا، ما عدا الدور الأرضي الذي أسكن به حيث تقل مساحة الشقة عن ذلك بحوالي ثلاثين مترا، لكنها – والحق يقال – تضم صالة واسعة جدا، وحجرتي نوم، وحمام كبير وآخر صغير وممر طويل. وكان من أهم ما فعلته أني – وفقا للعرف المتبع في المنطقة – قمت بتشجير المساحة الموجودة أمام العمارة بأشجار من أنواع مختلفة : فيكس، وسرّو، وأكاسيا، ونخيل بلدي، ونخيل سيكاس، وريحان، وياسمين، وصبار، وحبك، ومسك الليل، وبونسيانا حمراء، وورد بلدي وغير ذلك، واستجلبت من القرية سباخا بلديا حتي تكون الأرض صالحة لنمو هذه الأشجار. فهل كانت شوارع فرنسا وبيوتها في ذهني وأنا أفعل ذلك؟ أم أن

صورة شوارع مصر الجديدة وبيوتها التي رأيتها وأنا طالب ظهرت فجأة وتحققت علي هذا النحو البديع؟ أغلب الظن أن الصورتين تضافرتا حتى تصنعا هذا المشهد الجميل أمام العمارة. وإذا أضيف إلي ذلك المنظر الجميل الناجم عن المنطقة الخضراء الواقعة وسط العمارات فإن هذا يؤكد هذا التحول الخطير الذي حدث في حياتي بعد عودتي من البعثة، علي الرغم من أنني كنت أتمني أن يكون المنظر أفضل من ذلك، بعد أن نتخلص تماما من بعض عاداتنا السيئة الخاصة بالتعامل مع الشوارع، حيث يقوم بعضنا بالقاء المخلفات في أي مكان، وينتهك حرمة الأشجار الجميلة، سواء باقتلاعها أو تنكيسها، أو التعدي علي فروعها وأوراقها وأزهارها، وهي عادات تدل علي أننا لم نصل بعد إلي مرحلة الاحترام الكامل لحرمة الشوارع.

خرجت من الشقة والشمس تبدأ انسحابها المعتاد في هذا الوقت الفاصل بين النهار والليل، وقد بدا الشفق الأحمر وكأنه قد نثر رماده الساحر في كل الأرجاء، بدءاً من واجهة العمارة التي اكتست بلون قرمزي متموج، وانتهاء بذوايب الشجر التي أخذت شكل الأشعة الحمراء المنعكسة عليها. أما واجهات المحلات فقد بدأت تطلق أنوارها المحملة بألوان متباينة حمراء وصفراء وزرقاء وبنفسجية، وكأنها قطع من البللور تنثر في الجو، إضافة إلي قطع أخرى من الأنسجة التي تشي بالتغيرات التي سوف تحدث أثناء الليل.

انطلقت نحو الخلاء و عادة ما كان يخطر علي ذهني ذلك الخلاء الذي وصفه نجيب محفوظ عند منطقة الدراسة في رواية " أولاد حارتنا". لكن هذا الخلاء الجديد في منطقة الشيراتون خلاء من نوع آخر جاء نتيجة للامتداد العمراني الذي حاول أن يترك مساحات واسعة خالية. وكانت عمارات المنطقة الثانية تطل علي هذا الخلاء الذي يمتد ليصل إلي الطريق المرصوف الموصل

إلى مطار القاهرة الدولي. وكان من المفروض أن يظل مستويا طوال هذه المسافة، لكنه تعرض في جزء كبير منه للحفر عندما حصلت من لقبت وقتها بالمرأة الحديدية علي امتياز إقامة مشروع استثماري فيه، وذلك في فترة بدأت تطل فيها الرأسمالية البشعة بكل وجوهها الكريهة والتي لم نعرف كيف نتخلص منها إلى الآن.

أخذت أمشي في هذه الساعة الساحرة التي يسحب فيها النهار آخر فلوله ليطل الليل بصفائه وأنواره وشفقه الأحمر، لاسيما وأن المنطقة خالية فعلا أو شبه خالية، وهذا شيء أهم به حبا. عشقته منذ أن كنت في القرية وبيتنا يطل علي الخلاء الواسع وهو أرض زراعية ممتدة تتخللها ترعة صغيرة ممتلئة بالمياه خاصة عندما تفتح القناطر المقامة علي التربة الكبيرة لكي يقوم المزارعون بسقي أراضيهم المزروعة، حسب المواسم، بأنواع مختلفة من النباتات: ذرة، وقمح، وشعير، وبرسيم، وأرز، وغير ذلك. كنت أهتم بهذا الخلاء الواسع فأتجول علي شاطئ التربة، وأتأمل الأراضي ونباتها يبدأ في النمو والاختضار أو تكبر أشجاره وتصبح محملة بالثمار التي نقطفها من أي أرض ومن أي مكان دون أن نحس بأننا نرتكب جنحة أو نقترف إثما. فالثمار كلها في هذا الوقت متاحة للجميع من أجل الأكل فقط بعيدا عن النهب والتحميل الذي لا يقره أحد. عشقت الخلاء كذلك في باريس حيث الشوارع واسعة ومنظمة، والمارة عددهم قليل فيما عدا المناطق السياحية المليئة بالبشر. وهأنذا الآن في المنطقة الواسعة الخالية الملاصقة لمسكن شركة مصر للتعمير أستمتع بالخلاء وحدي تقريبا، وأتأمل بعيني الطبيعة الجميلة الخلابة التي يلفها الصمت المهيّب. ويا حبذا لو سقطت في هذا الوقت بعض قطرات المطر، وهو ما نسميه بمطر الصيف، حيث تكون هذه القطرات ثقيلة

ودافنة، وتتألق مثل حبات اللؤلؤ الصافي البراق. وفي هذا السكون أسمع
الوقع الرتيب المنتظم لهذه الحبات وهي تفاجئ هسيس الأشجار، وتنفض
عنها التراب المتراكم علي مدي الأيام المنسحبة. وعندما تهب الريح الباردة
تحمل معها الكثير من وعاء الأرض وسوء المنقلب.

تذكرت وأنا أنطلق في هذا الخلاء مقوله مشهورة للمفكر والزعيم
السنغالي ليوبولد سنجور عن إنسان أفريقيا جاء فيها: " الأسود هو إنسان
الطبيعة، يعيش مع أرضه، إنسان حسي متفتح الحواس، لا يقبل الوساطة بين
الذات والموضوع، لكنه يقبل كل شيء: أنغاما وروائح وإيقاعات وأشكالاً
وألواناً. إنه يحس الأشياء أكثر مما يراها". وعدت أقارن بين هذا الخلاء
الرحب وبين الشوارع الضيقة والحارات التي أقمت بها في فترة من حياتي
فوجدت أبياتا لعروة بن الورد تقتحم عالمي وتدخل حلبة المقارنة بين وضعي
الحالي ووضعي فيما سبق. تقول الأبيات:

رأيت الناس شرهم الفقير	ذريني للغني أسعي فإني
وإن أمسي له حسب وخير	وأبعدهم وأهونهم عليهم
حليلته وينهره الصغير	ويقصيه الندى وتزدرية
يكاد فؤاد صاحبه يطير	وتلقي ذا الغنى وله جلال
ولكن الغني رب غفور	قليل ذنبه، والذنب جم

أضيت ساعة أو بعض الساعة في هذا الخلاء أتجول وأتأمل الأشجار
وأفكر وأتأمل مع نفسي، وأستقبل النسمات الرطبة المنعشة، وهبات الرياح
الحانية التي تنثور أحيانا ثم تعود إلي طبيعتها الهادنة. عدت إلي البيت وبدأت
أمارس عملا من أعمال الأكاديمية وهو تصحيح أوراق الإجابة لحوالي

ثلاثمائة طالب وطالبة بالفرقة الثالثة - قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة المنوفية. جلست أمام المكتب وأخذت أقلب أوراق الإجابة وأصححها واحدة تلو الأخرى، ثم أجمع الدرجات وأضع الدرجة النهائية من عشرين. ولهذا كنت أعمل حسابي بأن يجب الطلاب علي أربعة أسئلة بحيث يكون للسؤال خمس درجات. وكما هو معروف فإن أوراق الإجابة في الامتحانات المصرية ينزع منها بيانات الطالب أو تلتصق بالورقة بطريقة تحول دون تعرف المصحح علي الاسم. وهذا النوع الثاني كان هو المعمول به في جامعة المنوفية. انتهيت من تصحيح عدد كبير من الأوراق ولاحظت أن عددا كبيرا من الطلاب والطالبات حصلوا علي درجات عالية: جيد، وجيد جدا، وممتاز، بينما كان الراسبون قليلين. وفجأة وجدت ورقة إجابة شديدة الغرابة ، أربع صفحات في البداية عبارة عن رسالة موجهة إلي، والصفحات التالية إجابة علي الأسئلة. لم يخطر علي ذهني أبدا أن يحدث هذا، ولم أتصور أن طالبة لا أعرفها، ولم أرها، ولم أتحدث معها تجرؤ علي فعل شيء من هذا القبيل!!.. كتبت الطالبة بخط واضح وجميل:

بسم الله الرحمن الرحيم

كثيرة هي الحيرة التي أنا فيها الآن.

حاولت أن أعيش، بل أغزو تلك الحياة التي حلمت بها.

وفكرت أن أذهب إليها ولو عن طريق الخيال الضيق الذي لم يستطع أن

يروني ظمئي إلي تلك الحياة.. الحياة التي أريدها.

ولكني أمام الواقع الآن .. واقع هذا الامتحان .. عدت أدراجي مرة أخرى.
عاد خيالي وتجمع هو وتلك الورقة التي أمامي في بؤرة واحدة .. بؤرة
الشعور، والشعور بالتحدي وبالمسئولية.

لم أكن أتوقع وأنا علي تلك الربوة العالية في ذلك الحصن الذي نسجته
لنفسي أن تأتي مثل هذه الأسئلة .. توقعت أن يأتي ..

لست أدري .. بل والحقيقة .. توقعتك أنت أكبر من الواقع .. واقع الامتحان
بالذات .. شعرت من خلال كوني تلميذة لك .. أراك وأنت تتكلم .. وأنت تتحاور
.. وأنت تجادل .. وأنت متضايق .. وأنت مقطب الجبين .. وأنت تبسم .. وأنت
تغضب .. بل وأنت تحاول أن تملك زمام نفسك .. رأيته وعرفتكم ولم أتكلم ..
بل كان حيائي وخجلي يمنعاني دائما من أن أنافق وأسعى لأن تعرفني .. كما
يفعل آخرون.

في كل تلك الأحوال .. بل ومعرفتي أكثر منها .. أحسست بأنك أنت الوحيد
الذي شجعني علي أن يخلق خيالي أكثر وأعلي سموا. كان تحليقا في عالم
المثل.. جعلتني أنفض كل غبار الأرض، وأتشبث بنسمات كون آخر.. لا أدري
كنهه، ولكني أدري معناه.

كنت أفكر، وأفكر، وأنتظر .. متي سيأتي هذا الامتحان الذي سيأخذني
وأخذ معه كل الأحلام التي سأسردها إليك .. سأتكلم كلاما منعه أياما وأياما ..
ليس كلام حب ورومانسية كما كان غيرك يتصوره، ولكني أريد أن أسمو
بنفسي إلي درة لا أستطيع وصفها وأريدك أنت أن تكون حافزي إليها.

كنت أحاول وأنا علي تلك الربوة أن أنزل من فوقها لكي أجري وألحق بك
وأتكلم .. تأخذني معك إلي عالم الأدب والثقافة. كنت أريدك .. بل كنت أريد ..
بل أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعلني مكاني .. لم يرد أن ينزلني من عليه ..

جعلني هناك فوق تلك الربوة لأري من بعيد .. أري اللوحة كاملة بكل التفاصيل .. أراك في المنتصف وحولك منافقوك الذين يتوهمون أن مجرد معرفتك مكسب، ليس لشخصك بل من أجل الامتحان، علي الرغم من أن شخصك يغني عن أي شيء.

فضلت أن أكون هناك وحدي كي أطلق خيالي نحو كل الاتجاهات وأتفرج. أردت أن يظل بصري هناك في غرب أوروبا .. وأبعدته عنك، وعن أحلامي، وعن طموحي .. وحاولت أن أعود، مجرد عودة، إلي واقعي الذي لا فكاك عنه .. إلي هذه الورقة. وهناك، وفي ذلك المكان الذي مازال يحمل عبق التاريخ وفيه كثير من عبق الشرق علي الرغم من الحرب التي لا هواده فيها من طرف الغرب، ثمة طريق منبسط طويل.. وفي القبط وشدة الحر ركبت هناك عربة من عربات التاريخ .. ورأيت تلك الحدايق المخملية التي تشبه، إلي حد كبير، الحدايق المصرية، وتلك النافورات المزخرفة بالنقوش علي أيدي صناع مهرة.

استنشقت الرائحة، وسرت في الطريق، واقتربت من الجداول، وركبت مركبا يمرق في النهر، وصعدت الجبال الشاهقة. لم أكتف بفرنسا بل انطلقت بعد ذلك نحو الأندلس .. زرت قرطبة، وشاهدت جامعها العظيم ورأيت البيوت التي مازالت تحمل طابع الشرق .. ونزلت في جوف أرض مليئة بالحانات وأماكن اللهو والطرب.. رأيت، ومشيت، وركبت وتحررت، ثم عدت أدراجي. هذه أول مرة، صدقني، منذ بدء دخول الامتحان لا أريد أن أخرج قبل أن أستنفد الوقت كله .. ولست أدري لماذا؟ ولكني أعرف شيئا واحداً، وهو أنني أريد أن أتكلم. أدرك أن هذا المكان ليس هو الموضع المخصص للحديث، ولكني، وفي كل لحظة، كنت أتمني أن أجلس معك، وأن أحاورك، ولكني خفت

.. خفت أن أفقد ثقتي بنفسي، أو أظلم نفسي، وأقول لنفسي: إن تكلمت أو
تجاوزت معك سوف تعرفني وتعرف خطي، والبقية – بالطبع – معروفة.
ومن هنا آثرت الصمت .. آثرت أن أرى اللوحة من بعيد .. وأراك فيها
هكذا .. لم أعرف عنك إلا الظاهر: الابتسامة الجميلة. الحرية في كل شيء.
وفي الآراء بالذات. وفي وجهات النظر علي الأخص .. لا أريد أن أعرف أكثر
من ذلك .. فانت – وصدقتي – مثل الأعلى في كل شيء. ولك الفضل الأول
والأخير في محبتي للأدبين الانجليزي والفرنسي، واطلاعي علي كثير من
الكتب فيهما، وذلك من أجل التجوال في هذين البلدين وأنا بعيدة عنهما، لكني
أردت أن أعرف كيف كنت تعيش هناك.

وفي ختام هذه الكلمة أقول لك: إنني أحترم حضرتك جدا .. وحتى لا تظن
بي الظنون يمكن أن تحذف هذا الجزء بصورة نهائية .. لكني أعرف أستاذي
جيذا: حرية الرأي، والديمقراطية، والحرية.

ولاشك أنني أعرف أن حماقتي مدفونة في طرف قلبي هذا، مع أن ابن
سيرين قال عكس ذلك: "عقول الناس مدفونة في أطراف أقلامهم". فلكل
حصان كبوة، ولكل عالم هفوة. وأقول أنا: ولكل فتاة رأي.

وأخيرا أنقل مقولة أفلاطون التي أعجبتني وهي: "العلم أكبر من أن يحاط
به .. وخذ من العلم أحسنه". وأتمنى أن أكون أخذت من الأسئلة أحسنها، بل
أتمنى أن أكون قد وفيت كل سؤال حقه.

وهكذا انتهت هذه الرسالة الخاصة الموجهة إليّ وبدأت الطالبة تجيب علي
الأسئلة. صححت الإجابات ووجدتها تستحق درجة "جيد". أعطيتها الدرجة
وطويت الورقة. لكن فضولي دفعني إلي معرفة اسمها، فقمت بتسليط ضوء
شديد علي الجزء الملصق لإخفاء الإسم، وبذلك ظهر لي اسمها واضحا وهو

"سواء محمد المهدي". كنا في نهاية العام الدراسي، ولم تكن قد ظهرت بعد طريقة تقسيم السنة إلى فصلين دراسيين، وبالتالي وجدت أنه سوف يكون من الصعب التعرف على الطالبة اللهم إلا في بداية العام الدراسي القادم، حيث سنتنقل إن نجحت إلى السنة الرابعة. لكن هذه الرسالة قلبت كياني، ونقلتني من حالة شخص متزوج وعنده ولدان، وفي وضع مستقر، إلى حالة شخص في بداية العقد الرابع من عمره يبحث عن طريق جديد لقلبه وعواطفه.

طوال العام الدراسي المنقضي كنت أذهب إلي شبين الكوم يوما واحدا في الأسبوع. أركب الأتوبيس التابع للجامعة من ميدان روكسي. وكان الأتوبيس يضم عددا من الأساتذة رجالا ونساء ينسبون إلي الأقسام المختلفة في الكلية. ولم يكن فيهم أو فيهن ما يلفت النظر، فيما عدا أستاذة واحدة شديدة التألق في لبسها وفي مظهرها، وغريبة بعض الشيء في تصرفها، فهي توزع علي الجميع في كل مرة قطعا من الشيكولاتة اللذيذة التي نحس أنها مستوردة. سألت من أين تأتي هذه الأستاذة بالأموال التي تشتري بها كل هذه الكميات من الشيكولاتة المستوردة فقال لي واحد قريب منها وعنده علم بخبايا الأمور: إن زوجها أستاذ في إحدى الجامعات الموجودة بالقاهرة، وقد خرج في إعارات كثيرة للدول العربية، وهو الآن يعمل في جامعة الملك سعود بالرياض. ومن عاداته السيئة أنه شديد التقدير علي نفسه لدرجة أنه يصرف الراتب في نهاية كل شهر ويرسله إليها في نفس اليوم بحوالة مصرفية، ولا يكاد يبقي لنفسه إلا أقل القليل، وربما يقضي بقية أيام الشهر في وضع يشبه التسول، لكنه سعيد جدا بما يفعله. وهو يسكن في شقة ضيقة جدا في منطقة شعبية. ومن ثم فإن الأموال كلها تقريبا تذهب إلي الست التي تصرف ببذخ شديد كما تري، وتسافر كثيرا إلي الخارج فيما عدا البلد الذي هو فيه. بل إنها تجرى عمليات تجميل هنا وهناك في أي مكان من العالم. وختم زميلي كلامه بقوله: "لله في خلقه شئون" ثم أضاف: وعلي الرغم من أنه يرسل إليها كل هذه الأموال فإنها لا تطيقه، وتتمني لو ظل بعيدا عنها إلي الأبد.

قلت في نفسي: ما أشد غرابة المرأة! إنها يمكن أن تتحول إلي كائن آخر إذا وجدت زوجها بهذه الصورة. تذكرت أنشودة بوذية تهاجم المرأة هجوما شرشا، لدرجة أنها تقول عنها: "تري من ذا الذي خلق هذا المخلوق المعقد الزاخر بالتشكك وانعدام اليقين، معبد الغطرسة والتكبر، إبريق الآثام والخطايا، الحقل المزروع بأعشاب من الفضائح والخزي والعار، فوهة الجحيم، السلة المملوءة حتى حافتها بالشرور والمكائد، السم الذي يشبه العسل، والسلسلة التي تقيد الفاتين بالعالم". لكنني عدت وراجعت نفسي قائلا: علي الرغم من قسوة هذه الأنشودة البوذية، فإن هناك كذلك المرأة التي تنوب رقة وحنانا وحبا كهذه الفتاة التي لم أرها بعد. وهل يمكن لامرأة في هذه السن الغضة أن تكبت عواطفها طوال عام دراسي كامل، ولا تظهرها إلا في ورقة الامتحان، متحدية كل الأعراف والتقاليد، وإن كانت علي ثقة تامة من أن الشخص الذي تخاطبه سوف يفهمها، ولن يرتكب أي حماقة يمكن أن تسيء إليها أو تقلل من شأنها.

أثناء الطريق من القاهرة إلي شبين الكوم كنت أشغل نفسي بواحد من ثلاثة شواغل: إما الحديث مع الشخص الذي يجلس بجواري إن رأيت منه رغبة في الحديث. نتحدث في أمور كثيرة منها بالطبع الأوضاع السيئة التي تحاصر المصريين سواء كانوا داخل البلد أو خارجها. والمصريون من أكثر شعوب الأرض حبا للشكوى ونقد الأوضاع، وإن كانت الرغبة في الإصلاح عندهم تكاد تقتصر علي الكلام لدرجة أن الواحد منهم لا يقدم علي أن يغير من نفسه أولا. لكن كله كلام ودش ولا شيء غير ذلك. الأمر الثاني هو أن أقرأ في كتاب كي أنأى بنفسني عما يدور في الحافلة من صياح وهرج ومرج. الأمر الثالث هو أن أنظر إلي الطريق بفحص وتمعن شديدين، وكانت تشدني

الخضرة البانعة في الطريق من قويسنا إلي شبين. لقد منح الله هذه الأرض خصوبة لا مثيل لها، لكننا نأبى إلا نضيعها، وقد وضح هذا الآن بسبب سوء تعاملنا مع النيل وترعه التي تغذى المحافظات.

وفي قاعة الدرس وضعت لنفسى استراتيجية تقوم علي ما يلي:

- عدم الالتزام بالطريقة التي صارت قاعدة في بدايات حكم مبارك، وهي عمل مذكرات في المادة التي تدرس للطلاب، تكون مجالاً للكسب وزيادة دخول الأساتذة، ولهذا كان هؤلاء يتنافسون في الحصول علي أكبر عدد من الطلاب لتوزيع المذكرة، وبما أن لدى في هذه المادة الوحيدة التي أدرسها في المنوفية ما يناهز ثلاثمائة طالب وطالبة فإنني يمكن أن أحصل علي مال وفير. لكنني استبعدت تماماً هذا الغرض المادي وقررت أن أدرس بالطريقة التي درسنا بها في السبعينيات وهي أن يكون هناك كتاب مطبوع مقرر، ويا حبذا لو كان منشوراً في دار نشر أو هيئة تابعة للدولة مثل الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو دار المعارف، حتى يكون ثمنه رخيصاً ومتاحاً للجميع. ولا يقتصر الأمر علي هذا الكتاب وإنما يقوم الأستاذ بإعطاء الطلاب قائمة بكتب أخرى تساعد في فهم المادة، والتعمق فيها، وتعودهم علي القراءة وبناء الشخصية. وبما أني أقوم بتدريس مادة " الأدب العباسي " فقد أملت عليهم قائمة طويلة من أبرزها: الجزء الثاني من كتاب الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء، والجزءان الأول والثاني من كتاب الدكتور شوقي ضيف عن العصر العباسي. وبما أن الأدب الأندلسي يتزامن مع الأدب العباسي فقد أعطيتهم كتاب الدكتور أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلي سقوط الخلافة، إضافة إلي كتب أخرى للدكتور عز الدين إسماعيل وسواه من أساتذة الأدب العربي.

- كنت أحاول دائما أثناء الدرس أن أجعل الطلاب والطالبات يحسون بأنهم بناء المستقبل، وبالتالي لابد أن تكون لكل منهم شخصيته القوية بحيث لا يتأثر تأثراً سلبياً بما تبثه أجهزة الإعلام الرديئة التي تحض علي الخضوع والاستسلام لآراء الآخرين. وكنت دائما أعطيهم أمثلة من جيلنا الذي عرف كيف يواجه التفاهات بالقراءة، والتعمق في المعرفة، والاطلاع علي أحدث ما أنتجه العلم أو أنتجته الثقافة.

- كما كنت أحضهم علي قراءة الآداب العالمية، لاسيما وأن كثيراً من روائع الأدب العالمي كان مترجماً إلي العربية في فترتي الخمسينيات والستينيات. وكان لدي اعتقاد قوي بأن الثقافة تحول دون أن يتطرف الشخص في فهم الدين، أو ينحرف نحو مذاهب هدامة ومقوضة لحضارة المنطقة. وقد دفعني إلي هذا ما شاهدته من دخول الشباب الجديد في مرحلة فيها قسوة علي النفس، ومزيد من الانغلاق والتعصب، لاسيما وأن كثيراً من الفتيات التزمن بالنقاب التزاماً صارماً. ووجدت بعض زملائهن من الطلاب يحضونهن علي ذلك ويناقشونني قائلين: لماذا ترفض النقاب وهو أصل من أصول الإسلام فكنت أناقشهم وأثبت لهم بالحجج الفقهية أنه ليس كذلك، وأوضح لهم أن الإسلام دعا إلي الحجاب ولم يفرضه، لكنه لم يدع إلي النقاب. وبالطبع لم أكن أعطي لهذا الحوار إلا دقائق قليلة حتى لا نضيع الدرس الأساسي.

- رأي الطلاب أنني أفتح كل النوافذ، ولا أنفعل ضد أي رأي يخالف رأيي. وقد أحس هؤلاء أنني مثلهم تماماً، واحد منهم، ومن حقهم أن يناقشوني، وأن يخالفوني. وكان هذا انطلاقاً من اعتقادي الجازم بأن الطالب الجامعي لابد

أن تكون له شخصيته، وأنه لا يجب أن يكون إمعة، يفرض عليه الرأي فيقبله صاغراً مستكيناً. فهذا هو المجتمع الذي لا نريده أن يستقر في نفوسنا.

- علي أن أهم ما آمنت به وحاولت أن أثبه في نفوس الطلاب هو ألا أخرج من قراءة أبيات في الغزل وشرحها، أو ذكر موقف غزلي لأحد الشعراء أو غير ذلك مما يدخل في عالم الأدب. من ذلك - علي سبيل المثال - قراءتي لأبيات لأبي نواس تقول:

لا تبك ليلي ولا تطرب إلي هند	واشرب علي الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت من حلق شاربها	أجذثه حمرتها في العين والخذ
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة	في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها	خمرأ فمالك من سُكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة	شيء خصصت به من بينهم وحدي

ومن بين المواقف التي ذكرتها سفارة الشاعر يحيى بن حكم الملقب بالغزال لظرفه ووسامته، وقد أرسله أمير قرطبة عبد الرحمن الأوسط إلي الامبراطور البيزنطي بصحبة عالم أندلسي يسمى يحيى بن حبيب. وأثناء ركوبهما البحر في اتجاه القسطنطينية حدثت عاصفة شديدة، وأحرق بها الخطر، لكنهما وصلا سالمين. وتهيأ الإمبراطور لاستقبال سفير قرطبة، وأخبر الغزال بتقاليد البلاط البيزنطي التي تقضي بأن يدخل الزائر علي الامبراطور ساجداً، فرفض الغزال ذلك، واشترط ألا يخرج هو وصاحبه عن شيء من سنتهما، فوافق البيزنطيون علي ذلك، لكن المسنولين في البلاط الإمبراطوري تحايّلوا، فجعلوا المدخل المؤدي إلي الإمبراطور منخفضاً حتى

لا يدخله داخل إلا راعها، فلما تهيأ الغزال للدخول علي الإمبراطور ورأي الباب كذلك جلس علي إيتيه، ومد قدميه، وزحف حتى دخل من الباب ثم استوي قائما، وحيا الإمبراطور بكلمة ترجمت له، فأعجب بها، وقال: هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم، أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه.

ويقال إن الإمبراطورة ثيودورا Theodora أعجبت بالغزال، فقد كان يوما يجلس مع الإمبراطور، فدخلت زوجته وعليها زينتها، وهي تبدو كالشمس بهاء وسطوعا، فجعل الغزال يتأملها ولا يحيد طرفه عنها، والملك يحدثه وهو لا يلتفت إلي ما يقول، لأنه منصرف بكل كيانه إلي الملكة الجميلة، فأنكر عليه الملك ذلك، وطلب من المترجم أن يسأله عن تصرفه غير اللائق. فأجاب الغزال: " قل له إنني قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه، فإني لم أر قط مثلها". وأفاض الغزال في وصفها والتعجب من جمالها. وقد أدي هذا الكلام إلي زيادة حظوة الغزال عند الملك. ثم إن الملكة سرت بقوله، فأمرت له بهدية فامتنع عن قبولها. ولما سألت عن سبب ذلك أجب: إن صلتها الجزيلة، وإن الأخذ منها لتشريف .. ولكن يكفيني من الصلة نظري إليها وإقبالها علي. فقالت للمترجم: "متى أحب أن يأتيني زائراً فلا يحجب". وقد كتب الغزال قصيدة من أحلي قصائده عن ثيودورا وعن بعض موافقه معها.

كنت أقضي ساعتين في الدرس. وبما أن الحافلة لا تتحرك بنا إلا في الثانية والنصف قررت أن أشغل نفسي خلال ما يزيد علي ثلاث ساعات بالتجول في المدينة لاسيما منطقة وسط البلد. أخرج من الكلية فتقابلني الحفرة العميقة الموجودة في وسط الشارع، وهي حفرة مربعة (متران في مترين تقريبا). ولكي يتحاشى الناس خطرهما المائل في كل وقت وضعوا

أمامها وخلفها أشياء تمنع المارة والسيارات من الاقتراب منها، كانت السنوات تنقضي من عصر مبارك بدون خطط حقيقية أو تنمية، والجرائد كعادتها تصنع تنمية علي الورق، ولذلك فإن من كان لديه وعي سليم أحس أن البلد تنحدر نحو هوة عميقة تشبه هذه الحفرة التي ظلت عاما دراسيا كاملا أمر بها. أتوجه نحو الشارع الرئيسي الذي توجد به المحلات الكبرى مثل شركة بيع المصنوعات، وعمر أفندي، وصيدناوي، وبنزاويون. أتطلع إلي وجوه الناس فأجدها مطحونة من الفقر وسوء الحال. ثم أجلس علي مقهى بالجانب الأيسر من الشارع. أطلب أولاً قهوة مضبوطة، وبعد ذلك بقليل اطلب شايا ومعه شيشة. وهذه هي السنة الوحيدة في حياتي التي دخنت فيها الشيشة. وكانت هناك سنة أخرى وأنا في باريس شربت فيها الدخان.

بعد أن أقضي وقتا في المقهى أتوجه إلي السوق الموجود في آخر الشارع. وهو سوق فوضوي يشبه الفوضى العارمة التي نعيش فيها نحن المصريين. ومن ثم كان لابد أن تخطر علي ذهني المقارنة بين السوق في باريس وهذه السوق العشوائية التي تدل علي عدم وجود حكومة. فالسوق في باريس مبني فخم واسع نظيف يضم كل السلع المخصصة للأكل: لحوم، وأسماك، وخضروات، وتوابل، وطيور .. الخ. وكل قسم من هذه السلع له أماكنه المخصصة، والبائعون في غاية النظافة والإتقان والمهنية والناس تمضي داخل السوق وكأنهم في حالة فسحة ممتعة ومحبة. أما هذا السوق الذي أتجول فيه الآن فهو صورة طبق الأصل من المناطق العشوائية. لا ترتيب، لا نظام، لا نظافة. بل إن أكوام الزبالاة تملأ كل الأركان، والبائعون في كل لحظة يضيفون إليها الكثير والكثير من المخلفات. وكنت دائما أسأل نفسي: ألم يقم أحد من المسؤولين ولو مرة واحدة في حياته، بزيارة سوق في

باريس، أو جنيف، أو استكهولم، أو لندن أو غيرها من المدن؟. ألم يطرأ علي ذهنه أن الحياة في مصر تحتاج أشد الحاجة إلي التغيير والنظام؟ علي أن أهم ما كان يشد انتباهي هو بائع اللحوم المجمدة التي كان سعرها في حدود جنيهين، وذلك في وقت كان فيه كيلو اللحم عند الجزار قد ناهز الخمسة عشر جنيها. كانت اللحوم موضوعة علي طاولة ومقسمة إلي قطع كبيرة يسلط عليها البائع سكينه المشحوذ ويأخذ قطعة صغيرة يضعها علي الميزان ثم يسلمها للمشتريّة. وكنت ألاحظ أن الغالبية من النساء اللاتي يطل الفقر من وجوههن. ولعل الواحدة منهن كانت تحس في داخلها بأنها أحسن حظا من هؤلاء اللاتي يذهبن إلي بائع الطيور لشراء الأرجل والرءوس وعظام الصدر والبطن، وذلك لعمل شوربة يحس الأولاد معها بطعم اللحوم.

لكنني لم أكن أستسلم لهذه المناظر المشوهة المؤذية، ولذلك كنت أعود إلي الكلية وقد تخيرت الشوارع المليئة بالأشجار الجميلة المورقة وخاصة تلك المحاذية للترعة. كانت هذه المناظر تبعث في داخلي الأمل بأن بلادنا جميلة، لكنها تحتاج إلي جهد وعمل واستبعاد للصوص والنهابين وسارقي أقوات البشر، الذين يصلون إلي السلطة ولا يكون لهم من هدف إلا سرقة الأموال وتهريبها إلي البنوك الأجنبية. وفي مثل هذه اللحظات كانت تختر علي ذهني قصة جاءت في كتاب " المستطرف في كل فن مستظرف " تقول "إن عمر بن عبيد مر بجماعة وقوف، فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقا، فقال: لا إله إلا الله. سارق العلانية يقطع سارق السر !!!".

يتذكر محمد صفوان عبد الخالق مغامراته الأولى في طريق الصبابة والهيام وأحلام اليقظة التي كانت تقتحم عالمه المغلق. وقد ظل طول حياته يسأل نفسه: لماذا أغلقت هذا الباب ولم أترك لنفسي إلا نافذة صغيرة كنت أطل منها في بعض الأحيان. لم أفعل مثلما كان يفعل زملائي في الدراسة. يختارون بنات القرية غير المتعلّقات، ويعدونهن بالزواج، ويفتحون بذلك أبوابا للقاعات والممارسات التي كنت أرفضها وأري أنها نوع من الخداع الذي لا يليق بإنسان متعلم، خاصة وأن هؤلاء الفتيات الريفيات يقعن في حبالهنم بسرعة، لأنهن كن يحلمن بالزواج من شخص متعلم. وكان هناك سبب آخر يمنع محمد صفوان من السير في هذا الطريق هو أنه كان طالبا في المرحلة الثانوية الأزهرية، وترتسم علي وجهه علامات الجد والتفوق، إضافة إلي تدينه الواضح حيث يؤدي كثيرا من الصلوات في المسجد، ويلتقي بالكثيرين من جيل والده، ويتناقش معهم في أمور الدين. ثم إنه انغمس في القراءة في فترة مبكرة من حياته، فقرأ الشعر، والروايات المترجمة، وأعمال نجيب محفوظ، ويوسف السباعي، ومحمد عبد الحليم عبد الله، وعلي أحمد باكثير، وسواهم من أبناء هذا الجيل المتميز. وتعمق في قراءة العقاد، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم. ولهذا عندما طلب منه المصلون أن يخطب لهم الجمعة ظل علي المنبر ساعة كاملة يصول ويجول في أقوال عباس العقاد وغيره ممن ذكرت أسماؤهم، وهو لا يدري أن الناس تمللوا لأنهم لا يستطيعون هضم هذه الموضوعات بسهولة. ثم إن خطبته طالت وهو لا يدري أن الإطالة بهذا الشكل غير محببة، لاسيما في القرية.

لكن محمد صفوان، علي الرغم من كل هذه الأسوار التي وضعها لنفسه، كان لديه شوق عارم للحب، الحب العذري النظيف الذي رآه عند قيس بن الملوّح (مجنون ليلى)، وجميل بن معمر (جميل بثينة)، وكثير عزة. أي أنه يحلم بامرأة مثالية، متعلمة، باهرة الجمال، من أسرة طيبة. لقد تقمص شخصية أولئك المحبين المشهورين، وتغنى بأقوالهم وأقوال غيرهم. ومن ذلك قول مجنون ليلى:

يقولون ليلى بالعراق مريضة فياليتني كنت الطبيب المدويا

أو قول علي بن الجهم عندما انتقل من البادية إلى بغداد:
عيون المها بين الرصافة والجسر أسرن فؤادي من حيث أدري ولا أدري
والحب كما قال سوفوكليس طبيعته مركبة:

فالحب - حسب رأيه - ليس وحده الحب.
ولكن اسمه يخفي في ثناياه أسماء أخرى متعددة،
إنه الموت والقوة التي لا تحول ولا تزول،
إنه الشهوة المحض، الجنون العاصف والنواح.

ولهذا كان محمد صفوان، في بعض الأحيان، يعلن عن حبه بطريقة فيها الكثير من الاندفاع والجنون، يرتدي أفضل جلباب لديه، وينظر إلى نفسه في المرأة مختالا مثل الطاووس، ويخرج من البيت قبيل غروب الشمس، وهو يعلم أن بنات علي مختار أحد أثرياء القرية يجلسن في هذه الساعة في شرفة البيت الذي بناه بالطوب الأحمر، علي عكس بيوت القرية حينئذ، والتي كانت من الطوب اللبن. يتوجه صفوان نحو منطقة صهاريج المياه التي أقيمت عند

مدخل القرية. وعندما يقترب من الشرفة التي تطل منها البنات المتعلمات يبطئ الخطي، ويتحسس هندامه، وينظر بنصف نظرة إلى أعلي، وكأنه يرمي إليهن بسهم من سهام الحب والعشق والهيام. وهو في أعماقه – رغم أن أسرته فقيرة – يحس أنه أولي الناس بالارتباط بفتاة من هؤلاء، ولتكن زميلته بالمرحلة الثانوية، واسمها إحسان. لم تكن صارخة الجمال كما كان يتمني، لكنها من النوع المتوسط، الذي تجتمع فيه خصال أخرى محببة، كالذلال والرقعة مع أنه لم يختبر هاتين الصفتين لكنه تصور أنها كذلك. ولعل ما أكد له هذا الحكم قراءته لكتاب " طوق الحمامة" لابن حزم، ووقوفه عند الفقرة التالية:

"واعلم أعزك الله أن للحب حكما علي النفوس ماضيا، وسلطانا قاضيا، وأمرأ لا يخالف، وحدأ لا يعصي، وملكا لا يتعدي، وطاعة لا تصرف، ونفاذا لا يرد، وأنه ينقض المبرر، ويحل المبرم، ويحل الجامد، ويحل الثابت، ويحل الشغاف، ويحل الممنوع .. فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفا ولا عدلا. وهذا من أبعد غايات العشق، وأقوي تحكمه علي العقل، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح، والقبيح في هيئة الحسن".

لكن التجارب المباشرة في الحب عرضت لمحمد صفوان عندما كان طالبا بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة. كانت الطالبات – كما هي العادة في مصر – منقسمات إلي طائفتين: طائفة يدل مظهرها علي الثراء والرفاهية والنعمة، وطائفة أخرى قادمة من القرى والنجوع والأحياء الشعبية. وبما أن صفوان

كان يحلم بالمثل الأعلى فقد وجد نفسه محاصرا لأنه من جهة لا يستطيع
مجاراة الطبقة الراقية، ومن جهة أخرى لا يمكنه أن يرتبط بفتاة من أسرة
فقيرة تشده إلي الوراء بدلا من أن تدفعه إلي الأمام. ولهذا ظلت علاقته مع
الفتيات في الكلية علاقة زمالة لا أكثر ولا أقل، وتمثل في ذلك قول بشار بن
برد يخاطب جارية اسمها عبدة قائلا:

لم يطل ليلى ولكن لم أنم	ونفي عني الكرى طيفاً ألم
رفهي يا عبد عني واعلمي	أنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردى جسما ناحلا	لو توكأت عليه لانهدم
وإذا قلت لها جودي لنا	خرجت بالصمت عن لا ونعم

وجاءت الفرصة لصفوان للقاء المرأة وجها لوجه، وذلك عندما طلب منه
أحد وجهاء القرية، أثناء الأجازة الصيفية، إعطاء ابنته الطالبة في الدبلوم
دروسا في النحو والصرف. ذهب في الوقت المحدد إلي بيتهم الكائن في
منتصف القرية، لكنه من المباني القديمة الواسعة المحاطة بأشجار السرو،
والجميز، والجوافة، والنخيل، وتكعيبة العنب، والصفصاف، وغير ذلك، دخل
صفوان من الردهة المؤدية إلي المندرة التي يستقبل فيها الزوار. استقبله
الرجل بترحاب شديد، وقدم له الشاي مصحوبا ببعض المعجنات اللذيذة
المصنوعة باللبن والسمن البلدي والقشدة. ثم شرح له وضع الفتاة، وأنها
كان يمكن أن تنجح بسهولة لولا مادة النحو والصرف التي استعصت عليها.
والآن مطلوب مني أن أشرح لها هذه المادة وأحببها فيها حتى تجتاز امتحان
التخلف.

دخل صفوان حجرة المكتب المخصصة للدرس فوجد الفتاة في انتظاره. كانت الفتاة في مقتبل العمر، يشرق وجهها بماء الشباب، تضع علي شعرها منديلا رقيقا، لكنه لا يحجب شعرها الأسود الذي أرسلته علي كتفيها فغطي بعض جبينها، وحجب عذاريتها، لكنه زاد عينيها الدعجاوين البراقتين سحرا وجمالا. أما البسمة فقد ارتسمت علي وجهها الصبوح مثل حبات من اللؤلؤ تتماوج في ألق وفتنة. وكانت عادة البنات المتعلمات في ذلك الوقت ارتداء جلباب مختلف عن جلباب أمهاتهن، وكان ذلك يزيديهن جمالا، ويضفي عليهن هالة من السحر والاحتشام في آن.

دخل صفوان وسلم عليها يدأ بيد، ولم تكن عادة عدم السلام علي المرأة قد عرفت بعد أو انتشرت. جلسا علي المكتب بعد أن أغلقت الباب تحاشيا لدخول الأصوات المزعجة. وبدأ الدرس في جدية وإقبال علي الاستيعاب والفهم. ولكن مع الحصة الرابعة أخذ الوضع يختلف، وسيطرت رائحة العطر المنبعث من كوثر علي أنفي لتخترق كل جوانبي. حاول صفوان أن يتحرر من هيمنة هذه الروائح المعطرة، لكنه لم يستطع. وفاجأته كوثر بسؤال: أنت مقيم أثناء الدراسة في القاهرة وحولك عدد كبير من البنات ألم تسترع نظرك واحدة منهن؟ شرح لها صفوان أنه إلي الآن مازال يعيش في الريف، وإذا أحب فلن يحب إلا فتاة ريفية، يخفق لها قلبه ويمنحها الحب الذي يحلم به. سألت: ألم تجد هذه الفتاة بعد؟ قال لها: ألم تسمعي بهذه الأقصوصة التي كتبها الرسام المشهور سلفادور دالي وهو في السابعة من عمره، وقد أعجب بها والده إعجابا شديدا، ورأي أنها أفضل من قصة أوسكار وايلد "الأمير السعيد". تقول القصة: "كان طفل يتنزه مع أمه في مساء أحد أيام يونيه، وكانت السماء تمطر نجوما. التقط الطفل نجمة وضعها في راحة يده. وحين

وصل إلي البيت سجنها في كوب فوق مكتبه. وحين استيقظ في الصباح صاح في رعب: لقد التهمت دودة نجمتي أثناء الليل". كانت هذه قصة سيريالية ، لكنني أخشي أن تتحقق، ولهذا لم أقدم علي الحب إلي الآن. تعجبت كوثر من الحب ومن موقف صفوان، لكن الدرس كان قد أوشك علي الانتهاء، فتركها صفوان وهو يتأمل في هذه النافذة التي فتحت علي الرغم من أنه كان حريصا علي تحقيق رغبة والدها بتقويتها في مادة النحو والصرف حتى تتمكن من النجاح.

في الحصة التالية قام صفوان في البداية بشرح الدرس، وتأكد من أن كوثر فهمته جيدا، وحاول أن يتحاشي الدخول في حديث عن الحب، ولكنه فوجئ بالبنت تبدى شيئا من الدلال، وتمسك بصولجان الفتنة والإغراء، وتسأله في جراءة لم يعهدها من قبل: بعيدا عن الدرس ما الذي تراه في بوصفي امرأة من لحم ودم وعواطف وأشواق وأحاسيس؟ قال لها: أراك جميلة وجذابة بل وفاتنة، لكني أعلم أنك شبه مخطوبة لأحد أقرباء والدك، وأنا لا أريد أن أفسد عليك حياتك. ردت بسرعة: من قال لك هذا؟ صحيح أنه كان هناك كلام في هذا الموضوع، لكن لم يحدث أبدا أني تعلقت بهذا الشخص أو أحببته، ولن أوافق أبدا علي أن يخطبني. وفي هذه اللحظة اندفع الحب بجنونه وأشواقه، ودخل المحبان في لحظة عناق تمنى صفوان أن تدوم إلي الأبد. كانت لحظة مفاجئة تم خلالها رفض التعقل والاعتزان والاعتدال، واستبدل بذلك التطرف والتهور والشغف بالأخطار والمغامرات. وقد بدت هذه المفاجأة لصفوان وكأنها جزء مما حدث لآنا كارنينا عندما طرأ عليها انفعال مفاجئ، فاستسلمت له، مما أدى بها إلي الاستهتار بواجباتها العائلية والتزاماتها الاجتماعية، فخضعت لسلطان حبها بعيدا عن كافة الاعتبارات

التي تملئها المصلحة بما في ذلك مصلحتها الشخصية. وتساءل صفوان: هل من سبيل إلي استدامة هذه اللحظة؟ لكنه رد علي نفسه: من المستحيل أن تدوم لحظات السعادة، فالحياة كَرّ وفر، وإقبال وإدبار، ونجاح وإخفاق. ومن ثم تجهز للمغادرة وهو لا يدري ما وقع هذه اللحظة الفريدة علي كوتر التي تخلصت تماما من عنصر الخوف سواء جاء من الخارج أم من الداخل، وارتشفت من كأس الحب ربما لأول مرة في حياتها. أما صفوان فقد تمثل قول المجنون في ليلي:

هي السحر إلا أن للسحر رقية وإنّي لا ألقى لها الدهر راقيا

بعد ذلك ازدادت كوتر جمالا في عين صفوان، وزادت في الوقت نفسه خفرا وتدللا بعد أن تحولت العلاقة من مجرد صلة بين أستاذ وتلميذته إلي صلة حب بين رجل وامرأة. نظر إليها فرأها فتاة في ريعان الصبا، طويلة رشيقة، بيضاء وإن كانت تميل إلي اللون القمحي، موفورة الصحة، بشوشة الوجه، مع ابتسامة عريضة ترتسم علي شفتيها، وكأنها جاهزة لارتشاف كؤوس الطلا، تنتهز الفرصة للكلام في الحب حتى ولو لم تستوعب شيئا من الدرس، فتبدو غير حريصة علي النجاح، مع أن أسرتها تعوّل عليه الكثير. لكن عاطفتها أقوى، واندفاعها غير محسوب النتائج. استشعر صفوان أن هذا الحب هو أول حب في حياتها، وكان بالنسبة له أيضا أول حب حقيقي، وأول اقتراب من عالم المرأة المغلف بالأسرار، وأول هذه الأسرار سر الحب الذي لا ندري كيف ينطلق من قمقمه مثل المارد الجبار فيثير الدخان والغبار والأتربة، ويحطم كل العوائق، ويزيح كل الصخور، حتى قال البعض إن المرأة في هذه الفترة من العمر لا يشغل تفكيرها إلا الحب، وهي من أجل الوصول

إليه تفعل المستحيل، لكن يظل تصرفها دائما مغلفا بسياج محكم من الطهر،
والعفاف، والتمنع.

أما صفوان فقد حوله هذا الحب إلي كائن آخر. صحيح أنه منذ طفولته
وقبل أن يصل إلي سن البلوغ كان يحلم بأن تمتزج حياته بامرأة يحبها
وتحبه، وتخاف عليه ويخاف عليها، لكنه لم يتصور أن يتحقق هذا الحلم بهذه
السرعة، وأن يعثر علي فتاة جميلة، متعلمة، ومنفتحة علي الحياة تبادلها حبا
بحب، وأشواقا بأشواق، وفناء بفناء. يذكر صفوان أنه عندما كان عمره
خمس سنوات فقط مثل مع طفلة من سنه مشهد حب عند عتبة دارهم، وفي
هذه الأثناء مر عليهما أحد الجيران ووجدهما علي هذا النحو فانتهرهما بشدة
وفرّقهما، ثم مضى في سبيله وهو غارق في الضحك. الآن يشهد صفوان
قصة حب حقيقية ينطبق عليها ما جاء في قصيدة مشهورة لعباس محمود
العقاد مطلعها:

أبعدا نرجى أم نرجى تلاقيا	كلا البعد والقرب يؤجج ما بيا
إذا أنا أحمدت اللقاء فإني	لأحمد يوما لفراق أيادي
ليال يبيع الدل فيها زمامه	ويرخص فيها الشوق ما كان غاليا

وها هو الشوق يرخص ما كنت أراه مستحيلا. ولا يدري صفوان إلي الآن
ما الذي أنهى قصة حبه الأولي مع كوثر؟ وكيف انتهت؟ هل العرف الذي كان
ساندا في ذلك الوقت وهو الزواج من فتاة حاصلة علي شهادة جامعية تعمل
وتساعده في الخروج من دائرة العوز والفقر هو الذي أدي إلي انهيار العلاقة
مع كوثر؟ أغلب الظن أن الأمر كان كذلك، لاسيما وأن الأقدار تتحكم في
مصائرنا، وتدفعنا إلي اتخاذ قرارات لا نقبلها ولا نريدها، لكنها تفرض علينا.

وهكذا لم يبق من هذا الحب المتوهج بين صفوان وكوثر إلا هذه الذكريات التي مازالت تقتحم عليه عالمه إلى الآن، فيسأل نفسه: تري هل قصرت في حق كوثر أم هي التي قصرت في حقّي؟ ولو أن هذه العلاقة سارت في مجراها الطبيعي ولم تنقطع فجأة هل كانت ستغير أشياء كثيرة في حياتي؟

بعد تخرجي من الجامعة ارتسمت أمام عيني لوحة صنعت بدقة وإحكام كأنها رسم هندسي وضعه مهندس ماهر. تري ماذا أفعل؟ هل أعود إلي القرية انتظارا للتعيين معيدا؟ أم أبقى في القاهرة وأبحث عن عمل في أي مكان حتى ولو كان مدرسة خاصة؟ وقد سيطرت علي فكرة أن أظل في القاهرة، وأبني واقعا من الأفكار يتوازي مع الواقع الفعلي إن لم يزد عليه تحققا ورسوخا، لاسيما وأني كنت قرأت في عمل فلسفي أو روائي - لا أذكر جيدا - أن كل فكرة تحظى بتأثير واقعي يكون لها وجود، أي أنها تكون موجودة بالفعل، لأنها لا تهيم في الفضاء كأنها شبح بلا جسم، بل علي العكس من ذلك يكون لها جسم حقيقي: عينان، وقدمان، وبطن، وفم، وتغدو رجلا أو امرأة، وتمضي في هذا الطريق أو ذاك. هكذا قرأت اللوحة الهندسية وتفاعلت معها علي هذا النحو، وبدأت خطواتي الأولى لتحقيق ما ورد فيها.

سألت الكثيرين من الزملاء والأصدقاء عن خطتهم في البحث عن عمل، فوجدت أن بعضهم عملوا بالفعل مصححين في بعض المجلات، وكانت المجلات آنذاك منتشرة، وبعضهم التحقوا بمدارس خاصة، وبعضهم تخصصوا في إعطاء دروس خاصة لطلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية. كانت المدارس الخاصة في ذلك الوقت سينة السمعة ولا يدخلها إلا الطلاب الفاشلون الذين لا يستطيعون الالتحاق بالمدارس الحكومية، لكنني وجدت أنها الأماكن الوحيدة التي يمكن أن أجد فيها عملا. دلني أحد الأصدقاء علي مدرسة راغب مرجان في ميدان رمسيس، وبما أنني أسكن في منطقة الزيتون فسوف يكون الوصول إليها سهلا بركوب قطار المرج.

توجهت فعلا إلي المدرسة وقابلت الناظر الذي استقبلني مرحبا وهو جالس أمام مكتبه. نظرت إليه فوجدته فارح الطول، متين البنیان، وجهه أقرب إلي الطول منه إلي الاستدارة، وشعره أسود أجعد مع أن وجهه قمحي، عيناه تتمترسان خلف نظارة غامقة، وأذناه كبيرتان إلي حد ما لكنهما تنسجمان مع باقي تقاطيع وجهه. قلت له: أنا متخرج حديثا من كلية دار العلوم، ولدي استعداد لتدريس مادة اللغة العربية. وافق حضرة الناظر علي الفور وأعطاني جدولا، واتفق معي علي أن يكون الأجر بالحصة. لم أبد أي اعتراض، لأن الموافقة في حد ذاتها كانت مفاجأة لي.

وهكذا توزعت حياتي بين منطقة الزيتون ومدرسة راغب مرجان، وقراءة الكتب الأدبية والنقدية والفلسفية. وكانت كتب الفلسفة تستهويني، وتشدني صور الفلاسفة وأفكارهم ومذاهبهم سواء كانوا من الإسلاميين أم من فلاسفة الغرب القدماء والمحدثين. وأذكر أنني قرأت كتاب " الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة " للدكتور عبد الفتاح الديدي مرات عديدة، وتوقفت كثيرا عند شرحه لفلسفة العقاد استنادا علي عدد من كتبه التي قرأتها باهتمام شديد. هل كانت تصرفاتنا في ذلك الحين تمثل واقعا يمكن تحقيقه؟ أغلب الظن أن الأمر كان كذلك، والدليل علي هذا أن كثيرين منا سلكوا هذا الطريق سواء في العلم أو في الثقافة أو في الأدب. ترى لماذا أخني علينا الذي أخني علي لبد وسقط كل شيء من حالي؟

في منطقة الزيتون سكنت، مع زميل لي، في بيت قديم مكون من أربعة أدوار. كانت الشقة صغيرة، تتكون من ردهة قصيرة وحجرتين، جعلنا من إحداها مكانا للنوم والأخرى للجلوس، إضافة إلي مطبخ، وحمام، وشرفة

محدودة جدا لكنها تمكننا من رؤية الشارع، ومتابعة الحركة التي لا تتوقف في أي ساعة من ليل أو نهار. كان منظر البيت رماديا كالحا لكنه أفضل بكثير مما هو موجود في مناطق أخرى. أما المنطقة نفسها بشوارعها وتخطيطها ومساكنها فهي تدل علي مجد غابر وفترة رفاهية وازدهار حضاري لا يستمر في بلادنا لفترة طويلة. فالمساكن الرمادية الكالحة تنتصب جنباً إلى جنب مع بعض الفيلات التي أقيمت هنا ذات يوم وسكنها عليا القوم من الطبقات الراقية، لكن هذه الفيلات تحولت بفعل عوامل كثيرة إلي مجرد أبنية هجرها أصحابها وانتقلوا إلي أماكن أخرى أو سافروا إلي الخارج ولم يعودوا، ولذلك تجد المبني مهجورا، والجنيئة التي كانت تزينه ذات يوم صارت أطلالا ليس فيها إلا جذوع بعض الشجر الذي استعصى علي الاندثار. وكانت هناك فيلات تعيش فيها بعض الأسر، لكنها بفعل تحولات الزمن صارت مثل الشيخ الطاعن في السن الذي ولي شبابه وانقضي منذ زمن طويل.

من هذه الفيلات المسكونة فيلا لأسرة أحد أصدقائنا قررنا أن نلتقي فيها كل أسبوع. نجلس في مبني صغير ملحق بالفيلا، ويلقي الشعراء منا بعض قصائدهم، ونتبادل الكتب، ولا مانع من أن نمشي في الجنيئة الباهتة المحيطة بالفيلا نتأمل الأشجار التي بقيت بها وإن كانت قد تحولت إلي كائنات مترهلة مثل امرأة عجوز طاعنة في السن تضخمت طولاً وعرضاً، وأفرطت خصبا وشحما. ولا أدري لماذا كنت أتخيل هذه الأشجار وكأنها المرأة العجوز التي تجلس عند مدخل البيت الذي أسكن فيه وعجيزتها تمتد خلفها مثل قربة مملوءة بالمياه، وإذا نهضت قامت بصعوبة بالغة، بل إنها في معظم الأحوال تحتاج إلي من يسندها، ويشد من أزرها. لكن الأشجار – علي أية حال – هي الأشجار مهما ترهلّت أو كبرت. ولهذا كنت أتطلع لأشجار السرو،

والجزورين، والكافور، والنخيل، والتوت، والجميز، والجوافة، والعنب، والفيكس وغيرها، وأقول في نفسي: لا جرم أن هذه الأشجار قد أصابها حزن شديد بعد وفاة الأب الذي قام بزرعها، وتعهدها بالرّي والاهتمام، بل ربما استأجر لها بستانيا يقوم علي شئونها، ولذلك فإنها مازالت محلقة في السماء متحدية عدم الاهتمام وعدم الرعاية من قبل أبنائه. فما بالك بالأحفاد!!.

لم يجذب انتباهي في منطقة الزيتون تمدد القمامة عند نواصي الشوارع، والحفر والمطبات في كل مكان، والأوراق التي تتطاير هنا وهناك، فهذه أشياء تعودت علي رؤية ما هو أشنع منها سواء في القرية أم في بعض الأحياء الأخرى بالقاهرة. كان كل همي أن أقضي الأيام والليالي في هدوء وسكينة، وأن أقتات ببعض ما أقدر عليه، لأن الحياة بالنسبة لنا في ذلك الوقت كانت غالية جدا، ولذلك كنت في بعض الأحيان أخرج إلي الشارع، وأركز اهتمامي علي العربات التي تباع سندوتشات الكبة أو الحواوشي أو اللحوم المفرومة وأختار منها ما يتناسب مع دخلي القليل، ثم أعود إلي المسكن وقد داخلني إحساس بأنّي حققت الليلة أمنية صعبة التحقيق. فهل كتب علينا نحن شباب العالم الثالث المتخلف أن نعاني دائما من ضيق ذات اليد؟ لكن أبناء جيلي ينبغي أن يحمّدوا الله. فرغم ضيق اليد كان لديهم آمال يرجون تحقيقها: بالوظيفة، أو بالسفر بطريقة شرعية للخارج أو غير ذلك. أما شباب الجيل الحالي فهم الذين يعانون أشد المعاناة: فقر، وإحباط، وعدم قدرة علي التحقق، ولذلك يغامرون مغامرات غير محسوبة، متوجهين إلي أوربا في قوارب للموت لا للحياة، وقد تحول البحر المتوسط إلي مقبرة لهم يمكن أن تحتضنهم وتخلصهم من الظلم والقسوة التي يعاملهم بها حكامهم وبنو

جلدتهم. فهل وصل العالم الثالث إلى حالة الانهيار التي كان يحلم بالخروج منها؟

في مدرسة راغب مرجان اصطدمت لأول مرة في حياتي بطلاب كانت البصمة الواضحة علي وجوههم هي الفشل والعفرتة وعدم الرغبة في تحصيل العلم. كنت أنظر إلي الواحد منهم فأراه إما شحطاً، كثير الدسم، وإما قميئاً لا يملك من فنون الحياة إلا المكر والاحتتيال. ولذلك كنت أقول لنفسي: أي حظ عاثر أوقعني في هذا المكان!! وذات يوم طلبت مني إدارة المدرسة أن أضم فصلين بسبب غياب مدرس اللغة العربية الآخر، وكانت الطامة الكبرى في أنني عجزت عن السيطرة علي الطلاب لأن عددهم تجاوز المائة، فساد الهرج والمرج في الفصل، وفوجئت بحضرة الناظر يدخل الفصل بعصاه الطويلة وهو يلوح بها في الهواء، ويتوعد الطلاب بالعقاب الشديد. وقد نظر إلي بامتعاض شديد. في هذه اللحظة أدركت أن الناظر لن يجدد لي للعام القادم، فدعوت الله أن ييسر الأمور في الجامعة وأحصل علي حقي بالتعيين معيدا.

وعلي الرغم مما لاقيته من عنت وعناء في مدرسة راغب مرجان إلا أنني كنت دائما أحمل في أعماقي إيمانا راسخا بأن السعادة شيء بسيط جدا وأنها يمكن أن تتحقق في كوب من الحليب تشربه في الصباح، أو ضحكة صادرة من القلب مع شلة من الأصدقاء، أو نظرة إلي امرأة جميلة تزلزل كيائك، أو الاستمتاع بمنظر طبيعي جميل والعصافير ترقز علي الشجر وتنقل في خفة وحرية من مكان إلي مكان. وكنت دائما أتذكر مقولة لكاتب فرنسي درسنا نصا له في المرحلة الثانوية جاء فيه: "الحياة هي أن تعثر علي السعادة ولو علي سرير من العشب".

وجاءت اللحظة التي نقلتني من عالم مدرسة راغب مرجان الضيق الكئيب إلى عالم أرحب وأجمل. فقد حدثني زميلي مدرس الجغرافيا والتاريخ بأن أسرة من أقربائه تسكن في العباسية، وعندهم طالبة في الثانوية العامة يريدون إعطاءها دروساً خصوصية في مادة اللغة العربية. رحبت بالفكرة واتفقت معه علي المواعيد وثمان الحصص. وفي اليوم المحدد ذهبت في المساء إلى العباسية. كانت الأسرة تسكن في شقة متوسطة بعمارة من خمسة أدوار، في شارع ضيق لكنه نظيف مقارنة بالأحياء الأخرى. طرقت الباب ففتحت لي فتاة سميئة تميل إلى القصر، ومنظرها في الأغلب لا يدل علي أنها من سكان هذا الحي العريق. جلسنا علي طاولة في المدخل الضيق، وبدأنا مهمتنا علي الفور. بعد نصف ساعة تقريباً أطل علينا وجه يقول للقمر قم وأنا أجلس مكانك. هكذا كان أهل قريتنا يصفون المرأة الجميلة. تقدمت منا وهي تحمل صينية الشاي، وقدمت نفسها لي قائلة إنها طالبة في السنة الرابعة بمعهد الخدمة الاجتماعية. نظرت إليها مبهوراً وأنا أقول لنفسي: أيها الحظ العاثر لماذا أوقعتني في حبال امرأة مازال أمامها سنوات طويلة للنضوج، وضننت علي بهذه الجميلة المتوثبة الناضجة؟! تمنيت أن تسكن للحظات حتى أتمكن من تأملها وأغوص فيما وراء المشهد الخارجي. وجدتها امرأة رشيقة القوام، ممتلئة الجسم لكن في غير ترهل، ترتدي قميصاً شفافاً، فوقه بلوزة بلا أكمام، ملونة بطريقة منسجمة تسر الناظرين، وساقاها الرشيقان تغطيهاا للركبة جونلة ملونة تزيد هذا القوام الممشوق سحراً وفتنة. وعندما جلست للحظات تحدثني عما تحتاج إليه أختها لم أنتبه لما قالت به بقدر ما انتبهت لمنطقة ما تحت السرة، حيث لاحظت وجود بعض النتوءات البسيطة الممتدة بعرض هذا

الجزء الأمامي الفياض الذي ينم عن سحر أنثوي يثير شهية الرجل. أما شعرها فقد أرسلته علي كتفها فبدأ شديد الانسجام مع الوجه اللؤلؤي الجميل، دقيق الملامح، المفعم بابتسامة طبيعية تنعكس علي الغمازة الرقيقة المحفورة في الجانب الأيمن من الوجه. والذراعان طفق يطل منهما بريق يخطف النظر لدرجة أنني منحتهما اهتماما يساوى الاهتمام الذي أعطيته للجسم برمته. وقد بدت لي العينان وكأنهما شرفتان يخرج منهما بريق أنثوي ساحر ذكراني ببיתי بدر شاكر السياب المشهورين:

عينك غابتا نخل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

ولا أدري لماذا أدركت علي الفور أن هذه المرأة ليست لي. كان الفارق بيني وبينها واسعا، والهوة كبيرة لا يمكن ملؤها بسهولة: فأنا ريفي مازلت أتدحرج في منحدرات الفقر، وأعاني من شظف العيش، وأحتاج إلي قدر من المال يردم الحفرة التي قد أسقط فيها قبل أن أصل إلي هذه الفتاة الجميلة الساحرة .. صحيح أنني فارغ الطول، متين البنیان، ذو وجه متائق يميل إلي الشقرة، ولامح منسجمة، ولدي إحساس داخلي بأني صاحب مستقبل واعد، ولكن كل هذا لا يكفي لكي ينتشلني من حالة الاضطراب والقلق والفوضى والتوهان التي تطل من عيني. أما هي فمن الواضح أنها نشأت في جو مختلف، وتربت تربية مختلفة تمنح الثقة، وتقيم سدا يمنع جحافل الإبهام والتعمية من اقتحام عالمها.

لهذا بحثت مرة أخرى عن الجدار الذي أحتمي به في مثل هذا الموقف الصعب، والمتمثل في تلك المقولة الفلسفية: "إن كل فكرة تتمتع بتأثير واقعي يكون لها وجود"، وقلت في نفسي: تكفيني رؤيتي لهذه الفتاة الجميلة، التي قد لا أراها مرة أخرى، أو لعلها تضطر بين الحين والآخر أن تتخطي المدخل الذي نجلس فيه لأنها لا مخرج لها إلا من هنا. راقت لي هذه الفكرة وقلت في نفسي: يقولون إن الإنسان يمتلك حرية كاملة، فهل هذه هي الحرية الكاملة؟ أم أن الحقيقة والواقع هي أن الإنسان قد كتب عليه أن يصرع في كل الاتجاهات، وأنه إما أن ينتصر علي كل المعوقات أو يخسر صريعا، وفي هذه الحالة سوف يتخلي عنه كل معاونيه من البشر، وكل ما يستند إليه من جدران نفسية كانت أو اجتماعية أو ميتافيزيقية.

وفي هذا الظرف المتأزم كان لابد أن ألجأ إلي الحلم، وتذكرت بيتا مشهورا للمجنون يقول:

أريد لأنسي ذكرها فكأنما تمثل لي ليلي بكل طريق

وتمنيت أن يقع بيني وبينها شجار مثلما حدث لجميل مع بثينة في وادي بغيض، وعنه قال جميل:

وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يا بثين سياب

وهذا السباب هو الذي جعل كلا منهما يهيم بالآخر، ويتفاني في حبه علي النحو الذي قرأناه في ديوان جميل.

وهكذا نزعت إلي الوقوع في هذا الوهم قائلا لنفسي: إن الأوهام التي نحسبها مستحيلة التحقق يمكن أن تصير واقعا في أي لحظة حتى لو كانت علي طريقة الشاعر نوفاليس الذي خاطب حبيبته قائلا:

" ليت لهب روحك يلتهم جسدي،

ليتني أبقى معك في عناق سماوي،

وليت ليلة عرسنا تدوم إلي الأبد."

صحيح أن نوفاليس كان يمتلك حبيبته بين يديه، لكن حلمه كان داخلا في المستحيل، لأن الحياة في عرف هؤلاء الشعراء، وفي عرف العلماء الآن، ليس فيها مستحيل.

انتهت فترة التدريس، وفوجئت في آخر يوم بالفتاة الجميلة التي لم أعرف اسمها إلي الآن تخرج من حجرتها وتأتي لتسلم علي وتشكرني علي ما بذلته من جهد مع أختها. أحسست أن عينيها تريدان أن تقولوا شيئا، وغمرني شعور بأنها ودت لو مدت إلي حبلا من نغم، لكن عقبة من المستحيل وقفت دون ذلك. قلت لها: سعدت بمعرفتك، فردت في صوت مفعم بالعقبات: ربما نراك مرة أخرى. لكنني ومن الأعماق توقعت أنني لن أراها أبدا بعد هذا اليوم فتمثلت قول الشاعر:

مني إن تكن حقا تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

نزلت من الشقة واندمجت مع الناس في الشارع المزدهم، وهم لا يعلمون أنني لا أحس بهم ولا أجاوب معهم لأنني مازلت أهيمن في جبل يشبه جبل التوباد الذي هام فيه المجنون. وقلت في نفسي: قد أكون آخر المحبين الذين هاموا بامرأة بعينها لكنها لم تبادلهم حبا بحب: بترارك، ودانتي، وجارثياسو دي لافيجا، أو بادلتهم الحب لكن العقبات حالت دون تحقيقه مثل المجنون، وجميل بثينة وكثير عزة وغيرهم. فالحياة مثل النار التي تلسعك بلهبها وتتركك تعاني وتتألم، وتنقلب علي جنبك لعلك تجد لنفسك مخرجاً، لكن المخرج أحيانا تكون كلها مسدودة، والأجواء غائمة. وقد تفتح الأبواب في وقت ما لكن في مكان غير المكان، وفي زمان غير الزمان. إنه إذن قدر

الإنسان الذي لا فكاك منه. أو قل إنها دقة المعاني في الحب، علي نحو ما قال ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة": "دقت معانيه لجلالته عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة".

أحيانا يكون المرء في حاجة إلي الجنون، ومع ذلك كان سلفادور دالي يقول عن نفسه: "الفرق بيني وبين المجنون أنني لست مجنوناً". لا جرم أن هذه هي الحالة التي انتابتنني في أول يوم من أيام الدراسة. فقد كان شغلي الشاغل هو البحث عن سناء المهدي. توجهت أولاً إلي مدرج السنة الثالثة حيث أقوم بتدريس مادة الأدب العباسي ساعتين كل أسبوع. وما إن انتهيت من المحاضرة حتى توجهت إلي مدرج الفرقة الرابعة. سألت إحدى الطالبات عن سناء المهدي فجرت نحوها تبلغها أن الدكتور محمد صفوان يسأل عنها. حضرت سناء بسرعة وهي تمشي بخطوة واثقة وكأنها قمر يتهادي. داخلني إحساس للوهلة الأولى بأنها فائقة الجمال قواماً وهينة وحضوراً أنثوياً مبهرًا. وجه منسجم الملامح، وابتسامة فرح واضحة ترتسم علي محياها، وشعر يختفي تحت حجاب شفاف يزيدها جمالاً وتألقاً. وكان من الواضح أنها لم تتصور أن الأستاذ الذي كتبت له رسالة غزلية في ورقة الإجابة يأتي بنفسه ليسأل عنها.

سلمت عليها وقلت لها أريد أن أراك اليوم. أجابت: هل تناسبك الساعة الخامسة في كافيتيريا تطل علي البحر – هكذا يسمونه – وصفتها لي جيداً. وافترقنا علي موعد للقاء. وفي هذه اللحظة تذكرت بيتين لجميل بن معمر عن بئينة بقولان:

هي البدر حسنا والنساء كواكب وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا علي الناس مثلاً علي ألف شهر فضلت ليلة القدر

كان هذا هو انطباعي عن أول لقاء سريع حدث بيننا. ومن المؤكد أنني لم أحتج إلي تدبير أو وضع شبك أو غير ذلك مما يحدث في العادة مع النساء لأن الطريق كان ممهدا.

غادرت الكلية وأخذت طريقي المعتاد، حيث مررت علي الحفرة الواسعة التي يمكن أن تسقط فيها سيارة كاملة، وفي هذه اللحظة قلت لنفسني: لو أن هذه الحفرة موجودة في بلد متقدم لأدت إلي سقوط حكومة كاملة، ولكن بالنسبة لشعبنا يبدو أن مثل هذه الأشياء لم تعد تثير فضوله أو انتباهه، لأنها في نظره مجرد شيء بسيط إذا تمت مقارنته بالصعوبات الكثيرة التي تكتنف حياته. ويبدو أن المصريين متعودون علي ذلك منذ زمن طويل. وقد قرأت كتاب " بدائع الزهور " لابن إياس ووجدت أحداثا تشيب لها الولدان، لدرجة أن ثروة الحاكم كانت تصل، في بعض الأحيان، إلي ما يعادل الدخل القومي للبلاد، أي أن فردا واحدا أو أسرته كانوا يمتلكون نصف ما يدخل للبلاد. ومع ذلك كانت الخيرات في مصر تتدفق علي نحو سرمدى. وهذا ما أكده أبو الطيب المتنبي عندما قال:

نامت نواظير مصر عن ثعالبها فقد بضمن وما تفني العناقيد

أخذت أنظر إلي أكوام القمامة المبعثرة علي جانبي الشارع حتى وصلت إلي الشارع التجاري. كانت المحلات الكبيرة المشهورة مازالت واجهاتها مفعمة بالحياة والنشاط والقوة: شركة بيع المصنوعات، وصيدناوى، وبنزايون، وهانو، وعمر أفندي وسواها. وأعتقد أنها لم تتصور أبدا أن يأتي عليها وقت يبيعها فيه سماسرة الحكم للمغامرين وشذاذ الأفاق ليتركوها قاعا صفصفا لا تري فيها عوجا و لا أمتا. ومن العجيب أنهم فعلوا ذلك ببرود لا

مثيل له، مثلما فعلوا مع القلاع الصناعية الكبرى التي أقامتها ثورة يوليه 1952، حيث تركوها تسقط من تلقاء نفسها وكأنما لم يكن هناك شعب ضحي بحياته وثروته من أجل إقامة هذه القلاع.

ظللت أمشي حتى وصلت إلى قلب السوق الشعبي. وكان ثمة دافع يجعلني أتوقف عند بائع اللحوم المجمدة التي لم أعود عليها أبداً في أي فترة من فترات حياتي. فوالدي، رحمة الله عليه، كان يشتري اللحم من جزار معين، يلفها له في ورق سميك، بعناية بالغة، يدخل الوالد علينا، ويفتح الورقة قاتلاً للوالدة: انظري إنه لحم ملبس بقطع بيضاء تسر الناظرين، وتجعل للحمة طعماً. كان دائماً يكرر هذه الجملة وكأنها لازمة من لوازم شراء اللحم. أما هذه اللحم المجمدة التي تقطع بسكين حادة فلم أتخيل قبل ذلك أنها موجودة، وأن ثمنها عشر ثمن لحمة الجزار أو أكثر قليلاً من العشر، وأن الناس تقف طوابير أمام البائع لشرائها، وبالتالي فإن هذا البائع محظوظ لأنه يتخلص من بضاعته في وقت قصير. وكانت البضائع الأخرى رخيصة الثمن أيضاً سواء من الأسماك أو اللحوم البيضاء التي تباع هياكلها العظمية، وأجنحتها وأرجلها، فضلاً عن الكرشة و الممبار والطحال وما إلى ذلك من حوايج الحيوانات المذبوحة.

تجولت في السوق علي النحو الذي أفعله في العادة. وكان هذا التجول يذكرني بالتجول الذي أقوم به أحياناً في مقابر الغفير، ومقابر الإمام الشافعي والبساتين في القاهرة. فعُلتُ ذلك علي سبيل المثال يوم وفاة نجيب محفوظ. وفي بداية الثمانينيات، بعد عودتي من البعثة، تجولت مع أحد الكتاب الأجانب في مقابر الغفير، وكنت ألاحظ أنه شديد الحرص علي معرفة التفاصيل، والتنقيب عن حياة سكان المقابر، لدرجة أنه كان يحمل كاميرا تصوير

سينمائي يلتقط بها هذه المشاهد الغريبة التي لا توجد إلا في مصر، ثم يجمعها في فيلم توثيقي يعرض في مواقع شتى من العالم.

وجاءت ساعة الجلوس بالمقهى: طلبت في البداية شيشة وكوبا من الشاي، أما ثالث الثلاثة فهو النظر إلي الجالسين في المقهى وأمامه، وتأمل المارة: هياتهم، وعاداتهم التي لا تخلو من قبح مثل البصق في أي مكان، و الصخب، و الضجيج، وهذه عادات لم أرها في الخارج. وأحيانا تنشب معركة حامية بين هذا الشخص وذاك، تستخدم فيها أعظم الشتائم، وتكال فيها كل أنواع التهم بما في ذلك التعدي علي حرمان الأب والأم أو الحرمان الشخصية. ولأن هذه المشاهد تتكرر باستمرار فإنها لا تثير العجب أو الاشمئزاز، وكأنها صارت جزءا طبيعيا من الحياة اليومية الصاخبة. وكان لابد أن تطول جلستي علي المقهى في ذلك اليوم لأن الموعد متأخر نوعا ما. لذلك تخلت عن السفر مع الزملاء وأنا في غاية السعادة لهذا التخلف المقصود الذي لا يمكن مقارنته بالهدف المنشود.

وفي الساعة الرابعة والنصف مساء تحركت نحو الكافتيريا التي وصفتها لي. مشيت في الطريق ببطء شديد أتأمل الناس وأحوالهم، وإن صار ذهني مشغولا باللقاء المرتقب. وصلت في تمام الساعة الخامسة وانتقيت مكانا خاليا داخل الكافتيريا. ولم أكد أجلس حتى وجدت سناء قادمة. تأملتتها وهي تمشي فوجدتها مثل غصن البان، وتأملتتها وهي تمد لي يدها فوجدتها مثل القمر في ليلة التمام والكمال، وتأملتتها وهي تجلس فوجدت صورة من الحضور الأنثوي الذي ينشر البهجة ويطلق آيات السحر والجمال.

بدت لي سناء المهدي امرأة لا مثيل لها في قدها واعتدالها وحسنها وجمالها، مليحة الوجه، رجيحة القوام، أسيلة الخد، قائمة النهد، دعجاء العينين، بيضاء الأسنان، حلوة اللسان، ظريفة الشمائل، بديعة الصفة، خمراء الشفة، عيونها مكحولة، وشفايفها رقيقة، علي خدها الأيسر شامة، وعلي بطنها من فوق سررتها علامة. نحيلة الخصر، ثقيلة الردف، طويلة العنق، وخدودها مثل شقائق النعمان، وثغرها لامع البريق، مليحة القوام، حسنة الابتسام، ذات طرف أحور، ووجه أقمر، وجبين أزهر، وصدر كأنه من جوهر نفيس، ونهدين كأنهما رمانتان، وبطن مطوية الأعكان، وسرة تبدو مثل حق عاج ملئ بالمسك الفواح، وفخدين كأنهما من المرمر.

لا أدري لماذا ركزت النظر في سناء المهدي بهذه الطريقة لدرجة أنني كنت غافلا عن كل ما يدور حولنا، بل إنني لم أعط للقاء أهمية تعادل هذا الاهتمام بالمظهر العام. ولا جرم أنني كنت محقا في ذلك، إذ لم أتوقع أبدا أن سناء المهدي تملك هذه الأنوثة الطاغية، وهذا القد المعتدل، وهذا الوجه الصبوح. ولم يكن لي في تجاربي السابقة ما يدل علي أن امرأة بهذا الجمال يمكن أن تقع في شرك حبي. صحيح أن هناك نساء جميلات أحبينني، لكن جمالهن لم يكن طاغيا علي النحو الذي أراه الآن في سناء المهدي. ولذلك كان أول سؤال سألته لها عن أسرتها، فقالت لي إن والدها موظف كبير في وزارة الحكم المحلي، وإنهم يعيشون في فيلا واسعة تقع علي شاطئ البحر. سألتها: لماذا اخترت إذن قسم اللغة العربية لتلتحقي به؟ فقالت إن اختيارها نابع من أنها منذ بداية حياتها التعليمية كانت تحب الأدب والثقافة، وإنها وهي طالبة في المرحلة الثانوية قرأت لكبار الكتاب مثل طه حسين، وعباس محمود العقاد، وأحمد لطفي السيد، ومصطفى صادق الرافعي، وتوفيق الحكيم،

ونجيب محفوظ وسواهم. وقد كان هؤلاء هم الرموز والعلامات البارزة في حياتها، ولذلك أرادت أن تواصل هذا الطريق فالتحقت بقسم اللغة العربية. قلت لها: لكن ألسنت تلاحظين أن أساتذة الجامعة الآن ليسوا علي مستوى أساتذة أمس؟ قالت: نعم هذا شيء واضح جداً. فالأستاذ حالياً لا يهتم إلا كتابة مذكرات سريعة أو مسروقة يبيعه للطلاب أو الطالبات بأعلى الأثمان، ثم إنهم لا يهتمون بوضع تلاميذهم علي طريق المعرفة والبحث، لأن كل ما يهتمهم هو التأكد من أن الجميع اشتروا المذكرات، ولذلك يطبعون ورقة بهذا الشأن يوقع عليها الطلاب تدل علي أنهم قاموا بما هو مطلوب منهم. ومن هنا كنت أنت الأستاذ الوحيد الذي خلق بنا في فضاء المعرفة والفكر والثقافة. ولما كان هذا هو هدفي الأساسي من دخول الجامعة لم أستطع أن أتخلص من سيطرتك علي دماغي وعقلي. وظل هذا الموضوع ينمو ويتفاعل حتى تحول إلي حب جارف.

كنت أحدث مع سناء المهدي وأنا لا أكف عن النظر إليها وكأنني أدور في دائرة سحرية مليئة بالظلال، مغلفة بالقوافي، ممزوجة بالمشاعر الفياضة، والأحلام المنطلقة، والدوائر المبسوطة علي مساحة واسعة من فوائض القرب والتوله والانبهار. سألتها: من أين أتيت بهذا الجمال؟ لم أتصور أبداً أنك كذلك. قالت: وأنا لم أتخيل أبداً أن أعثر علي إنسان مثلك. قلت لها: لكن ألا تشعرين أن طريقنا يمكن أن يكون محفوفا بالمخاطر؟ قالت: هذا وارد، ولكنني مازلت أذكر جملة قالها زوربا اليوناني لرئيسه هي: "ماذا ينقصك؟ إنك شاب، ولديك المال بسخاء، ولديك العقل والقوة والصحة، كما أنك إنسان خير. لا شيء إذن ينقصك، أنت لا تحتاج إلي شيء، ولا شيء عندك يأخذه الشيطان! ولكن هناك شيئاً واحداً أنت بحاجة إليه، هو الجنون، وطالما أنك

تفتقر إلي الجنون يا ريس ... " وقد علق الرئيس علي ما قاله زوربا بأنه كان صحيحا. وأكملت سناء المهدي قائلة: الجنون يا عزيزي هو أحد المبررات لكي نعيش هذه الحياة كما ينبغي.

بهرتني ثقافة سناء المهدي مثلما بهرني جمالها، ولولا أننا كنا في مكان عام لطبعت علي ثغرها الرقيق أول قبلة. وبما أن هذه لم يأت أوانها بعد فقد غادرنا الكافتيريا وتوجه كل منا إلي سبيله بعد أن اتفقنا علي أن يكون لقائنا كل أسبوع في هذا المكان في الساعة الخامسة مساء. كانت لحظة الوداع لا تقل انفعالا وتأثرا عن لحظة اللقاء. نظرت إلي سناء المهدي وهي تخطر في مشيتها مثل قمر يمشي علي الأرض، وكانت هياتها من الخلف لا تقل صفاء وتألقا من هياتها وهي مقبلة .

في أول محاضرة في "الأدب العباسي" دخل علينا الدكتور محمد صفوان عبد الخالق مرفوع الهامة، تبدو علي وجهه أمارات الجدية والالتزام. قال لنا إنه لن يعطينا مذكرة في مادته، وإنما سوف يستعيض عن ذلك بكتاب مشهور للدكتور شوقي ضيف، مكون من جزأين ومنشور في "دار المعارف". وكان هذا - بالنسبة لي - أول انطباع إيجابي تجاه الدكتور صفوان. فمن الواضح أنه مختلف عن باقي الأساتذة، وأنه غير مشغول بجمع المادة. كان عددنا كبيرا (حوالي ثلاثمائة طالب وطالبة)، ومن المؤكد أنه لو أعطانا مذكرة تباع بأضعاف تكلفتها الحقيقية فسوف يكسب مبلغا كبيرا. لكن من الملاحظ أن المادة لا تشغل باله، ومن ثم فإننا ننتظر من هذا الأستاذ أن يحلق بنا في فضاءات الأدب العباسي والأدب العالمي، لاسيما وأنه حصل علي الدكتوراه من فرنسا، ويعرف عدداً من اللغات الأوروبية.

لا أدري لماذا انشغلت بمنظر الدكتور صفوان من أول يوم، فهو طويل القامة بدون إفراط، عريض الكتفين، واسع الصدر، لطيف المنظر، حسن الهيئة، ذو وجه مليح القسمات، عريض الجبهة، واسع العينين، مع حدة وذكاء، أقني الأنف، بارز الذقن، خفيف العارضين، أسود الشعر، لا ينفك وجهه يبتسم مع كثير من الوقار، يلوح بيده أثناء الشرح، وينقل عينيه ذات اليمين وذات اليسار في نوع من التفاعل مع كل الطلاب والطالبات الجالسين أمامه. شدني كثيرا شرحه لوضع الجوارى في العصر العباسي الأول، حيث كان الجوارى - كما ذكر ابن عبد ربه في " العقد الفريد - يهدى النفاح إلي من يكلفون بهن أو يتعلقن هن بهم، وكن يضعن عليه أثر أخذه بأفواههن،

وقد يفلجنه ويشققنه بالمسك وغيره من أنواع الطيب، وقد يكتبن عليه بعض أبيات رقيقة، تصور صوابتهن. ومن أخبار الخليفة المهدي أن جارية من جواريه أهدت إليه تفاحة وطيبتها وكتبت عليها:

تفاحة تُقطف من خدي

كأنها من جنة الخلد

هدية منى إلي المهدي

محمرة مصفرة طيب

وكان الدكتور صفوان - في بعض الأحيان - ينتهز فرصة هذه الأخبار وهذه الأقوال ليخاطب تلاميذه قائلا إن الحضارة العربية الإسلامية لم تشهد فترة من التزمت والتشدد والتعصب والتخلف أخطر من الفترة التي نعيشها حاليا. كانت الحياة سهلة و بسيطة تخلو من التعقيد والتزمت. وحتى هذه البساطة كنا نعيشها ونحن أطفال في أواخر الخمسينيات، ثم ونحن في مراحل التعليم في الستينيات. كنا نرى المرأة تساعد الرجل في الحقول، وكنا نراها تشارك في الحياة بكل طاقتها طالبة وموظفة وربة بيت ومساهمة في الحياة الاجتماعية. ولا شك أن الدكتور صفوان كان يقول هذا الكلام وهو ينظر إلي عدد كبير من الطالبات المنقبات، وعدد أكبر من المحجبات، ولم يكن لديه أي اعتراض علي الحجاب لأن الإسلام دعا إليه بالفعل، بل إنه كان ينظر إليه علي أنه مظهر من مظاهر تجمل المرأة: فالجميلة تزداد جمالا، أما متوسطة الجمال أو غير الجميلة فإنه يظهر محاسنها ويخفي بعض مساوئها. أما النقاب فكان يراه عادة اجتماعية سيئة انتهزها المتشددون القساة ليعلموا بها سيطرتهم علي تصرفات المرأة. ولو أن النقاب كان فرضا أو واجبا لفرض في حالة الطواف بالكعبة المشرفة. لكن ما حدث هو العكس تماما: فالمرأة مطالبة

بالكشف عما يظهر منها مثل الوجه والكفين عند الطواف وإلا وجب عليها عند اللجوء إلي النقاب أن تجبر ذلك بدم.

وكان بعض الطلاب المتشددون يدخلون مع الدكتور صفوان في حوار ولديهم أدلتهم التي حفظوها من جماعات التشدد الموجودين في كل مكان أو من الكتب الصفراء المنتشرة والتي حلت محل الكتب الفكرية والأدبية والثقافية. ولم يكن الأستاذ يفعل، أو يرد بطريقة فيها غطرسة واستعلاء، أو يستخدم سلطته في قهر الطالب ويجبره علي السكوت، وإنما كان يتحاور بروح العالم المثقف قانلاً لهذا الطالب وأمثاله: لاشك أن آراءك تعجبني ولكني أختلف معك، ويضيف: لا أحب أن يكون الواحد منكم إمعة، بل علي العكس لابد أن يكون له رأيه وموقفه. وهذا هو الأساس في التعليم الجامعي. ليست الجامعة مجرد تلقين وحفظ للمقررات بل هي بناء للشخصية واتخاذ موقف من الحياة وما يدور في المجتمع، ورؤية واضحة قوية، وحوار مع الآخر. وكل ما عدا ذلك يمكن تحصيله بسهولة.

وفي حوار آخر من هذا النوع قال الدكتور صفوان: إن كل شيء في حياتنا أصبح حراماً: المرأة مطالبة بأن تخفي زينتها وكأن الجمال سبة ونقيصة يجب الحرص علي إخفائه، ووجه المرأة عورة، وأي شيء يظهر منها عورة، وصوتها عورة، وعيناها عورة. ولبدر شاكراً السياب أبيات جميلة عن عيون المرأة مطلعها:

عينك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأي عنهما القمر

وكان الشعراء العرب قديماً يشبهون عيون المرأة بعيون المها. والأبيات في ذلك لا حصر لها. أين نحن الآن من هذا التراث الإنساني الخالد؟ وإلي أين وصلنا؟ أخشى ما أخشاه أن يأتي وقت ننظر فيه إلي المرأة علي أنها كائن منبؤ ما كان ينبغي له أن يُخلق. وفي هذا الشأن قال الدكتور صفوان، فيما يشبه الاستدلال العكسي: إن ديستويفسكى كان يكره المرأة التي لا تستطيع إثارة الدافع الشعري في نفسه، وكان يخافها، يفر منها، ويزهد فيها، ولا يتوق إليها، ويطلق عليها " شيطان الظلام". وكان جوستاف فلوبير يقول إن المرأة ليست حارسة النوع فقط، بل إنها يجب أن تكون حارسة الجمال، وباعثة الوحي والإلهام". ويضيف فلوبير: " إن المرأة التي لا أشعر بالقرب منها بجمال الطبيعة، وجمال العواطف النبيلة الخالدة لا يمكن أن أستريح إليها".

وفي أحيان أخرى ينطلق الدكتور صفوان من موقف آخر ليقول: من يقرأ التراث الإسلامي يعرف أن مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة كانت بسيطة جداً. فالنص القرآني في بداية سورة " المؤمنين" يقول: " قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا علي أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغي وراء ذلك فأولئك هم العادون". أي أن الرجل كان يمكن أن يتزوج أربع نساء غير ما لديه من ملك اليمين. وملك اليمين هذا يتم وفقاً للقدرة المادية ، أي أنه مفتوح حسب الطاقة. أما نحن الآن فإننا ننظر إلي المرأة علي أنها كائن ينبغي الابتعاد عنه، لأن الاقتراب منه محفوف بالحرمان، والأشواك، وصور التحريم المختلفة. وإذا كان هذا يحدث مع الرجل فما بالك بالمرأة، هذا الكائن الخجول،

الذي يستسلم لتعليمات الذكر التي ينسبها إلى الدين مع أنها في حقيقتها ليست إلا نوعاً مما نسميه بالذكورية أي محاولة سيطرة الرجل على المرأة بأي شكل، وعلى أية صورة. ولاشك أنني كنت دائماً أتمنى أن يسترسل الدكتور صفوان في هذه الموضوعات، لكنني كنت ألاحظ أنه يدلي بأقواله بسرعة ليعود إلى دروس الأدب العباسي التي كان يختارها بدقة وعناية فائقة وكأنه يريد منها أن تكون ذات دلالة ولها تأثير في إعادة الطلاب إلى ما كان سائداً في جيله: حرية القراءة، وحرية التعبير، وتكوين شخصية الباحث الجامعي المطلع على أمهات الكتب في الأدب والفكر والثقافة وذلك في الأدب العربي قديمه وحديثه، والأدب العالمي، وكل ما يؤدي إلى تكوين الطالب واسع الثقافة، واسع الأفق. وكان يري أن هذا الطريق هو الوحيد الذي يجعلنا نحاصر الفكر الجاهل المنغلق الذي بدأ يغزو العالم العربي من أدناه إلى أقصاه.

وعلى الرغم من أنني كنت شديدة التفاعل مع ما يقوله الدكتور صفوان وما يصدر عنه إلا أنني لم أجروا علي الاقتراب منه أو زيارته في مكتبه طوال العام الدراسي، واستعصت عن ذلك بأحلام اليقظة. كنت عندما أجد نفسي وحيدة أو قبل أن أستلقي على السرير لأنام أغمض عيني وأتوه في بحار الأحلام. أحلم بأن صفوان وعدني أن نخرج معاً في رحلة نيلية ركبنا فيها قارباً، ليس فيه إلا المراكبي، وانطلقنا نشق عباب البحر، وتبادل كنوس الحب خالصة مصفاة. وأحياناً أحلم بأننا ذهبنا إلى القاهرة وظللنا يوماً كاملاً نتجول في حديقة الحيوانات، نشاهد الأسود والنمور والزواحف، ونداعب الفيلة والزرافة، ونقترب من سبع البحر ومن الخرتيت، ونشتري الفول السوداني، والسندوتشات، ونستمتع بالأشجار الباسقة والمساحات الخضراء، ونلعب

ونمرح. ولم تكن هذه الأحلام تخلو من مداعبات جنسية كأن نسير معا وذراع كل منا محيطة بالآخر، أو نختلس قبلة بريئة أو غير ذلك، بل إنني في بعض الأحيان كنت أشتط في خيالاتي، فأتصور نفسي زوجة صفوان يجوز له منها ما يجوز للرجل من زوجته. ومن العجيب أنني لم أبج لأي واحدة من زميلاتي بمشاعري تجاه الدكتور صفوان، علي الرغم من أن علامات حبي له كانت واضحة. فعندما كنت أستمع إليه في المحاضرة كان يتغير لوني، ويتواتر نبضي، ويشتد خفقان قلبي، وأهيم في عالم فسيح، وأنسي كل ما حولي، وكأني صوفية تحلق في فضاء رحب. ولهذا كنت دائما أتذكر أبياتا جميلة للسهروردي تقول:

وارحمنا للعاشقين تكلفوا	ستر المحبة والهوى فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم	وكذا دماء العاشقين تباح
وإذا هم كتموا تحدث عنهم	عند اللقاء المدمع السفاح

وكنت أعرف أن الدكتور صفوان متزوج، وعنده أولاد، وأن فارق السن بيني وبينه لا يقل عن اثني عشر عاما، ولكنني تغاضيت عن كل هذا، ولم أستطع أن أدفع عن نفسي حبه والتعلق به. كان يمثل بالنسبة لي شخصية الدونجوان الذي هز قلوب النساء، وبهر عقول الرجال علي الرغم من أنه كان عديم الوفاء. لم أقرنه بالدكتور صفوان، ولا أعرف ما إذا كان صفوان وفيما أو مخادعا، ولكنني اندفعت غير مبالية بأن يكون مثل دون جوان. ومعروف أن دون جوان كان عديم الوفاء، وإن كان يوزع الأيمان المغلظة بالوفاء في كل ناحية، كما كان معاديا لكافة القيم التي نلتزم بها في حياتنا العادية، وكان معاديا لكافة المؤسسات التي تنظم أوضاعنا الاجتماعية، لكن من المؤكد أن

الشخصية الدونجوانية تتلاقى مع نزعة دفينية موجودة في نفس كل فرد منا، وتمثل الاعتناق والتحرر من قيود شريعة الامتداد التي تغلف حياتنا وتجعلها محصورة في إطار محدد. وكنت قد قرأت مسرحية دون جوان للمسرحي الفرنسي موليير ووقفت علي رسمه لهذه الشخصية، وقد كتب علي لسان دون جوان نفسه: "ماذا؟! تريد أن نتقيد بأول حب وننقطع إليه، رافضين من أجله العالم، ولا نعود ننظر إلي أي إنسان آخر في الدنيا بسببه؟ جميل منا أن نتباهى بهذا الشرف المزيّف، شرف أن نكون أوفياء، فندفن أنفسنا إلي الأبد في حب واحد يقتل فينا، منذ الشباب، كل ميل للاستجابة لأنواع الجمال المختلفة التي نقع عليها. كلا ، كلا: الثبات لا يناسب إلا البسطاء والحمقى وحدهم. فمن حق كل امرأة جميلة أن تفتننا، كما أن مصادفة الالتقاء بواحدة منهن قبل غيرها لا تجرد الأخريات من حقهن في غزو قلوبنا".

كانت هذه الصورة عن دون جوان موجودة في ذهني، لكنني لم أهتم بأن يكون الدكتور صفوان علي هذا النحو أم لا. فكل ما أعرفه أنني أحببته، وكل ما أحسه أنني تعلقت به بصورة ليس لها مثيل. لم أناقش في نفسي هل سيكون وفيًا أم لا؟ كل ما تمنيته هو أن يبادلني حبا بحب. وإذا كنت لم أجرو علي الحديث إليه وجها لوجه أو أذهب إليه في مكتبه بزعم أنني أريد أن أستفسر عن بعض الموضوعات في المنهج الدراسي، فإني قررت أخيرا أن ألقى بشبكتي في ورقة الإجابة في امتحانات آخر العام. كيف واثنتي هذه الجراءة؟ وكيف لم أحسب حسابا لرد فعل الدكتور صفوان عندما يجد رسالة من أربع صفحات تقريبا في بداية ورقة الإجابة. ولعل شخصية الدكتور صفوان نفسها هي التي شجعتني علي ذلك. إذ لم أره أبدا يفعل من أي سؤال محرّج يوجهه له طالب أو طالبة. ولم أره أبدا يصادر علي المطلوب. ولذلك قلت في نفسي:

لابد من اقتحام المنطقة المحرمة، ولابد من الإبانة عما ظل يختزن في العقل والقلب لمدة عام دراسي كامل. هل يمكن أن تذهب أحلام اليقظة هباء؟ وهل يمكن أن تستمر المعاناة وما يصحبها من ندم سيفاً مسلطاً علي نفسي وقلبي طوال حياتي؟ وتذكرت حينئذ ما جاء في رواية للأصمعي عن الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: " لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما".

من هنا اندفعت لكتابة رسالة حب في ورقة الإجابة، وانتظرت بعد ظهور النتيجة وحصولي علي تقدير " جيد" في الأدب العباسي أن يسأل عني الدكتور صفوان، ولكن لم يحدث شيء من هذا، حتى بدأ العام الدراسي، وهنا كانت المفاجأة الكبرى أن يأتي الدكتور صفوان بنفسه في أول يوم ليسأل عني. ولا يمكن أن أصف لكم كيف كانت فرحتي غامرة، وكيف أحسست بأنني كنت موفقة عندما قررت أن أجسد تباريح حبي في ورقة إجابة حملتها أياد كثيرة وتناقلتها، ولكن لم يطلع عليها إلا شخص واحد هو المقصود بها – ولعل هذا يفسر ما ذكره بعض الشعراء من أن الحب قضاء:

يلومونني في حب سلمي كأنما	يرون الهوى شينا تيممته عمداً
ألا إنما الحب الذي صدّع الحشا	قضاء من الرحمن يبلو به العبد

يذكر محمد صفوان عبد الخالق أن زواجه منذ سبع سنوات تقريبا كان زواجا تقليديا. صحيح أنه تعرف علي بنات كثيرات، وارتبط ببعضهن ارتباطا وثيقا حتى لقد جرت مياه الود، وربما العشق، بينه وبينهن لدرجة الاتفاق علي الزواج، لكنه عندما قرر دخول الزوجية لم يجد إلا ذلك الطريق الذي يسلكه غالب الناس، وهو البحث عن فتاة من أسرة محترمة، والارتباط بها تحت سمع الجميع وبصرهم. وقد أتيح له ذلك عندما قالت له إحدى صواحب والدته إنها تعرف عروسا من أسرة طيبة تقيم في المدينة وهي متخرجة هذا العام فقط من كلية الطب - قسم الدراسات النفسية والعصبية . وأضافت إنها تعرف والدتها معرفة قوية، وهي متعلمة لكنها لا تعمل. أما والد الفتاة فإنه موظف في هيئة حكومية، و أحوالهم المادية جيدة، وعندهم بيت مبني في أطراف المدينة، ويقال إن أسرتهم في الريف من الأسر المتنفذة ومن الفئة التي يقال عنها إنهم من الوجهاء.

عقبت الوالدة علي كلام السيدة أم عبد الله قائلة إنها امرأة لديها خبرة قوية في هذا الشأن، وهي ليست خاطبة وإنما هي واسطة خير لا أكثر و لا أقل. وافق صفوان علي أن يذهب مع السيدة أم عبد الله لرؤية الفتاة. كان لقاء عابراً لهدف محدد هو الرؤية وتجاذب أطراف الحديث. وكان هذا هو الانطباع الأول: فتاة متوسطة القامة، قمحية اللون، سوداء الشعر، وجهها مستدير، دقيق الملامح، لكن وجنتيها فيهما بعض البروز الذي ينسجم مع تقاسيم الوجه. أما جسمها فممتلئ بعض الشيء لكنه لا يميل إلي الترهل، وساقاها ملفوفتان تنزلان من مؤخرة تنساب هابطة صاعدة في استدارات دقيقة. كانت

ترتدي الزى العادي الذي عرفناه منذ أن نشأنا حتى أواخر السبعينيات، بدون نقاب أو حجاب: مجرد تنورة أو جيبية تمتد إلي ما بعد الركبة بقليل وفوقها قميص مشجر أو بلوزة ملونة تنسجم مع لوني الجسم والوجه.

هكذا رآها صفوان وأحس بها فوجد أنها مناسبة: فهي ليست صارخة الجمال، لكنها جميلة بالمفهوم العادي ومقبولة جدا. قارن بينها وبين فتيات القرية فرجحت كفتها، لأنها تربت في المدينة، ولأنها حاصلة علي أعلي الشهادات الجامعية، ولذلك لم يتردد صفوان في القول بأنه موافق وليس لديه أي مانع من خطبتها إذا وافقت هي ووافقت أسرته. وفي مثل هذا الارتباط التقليدي تسأل الأسر عن الشخص المتقدم إليهم؟ وقد سأل والدها بعض من يعرفهم من القرية عن أسرة محمد صفوان عبد الخالق فقالوا له إنها أسرة طيبة وإن لم تكن غنية، والولد نفسه متفوق، وربما يسافر في بعثة إلي فرنسا لاستكمال دراسته العليا.

وعندما باركت أسرة الفتاة الخطوبة بدأ محمد صفوان يتردد عليهم. وقد سمح له بأن يخرج مع خطيبته صفاء السيد البطران مرة واحدة في الأسبوع لكي يتعرف كل منهما علي الآخر. ومن الطبيعي أن تمر العلاقة في فترة الخطوبة بلحظات توتر وشكوك وحذر، وأن تدور الأحاديث داخل أسرة البطران لاسيما النساء عن محمد صفوان وهل هو كريم أو بخيل، وكل يدلي بما لديه من رأي. فأخت صفاء الأكبر منها مثلا تري أنه بخيل ومقتر، لأنه في معظم الأحيان يأتي فارغ اليد مع أننا في فترة الخطوبة التي يتباري فيها الشخص في إظهار علامات الكرم والسخاء. وأخت صفاء الأصغر منها تري أنه خجول ولا يعرف كيف يتعامل مع النساء. لكن الأب والأم كانا يبديان دائما ارتياحهما له، ويقولان إنه شخص مهذب ومتقف وله مستقبل واعد،

وفيما يتعلق بهذه الأشياء الصغيرة مثل الهدايا والدخول بطبق من الحلوى وغير ذلك فهذه أمور لا يقدر عليها الشاب في بداية حياته اللهم إلا إذا كان من أسرة واسعة الغني، وهذا ليس متاحا لكل الناس.

وذاث يوم عندما خرج صفوان وصفاء ليقضيا وقتا خارج البيت حدث ما لم يكن في الحسبان، وكاد يؤدي إلي فسخ الخطوبة: ذلك أن صفاء كانت تنتظر منذ فترة أن أدعوها لتناول وجبة دسمة في مطعم فاخر لكني لم أفعل ذلك أبداً. فما دخلي أنا بالمطاعم الفاخرة؟ هل دخلتها قبل ذلك؟ وهل أنا متعود عليها؟ وهل تدخل ضمن دوائر تفكيري؟ وهل لدي قدرة علي دفع المبلغ المطلوب؟ وإذا كانت كل هذه الأمور بعيدة عني بُعد السماء عن الأرض فكيف أتصورها أو أتخيل أنها من الأشياء المتاحة لي؟ لكن صفاء كانت تسمع من صواحبها المخطوبات قصصا كثيرة من هذا النوع. ولاشك أنها كانت تقارن بين ما يحدث معهن وما يحدث معها، ومن ثم هداها تفكيرها إلي أن محمد صفوان لا يمكن أن يكون الشخص المناسب لها، فقررت أن تفسخ الخطوبة وحدثت والدها والدتها في ذلك فأبديا اعتراضا شديدا قائلين لها: إن هذا شخص قروى لا خبرة له بشئون المدينة وما يدور بين أهلها، ومن المؤكد أنه ليس لديه معرفة بالمطاعم الفاخرة، لأن هذه المطاعم لا يدخلها إلا أبناء الأسر المرتاحة، أما أبناء القرى وإن كانوا من أسر متوسطة فإن هذه الأمور بعيدة عن أذهانهم.

اقتنعت صفاء بهذا التخريج، واستمرت العلاقة علي النحو المرسوم. وكانت صفاء خلال هذه الفترة السابقة علي عقد القران شديدة الحبطة، شديدة التخرج، تضمن بكلمات الحب وتري أن الوقت غير مناسب لذلك، لأنها فترة تعارف وغير مضمونة العواقب. ولهذا بمجرد أن تم عقد القران بدت وكأنها

انفلتت من عقالها، فأسلمت نفسها للحب الذي ظل دائما في منطقة اللمم، أي ترك المجال للقلبات والأحضان ولا شيء غير ذلك. كانت فترة تساقى فيها محمد صفوان كنوس الحب المترعة بالأشواق لدرجة أنه لم يكن يدري هل هو الذي اندفع إليها أم هي التي اندفعت إليه. المهم أن يطوقها بذراعيه ويضمها إليه كأنه ينثر شوقه في ضلوعها، لقد كانت في أحضانه مثل كتلة من الذهب تصهر في داخله كل ما تجمد في صدره من حرمان السنوات الماضية. أما عينه فكانت تري في عينيها تألق وجهه، وانعكاسات حبه وغرامه وسعادته بهذا اللقاء المفعم بالنشوة بين رجل وامرأة سوف يجمع بينهما الزمان. ولعل أكثر ما كان يثير في نفسه سحائب الرغبة هما خذاها المتوردان اللذان تبدوان وكأنهما صفائح دموية رتبت بمهارة وإتقان. ومن الأشياء التي أحس بها صفوان في تلك اللحظة بريق عينيها اللتين امتزج فيهما الجنون بالثقة المطلقة. كان صفوان يقول لنفسه: هل يمكن أن تتحول هذه المرأة العنيدة الواثقة من نفسها إلي مجرد أنثى متدلّهة تذوب في أحضان الرجل حتى ولو كان هو زوجها الشرعي؟.

بعد عقد القران بفترة قصيرة جهز محمد صفوان أوراقه للسفر إلي البعثة. ولما كان كل شيء في مصر يتم بخلع الضرس فقد أمضى وقتا طويلا في استخراج ورقة من هنا وأخرى من هناك، حيث التوقيعات والأختام موجودة في أماكن مختلفة. وقد تردد كثيرا علي مجمع التحرير، وعلي إدارة الجامعة. والمهم أصبحت أوراقه جاهزة بما في ذلك جواز السفر وتذكرة الطائرة. وكان لابد أن يذهب إلي القرية لتوديع أهل، لكنه وجدهم مشغولين في التخلص من مياه الترعة القريبة من بيتهم والتي أغرقت أرضهم وأرضا أخرى مجاورة. ولم تكن المشكلة في أرضهم بل في أرض الجار التي تلف زرعها وهو لم يزل

غضا ضعيفا لا يتحمل هذا الكم من المياه. لم يكن في وسع صفوان أن يفعل شيئا فأخذ شنتطته المتواضعة وودعهم من بعيد. توجه إلى المدينة وسلم علي أسرة زوجته وانتحي بها جانبا قائلا لها إنه سوف يرسل إليها فور أن يؤجر شقة ويفرشها، لتصير مؤهلة لعش الزوجية. كان سفر الناس في أواخر السبعينيات قليلا جدا لأن بلادنا لم تكن قد عرفت بعد السفر الجماعي الذي تحول إلى ما يشبه هجرة جماعية إلى أوروبا وأمريكا ودول الخليج والعراق والأردن والجزائر وليبيا.

انتظم محمد صفوان في دراسته بجامعة السوربون، قسم اللغة العربية وبدأ يتردد علي أساتذة القسم من المستعربين، وجهاز الشقة، ثم أرسل إلي زوجته يطلب منها المجئ. كانت قد التحقت بوزارة الصحة طبية في أحد المستشفيات. طلبت أجازة مرافقة للزوج لكنهم أخبروها أنه لا يمكن أن تطلب أجازة إلا بعد مرور عام من توظيفها، ولكن صفوان طلب منها أن تترك الوظيفة التي لا يزيد دخلها علي عدد من الجنيهاات وتأتي إلي فرنسا، ويمكنها أن تلتحق بالدراسات العليا لاسيما وأن تعلم اللغة وهي داخل البلد لن يستغرق أكثر من ستة شهور. تجهزت صفاء للسفر وأخبرت صفوان بموعد قدومها. ناقش صفوان هذا الموضوع مع زملائه في " رابطة المصريين بباريس " فقرروا أن يستقبلوها ويقيموا حفل زفاف في الرابطة.

حضر حفل الزفاف عدد كبير من الدارسين في فرنسا وأسرهم، كما حضر المستشار الثقافي والعاملون معه، إضافة إلي عدد من العاملين في السفارة المصرية بباريس. قارن صفوان بين هذا الحفل وبين حفل عقد القران الذي أقيم في مصر فوجد ما يلي:

- حفل باريس أقرب إلي الصمت منه إلي الهبسة والزنبليطة، والحفل في مصر فيه هرج ومرج وراقصة تتثني وتتقصع مع أنها تخطت فترة التائق والإبهار ومعها فرقة تمدّها بالإيقاعات الموسيقية وكان كل هم الراقصة الحصول علي النقطة من حاضري الفرّح.

- حفل باريس تنقصه حميمية المدعويين لأنه لا يوجد شخص واحد من أقرباء العريس أو العروس، لكن صفوان كان يحس أن كل شخص من هؤلاء يستحق الشكر والتقدير لمجرد الحضور. أما الحفل في مصر فكان معظمه من الأهل والأقارب وأصدقاء الطفولة والصبا والشباب.

لكن الليلتين، علي أية حال، تحفران في ذاكرة صفوان لتتحولا إلي صورة أليفة لا يمكن محوها أبداً. وبعد الحفل انطلق صفوان وصفاء في سيارة يقودها أحد الزملاء تشق ليل باريس. كان الليل ساجيا، صافيا، مضيئا، وكان الأنوار قد تحولت إلي أشعة ذهبية تنشر خيوطها علي المباني وعلي رءوس الشجر المرصوفة بانتظام علي جانبي الطريق. والنسمات الرقيقة التي تشبه دفقات الهواء الحانية تؤدي إلي تمايل الأغصان وكأننا في لحظة انتعاش سحرية تتلاقى مع ما يدور داخل القلب من عواطف تستهدف الوصول إلي لحظة الانفراد. وكان من الواضح أن زخات من المطر انهمرت في لحظة من اللحظات أثناء انهماكنا في حفل الزفاف فأسفرت عن شوارع مغسولة، وخضرة يانعة مبللة بقطرات من الماء تصنع حالة من الصفاء والاصطفاء. وكانت هذه هي حالة شوارع باريس النظيفة في كل الأحيان.

وصلنا إلي العمارة التي أسكن فيها، وقدمنا الشكر للسيد الزميل علي ما فعله معنا، وبروح مصرية انتقلت فجأة إلي باريس قلنا له: تفضل لنشرب معنا كوبا من الشاي. اعتذر في أدب جم قائلا بابتسامة عريضة ارتسمت علي

شفتيه: هذه ليست ليلة الشاي. ركبنا المصعد ونزلنا في الدور الخامس حيث أسكن. فتحت باب الشقة وطلبت منها أن تدخل هي أولاً، وهذه عادة تعلمتها في فرنسا: أن تكون المرأة في المقدمة. لم تكن متعبين لأننا لم نبذل جهوداً جبارة علي النحو الذي يحدث في مصر: طبل وزمر وديسكو ورقص في حلبة معدة لذلك. ولهذا طلبت من صفاء أن تتخلص من لبسها الثقيل، وفعلت أنا نفس الشيء.

راح محمد صفوان في هذه اللحظة ينظر إلي صفاء فوجدها في حالة تأثر شديدة. كان العرق يتصبب من جبينها ويتسرب إلي خديها وكأنه يريد أن ينسحب إلي ثيابها وقد احمرت عيناها وتوردت وجنتاها من شدة التأثر. ولا يدرى صفوان هل كان هذا التأثر بسبب لقاء الحبيب أم بسبب ترك الأهل، أم بسبب الانتقال من حال إلي حال؟ المهم أنه هو الآخر بدا وكأن كل حياته الماضية تجمعت لتصب في لحظة واحدة. فالآن سوف يتخلص تماماً من ملابسه، وتفعل صفاء نفس الشيء، ويتحول الاثنان إلي جسد واحد، يلتصق كل منهما بالآخر، وقد تهاوت كل صنوف المحرمات، وانقشعت السحب عن صفاء: إنها صفاء التي أسلمت نفسها للحب، كي ترتشف من كنوس الهوي، وتغسل أدران كل السنوات الماضية. شعر صفوان أن ما يحدث في الغرفة لا يقل إثارة عن لقاء قمرين، أحدهما امرأة بالإضافة إلي جمال وجهها التي تشع منه ملامح الهيبة والذكاء، الذي زاده التوله في الحب سطوعاً وتألقاً. والقمر الثاني رجل تحمّل كثيراً وذاب في أحلام كي يصل إلي هذه اللحظة.

بلغ العاشقان لحظة الذروة، وتشبث كل منهما بجسد الآخر في عناق امتد إلي الصباح، ولم يكن هذا العناق يقل في متعته وخصوصيته عن كل ما سبقه، وإن كان العاشقان قد راحا في سبات عميق أعقبه نوم استمر حتى ساعة

متأخرة من النهار. عندئذ استيقظا وأخذا يعدان نفسيهما لاستقبال المهنين
من الزملاء والأصدقاء في باريس.

ذات صباح صحوت من نومي في ساعة مبكرة، وفي العادة ترد علي ذهني بعض الأبيات أو الحكم أو الأقوال التي قرأتها حتى ولو كانت في طي النسيان. وفي هذا الصباح داهمتني كلمة تقول: "إن المرأة الحقة تبتهج بالفرحة التي تمنحها للرجل أكثر من الفرحة التي تتلقاها منه". وسألت نفسي: هل هذا صحيح؟ وكانت الإجابة نعم، فانا مهمومة بما يمكن أن يحدث لصفوان إذا تقدم لخطبتي، لأنه من المؤكد أن الوالد سوف تكون لديه أسباب كثيرة لرفض هذا الطلب، منها فارق السن، وأنه متزوج ولديه أولاد، وأني مازلت طالبة في السنة الرابعة، أي صغيرة السن ويمكن أن تتاح لي فرص كثيرة للزواج من شخص يناسبني. دارت في ذهني كل هذه الأشياء ووجدت أنني يمكن أن أتسبب في إحراج لصفوان وهو الشخص الوحيد الذي أحببته، وامتزجت روعي بروحه، لدرجة أنني لم أعد أتصور أن أكون في حضن شخص آخر، أبته أشواقي، وأفيض إليه بعبراتي، وأنام معه في فراش واحد، أصحو علي دقائق قلبه، وأحس بالأمان والراحة في قلبه.

طلبت من صفوان أن يقابلني في الكافتيريا. أعطاني موعدا قريبا وحضر في الوقت المحدد. قلت له: هل أن الأوان لتخطبني من والدي؟ قال: في أي وقت تريدين أنا جاهز. قلت له: إذا أنت مستعد نذهب الليلة فوراً. سبقته إلي البيت وطلبت منه أن يحضر بعد ساعة. وكنت قبل ذلك بأيام قد مهدت للموضوع مع الوالدة التي لم تبد أي اعتراض، لكنها تركت الكلمة الفصل للوالد، ويبدو أنها كلمته في هذا الأمر، وشرحت له الموضوع بالكامل فلم

يرفض، وطلب أن يراني و أن يتحدث معي أولا. ولهذا كنت واثقة أنه في هذه الليلة سوف يكون موجودا بالبيت، وجاهزا لرؤية صفوان والحديث معه.

كانت الفيلا تقع في منطقة واسعة منظمة ومخطط لها بعناية: شوارع واسعة، وأراض رحة حيث تقام المباني علي منتصف المساحة، والباقي جنينة تضم أنواعا كثيرة من الأشجار العالية والأشجار القصيرة، والنجيل المفروش في الأرض وكأنه سجادة خضراء يانعة. من الأشجار العالية الفيكس، والأكاسيا، وسرو الليمون، والنخيل البلدي، والجوافة، والمشمش، والهيبيسكاس الملون، والريحان، والوينكا، والبرتقال، واليوسفي، والرمان، والبرقوق، والماتجو. ومن الأشجار القصيرة الياسمين البلدي، والياسمين الهندي، والصبار بأنواعه، والدورانتا، والورد البلدي، ومسك الليل، واليوكا الخضراء، والمداد الأرضي، والجارونيا، والحبك.

أما المبني فعبارة عن بدروم وثلاثة أدوار وشخشيخة (هكذا تسمى وهي الدور الأخير غير المكتمل). كنت أعيش مع الوالد والوالدة في الدور الأرضي، وفي الدور الأخير يعيش أخي الكبير مع أسرته، وزوجه مهندسة إلكترونيات. والدور الوسط لأخي المتخرج من كلية العلوم، وقد تزوج وسافر مع أسرته إلي أمريكا لاستكمال دراساته العليا. ويبدو وأنه سوف يظل في أمريكا لأن هذا البلد يعمل دائما علي استمالة العقول المتفوقة للعمل في مراكز البحث، والجامعات، وأبحاث الفضاء وغير ذلك. أي أننا نعمل علي تفتيش هذه العقول لكي تستقبلهم أمريكا بكل ترحاب. و إلي متى ستنظل هذه هي حالنا؟ لا أدري، ولكنني ألاحظ أن البلد يتم تفريغه من معظم الكفاءات التي تضطر إلي الإقامة والعمل بالخارج.

حضر صفوان في الوقت المحدد. فتحت له الباب بعد أن أجلسه في الصالة الواسعة، وانسحبت تمهيداً لمجيء الوالد والوالدة، اللذين رحبا بالدكتور صفوان. كان دوري في تلك الليلة هو إحضار المشروبات وأطباق الحلوى، وقد التزمت بتعليمات الوالد بعدم الجلوس معهم أو التدخل في الحوار عند إحضار أي طلب. وإن كان هذا لم يمنعني من تأمل صفوان بقامته المديدة، ووجهه المشرق، وابتسامته العريضة، ولباسه الأنيق: بدلة زرقاء من الواضح أنها مشتراة من باريس، وقميص أبيض فاتح، وكرافت حمراء اللون، وساعة رادو فاتحة، وحذاء يبدو أنه أيضا من باريس، وشعر كث أسمر مفروق من الجهة الشمال. أي أنه كان متألعا كما لم يبدُ من قبل، ولم يكن عنده أي نوع من الاضطراب. ولعل هذا يعود إلي أنه واثق من نفسه ومن موقعه كمدرس بالجامعة، ثم إنه كان شديد الوثوق من حبي له، وحرصني عليه، ورغبتي في الزواج منه. لقد وقع حبه في قلبي منذ أن رأيته لأول مرة وكأنه كان نوعا من السبات الذي يفاجئ المرء دون أن يدري. لقد جاشت العواطف، وانجذب القلب انجذابا لا سبيل إلي دفعه. لقد كنت علي موعد مع القدر، وكان صفوان هو الشخص الذي حمله إلي هذا القدر. ومهما قال الفلاسفة والمنظرون في الحب فإنه سوف يظل خاضعا للتجربة الحية، والمعاناة الوجدانية المباشرة. ولعل الإمام ابن حزم الظاهري كان أصدق من تحدث في ذلك عندما قال عن الحب: "دقت معانيه لجلالته عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة".

وها هو صفوان الذي عانيت في حبه عاما دراسيا كاملا، ولم أجرو علي الاقتراب منه أو مطارحته الغرام، ها هو في بيتنا، وها هو قريب مني كاقرب ما يكون الحبيب. ثري ما الذي سوف يسفر عنه هذا اللقاء؟ وهل سيتمكن

الوالد من إزاحة كل العقبات التي تعترض طريقنا أم أنه سوف يتشدد ويميل إلى الرفض استناداً إلى العرف و التقاليد الحاكمة حالياً في المجتمع؟. ولشدة لهفتي علي سماع ما يدور تخيرت مكانا خارج الصالة بحيث أسمع ولا يروني.

قال والدي موجهها الحديث لصفوان: أعرف أنك حضرت من أجل خطوبة سناء، لكن ألا تعرف أن الموضوع معقد جداً؟ رد صفوان: أنا أولاً أتشرف بأن أطلب من سيادتك يد سناء، لكنني أريد أن أقول إن الذي جعل الموضوع معقداً هو العرف الاجتماعي السائد حالياً، والذي يستهجن زواج الرجل للمرة الثانية لاسيما إذا كان لديه زوجة وأولاد منها، وأنا هذا الرجل في مثل هذه الحالة. لكن الشرع لا يمنع ذلك، وأفعال النبي وأصحابه تدل علي أنهم لم يكونوا يستهجنون هذا الأمر، ومن يقرأ السيرة النبوية وسير الصحابة والتابعين يعرف أن هذه المسائل سهلة وطبيعية جداً. ثم إنني أعرف بعض الزملاء الذين تزوجوا من امرأتين، ومعنا زميل مكفوف في قسم اللغة العربية متزوج من أستاذتين جميلتين، ومن العجيب أنهما يعيشان معه في شقة واحدة، ولم أسمع أنه يعاني من مشاكل أو غير ذلك. أضاف صفوان: طالما أن الرجل لديه القدرة علي أن يجمع بين امرأتين، فما المانع من ذلك؟

كانت والدتي صامتة، لكن من الواضح أنها مقتنعة بفكرة زواجي من صفوان، ويبدو أنها بذلت مجهوداً كبيراً مع والدي لإقناعه بالموافقة، معتبرة أن فارق السن بيني وبين صفوان ليس كبيراً، وأنه طالما كانت لديه القدرة علي الجمع بين امرأتين فما الذي يمنع من ذلك؟ رد والدي قائلًا: من الواضح أنك قوي الحجة، وهذا ليس غريباً عليك، لأنك أستاذ جامعي دارس في الخارج، لكن ألا تري أن ابنتي يمكن أن تتعرض لصعوبات كثيرة لاسيما إذا

قررت الزوجة الأولى رفع سلاح المواجهة أو كانت مقتنعة بفكرة أنها لا يمكن أن تسمح لشريك حياتها بالزواج عليها، وهذه عادة ترسخت في المجتمع خلال العقود الأخيرة. رد صفوان بأنها إذا فعلت ذلك ستكون هي الخاسرة.

عندئذ طلب الوالد عرض الأمر عليّ. ولما كان صفوان واثقا من موافقتي علي الزواج منه قال للوالد: لماذا لا تعرض الموضوع عليها الآن؟ وافق الوالد علي هذا الطلب، فناداني. جلست معهم وأنا أحس أنني أسعد من القمر في ليلة صفائه وتماحه. نظرت إلي صفوان فوجدته متألقا كالعهد به، مهيب الطلعة، صبور الوجه، عريض الجبهة، مسترسل الشعر، أسود العينين، أدعج، أبلج، مشرب بالحمرة، طويل السوالف، غزير الشارب، بارز الصدر، طويل الأصابع، متأق في بزته التي من الواضح أنها مستوردة. كان واثقا من نفسه وثوق شخص لديه خبرة في الزواج، وخبرة في الحياة، وخبرة في العمل. سألني الوالد: هل أنت موافقة علي الزواج من الدكتور صفوان؟ رددت بلغة الأنثى المتعلمة المثقفة: ليس لدي أي مانع. قال: لكن هل تعلمين أنه متزوج ولديه أولاد؟ قلت: نعم أعرف. قال: وهل تعرفين أن فارق السن بينكما يناهز اثني عشر عاما؟ قلت: هذا الفارق ليس كبيرا، فأنا أعرف زميلات الفارق بينهن وبين أزواجهن يصل إلي خمسة عشر عاما. عندئذ قال الوالد: إنه قرارك أنت، والمسئولية سوف تقع علي عاتقك. أنا لا أبغي لك إلا الخير، لكنك في الأول وفي الآخر مسئولة عن نفسك.

في هذه اللحظة انتهز صفوان الفرصة وقال: طالما أن سناء موافقة وأن سيادتك ليس لديك مانع، لماذا لا نقرأ الفاتحة الآن بعد أن نتفق علي الأشياء المطلوبة؟ قال الوالد: معك حق. ثم حدد المبلغ المطلوب للشبكة، وموخر الصداق. وفيما يتعلق بالعفش قال إنه سيكون مناصفة، لكنه لم يؤكد إلا علي

شيء واحد هو أن ابنته لابد أن تكون لها شقتها التي لا تقاسمها فيها امرأة أخرى. رد صفوان بأنه موافق علي كل هذه الشروط، لأنه، والحمد لله، لديه القدرة علي أن يلتزم بذلك. قال الوالد: إذن علي بركة الله نقرأ الفاتحة.

لم أتصور أبداً أن يتم تذليل كل العقبات في لقاء واحد. بعد أن قرأنا الفاتحة وودعنا صفوان، خرجت إلي جنيّة الفيلا. كان الليل ساحراً، فيه طلاوة، والقمر في عليائه يطل وعليه سحناء من البهجة والسرور، لاسيما وأنه كان في تمامه وكماله وكأنه جاء ليشاركني فرحتي بهذه الليلة. أما روائح الزهور و الياسمين والبنفسج فكانت تفوح وتملأ المكان، وسط جو صاف راق من هواء معبق بعطر زهور الليمون، وزهور البرتقال، والورود. وكانت أصوات الليل الساحرة المنسجمة تبدو مثل خرير ماء صاف رقيق يأخذ بمجاميع الإنسان وأنفاسه. وقفت مبهورة بكل هذه العذوبة، وكل هذا الصفاء. وتطلعت إلي القمر لأري ماذا سيفعل فوجدته ينسحب رويدا وهو يرفع أغاريدته، ويطلق شفراته، ويبادلني حبا بحب وسرورا بسرور.

تذكرت في هذه اللحظة كلمات قرأتها لسوفوكليس عن حقيقة الحب المركبة تقول: " الحب ليس وحده الحب. ولكن اسمه يخفي في ثناياه أسماء أخرى متعددة: إنه الموت والقوة التي لا تحول ولا تزول. إنه الشهوة المحض، والجنون العاصف والنواح". فالحب حالة عاطفية مركبة تشمل كيان الإنسان بكامله: جسداً وعقلا وروحاً. وتمتزج فيه عوامل كثيرة مثل اندفاع الشهوة، والهوي، والعطف، و الانفعال العاطفي، والتعاطف، والمودة، والتجاوب، والإيمان بالضحية في سبيل مصلحة المحبوب وهنائه وسعادته. الحب قدر عاصف، وعاصفة قوية، وتحليق في فضاءات واسعة، وسموات ممتدة. ولاشك أن مشاهير العشاق في التاريخ كانوا يقدمون حبهم علي كل

الاعتبارات الأخرى. فعل ذلك مارك أنطونيوس الذي أحب كليوباترا حبا لا مثيل له فقال كلمته المشهورة: "لندع روما في نهر التبر تذوب". و بذلك كان اختياره للإسكندرية بدلا من روما اختياراً للموت مع معشوقته. وهأنذا أحببت صفوان، وقررت العيش معه، ولم أر أن هناك مانعا يحول بيني وبين ذلك، حتى ولو تمثل هذا المانع في امرأة أخرى تشاركني في حب صفوان.

يمتلئ هذا العالم بأشخاص مهووسين بالثروة أو الشهوة أو السلطة، وكلما أحرزوا نجاحا في هذا الجانب أو ذاك زاد جشعهم وتخلوا أنهم امتلكوا العالم. لم ينظروا في داخلهم، ولم يدركوا أن الحقيقة كامنة داخل أنفسهم، وأن علي الإنسان أن يواجه نفسه بصراحة وصدق علي نحو ما قال سلفادور دالي: سأقول كل شيء حتى لو كان غير قابل للتصديق. فشخصيتي تستبعد الطرائف أو الألغاز لأني صوفي. والصوفية والألغاز أو التعمية ضدان رسميان بقانون الأواني المستطرقة". ولأن دالي وحبيبته جالا التي كانت متزوجة من قبله ببول إوار كانا يمثلان حالة فريدة من الحب فقد كتب دالي عام 1958 وهو في لندن يقول: "نسقت النجوم في قبة السماء الصناعية بالشكل الذي كانت عليه لحظة مولد دالي في بورت ليجات، وهو يعلن بناء علي تحليلات طبيبه النفسي د. روميغو بأنه هو وجالا طفلا جوبيتر، وأنهما تجسيد للأسطورة الكونية السامية كاستور وبولوكس". وكان دالي يحب جالا بطريقة ليس لها مثيل ولهذا كتب في يومياته: "إن وحة جالا هي الجزء الحي الوحيد من جسدها الذي أستطيع أن أعطيه بإصبعين، وذلك يؤكد لي بطريقة غير معقولة خلودها الانبعاثي. أحبها أكثر من أمي، وأكثر من أبي، وأكثر من بيكاسو، بل وأكثر من النقود". وكان من المعروف عن دالي أنه كان يحب النقود حبا جما. ومن أقواله المشهورة "أسهل الطرق لعدم تقديم تنازلات للذهب هو امتلاكه".

وكان سلفادور دالي يري أن جمال جالا شيء خرافي لدرجة أنه شبهها بالنجمة قاتلا: "نشاهد نجمة تهبط محترقة بلون أخضر، إنها أكبر نجمة شاهدتها. قارنتها بجالا التي هي بالنسبة لي أعظم نجمة مرئية، ومحددة، ومتشكلة". بل إنه رآها رسما من رسومات رفائيل، وفي هذا قال: "إن جالا جميلة مثل تلك المخلوقات التي رسمها رفائيل. أقسم أن هذا الجمال من الصعب إدراكه، و لا يمكن لأحد أن يراه بحيوية رؤيتي له. الشكر لنشواتي السابقة ولقرون خرائتي".

فهل رأيت سناء علي هذا النحو من الجمال؟ علي أية حال لم يكن حبي لسناء المهدي يقل عن حب دالي لجالا، بل إنني، زيادة علي ذلك، رأيتها مثل عائشة في ديوان "بستان عائشة" للبياتي، حيث تحولت عائشة إلي شخصية أسطورية، بدأت ملامحها تظهر في دواوينه السابقة وخاصة ديوان "الكتابة علي الطين" عند قال في قصيدة "الوجه والمرأة":

العالم الغارق في الغسق

والمرأة الأسطورة

تطلع من نبوءة العهد القديم ويطون كتب الأنهار

ومن رسوم السحرة

علي كهوف العالم القديم

تخرج من سرتها وردة شمس الليل والنهار

ولا زورد النار

تمارس الحب مع الضياء والهواء والمطر

تحبل بالبذور والأزهار والثمار

تحتضن المرأة

حاملة بالنهر والحصان والثعبان

وهكذا كانت رؤيتي لسناء نابغة من رؤية كونية أسطورية، إضافة إلي الرؤية الواقعية المتمثلة في هذا الجمال الأنثوي الخارق. فهذه المرأة فاقت، بحسنها، كل أنواع الجمال، لدرجة أنني كنت أسأل نفسي: هل أرض مصر مهياة لظهور مثل هذا الجمال؟ وماذا يكون الجمال إن لم يكن هذا الوجه الأنثوي الصبوح، وهذا الخد الذي يتضوع مسكا وطيبا، وهذا القد الذي يشبه غصن البان، وهذان النهدان القائمان المنفلتان مثل تفاحة ناضجة مستديرة، وهاتان الساقان اللتان تدلان علي اعتدال القوام، مع الظرف و الدلال، والحسن و الجمال، وعذوبة الكلام، وحمرة الخدين، وبروز النهدين. كنت أنظر إليها وأنا في حالة انبهار بهذا الجمال، وأقول في نفسي: متى يأتي الوقت الذي أتمكن فيه من قطف هذه الثمار؟ وكنت أحيانا أتمثل أبياتا قيلت في مجلس الخليفة المأمون:

صل من هويت ودع مقالة حاسد	ليس الحسود علي الهوى بمساعد
لم يخلق الرحمن أحسن منظراً	من عاشقين علي فراش واحد
متعانقين عليهما أزر الهوى	متوسدين بمعصم وبساعد
يا من يلوم علي الهوى أهل الهوى	هل تستطيع صلاح قلب فاسد

لم أرد أن أكرر تجربتي مع صفاء: أعقد قراني عليها ثم أسافر بعد فترة قصيرة، ولهذا قررت أن تمتد خطوبتي لسناء المهدي لفترة طويلة نسبيا. بدأت - كما وعدت والدها - بشراء شقة في منطقة متميزة بشبين الكوم. كانت أسعار الشقق أيامها معقولة ولا تحتاج إلي مبلغ كبير من المال، وكنت قد عدت من البعثة ومعني مبلغ لا بأس به، إضافة إلي ما تدره الأطيان التي

ورثتها من والدي من مبلغ يكفي حاجتي ويزيد بحيث يساعدني في إعالة زوجتي الأولي وأولادها، كما يساعدني في تجهيز عش الزوجية الجديد. وفيما يتعلق بسناء كان اتفاقي مع والدها أن نقسم فرش الشقة بالنصف. ففقت بتجهيز الشقة من جميع النواحي: سبابة، وسيراميك، ونجارة، ونقاشة وغير ذلك، ثم اشترينا الأدوات الكهربائية والسخان واثنين من أجهزة التكييف، وحجرة النوم، وحجرة الأولاد، والأنتريه، والصالون وكل ما يلزم. خصصت أوقاتا قليلة للإشراف علي التجهيز، لأن همّي الأكبر كان هو اللقاء مع سناء. لم تكن الأسرة متمتعة تفرض شروطا محددة للخروج بل تركتنا نقضي فترة التعارف في بساطة وسهولة. ولهذا وضعت إستراتيجية تقوم علي ما يلي: قضاء وقت ممتع في الحدائق والمنتزهات وأماكن الترويح عن النفس داخل شبين الكوم. السفر خارج هذه المدينة في رحلات ترفيهية تعلن عنها شركات السياحة. تبادل الكتب فيما يشبه القراءة الجماعية. وكان لي زميل في القرية يشاطرني هذه الهواية. الآن تشاركني فيها سناء المهدي أجمل امرأة رأيتها في حياتي. قرأنا في هذه الفترة ما لم نقرأه من مؤلفات عباس محمود العقاد، وطه حسين، واحمد أمين، ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وتوفيق الحكيم، ويوسف السباعي، ومحمد عبد الحليم عبد الله، وزكي نجيب محمود، ولويس عوض، وسواهم من كبار الكتاب المصريين، وتعمقنا في قراءة الآداب الأجنبية: جوستاف فلوبير، وهنري دي بلزاك، وإميل زولا، وفولتير، وجان جاك روسو، وليو تولستوي، وديستوفسكي، والآداب اليوناني القديم والحديث، وميجيل دي سيربانتيس، وكتاب أمريكا اللاتينية ذوى الانتشار الواسع مثل جابرييل جارتيا ماركيز، وخورخي لويس بورخيس، وماريو بارجس يوسا، وإيزابيل اللندي وغيرهم.

كانت سناء عاشقة للأدب و للثقافة، وكنت أعجب من ذلك وأقول في نفسي: كيف تظهر امرأة في هذا الوقت بهذه الصورة التي نشأ عليها جيلنا؟ ومعروف أن أبناء وبنات جيلها تشغلهم أشياء أخرى بعيدة تماما عن الثقافة: فهم يعيشون عصر الردة الكاملة في كل شيء. وليتهم يرتدون إلي عصور النهضة الإسلامية بكل ما حملت من علم وثقافة وتقدم في كل المجالات، ولكنهم للأسف الشديد يأخذون نموذجهم من عصور التخلف، والفكر المغلق، والرؤية المنعدمة، والتركيز علي القضايا التافهة الباطلة التي تحجب عنهم نور البصر والبصيرة. وهكذا تبدو سناء المهدي وكأنها واحة ظليلة داخل صحراء قاحلة. إنها طاقة فريدة من نوعها في عصر لم يعد يفرخ إلا التفاهات. وكيف يتلاقى الجمال الباهر مع العقل المنفتح؟ فهل هذه خصوصية لم تجتمع إلا لسناء المهدي؟

كنت أذهب إلي شبين الكوم مرتين في الأسبوع زاعما لزوجتي صفاء البطران أني أقوم بتدريس مادتين في كلية الآداب. وكنت أستغل هذين اليومين في مقابلة سناء. فمرة نذهب إلي الإسكندرية، ولابد أن تكون الرحلة مع شركة سياحية حتى ينزل كل منا في حجرة قانمة بذاتها، أو نذهب إلي القاهرة نطوف بالأماكن السياحية، ونقضي أوقاتا ممتعة علي شاطئ النيل أو في مركب سياحي، ونأخذ الصور التذكارية التي كانت تتولي سناء حفظها لديها. وذات مرة قررنا الذهاب إلي الأقصر لمدة أسبوع، وأبلغت زوجتي صفاء أني ذاهب إلي الأقصر في رحلة مع الكلية. لم تشك ولم تتوجس ولم تسأل لماذا لا تأخذنا معك، لأن الأولاد كانوا مشغولين بالدراسة، وهي لا يمكن أن تفرط في عملية انتظامهم في الحضور.

في يوم الذهاب إلي الأقصر كان معنا تذكرتان حجزتهما الشركة السياحية في قطار النوم المنطلق من محطة رمسيس. خرجنا من شبين الكوم في سيارة أجرة بعد العصر بقليل. كنت أنظر إلي الخضرة الممتدة علي جانبي الطريق وأقول في نفسي: كيف منح الله مصر هذا الجمال وإن كانت لا تعرف كيف تستمتع به: أشجار السرو، والصفصاف، والجزورين، وأشجار النخيل الباسقة، والمزروعات الخضراء من كل صنف ونوع، والأعشاب الشيطانية المتناثرة علي حواف الترع والمصارف، وأشجار الكافور والتوت التي تمتد كمارد جبار، وتصنع حالة من المهابة ليس لها مثل في أي مكان. كيف لم يتناغم الإنسان المصري مع الطبيعة ليضع معزوفة موسيقية رائعة تزيل عنه رتابة الحس، وسوء المنقلب، وتضعه في دائرة الإحساس بالجمال، وبعقريه المكان علي النحو الذي فصله جمال حمدان.

أيقظتني سناء من سبات هذه اللحظة وكأنها تقول لي: أنا معك و لا ينبغي أن تنطلق في جو آخر. نظرت إليها وجمالها الأخاذ يفتن عيني ويتغلغل في مسامي، ويتحول إلي شعاع باهر يحملني إلي آفاق فسيحة لم يكن لي بها عهد من قبل. أما هي فكانت ساهمة، متوردة تنطلق منها منابع الحياة، وخيوط التفؤل، و أفاتين السحر. وكانت ساقي تحتك بساقها فأحس وكأن تياراً كهربيا سري، في هدوء وبرد وسلام ، بين جسدينا وبين روحينا. وكنت أتمني في تلك اللحظة لو تحققت أبيات ابن الرومي:

أعانقها والنفس بعد مشوقة	إليها وهل بعد العناق تداني
وألثم فاها كي تزول صبابتي	فيشتد ما ألقى من الهيمن
كان فؤادي ليس يشفي غليله	سوي أن تري الروحين يمتزجان

وصلنا إلى محطة رمسيس قبل تحرك قطار الصعيد بنصف ساعة. كانت هذه أول مرة أذهب فيها إلى الأقصر، وعندما وصلنا وجدنا سيارة الشركة تنتظرنا. أوصلتنا إلى الفندق. كان من الفنادق الفاخرة المطلة على النيل مباشرة، وكان ممتلئاً بالسائحين من كل مكان، وقد سهلت الدولة كل شيء من أجل هؤلاء السائحين: فمن حقهم، ولاسيما النساء، أن ينزلوا حمامات السباحة عراة أو شبه عراة. وإذا سألت: لماذا لا يلتزمون بأعراف البلد وتقاليدها؟ قالوا لك: لو فعلنا ذلك لأحجموا عن المجيء إلي هنا. مع أن هناك بعض البلاد الإسلامية التي تلزمهم باحترام تقاليد البلد. لكننا فرطنا في كل شيء ولم نشعر أن هذا فيه إهانة لنا. المهم أن تتدفق أموال السياحة. نفعل هذا ولا ندرك أن السائحين لديهم استعداد لاحترام تقاليد البلد إذا وجدوا منا حرصاً على ذلك. لم أحاول أن أشغل نفسي كثيراً بهذه الأمور، فيكفي أن معي سناء المهدي التي تشع جمالاً وتألقاً، ويكفي أن أجلس معها في صالة الفندق، وأن نمشي مثل ملكين يخطوان على أرض صلبة، وأن نتبادل نظرات العشق والغرام والحب والهيّام في انتظار أن تأتي اللحظة التي يمتزج فيها الجسدان ليصيرا جسداً واحداً. رتبت لنا الشركة زيارة معالم الأقصر وأثارها التاريخية المبهرة، فزرنّا معبد الأقصر، ومعبد الكرنك، وطريق الكباش، ومقابر الملوك، وانتقلنا إلى الضفة الغربية لنزور الأماكن الأثرية الأخرى. كنت أحس بالدهشة: كيف ترك قدماء المصريين هذه الآثار الخالدة التي احتفي بها العالم – لاسيما في فرنسا – أكثر مما احتفينا بها؟! وكيف تركنا بعض هذه الآثار نهياً للمغامرين واللصوص وتجار الممنوعات؟ وكانت سناء هي الأخرى مندهشة لدرجة أنها في بعض الأحيان كانت ترتمي في حضني وكأنها تريد أن تنقل إلي دهشتها، وتبثني أشواقها ولواعجها. تمنّت سناء – هكذا لاحظت في

عينها - لو أن كل الأسوار قد زالت، وكل الخيوط قد انفكت، وكل المعوقات قد ذهبت لأمتص منها رحيق الأشواق، وأرتمي في دوائر الحس، وأرتشف كنوس العشق، لكنها - والحق يقال - كانت حريصة جدا علي أن يظل لقائنا في الإطار المسموح به، رغبة في اشتعال نيران الحب، وتنامي أشكال الغرام، إضافة إلي ما تؤمن به المرأة المصرية بعامة من أنها إذا فرطت في جسدها في هذه الفترة فإن حب الرجل لها يمكن أن يخمد، بل إنه قد يتحول إلي شيء آخر لا تريده المرأة ولا يريده الرجل.

انتهت رحلة الأقصر وركبنا القطار المتجه إلي القاهرة. وفي محطة رمسيس أخذنا سيارة أجرة. كنا في الصباح الباكر، ولهذا استمتعنا بالنسمات المنعشة، وبالخضرة الممتدة علي جانبي الطريق. أوصلت سناء إلي فيلتهم ونظرات عينها الجميلتين تقول: كيف تتركني وحدي؟ ودعتها كما يودع العصفور إلفه، وانطلقت أستمع إلي موسيقي الكون التي تغلف كل أشكال الحياة. كانت الطبيعة برمتها تغني: الطيور بأشكالها وأنواعها، والعصافير وهي تطير وترقزق، والخضرة اليانعة المنتشرة في كل مكان، وخفقات القلب، ونسمات الصباح المشرق، ودفقات الحب التي تنسجم مع كل هذه النغمات الكونية الصادرة من الطبيعة والصادرة من القلب.

صحوت من نومي هذا اليوم والفكرة الملحة علي ذهني هي من هم أشهر من عرفوا بالعشق من العرب والأجانب: من العرب مجنون بني عامر وصاحبته ليلى، وكثير عزة، وجميل بثينة، وقيس بن ذريح ولبنى، وتوبة وليلى الأخيلية، وعروة وعفراء، وعبد الله العجلان وهند، وذو الرمة ومي، ونصيب وزينب، والمرقس وأسماء، وعتبة بن الحباب وربا، وكعب وميلاء، وقابوس ومنية، ووضاح اليمن وأم البنين، وابن أبي ربيعة والثريا، والمؤمل والذلفاء، والمهذب ولذة، والأحوص وسلامة، وأبو العتاهية وعتبة، وابن الأحنف وفوز، وابن زيدون وولادة وسواهم. وكان صفوان قد ذكر لنا بيتين لابن زيدون وآخرين لولادة مكتوبة علي نصب تذكاري في مدينة قرطبة بمناسبة إحدى الذكريات المئوية لهذين العاشقين. قال ابن زيدون:

يا من غدوت به في الناس مشتتيرا قلبي يقاسي عليك الهم والكدرا
إن غبت لم ألق إنسانا أسرُّ به وإن حضرت فكل الناس قد حضرا
وقالت ولادة:

أخاف عليك من نفسي ومني ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني خبأتك في عيوني إلي يوم القيامة ما كفاني

قلت في نفسي: هذا هو حالي مع صفوان، فلو أني خبأتَه في عيوني ما كفاني ذلك، فما بالي وأنا لا أراه في الأسبوع إلا في يومين فقط، بينما هو يعيش معي في كل لحظة، لدرجة أني أحلم به وهو يقبلني، ويعانقني، ويضممني إليه، ويتغلغل في كياني، ويسيطر علي وجداني وأحاسيسي. وأحيانا

أنوهم أنه يطرق باب الفيلا فأخرج إليه بوصفي امرأة مستهامة ترتمي في أحضانها، وتذوب في حبه، وتعطيه كل مفاتيحها التي كانت تتحكم في كيان مغلق قبل أن أتعرف عليه وأهيم بحبه، وكأني فرحة جارية علي بن الجهم الشاعر المعروف، حيث سألتها ذات ليلة: كم بيننا وبين الصبح؟ فقالت: عناق مشتاق. وقال لها مرة: نجعل مجلسنا الليلة في القمر؟ فقالت: ما أولئك بالجمع بين الضرائر!!

تذكرت كذلك كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، وقوله في باب " ما يحتاج الكاتب إلي ارتسامه وامثاله": ينبغي أن يكون الدعاء علي حسب ما توجهه الحال بينك وبين من تكتب إليه ... وقد كتب بعضهم إلي حبيبة له: عصمنا الله و إياك مما يكره. قال: فكتبت إليه: يا غليظ الطبع، لو استجيب لك دعوتك لم نلتق أبدا...!

أما من وردوا علي ذهني من العشاق الأجانب فهم: اللورد بيرون وعشق النساء له. وكان بيرون صارخ الجمال، تخرج من عينيه شرارة قاتلة كما قالت مدام دي ستال. وقال ستندال: " لم يكن بالإمكان أن يحمل رجل في وجهه عينين أجمل من عيني بيرون". وقد عشق اللورد بيرون عددا كبيرا من النساء منهم ماري دوف، وماري شاروث، وكارولين لامب، وتيريزا جينشيولي. وكانت ليدي كارولين لامب من أخلص السيدات اللاني أحببته، لكنه كان يغض الطرف عن حبها، وذات يوم هددته بأنها سوف تنتحر، عندئذ قدم لها خنجراً بديع الصنع، مرصعا بالجواهر والأحجار الكريمة وقال لها: تفضلي!

من أشهر العشاق في الغرب أيضا الشاعر الإيطالي دانتي وحبه الشديد لبياتريش. وقد عبر في كتابه " الحياة الجديدة" La vita Nuova عن حبه وشوقه لبياتريش، وهو مكتوب بلهجة توسكانيا العامية. ومما قاله دانتي عن بياتريش: " لو شاء الله الذي يفيض الحياة علي الكائنات جميعا أن يمد في أيامي كثيراً فإني آمل أن أقول فيها (أي في بياتريش) ما لم يقله أحد قط في أي مخلوقة أخرى، فإن أتممت ذلك رجوت الله أن يهبني مجد الذهاب للمتمتع بالجنة حيث أشاهد بياتريش".

هذه الخواطر المثالية التي تطرأ علي ذهني في الصباح أو في المساء أو في أي وقت آخر تأتي، في العادة، مصحوبة بصورة صفوان، حيث أتصور لطف منظره، وحسن هيأته، بقامته المستقيمة، ووجهه المبتسم، وقسماته المنسجمة، وشعره الواصل لجبهته، ودقة حاجبيه، ونظرته الساحرة المتيمة، والشعر المنتشر في كل أنحاء جسمه كما يبدو في ذقنه وشاربه وصدره ويديه. كنت دائما أقول لنفسي: متى يضمني في حضنه، ويمنحني كل ما تحتاج إليه المرأة العاشقة المستهامة؟.

كنا في فصل الخريف، والمدينة تغتسل بالضوء، ورذاذ من المطر الخفيف يسقط فيؤدي إلي حالة من الابتهاج، وينشر الأمل في كل ما يحيط بنا. وعندما حل وقت الضحى توقف المطر، وشقت الشمس أستار السحب، وكأنها تجفف ما أحدثه المطر، بينما تداعب بأشعتها الثري ورعوس الأشجار، وتنتشر في الكون حالة من الدفاع تعم كل الكائنات. خرجت إلي الجنيئة الملحقة بالفيلة، وأخذت أداعب الأشجار وكأني أداعب صفوان وألاعبه. تلبستي شخصية بثينة صاحبة جميل فقلت في نفسي: هل يراني صفوان مثلما رأي جميل بثينة؟ لقد رأها فارعة الطول، جميلة المنظر، أدماء، لطيفة طي الكشح، ذات

شوي خدل، دقيقة الخصر، بهية الصورة، وأطرافها ممتلة مثيرة، يفتر ثغرها
عن أسنان بيضاء جميلة مفلجة الأنياب. ولهذا قال فيها:

مفلجة الأنياب لو أن ريقها يداوى به الموتى لقاموا من القبر
كما كان جيدها أملس، وعيناها ساحرتين كأنها طفلة صغيرة مدللة، ومن
هنا قال جميل:

وأحسن خلق الله جيداً ومقلّة تُشبهه في النسوان بالشادن الطفل

قلت لنفسي: لا بد أن أرى صفوان قبل حلول اليومين المحددين، ورأيت أن
أفضل طريقة هي دعوته علي الغداء أو العشاء. حدثت أمي في ذلك فوافقت.
اتصلت بصفوان وقلت له أنت مدعو للغداء في بيتنا يوم كذا. وافق، لاسيما
وأنه كان يريد أن يري ماذا فعل العمال والصناعية في الشقة. حضر في
الساعة المحددة وهي الخامسة مساء فيما بين العصر والمغرب. كانت
الشمس تنحدر نحو الغرب والغسق أخذ ينشر مساحته علي الكون متأهبا
لإسدال أستاره، وكان لون صفحة السماء بنفسجيا داكنا، وفوقه سحب ذات
لون أحمر وبرونزي، وحواف ذهبية تتعاقب مع ضوء الغسق، وتصنع لوحات
مختلفة وكان في السماء مراكب أو طيوراً أو كائنات عجيبة تنسل منها أهداب
وصور وخيالات متحركة. كان منظر الغروب يثير في النفس مشاعر جياشة
تضفي علي حديقة الفيلا صورا من الجمال الطبيعي الذي ينسجم مع ما يعمور
في النفس من مشاعر وأحاسيس، وما يضطرب في القلب من خواطر وأفراح.
طلبت من صفوان أن نجلس لبعض الوقت في الجنية إلي أن يحين موعد
الأكل. رد صفوان: وهل جنت إلا لأجلس معك، وأتمعن في جمالك، وأذيب

بعض أشواقى التي جعلت منى شخصا هائما متيما، يتغنى بقول جميل بن
معمر:

إذا قلت ما بى يا بثينة قتلى من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فما ذكر الخلان إلا ذكرتها ولا البخل إلا قلت سوف تجود

قالت سناء في دلال يذوب منه القلب: هل ترى أن ما بيني وبينك ينطوي
علي شيء من البخل؟ قلت نعم، وهل أنت إلا كنوس الطلا التي لم أقترب منها
إلى الآن. قالت: أنا أكثر شوقا إليك مما تتصور، وأتمنى لو تمثلت قول
المجنون مخاطبا صاحبتة ليلى:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزنتي إليك المضاجع

وأضافت سناء: أنا لا أتخيل أن أعيش بدونك أو أكون بعيدة عنك، ولكني
في هذه الفترة من خطوبتنا أمارس نوعا من الحرية تعلمناها منك وأنت
تدرس لنا مادة " الأدب العباسي ": فالحرية هي أن تكون لديك رغبة قوية،
لكنك تتغلب علي هذه الرغبة العارمة طالما أنها ليست في وقتها. فلكل شيء
وقت محدد، وإذا لم يحسن المرء التصرف وقع فيما لا ينبغي أن يقع فيه.
فالحرية إذاً أن تحرر نفسك من الشهوات والرغبات الملحة، وأن تنصت
لصوت العقل حتى لا تقع فيما لا تحسن عقباه. وأردفت سناء: إنني أذوب
شوقا فيك، وأتمنى لو ارتيمت في حضنك، وارتشفت من كنوسك المترعة،
ولكني الآن أمارس حريتي في قتل رغباتي حتى لا أقع فيما وقعت فيه

أخرى؛ تصورن أن الحب هو الاستسلام الكامل لرغبة المحبوب، فكانت نهايتهن مأساوية.

كانت والدة سناء قد انتهت من تجهيز السفرة فنادت علينا، وجاء الوالد أنيقاً مهنّداً كعادته. سلم عليه صفوان بكثير من المودة والاحترام. قال الوالد: نترك الأحاديث والمناقشات لما بعد الأكل. كانت والدتي معروفة بطعامها الشهي المعمول بدقة وإتقان، وكما يقال فيه نفس منها، ويبدو أنها تعلمت فنون الطبخ من والدتها التي كانت بارعة في ذلك. وكان الأكل مع صفوان له طعم آخر بالنسبة لي. أكلت وكأني أمد يدي للقمر لأداعبه، وأتطلع للسحب الكثيرة التي تنتشر في صفحة المساء مظلة تبدو خارجة من قاع مياه النيل. وكنت أنظر لصفوان فأجده، رغم انشغاله في الأكل، يتطلع إليّ، مركزاً النظر في وجهي، وشعري الذي تركته مرسلاً علي كتفي، ينساب كما تنساب المياه الصافية علي سطح أملس متلألئ.

بعد أن انتهينا من الأكل وجه والدي سؤالاً لصفوان: هل انتهيت من تجهيز الشقة؟ رد صفوان: لم يبق إلا شراء العفش والأدوات الكهربائية. قال والدي: حسب اتفاقنا فإن هذه الأشياء تشتري مناصفة فيما بيننا. وأضاف الوالد: هل تريد أن نكتب عقد القران يوم الفرح أم قبله؟ رد صفوان بأدب جم: هذه مسألة تحددها سيادتكم. قال: أعتقد أنه من الأفضل أن يتم عقد القران يوم الفرح.

استأذنا في أن نقضي وقتاً في الخارج فأذن لنا الوالد، مشروطاً ألا نتأخر كثيراً. ذهبنا إلي منطقة تكثر فيها أماكن الترفيه والمقاهي والكافيتريات. جربنا لأول مرة بعض الألعاب التي تحتاج إلي جرأة. كان جسدنا يقتربان كثيراً ويحتكان أحياناً، والتقطت لنا صور ونحن في هذه الأوضاع. تذكرت في

هذه اللحظة سيدة كانت عضوة بأحد الأحزاب اليسارية، بينما كانت تمشي في الشارع رأت فتى وفتاة يضع منهما ذراعه في جنب الآخر، فاطلقت من فمها بصورة تلقائية جدا كلمة " الله!!!" ثم أضافت: هذا هو الحب. لماذا يضع الكبار العقبات والأشواك أمام الجيل الجديد، ويحرمون عليه كل شيء بما في ذلك الحب الذي هو نتاج طبيعي للحياة علي هذه الأرض؟.

أحس صفوان بأني انطلقت فيما وراء الحس فحاول أن يعيدني إلي الواقع. قال لي: هيا نركب هذه اللعبة الدوارة. ركبناها فكنا مثل طفلين، أعني هنا قيساً وليلي، يلهوان في جبل التوباد، علي نحو ما قال قيس:

جبل التوباد حياك الإله وحمي الله صبابنا ورعي

فهل نحن الآن فعلا في جبل التوباد؟ وهل هذه هي الأيام التي نرتوي فيها بكنوس الحب؟ إنه زماننا الذي ينبغي أن نحافظ عليه.

عندما قررت أن أخبر زوجتي صفاء البطران بأني سوف أتزوج رأيت أنه من الأوفى أن أذهب وحدي إلي الإسكندرية لأقضي يومين هناك وأفكر في أفضل الطرق لتوصيل هذه الرسالة إليها. نزلت في الإسكندرية في منطقة الرمل بفندق وندسور المطل علي البحر، وكان هذا هو الفندق الذي تعودت عليه لأنه كان يختار لي دائما عندما أذهب إلي ندوة أدبية تقيمها هيئة قصور الثقافة أو أي مؤسسة أخرى. كنت أحب منظر الفتيات الجميلات المختارات بعناية فائقة وإحادهن تقدم لك عند الدخول مشروباً مثلجاً ثم تقودك إلي الغرفة التي ستقيم فيها وهي ترتدي تنورة مما يطلق عليه " الميني جب" حتى ولو كنا في عز فصل الشتاء. ويبدو أن هذا النمط من اللبس كان مفروضاً عليهن من إدارة الفندق لجذب السائحين. فتحت لي الغرفة الفسيحة التي تدل ويدل المبني بكامله علي أنه أقيم في فترة كانت المباني المهمة تأخذ فيها شكل القصور. بل إنني رأيت ذلك، ذات مرة، وأنا أتجول مع كاتب أجنبي وزوجته في بعض مناطق الإسكندرية، ومن بينها المنطقة التي كان يسكن فيها الشاعر اليوناني السكندري كفافيس، فهذه الفخامة إذأ في المباني كانت من الميزات التي تتميز بها الإسكندرية يوم أن كانت مدينة كونية. أين نحن الآن من ذلك والأبراج السكنية الضخمة معرضة للسقوط علي ساكنيها؟!

صحوت من النوم مبكراً – كما هي عادتي – وأخذت حماماً، وكنت أطلع من النافذة الزجاجية فأري الدنيا من حولنا تغسل وتتلاألأ. والشمس تطل في استحياء شديد وكأنها تريد أن تترك الناس في هذا الجو المنعش لأطول فترة ممكنة. نزلت إلي المطعم في الدور الأرضي ورأيت الفتیان والفتيات في حالة

احتشاد حقيقية لخدمة النزلاء من كل الجنسيات. تناولت طعام الإفطار من البوفيه المفتوح مختتما بكوب من الشاي، ثم غادرت الفندق. توجهت ناحية اليمين، فكان البحر الذي يفصلني عنه الطريق الأسفلتي يبدو ساكنا هادنا ولونه أزرق داكن. لا أدري لماذا كنت أجدني دائما أتوجه مسرعا إلي الساحة المقام بها تمثال الزعيم سعد زغلول، هذا التمثال الفخم المهيّب الذي صنعه فنان حقيقي. ويبدو أن أوضاعنا الحقيقية تدهورت إلي حد أن التماثيل التي صنعها النحاتون الحاليون صارت تعبر عن شخص متسول لا عن شخصية عظيمة لا وجود الدهر بتمثلها. ولعل ما زادني حبا لسعد زغلول قراءتي للكتاب الضخم الذي كتبه عنه عباس محمود العقاد. ومما جاء فيه أن كثيرين من الكتاب الأجانب رأوا أن سعد زغلول ليس من أصل مصري لأنه بصفاته وشخصيته لا يمكن أن يكون مصرياً. وقد رد العقاد علي هذه النقطة وفندها، لكنها في النهاية تدل علي أن سعداً كان شخصية فذة لا مثيل لها، وأنه قدم للشعب المصري نموذجاً فريداً ليس من السهل أن يتكرر.

عبرت الطريق إلي شاطئ البحر في اللحظة التي كانت الشمس تعلن فيها عن نفسها وتزيح ما تناثر من الندى وغبش الليل علي رعوس الأشجار، والصخور، والبلاط الممتد. أما الألوان فكانت تفرح علي الأفق ما بين البحر والسماء الصافية التي لا يتخللها إلا بعض السحب الخجولة. جذبت الألوان نظري فوجدتها خضراء، وردية، لازوردية، لؤلؤية، في الوقت الذي تستيقظ فيه الطيور الصغيرة المغردة من سباتها، بينما طائر النورس الذي تشتهر به الإسكندرية ينشر أشرعه في السماء ليحط بين الحين والآخر علي صفحة الماء. أحسست في داخلي ببهجة عارمة، وتمنيت لو استمر هذا الجو المنعش لفترة من الوقت قبل أن تنشر الشمس أشعتها القاسية. خطر علي ذهني وأنا

أخطو هذه الخطوات المتأنية علي الشاطئ أن أفكر في كنه الروح. قلت في نفسي: هل ثمة تماثل خفي قائم بين الروح و بين السحب والألوان والروائح، وكأن الروح هي كل هذه الأشياء مجتمعة؟ أم أن الروح تصفو أكثر بصفاء البحر وكل ما يتلألأ علي شاطئه؟ أم أن الروح كائن أبدي لا يدرك كنهها إلا الله علي نحو ما جاء في القرآن الكريم: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا".

تخيرت مقعدا مريحا علي شاطئ البحر. جلست وحدي، وأخذت أفكر في المشكلة التي تواجهني: كيف أخبر زوجتي صفاء بأني سوف أتزوج؟ هذا الموضوع – في رأيي – لا يمثل أي مشكلة، لأنه غير مخالف للشرع، وهو موجود بكثرة الآن في دول الخليج. إذأ المشكلة عندنا نحن، فالمرأة المصرية الحالية لا تقبل بأي حال من الأحوال أن يرتبط زوجها بامرأة أخرى تكون لها ضرة، وليس هناك إلا استثناء واحد هو النساء اللاتي ارتبطن بالجماعات الإسلامية، فهؤلاء من السهل إقناعهن بأن زواج الرجل بأكثر من امرأة هو من صميم الشرع. بل إن النساء الأوربيات المسلمات اقتنعن بذلك أيضا. وأذكر وأنا في فرنسا أن كلفني أحد السفراء العرب بعمل بحث عن المسلمين في إحدى المدن. فضلت أن أذهب أولا إلي أمير الجماعة الإسلامية. طرقت بابه ففتحت لي زوجته الفرنسية شبه المنقبة. سألت عن مروان، وهو الاسم الذي تسمي به بعد إسلامه. فقالت لي: إنه يقضي شهر العسل مع زوجته الأمريكية في نيويورك. قلت لها: متى تزوج؟ قالت: منذ عشرين يوما. قالت هذا الكلام وأنا أتابع انفعالاتها لعلي أعثر علي أثر للضييق أو الحزن فلم أعثر علي أي أثر. كانت تتكلم بشكل طبيعي جدا مما يدل علي أنها مقتنعة تماما بما حدث. لي أيضا صديق متخصص في الدين والشريعة الإسلامية زوجته جميلة

جدا، ومع ذلك فرض عليها النقاب وتزوج عليها من امرأة في أسبوط، فلم تحتج ولم تتخذ أي موقف يكون له تأثير علي أولادها. هذا الصنف إذاً من النساء يري الزواج الثاني أو الثالث أو الرابع مسألة طبيعية جداً لا ينبغي أن تؤدي إلي هدم البيوت.

لكن الغالبية العظمى من النساء، يرفضن هذا المنطق تماماً، لاسيما بنات جيلي اللاني تعلمن وحصلن علي شهادات عالية في الطب والهندسة، والعلوم، والاقتصاد والسياسة، والآداب، والحقوق وسواها. إنهن يرون في زواج أزواجهن بأخرى نوعاً من الخيانة، والامتهان لشخصها، والتضحية بالحب الذي جمع بينهما، لدرجة أنهن صرن يعتقدن أن ذلك جريرة لا يمكن التسامح بشأنها. وقد تحول الأمر عندهن إلي نوع من القداسة. ومن المعروف أن القداسة في حياة البشر تجعلهم يلتزمون بأشياء هي في حد ذاتها بعيدة تماماً عن التقديس. ولعل الكتاب الذي كتبه ليفي شتراوس عن "الفكر البري" أبرز دليل علي ذلك، وإن كان للكتاب جانب إيجابي مهم هو أن البشر متساوون في فكرهم حتى ولو بلغ بعضهم أعلى درجات الحضارة وغاص بعضهم في التفكير البدائي الذي لم ير أي لون من ألوان الحضارة الحديثة، لكن الجميع في المحصلة النهائية يدخلون في سياق التفكير علي أي نحو كان.

ولعل هذا يفسر إيمان الناس بالخرافة لدرجة أن امرأة مشعوذة أقامت ساحة في أبيس بمدخل الإسكندرية، فكانت الساحة تمتلئ بالآلاف ممن جاءوا طلباً للشفاء، ومنهم أساتذة جامعيون ومهندسون ورجال فكر وأدب. كما امتلأت الساحة بالباعة من كل نوع طلباً للرزق. وكانت المشعوذة تلقي تعليماتها لمرضي السكر مثلاً قائلة: مرضي السكر يستمرون في العلاج الذي

معهم لمدة أسبوع أو عشرة أيام، بعدها يتوقفون عن العلاج، وسوف يتولي الجان علاجهم. وأذكر أن إحدى قريباتي ذهبت إلي ساحة أبيس، وسمعت التعليمات، ثم توقفت عن العلاج مما أدي إلي غيبوبة سكر توفيت في إثرها. أيضا أحد الزملاء كان لديه فيروس "س"، وسمع مشايخ الإعلام يقولون إن ألبان الإبل وأبوالها تشفي من هذا المرض، فذهب إلي مرسي مطروح ودفع كثيرا من الأموال لأكثر من مرة لكنه قضى نحبه بعد فترة قليلة. فهل هذه خرافات أم أنها نوع من التقديس الذي يضيفه البشر علي بعض الأشياء لدرجة أنهم يصنعون هذه القداسة صنعا؟.

و لا شك عندي أن زوجتي صفاء من هذا النوع من النسوة اللاني لا يقبلن أن يشاركنهن في أزواجهن امرأة أخرى. فماذا أصنع إذا وضح فعلا أنها كذلك؟ وهل يمكن أن أتخلي عن زوجي من سناء المهدي. وفي هذه اللحظة تذكرت كلمة وردت في كتاب " كلية ودمنة" تقول: " من لم يرتكب الأهوال لم ينل الرغائب". وهذه الكلمة محت عندي كل ما يمكن أن يطرأ علي ذهني من معوقات. فزوجي من سناء المهدي مسألة محسومة حتى ولو رفضت صفاء رفضا قاطعا أن تستمر معي. ولن يكون للأولاد أي تأثير علي هذا الحسم، لأن سناء إذا تخلت عنهم، فيما يتعلق بالرعاية، سوف يكونون تحت رعايتي المباشرة.

وهكذا بعد أن حسم الأمر، علي الأقل في داخلي، قررت العودة إلي الفندق لتناول طعام الغداء وأخذ قسط من الراحة. كنت في غاية السعادة لأنني تغلبت علي كل مظاهر الضعف التي يمكن أن تتناوبني في أي لحظة، وكنت سعيدا لأنني لم أسمح للشقاء أو التعاسة أن تسد عليّ طريقا قررت المشي فيه. انتصرت علي نفسي وفعلت مثلما فعل سلفادور دالي مع شاب جاء يطلب

نصيحته قبل أن يقوم برحلة إلى أمريكا. يقول دالي: أعجبتني الحكاية، فلبست الزى الخاص ونزلت لمقابلته. قال الشاب إنه يريد الذهاب إلى أمريكا ويحقق نجاحا في أي مجال، وإن الحياة المتوسطة العادية في أمريكا تروق له. سأله دالي: هل لديك عادات ثابتة؟ وهل تحب أن تأكل جيدا؟ أجاب الشاب: أستطيع الحياة علي أي شيء.. فاصوليا مثلا .. أستطيع أن أعيش عليها كل يوم لعدة سنوات. قال له دالي وهو شبه حالم و بلا مبالاة: ذلك سيئ. اندهش الشاب فشرحت له: إذا أردت أن تأكل فاصوليا وخبزاً كل يوم فذلك مكلف، لأنك ستكسبها بالعمل الشاق، أما إذا استطعت التعود علي تناول الكافيار والشمبانيا فلن يكلفك ذلك شيئا. يقول دالي: إن الشاب ابتسم ببلاهة، وظن أنني أمزح. قلت بجديّة: أنا لم أمزح في حياتي قط. وفي الحال بدأ يصغي بتواضع، فقلت له: الكافيار و الشمبانيا يمكن أن تقدمهما لك مجانا سيدات متميزات جدا تفوح منهن رائحة عطر رائع، ويحيطهن أوفر الأثاث وأجمله، ولكن لتحصل عليهن يجب أن تكون مختلفا عن الشخصية التي جئت تقابلني بها: أظافر قذرة بينما أقابلك أنا بزي رسمي. اذهب واعمل علي حكاية الفاصوليا. إنها مشكلتك، كما أن شكلك يشبه حبة الفاصوليا الجافة المجعدة. أما بالنسبة للون قميصك السبائخي – إذا لم أخطئ – فهو بالضبط اللون الذي يميز الفاشلين من الناس، والذين يهرمون قبل أوانهم.

في الفندق تداخلت في رأسي الأشياء: البنات الجميلات اللاتي يخدمن النزلاء، والطعام الفاخر المصنوع بعناية وإتقان، و النزلاء الذين يروحون ويجيئون في المطعم وفي ردهات الفندق، والصالون المطل علي البحر والذي يتسع لجلوس عدد كبير من الناس، و النقوش الجميلة التي تزين الصالون. وربما لا أكون مغاليا إذا قلت إن ما كان يشدني أكثر من أي شيء آخر هو

جمال الفتيات في هذه السن التي تظهر فيها محاسن المرأة علي نحو لا يستمر بعد ذلك كثيرا. قلت في نفسي: لماذا جننا في الزمن الصعب الذي يصل إلي حد تحريم النظر إلي المرأة وكأنها سوأة أو صورة من صور الخطيئة؟. فقد أحل الإسلام للشخص أن يمتلك من الإماء والجواري ما يشاء، وذلك علي العكس من الحرائر، بحيث حرم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع، والاستثناء الوحيد فيما يتعلق بالجواري هو أنه في حالة استولادها يحرم عليه بيعها وترد إليها حريتها بعد وفاته، ويصير أولاده منها أحراراً بعد ولادتهم. ويقال إن الرجال كانوا يفضلون الجواري علي الحرائر لأنهم كن من أجناس مختلفة: الفارسيات، والحبشيات، والأرمينيات، والتركيات، والروميات، والسنديات وغير ذلك. وكان هناك عامل آخر يبعث علي التفضيل هو أن الرجال كانوا لا يتفحصون فيما يريدون الاقتران بهن من الحرائر، بينما الجواري معروضات تحت أعينهم في سوق النخاسة، فكان الاختيار الدقيق متاحاً، وكان الفحص مباحاً.

وفي ذلك يقول الجاحظ في رسائله: "قال بعض من احتج لليلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظي عند الرجال من أكثر المهيبرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم علي ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة، والحررة إنما يستشار في جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلاً ولا كثيراً، والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة ظاهر الصفة، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك. وقد تحسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عيناها عين غزال وكأن عنقها إبريق فضة وكان

ساقها جُمّارة وكأن شعرها العناقيد وكأن أطرافها المدارى وما أشبه ذلك، وهناك أسباب آخر يكون بها الحب والبغض".

ذهبت إلي الغرفة وما راغني إلا نور النهار الأزرق المائل للاخضرار ينساب من خلال الزجاج، ونسمات البحر المنعشة تخترق الستائر وتنفذ إلي عبر الضلفة التي فتحتها، والروائح العطرة القادمة من البحر والممتزجة بروائح أخرى تضخها المركبات والمارة وعربات الحنطور تتسلل إلي فتصفي علي المكان جوًّا فيه سحر وجاذبية وطراوة. وأنا خلال كل هذا أخاطب في داخلي طيف سناء المهدي وكأنني في حالة حوار معها، كما أخاطب طيف صفاء البطران متمنيا من أعماقي أن تتفهم الوضع، وأن ترضي بالأمر الواقع، وتحاول أن تتغلب علي أفكارها وترضي بما رضيت به بعض الزوجات حتى لا يكون أولادها ضحية للانفصال في حالة الوصول إلي ما يمكن أن نسميه: آخر الدواء الكي.

وهأنذا أغادر الفندق متوجها إلي القاهرة استعداد للقاء الحسم مع صفاء البطران، بعد أن حسمت أمري وقررت أن تكون المواجهة هي الطريق الأوحـد للخروج مما أنا فيه.

عاد محمد صفوان عبد الخالق من الإسكندرية وكأنه يحمل قرار الحسم في يده متذكراً مقولة جوته حين وصل إلي روما: "وأخيراً أن أولد". ثم إنه أدار في داخله حواراً حول مسألتي الصواب والخطأ وفي أعماقه كلمة قرأها ذات يوم تقول: "إن الأخطاء ذات طبيعة مقدسة". فهل يمكن أن تكون الأخطاء كذلك حتى لو أثرت بالسلب علي آخرين؟. أحضر صفوان من مكتبته كتاب "كثيلة ودمنة" وقرأ فيه الجملة التالية: "أربعة أشياء أصفار: النهر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها بعل، والجاهل الذي لا يعرف الخير من الشر". قال في نفسه: لا يمكن أن أكون صفراً، مثلما لا يمكن أن أتخلي عن شيء أحله الله لمجرد الخوف من ردود الفعل.

تصادفت عودة صفوان إلي القاهرة مع غروب الشمس التي كانت أشعتها تنسحب في خجل شديد وهي تلقي بأخر ما تبقي فيها من جمرات في أفق لازوردى يستعد هو الآخر للرحيل، ويتصارع مع موجات الغبار والدخان والأتربة التي تملأ ميدان رمسيس، إضافة إلي عوادم السيارات التي تنتشر سمومها في الجو بينما الناس يمضون في طريقهم فرادى وجماعات غير عابئين بشيء. ركب صفوان مترو النزهة وجلس بجوار النافذة وهو يتوقع أن يطول الوقت، لأن المترو أعطاله كثيرة، والطريق القائم علي قضبان حديدية غير ممهد بالشكل المطلوب. تذكر مترو باريس، وطرق القطارات النظيفة المجهزة في كل أنحاء فرنسا فقال في نفسه: هل كتب علي الشعب المصري أن يظل في حالة ما قبل الثورة الصناعية؟ وادكر أنه تلقي عرضاً

بالبقاء في فرنسا لكنه رفض، و أثر العودة إلى مصر بعد حصوله علي الدكتوراه، وها هو العود أحمد، فهل لو بقي في فرنسا كان سيعثر علي فتاة في جمال سناء المهدي، ورقتها، ودلالها، وثقافتها، وقوة شخصيتها؟ إن مصر لم تخل أبدا من عناصر الجمال، لكنها تحتاج إلي حكام حريصين علي مصلحة الشعب وتقدم البلد، وأن تكون أياديهم نظيفة، وقلوبهم طاهرة. فهل ينطبق علي مصر ما قاله داود الأنطاكي من أنه سافر إلي مصر وهبط إليها هبوط آدم من الجنة فوجدها، كما قال أبو الطيب، ملاعب جنة غير أنها تنبو عن قبول الحكمة؟

نام صفوان ليلته مؤرقا، لكنه صحا من نومه في ساعة مبكرة – كما هي عادته – وفي لحظة الشروق خرج إلي الشرفة فرأى الشمس وهي تخرج من مخبئها، تنبض بالحياة، وتنشر أشعتها في كل مكان، وكلما امتد الوقت كانت تسطع وتثير، لكنها مع ظهور بعض السحب تظلم وتدلهم وكأنها وجه نابض بالحياة يعز عليه أن يختفي لبعض الوقت وسط الضباب. فكر صفوان في نفسه: لماذا لا أتصل بصديقي الدكتور محمود فضالي حتى أذهب لزيارته وأحدثه في موضوع زواجه من امرأتين؟ كلمته واتفقنا علي موعد في نفس اليوم بعد صلاة العصر. كان الدكتور فضالي قد ذهب في إغارة لإحدى دول الخليج وبعد عودته اشترى قطعة أرض في منطقة شعبية قريبة من مصر الجديدة وبني عليها فيلا. زاره صفوان كثيرا قبل ذلك، وعرف أن الطريق إلي هذه الفيلا صعب جدا: طرق غير ممهدة، وشوارع ضيقة، وتعديات علي الشوارع من جانب أصحاب الورش، وحتى من السكان أنفسهم، وأكوام زباله في كل مكان، وشجيرات متناثرة هنا وهناك ويذكر صفوان أنه قال له ذات

مرة: طالما أنك أردت بناء فيلا، فلماذا لم تتخير منطقة نظيفة؟ أجاب: لأن الأموال التي جمعتها من الإعارة لم تكن تكفي، فقلت شيء أفضل من لا شيء. ركب صفوان سيارته وذهب إلي صديقه الذي رحب به كثيرا. جلسا في حجرة الصالون، وقدم لهما المشروبات أحد أبنائه لأن زوجته منقبة ولا يراها أحد. سأله صفوان كيف جمعت بين امرأتين؟ ولماذا لم تغضب زوجتك الأولى؟ رد فضالي: فيما يتعلق بالغضب فإنها غضبت وتذمرت ووصل الأمر إلي حد أنها هجرت الفراش لفترة، ولكنني استطعت أن أقنعها بأن زواجي من امرأة مقيمة في أسبوط مسألة فرضتها الظروف القاهرة، فأنا أقيم هناك لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع وأحتاج إلي امرأة تخدمني وتعيش معي، وتعينني علي الحياة. قال صفوان: وهل اقتنعت بهذه الحجة؟ رد فضالي: نعم، لاسيما وأني ذكرت لها بأن لدينا من الأبناء خمسة ذكور وابنة، وهؤلاء جميعا يحتاجون إلي رعاية. أضاف فضالي: لماذا تسأل عن هذا الموضوع؟ هل لديك أنت الآخر مشروع زواج؟ قال صفوان: نعم، وحب تغلغل في الأعماق. إنها يا صديقي فتاة شابة، جميلة، بيضاء، ناهد، رشيقة، رقيقة الصوت، خفيفة الانعطاف، مليحة الخلق، مطواعة، معتدلة القد، مثقفة، ذات حضور واضح، ونفس شفافة، وقلب ولهان، وعقل رصين.

قال فضالي: طالما أنها كذلك فلا تفرط فيها مهما حدث. ثم سأل: وما رأي زوجتك في هذا الزواج الثاني؟ قال صفوان: لم أكملها بعد. وقد جئت إليك خصيصا من أجل ذلك، لأنك رجل صاحب خبرة في هذا المجال. رد فضالي: من الخبرة التي اكتشفتها بعد غضب زوجتي وهجرها للفراش أقول لك: قبل أن تخبر زوجتك جهز نفسك لليلة حمراء تبلغ فيها المعاشرة الزوجية أسمى غاياتها، وبعد أن تنتهي من ذلك وينضم الجسدان أحدهما إلي الآخر أوصل

إليها الرسالة التي تريد أن تقولها، فلعلمها في هذه اللحظة تفكر فيما سوف تخسره في حالة انفصالها عنك أو طلبها الطلاق أو غير ذلك.

أثرت في صفوان كلمات صديقه فجهز نفسه جسديا ونفسيا لليلة يغيب فيها القمر عن كبد السماء لكنه يطلع في حجرة النوم، وينشر جناحيه في سقف الغرفة وكأنه مظلة ترفرف علي الحبيين. كان صفوان مقتنعا بأن العشق هو اختيار كل ما هو جميل، والتخلي عن كل ما هو صعب أو مربك. وكانت صفاء تملك جسد امرأة جميلة، بارزة النهدين، دقيقة الخصر، ممتلئة الساقين بلا ترهل، مستوية المؤخرة، مدعومة الكتفين. وقد تجهزت لهذه الليلة وكأنها تدرك أنها ربما تكون الأخيرة. كان جسدها ينضج إثارة وجراً بعد أن لبست أجمل قميص نوم لديها، وقد انعكس حفيف هذا الرداء الحريري الناعم علي جسدها، الذي أخذ يتضوع عطرا ويكاد يتفجر من الإثارة والرغبة. التصق بها صفوان كما لم يلتصق بها من قبل، وتوحد العاشقان في كيان واحد حتى بلغت اللذة ذروتها مصحوبة بالألم اللذيذ الذي يؤدي إلي مزيد من الالتصاق، ومزيد من الحب، ومزيد من الرغبة. وبعد حوالي نصف ساعة عاد المحبان إلي جولة أخرى، تبعثها ثالثة ورابعة لدرجة أن صفوان قرر ألا يخبرها الليلة بمشروع الزواج الذي حسمه ولم يعد ثمة مجال للمراوحة أو التردد.

التصق صفوان بجسد صفاء من الخلف كما كان يفعلان دائما واستسلمت هي لنوم عميق، أما هو فقد ظل مؤرقا، ينطلق تفكيره هنا وهناك. فكر في ماهية الحب، وكيف يمكن أن يحب المرء امرأتين في وقت واحد؟ إنه يحب صفاء، وأيضا يحب سناء، وهو لا يريد أن يتخلي عن أي امرأة منهما. فصفاء هي زوجته الأولى التي عاشت معه في فرنسا، وأنجبت له الأولاد، وضحت

من أجله إذ كانت تهيب له الجو لكي يذاكر وينجز رسالته، ثم إنها حريصة عليه جدا، وتخاف عليه، وتنتظره علي أحر من الجمر. أما سناء فهي فتاة جميلة من جيل آخر، مثقفة، وقلبها نابض بالحب، وهي أيضا تحبه حباً لا مثيل له. فهل يمكن أن يجتمع حب امرأتين في قلب رجل واحد؟ شواهد التاريخ كلها تقول إن هذا ممكن وإنه وقع فعلا، والعرب في شبه الجزيرة العربية مازالوا إلي اليوم يحبون ويتزوجون أكثر من امرأة. وسناء نفسها ليس لديها مانع من أن يستمر صفوان مع صفاء. شرطها الوحيد هو ألا يعيشا معا في شقة واحدة. فما هي إذا ماهية الحب؟ فهل هو قدر من الأقدار علي نحو ما قال أبو البكر الأصبهاني:

ولم يكن باختيار لي فاتركه ولا اضطرار أتاه القلب مقهورا
لكنه من أمور الله ممتنع في الوصف قدره الرحمن تقديرا

أم أن الحب هو لقاء جسدين في لحظة إثارة جنسية تجعل الشخصين يندمجان وينسيان ولو لفترة قصيرة كل ما يدور في ذهنهما؟ هذا أيضا موجود، قاله زوربا اليوناني لرئيسه: "حضرتك تضايقتي ما بين اللحظة والأخرى، وتعيرني بأنني أحب النساء، فكيف بالله عليك لا أحبهن؟ أو لسن مخلوقات ضعيفة لا يعرفن ماذا يحدث لهن؟ ولو أنك أمسكت حلمة ثدي واحدة منهن، ألن تفتح أمامك في التو جميع أبوابها، وتستسلم لك؟!".

أم أن الحب يأتي بعد سباب، علي نحو ما حدث بين جميل وبشينة في وادي بغيض. كان جميل يسوق قطيعا من الأغنام والإبل في ذلك الوادي الذي يمتلئ بالعشب النضير والخضرة الممتدة هنا وهناك، ففترقت الإبل والغنم زرافات ووحدانا، ومضت تأكل الكلأ الأخضر في نشوة أحس بها جميل. ومضت

الأغنام والإبل بين الخضرة والماء، حتى شبعت وارتوت، وشعر جميل عندئذ أنه في حاجة إلى الراحة بعد المجهود الذي بذله في رعاية القطيع، فاضطجع علي العشب، وبدا كأنه نائم وهو غير نائم، بل ظلت عيناه مفتوحتين تنظران إلي صفحة السماء وقد امتد به الخيال وشرده به الفكر، وتاه في متاهة الكون الفسيح الصافي المتلألئ. ولم يفق من شروده إلا علي صوت الإبل وهي تعدو حوله مفزعة، وتنطلق شاردة نافرة، فنهض من ضجعته وهو في حالة قلق واضطراب، ونظر حوله فرأى فتاتين تنفران الإبل، فتنهض مذعورة من بروكها، وهنا وجه جميل سبابا إلي الفتاتين، وانطلقت واحدة منهما ترد السباب إلي جميل وتتهمه بالاقتراء عليهما. ولم يكد جميل يسمع صوتها ويتبين سبابها حتى شغل بها عن الإبل والأغنام، وأحس بأنه عثر علي ضالته المنشودة التي حلم بها منذ زمن بعيد. كانت الفتاة فارعة الطول، جميلة المنظر، خصرها إلي وسط ظهرها لطيف، بهية الصورة، وأطرافها ممتلئة مثيرة، ووجهها يشبه البدر حسنا، وجيدها أملس جميل، وعيناها ساحرتان. سأل جميل أحد الرعاة الصغار في موضع الكأ عن اسم هذه الفتاة فقال له: إنها بثينة بنت حبا بن ثعلبة بن الهوذ بن عمرو بن الأحب بن حن بن ربيعة. رد جميل: ما أرفعه من نسب، لكن صاحبتة مغرورة، طويلة اللسان. ومع ذلك فإن جميل أخذ يبحث عن الفتاة في كل مكان، ويترصدها كل يوم في وادي بغيض، وقد أحس نحوها بحب جارف قوى قاهر ملك عليه نفسه وسيطر علي قلبه، وكان السباب الذي وقع بينهما هو البداية لهذا الحب القاهر الجبار. وقد سجل جميل هذا الموقف الغريب في أبيات جميلة تقول:

وأول ما قاد المودة بيننا	بوادي بغيض يا بثين سباب
وقلت لها قولا فجاءت بمثله	لكل كلام يا بثين جواب

لكن صفوان كان يميل أكثر إلى اعتبار الحب مسألة لا يُدركونها فهو يشبه الإمساك بريح عاصفة تقتلع كل ما حولها، أو هو مثل البذور التي توضع في التربة فتتمو وتترعرع، وتتحول رعوستها إلى ثمار يانعة وتنتشر حولها الهوام المضيئة، والحشرات الباحثة عن غذاء يقيها شر الجوع، والإنسان بطبعه لديه جوع تجاه الجنس الآخر، لا يكاد يقترب منه حتى يزداد نهمه، فيخرج عن سكونه وخموده لاسيما إذا كان الطريق ممهدا، والعقبات منحسرة ومرفوعة، وهذه هي حالته مع سناء المهدي، ولعلها تستمر كذلك مع صفاء البطران. فكل واحدة منهما أخذت مكانا في قلبه، وتجسدت في عينيه، وامتزجت بروحه. وهو يتمني أن يستمر الوضع كما هو عليه، وألا يحدث ما يعكر صفوه.

بهذه الروح توجه صفوان إلى صفاء وهي جالسة في الصالون، وبدأ بقوله: ماذا تفعلين يا صفاء إذا قررت أن أتزوج بأخرى وأن يظل وضعنا كما هو؟ ردت صفاء: أتركك إلى الأبد، ولا يمكن أن يجمع بيننا طريق واحد. قال صفوان: لكن ما ذنب الأولاد، ولدينا الآن ثلاثة: ولدان وبنت؟ قالت: وأنت! ألم تفكر في هذا؟ إنني لا أقبل أبدا أن أستمع معك ولي ضرة. ثم من هي هذه السفيرة التي تريد أن تخطفك مني؟ رد صفوان: هي امرأة أحببتي وأحببتها، لكن هذا لا يعني أنني كرهتك أو أنني لا أحبك. فأنت مازلت متربعة في القلب، ومكانك محفوظ. ردت بغضب وامتعاض واستياء: لا تحاول أن تقتعني بأن فلانا أو علانا من أصحابك فعل هذا واستمرت معه زوجته الأولى. فأنا لا أقبل إطلاقا بهذا الوضع، ولذلك أنصحك بأن تفعل ما تشاء بشرط أن تبتعد عني وعن أولادي.

أدرك صفوان أنها لا يمكن أن تتنازل عن موقفها، وأن عنصري الإحساس بالمهانة والتحدي يسيطران عليها فكف عن الكلام المباح وخرج إلى الشرفة. كانت بعض السحب تحول بين الشمس وبين الأرض، والضباب ينتشر في الفضاء الرحب وهو يتأهب للانصراف، والأوضاع كلها تدل علي أنه سوف يفقد صفاء للأبد. لم تكن في الجو عاصفة، ولكن صفوان أحس بالعاصفة في داخله تقتلع الأشجار والثمار، وتنزع كل ما يقف في طريقها. قال لنفسه: لا بد من التغلب علي كل مظاهر الضعف وتذكر مقولة مهمة للفيلسوف الروماني ماركوس أوريليوس تقول: "تطلع إلي مسارات النجوم كأنك تدور مثلها في فلكها". وتساءل صفوان: ألسنا كائنات مثل النجوم، فلماذا نوقف مسيرتنا في الحياة تحت أي ظرف من الظروف؟.

وتداعت إلي صفوان أمثلة عن الحب الذي لا يفكر المرء في عواقبه، من بينها مسرحية روميو وجولييت، ووقوع كاترين في حب فريدريك هنرى في رواية هيمينجواي "وداعا أيها السلاح"، وعشق آنا كارنينا لفرونسكي في رواية تولستوى .. وغير ذلك كثير. والحب عبر عنه قيس بن الملوح في أبياته التالية:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا	لي الليل هزنتي إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى	ويجمعني والهم بالليل جامع
لقد ثبتت في القلب منك مودة	كما ثبتت في راحتين الأصابع

ولعل هذا البيت الأخير لمجنون ليلي هو الذي يمثل حالة صفوان خير تمثيل، ولهذا يردد الشطر الثاني منه متلذذا بنطقه: "كما ثبتت في راحتين الأصابع".

في صباح مشرق جميل وجدت صفوان يتصل من الإنتركم. خرجت لأفتح له. كنت أرتمي تنورة قصيرة، وأرسل شعري علي كتفي وأنا في حالة سعادة حقيقية، وكأني كنت علي موعد معه، مع أنه لم يخبرني أنه قادم إلينا. فتحت له وأنا أمتع نفسي بالقوة من تقبله والارتقاء في أحضانه. كان وجهه يتلألأ بالشوق، وتصورت أنه هو الآخر يريد أن يقبلني وأن يرتمي في حضني. سألت نفسي: كيف يرضي عاشقان أن يمنعا نفسيهما بالقوة من إطفاء نار الشوق. دارت في ذهني بسرعة أخبار العشاق وكيف كان كل منهما يقسو علي نفسه حتى يزداد الحب قوة وتعمقا ورسوخا، لدرجة أن العاشق كان يمكن أن يرضي بأي شيء. فعل ذلك كثير عزة، ومجنون ليلى، وجميل بن معمر الذي قال:

وإني لأرضي من بثينة بالذي لو ابصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمني وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالمنظرة العجلي وبالحول ينقضي وأخيره لا نلتقي وأوائله
وقال كثير عزة:

كأني أنادي صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشي بها العُصم زلت
صفوح فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت
وقال بشار بن برد في مغنية اسمها عبدة:

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفي عني الكري طيف ألم
رفهي يا عبدة عني واعلمي أنني يا عبدة من لحم ودم
إن في برديَّ جسما ناحلا لو توكأت عليه لا نهدم

خرجت بالصمت عن لا ونعم

وإذا قلت لها جودي لنا

ومن العجب أن الدكتور صفوان هو الذي بسط لنا هذه الأشعار وجعلها قريبة من أذهاننا ووجداناتنا وهو يدرس لنا مادة الأدب العباسي. كنت ألتهم هذه الأشعار وأحفظها وأحس كأنها كتبت من أجلي.

انطلقت مع صفوان إلي حديقة الفيلا وقد قرَّ في نفسي أن نقضي هذا اليوم في الحديقة لأنني لا أريد لأي شيء أن يصرفني عن صفوان. أريد أن أنظر إليه، وأمتع نفسي بجلال طلعتة، وعلو قامته، وشموخ بنيانه، وصباح وجهه، واتساع عينيه، واستواء شعره المنسدل علي فؤديه، واستقامة ملامحه. ومن شدة غرامي بصفوان وإعجابي بجماله الذكوري كنت أتخيل أحيانا أنني أحببته بسبب ذلك، ولكنني كنت في الحال أباعد هذه الظنون قائلة لنفسي إنني أحببته أولا لعلمه، وثقافته، وقوة شخصيته، وتواضعه، وديمقراطيته حتى ليبدو وكأنه وُلد ديمقراطيا، يمنح الآخرين الحق في أن يخالفوه حتى ولو كانوا أدنى منه، ويتقبل الرأي الآخر في بساطة وحب وتقدير حتى لو صدر عن شخص يتعمد الإساءة.

كانت أرضية الجنيينة مبللة بفعل زخات المطر التي نزلت في الصباح الباكر، وكانت بعض السحب تغطي صفحة السماء فتضفي جوا ساحرا علي المكان، وتشع ببريق أخاذ يتلاقى مع أشعة الشمس التي تظهر علي استحياء، وتمنح الأرض عذوبة ممزوجة بنوع من الدفء ينسجم مع الدفء الذي أحسه في قلبي. كانت هذه هي تباشير الصباح والدنيا تتدحرج بما فيها من أجواء يوم جديد يختلط بالتراب والماء والأفكار والبشر وصنوف الكائنات

التي ألمحها من خلال السور المحاط بأشجار الجزورين القريبة من بعضها جدا لكي لا تطول وتتضخم.

قال صفوان: أراك اليوم في غاية الجمال. قلت: وهل كنت قبل ذلك أختلف عن هذا؟ قال: لا، لا أقصد المقارنة، لكنني أحس أن جمالك قد زاد لدرجة أنني لا أدري ماذا أفعل مع هذا الجمال فائق الوصف؟ قلت له: يكفي أنني أحبك، ألا يزيدني هذا الحب جمالا علي جمال؟! اقترب صفوان مني، وأمسك بيدي، فتذكرت ما جاء في كتاب " طوق الحمامة " لابن حزم في " باب علامات الحب ": "ومن علاماته وشواهد الظاهرة لكل ذي بصر الانبساط الكثير الزائد، والتضايق في المكان الواسع، والمجاذبة علي الشيء يأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفي، والميل بالاتكاء، والتعمد لمس اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء، وتحري المكان الذي يقابله فيه".

في ذلك اليوم لعبنا كثيرا وكان صفوان عاد إلي أيام الصبا، وعدت أنا إلي الطفولة. لعبنا لعبة الاستغماية، وكان صفوان يتعمد أن يلمسني وأتعمد أنا أن أقترب منه. لم أبال في أي مكان كان يلمسني لدرجة أنه كان يقترب من نهدي سواء ب صدره أو بيده أو برأسه. كما كان يقرب ساقيه من ساقِي. لم أبدأ أي انزعاج. نسبت نفسي، ونسيت كل ما لقنته لي أُمِّي من تصرفات يجب أن أحافظ عليها في هذه الفترة من الخطوبة. تصورت أننا مثل قيس بن الملوح وليلي عندما كانا طفلين يلعبان عند جبل التوباد. قلت لصفوان: متى يأتي وقت اجتماعنا معا تحت سقف واحد؟ رد صفوان: قريبا إن شاء الله. كنا قد انتهينا من تجهيز الشقة، ولم تبق إلا أشياء قليلة. قال لي صفوان: هل ستظلين علي حبك لي بعد أن تنتقلي من فيلا واسعة جدا إلي شقة عادية؟ قلت: معك أعيش

في أي مكان حتى ولو كان في شقة متواضعة جدا. وأضفت: أنت يا صفوان ربما لا تعرف مقدار حبي لك. لقد كنت أنا البادئة، وحبي لك شعلة لن تنطفئ أبدا. ثم قلت له: هل اطلعت علي مقولة مهمة لكونفوشيوس؟ قال: لا، ما هي؟ قلت: لقد قال: "كثيرون ينشدون سعادة أطول من قامة الإنسان، وآخرون ينشدون سعادة أقصر من قامة الإنسان، غير أن السعادة مماثلة تماما لقامة الإنسان". وأنا أحس أن خط حياتنا واحد، وخط سعادتنا واحد. إن قامة كل منا قريبة من الأخرى. صحيح أنك أطول مني قليلا، ولكننا في النهاية مثل قامة واحدة. قال صفوان: نعم، هذا صحيح. وأضاف: هل قابلتك المعلومة التالية: كان عباس محمود العقاد طويل القامة، وصديقه إبراهيم المازني قصير القامة، فكان الناس إذا رأوهما يمشيان معا قالوا إنهما مثل رقم عشرة ، أي واحد وصفر.

ضحكت من أعماقي، وقلت لصفوان: أعرف أنك من المعجبين بسلفادور دالي، ومن المقدرين لجنونه وعبقريته، فلماذا لا تحدثني عن حقيقة علاقته بجالا؟ قال صفوان: مما أذكره من أقوال دالي عن جالا أنه قال: "سنصبح أنا وجالا أكثر الأحباء حقيقة وسموا في عصرنا". وأضاف صفوان: مما أذكره أيضا هذا القول لدالي: " هذا الأحد اكتشفت اللون البندي لعيني جالا تحت الماء. هذا اللون مع اللون البحري لأشجار الزيتون يحركاني. طوال الوقت أشعر أنني أراقب هاتين العينين الرائعتين اللتين ستكونان عيني الرأس في لوحتي التالية التي سأسميها " السبتمبرية". وواصل صفوان: كان دالي يحب جالا حبا خرافيا لدرجة أنه قال في 9 مايو عام 1957: "عندما استيقظت قبلت أذن جالا، وتحسست بطرف لساني شحمة أذنها وبللتها باللعباب". ثم وجه صفوان كلامه لي قائلا: وأنت يا شبيهة جالا، متى أقبل

أذنك وفمك و لسانك، ومتى أبلىل شحمة أذنك بلعابي؟. وأشهد أني في تلك اللحظة كدت أستسلم، وأترك صفوان يقبلني، وأرتمي في أحضانه مثل طفلة ملهوفة ترتمي في أحضان أمها، ولكني قررت أن أتماسك لاسيما وأن موعد عقد القران والزفاف قد اقترب فلا بأس من أن أتحمل أياما أخرى.

دخلت الفيلا وأحضرت بعض المشروبات المثلجة وكوبين من الزجاج. صببت كوبا لصفوان وكوباً لي، وكان كل منا يتعمد أن يترك نصف المشروب في الكوب ليشربه الآخر. أحسست بلذة من تبادل المشروبات وكأني أقبل شفتي صفوان ولاحظت السعادة بادية علي وجهه وهو يرتشف ما تبقي في كوبي. ولم يفته التعليق علي ما يحدث فقال: إن الزمن يتحرك في داخلنا وأنا أتمني أن يسرع الزمن الخارجي قليلا لأرتشف من شفتيك مباشرة. قلت : وأنا أكثر منك لهفة علي مجيء هذه اللحظة. كانت الطبيعة حولنا مفعمة بالموسيقى الهادئة الجميلة المنتظمة و القائمة علي التكرار علي نحو ما قال بعض الفلاسفة: إن عالم الطبيعة موسيقي. وهو مذهب إغريقي تزعمه فيثاغورس الذي قال: إن العالم عدد ونغم. ويروى عنه أنه كان يسير ذات يوم في الطريق العام فسمع صوت مطرقة الحداد علي السندان، وكان الصوت موقعا في انتظام بحيث تكون بين كل ضربة و أخرى فترة ثابتة من الزمن فتوصل بذلك إلي نظريته المشهورة في أن العالم موسيقي. ويقال أيضا إن فيثاغورس نظر إلي النجوم فوجدها تسير بانتظام في الملكوت، غير أننا لا نسمع أصوات الأجرام السماوية لتعودنا علي سماعها، ومن ثم اكتشف فيثاغورس أن الإنسان حين يحاكي الطبيعة فإنما يحاكي ما فيها من موسيقي. قلت لنفسني: إذا كان الكون كذلك فما بالك بقلبين ربط بينهما الحب برباط متين، حتى أني أحس بأنهما قد انتظما في نبض واحد، واغترفا من معين

واحد، وتعودا علي إيقاع واحد. وما بالننا بهذه الزهور حولنا من كل شكل، وأشكالها تؤثر في ألوانها، و ألوانها تؤثر في جوهرها، ومعظمها تفوح منه رائحة المسك، ومن ثم فإن كل زهرة لها تأثير واضح في الجسم وفي الروح. وإذا كان صفوان تتضوع منه رائحة الذكورة وأنا تتضوع منى رائحة المسك، وتنطلق من جسدي زخات الأنوثة مثل المطر الخفيف الذي شهدنا آثاره في هذا الصباح فماذا نحن فاعلان في هذا الكون الفسيح ؟!.

في وقت الظهيرة والشمس تسطع في الأفق، هدا الجو و رق النسيم لاسيما ونحن قريبون من فصل الشتاء، وصارت سنابل النور الذهبية تلمع وكأنها تتسلل من أطراف شمس الخريف الدافئة، وبساط النجيل داخل الحديقة يمتد مثل خط ينعكس عليه الأفق. وبدأت لي لحظة الخضرة متوهجة، زاهية بألوانها التي تبدأ بالاخضرار ثم تميل إلي لون يجمع بين الأخضر والأصفر، وذلك في حالة فريدة تقترب مما يحدث في الحياة، إذ تتنوع الألوان، وتتباين الصفات وسط انعكاس أشعة الشمس المذهبة. أما النخلات القليلة المبعثرة في الحديقة فكانت تضيء علي المكان سحرا، وتبدو مثل مظلات تنشر الظل هنا وهناك. نظرت إلي صفوان في ضوء الأشعة المذهبة فوجدته شديد الأناقة، طويل السوالف، متألق الوجه والعينين، ووجدته يقول لي بلهجة فاجأتني: أتدريين يا سناء أني لا أكف عن النظر إليك، فجمالك جمال أنثوي مبهر بصورة ليس لها مثيل، ووجهك مثل القمر الذي ينعكس نوره علي سطح النيل فيتألأ مثل البللور الناصع البياض، والخضرة ترتسم علي خديك المتوردين من أشعة الشمس، أما جدائل شعرك فإنها ناعمة مثل الحرير مبسطة علي وجه خمري نضر، تتدفق خلف بشرته الشفافة صفائح الدم الحمراء التي تدل علي توهج وتألق. أما عيناك ففيهما بريق أخاذ يجمع بين الثقة المطلقة

والجنون، وكل هذا ينسدل ليرتكز علي كتفين أملسين، وذراعين مصقولين، ونهدين متفجرين كأنهما تفاحتان ناضجتان، وبطن مستوية، ووسط دقيق، وساقين مدكوكتين كأنهما قُدا من طينة غير طينة البشر، أما رقتك فهي رقة دافنة تذيب الصخر.

كنت أنظر إلي صفوان وهو يقول هذا الكلام بعينين أذبلهما الغرام وترقق فيهما ماء الحب. كانت هذه النظرة الولهانة تغني عن أي كلام، لدرجة أن وجهي أشرق، وانطبعت فيه ابتسامة طار لها عقل صفوان، وخفق قلبه سروراً. قلت له: انظر إلي الطبيعة حولنا هل تري فيها شيئا خارجا عن السياق العام؟ فهكذا أنا وأنت دور في فلك واحد، ونستشق هوا ء واحداً، ونمضي في طريق واحد.

لم يذكر لي صفوان شيئا عن تجهيز الشقة. لقد حمل هذا الموضوع علي عاتقة لأنه يعلم أنني سوف أرضي بأي شيء طالما كنت معه. ويبدو أن والدي أحس بذلك، لأنه سألني ذات مرة: هل تابعت مع صفوان فرش الشقة وتجهيزها؟ فقلت له: مادمت قد رضيت أن تعطي ابنتك لشخص ما فكل شيء بعد ذلك محلول. لقد انتمنته علي فلذة كبدي فلماذا نسأله عن أي شيء آخر. وأضفت: إن صفوان شخص صادق، وكلمته واحدة، و تصرفاته توافق ما في داخله. فهو إنسان يبعث علي الثقة، ثم إنه مكافح، وإذا كنا سوف نسكن في شقة الآن فإنا في المستقبل إن شاء الله سوف نسكن في فيلا.

أذن لصلاة العصر وطلبتنا والدتي لتناول طعام الغداء. جلسنا في حجرة السفرة، وكان والدي قد تأخر قليلا فانتهزتها فرصة لأضع بنفسي الطعام في فم صفوان. وفعل هو نفس الشيء، ووالدتي تنتظر إلينا لكنها توهم نفسها بأنها لا تري شيئا. فهل هذه أيضا من علامات الحب التي بسطها وفصلها

الإمام ابن حزم في "طوق الحمامة"؟ وعندما انتهينا من الطعام جلس والدي مع صفوان، ومعهما الوالدة وأنا واتفقنا علي أن يكون حفل الزفاف بعد أسبوعين، ويتم الإعداد من الآن لعقد القران بحيث يكون الإعلان عنه في هذا الحفل.

ودعت صفوان وأنا أحس أن شينا من جسدي اقتطع مني. فهذه هي الحياة: لقاء ووداع. ربّت صفوان علي يدي وهو يودعني عند بوابة الفيلا قائلا: سوف تكونين جزءاً مني ومن حياتي خلال أيام قليلة. قلت له: أنا جزء منك منذ أن كتبت لك رسالتي في ورقة الإجابة.

قبل الزواج بأسبوع اتفقتا علي أن نقضي يوما في زيارة المناطق الأثرية في القاهرة. حضر صفوان مبكرا، ومن الواضح أنه قضى الليل في شقة شبين. استأجر سيارة جديدة نظيفة وسائقها. انطلقنا في الطريق المرصوف الموصول إلي قويسنا وسط المزارع و الحقول التي كانت مغطاة بالندى، ومضمخة بالروائح الطبيعية الفواحة. قال لي صفوان: علي الرغم من هذا الجو الخريفي الجميل، وأشجار النخيل الباسقة، وأشجار السرو والصفصاف و الجزورين، والحقول الممتدة يمينا ويسارا فإنه لا شيء عندي أجمل مما قاله ابن حزم في "طوق الحمامة": "وما أصناف النبات بعد غب القطر، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج، ولا خريف المياه المتخللة لأفانين النّوّار، و لا تأنق القصور البيض قد أهدقت بها الرياض الخضر، بأحسن من وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه، وحمدت غرائزه، وتقابلت في الحسن أوصافه. وإنه لمعجز ألسنة البلغاء، ومقصر فيه بيان، وعنده تطيش الألباب، وتعزب الأفهام". قلت لصفوان: إنك تحمل هذه الأقوال المهمة إما في ذاكرتك أو في هذه الكراسة التي قرأت لي منها كلمات ابن حزم. تصور أنني صرت أنا الأخرى أفعل مثلك. وهكذا لم تكف بأن تطوف بنا في غياض الأدب العباسي، وجعلتنا ننهل من منابعه الفياضة، بل أضفت إليه أشياء كثيرة أخرى، منها هذا التسجيل لكل ما هو جميل ونافع في حياة الناس. قال صفوان إنه لم يتصور أبداً أن الأدب العباسي سوف يقوده إلي حب سناء المهدي التي تجلس الآن إلي جانبه وكأنها إحدى الحوريات التي تركت الجنان وجاءت لتتشر حسننها وجمالها وظرفها ودلالها، بوجه مليح، واعتدال

قوام، وعذوبة كلام، وحمرة خدود، وبروز نهود. إنها روعة التكوين في قوام سمهرى جذاب، و رصانة حركة، وفتنة نظرة. كان صفوان ينظر إلي عيني ثم قال لي: عيناك لوزيتان، واسعتان، ينطلق منهما إشعاع قوى يجعلني أسير حبك، ومستعداً لعمل أي شيء من أجلك. قلت لصفوان: إن من أسرني بحبه هو أنت، وتصور فتاة في بداية العشرينيات من عمرها تقع في أسر أستاذها، وتظل الأيام والليالي تحلم به وبحبه ولكنها لا تجرؤ علي البوح بذلك فتؤجل الموضوع كله إلي وقت الامتحان كي تبوح بحبها ولواعج قلبها، ولديها خوف من أن تقع ورقة الإجابة في يد شخص آخر غير الدكتور صفوان، ولذلك أخذت تلف وتدور محاولة التخفيف من سيطرة الحب، ثم ها نحن الآن ننتظر عقد القران والدخلة. أليست هذه معجزة من المعجزات، وفتنة من فلتات الزمان التي لم يكن يتخيلها أحد؟!.

كان الطريق مزدحماً من بنها إلي القاهرة، لذلك أخذنا وقتاً طويلاً. قال لي صفوان: أتعرفين سبب ما نحن فيه من زحام وضيق؟ قلت لأن الحكومة لا تفعل شيئاً يخفف علي الناس المشقة. قال: المسألة أعمق من ذلك بكثير. إن مبارك وحكوماته المتوالية عصابات من اللصوص. فهم ليسوا مهتمين إلا بالسرقة، والواحد منهم لا يكتفي بسرقة عدد من مليونات الجنيهات، وإنما صار العد الآن بالمليارات. وكما قيل في الأثر: لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب. ومع أنهم يسرقون ويهربون الأموال إلي الخارج، فإنهم لا يهتمون براحة الإنسان المصري. ويبدو أن هذه هي حالة مصر علي امتداد التاريخ، ولذلك عندما جاء أبو الطيب المتنبي إلي مصر كتب قصيدته المشهورة التي مطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

ومنها هذا البيت التالي الدال:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بضمن وما تفني العناfid

أي أن حماة الديار ناموا وتركوا الثعالب تنهب حتى امتلأت بطونها، ومع ذلك فإن عناfid مصر وخيراتها لا تفني.

وأضاف صفوان: وقد سجل القرآن الكريم موقفا كهذا في سورة الزخرف عندما قال: "ونادي فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين. فاستخف قومه فاطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين". ويبدو أن هذه سوف تظل هي حالة مصر دائما. فالعالم كله تقريبا تقدم إلا مصر، التي مازالت تعيش في شعارات فجأة، وأغاني تمجد الحاكم، و أكاذيب تنشرها أجهزة الإعلام، و إضفاء القداسة علي الحاكم حتى ولو كان لصا فاجراً. قلت لصفوان: لكن أليس لهذا الوضع من آخر؟ فرد قائلا: طالما أن الحاكم يستخف قومه فيطيعوه فالأمل ضعيف جدا لأن أصحاب المصالح الخاصة كثيرون جدا، ويهمهم أن يستمر الوضع علي ما هو عليه. ألا ترين الجرائد صبيحة أي خطبة لمبارك الفاسد؟ إنها جميعها تتباري في نشر كلامه، ونشر صورهِ حتى لتجدين صورة له واقفا بطول الصفحة. وهذا لا يحدث إلا في الأنظمة الدكتاتورية البشعة مثلما نجد في العراق. وعلي أية حال لكل إنسان نهاية.

كان صفوان يري أن الأنظمة الدكتاتورية سوف تدمر العالم العربي، وكان يتوقع أن تأتي فترة ينهار فيها هذا العالم، وأننا يمكن أن نصير مثل الهنود الحمر يري العالم المتقدم أن القضاء علينا واجب حتى لا تسقط الحضارة البشرية في مستنقع التخلف. وربما الغربيون لا يدركون أنهم هم الذين خلقوا

هذه الأنظمة الدكتاتورية لخدمة مصالحهم، لكنهم علي الرغم من ذلك يخشون من الآثار السلبية التي سوف تتركها هذه الأنظمة.

أشفت علي صفوان لأنه عندما ينطلق في الحديث عن تخلف العالم العربي بسبب أنظمتة القمعية التسلطية ينسي نفسه وربما ينسي ما حوله. حاولت أن أحول دفة الحديث فقلت لصفوان: أين سنذهب أولاً؟ قال: أعتقد أنه من المهم أن نذهب أولاً إلي منطقة الأهرامات. انطلقنا إلي هناك وسط زحام شديد لا نعرف كيف نتجنبه لأنه يحاصر الناس فجأة نتيجة الفوضى والاضطراب والزحام الشديد. ذكر لي صفوان أن البلاد التي كنا نعتبرها متخلفة فيها شوارع منظمة وإشارات مرور، ثم أضاف: ولا أحدثك عن باريس، فهي درة المدن وحاضرة الكون، وكل من عاش فيها لا ينسي شوارعها المخطط لها تخطيطاً حضارياً. وقد نقل الخديوي إسماعيل صورة من بعض الشوارع إلي وسط البلد عندما، ولذلك مازالت هذه الشوارع ومبانيها تحتفظ برونقها إلي الآن. وكانت المنطقة التي عاينا منها كثيراً هي شارع الهرم الذي ليس فيه أي نظام مع أنه واسع جداً ويستقبل أعداداً غفيرة من السياح.

وصلنا أخيراً إلي منطقة الأهرام بعد أربع ساعات ونصف الساعة منذ خروجنا من شبين، وأعتقد أن هذا الوقت سوف يمنعنا من زيارة عدد كبير من المعالم السياحية. اكرى صفوان جملاً يقوده رجل يبدو أنه من الصعيد، وكان علي سنامة ما يشبه البردعة التي تتسع لشخصين. ركب صفوان وركبت خلفه، ولم أستطع إلا أن ألتصق به وأحضنه من الخلف. كانت هذه أول مرة يتداخل فيها جسدي مع جسد صفوان: نهدي وبطني وما بين الفخذين وساقاي. أحسست بلذة لم تحدث لي من قبل لدرجة أنني تمنيت لو نزل هكذا

طول النهار، لكن قائد الجمل كانت لديه مهمة يريد أن يؤديها، ومن ثم أخذ يطوف بنا حول الأهرام الثلاثة، وتوقف لبعض الوقت عند أبي الهول، فتذكرت قصيدة شوقي المشهورة عن أبي الهول. وبعد أن انتهينا من تأمل الأهرامات وأبي الهول اتجهنا نحو نزلة السمان، هذه القرية العشوائية التي اقتربت جدا من الأهرامات. قال لي صفوان: هل رأيت دولة في العالم تترك العشوائيات تزحف إلي أهم منطقة أثرية لديها؟ ناهيك عن مشاكل المياه والصرف الصحي والبشر أنفسهم. لا أظن إلا أن قدماء المصريين سيشعرون في قبورهم بالخجل مما يفعله أحفادهم!!

نزلنا من فوق الجمل وأنا أحس بأنني أودع ساعة لم أر مثلها في حياتي. تري هل أحسست بها مثلي يا صفوان؟ وهل اشتعل داخلك بنيران الشوق مثلما اشتعل داخلي؟ وهل شعرت بلذتي وأنا أحتضنك من الخلف؟ وهل كان لهذا الاحتضان أثر في نفسك وفي جسدك؟ أسئلة كثيرة طافت بذهني ولولا الحياء لقلتها لصفوان بصوت عال. لكنني فوجئت به، وكأنه شعر بما يدور في داخلي، يتلو أبياتا للإمام ابن حزم الظاهري تقول:

كأنها حين تخطو في تأودها	قضيب نرجسة في الروض مياس
كأنما خلدُها في قلب عاشقها	ففيه من وقعها خطر ووسواس
كأنما مشيها مشي الحمامة لا	كدَّ يعاب ولا بطء به باس

ثم نظر إلي صفوان وقال: و أنت يا سناء هذه الحمامة، وهذه النرجسة، فمع أننا الآن نمضي في منطقة صحراوية قاحلة إلا أنني أراك قد حولتها إلي بستان، إلي خضرة يانعة، ومياه تتدفق. لا أحس أنني عطشان وأنا إلي

جوارك، ولا أحس أنني أعاني من أشعة الشمس الحارقة وأنت معي. ترى ماذا فعلت بقلبي وروحي وكل مشاعري؟

انطلقنا بعد ذلك إلى منطقة السيدة زينب، وكانت هذه فرصة لزيارة المقام أولاً وقراءة الفاتحة، ثم دلفنا إلى الشارع المؤدي إلى مسجد عمرو بن العاص. كانت أكوام الزبالاة تحاصر الشارع، والتعدي علي الآثار من قبل السكان واضح للعيان. قال لي صفوان: ليس هناك في العالم حكومة تترك كل شيء للنهب والاستباحة والتعدي إلا حكومتنا الغارقة حتى شوشتها في مشاكلها الطاحنة. إن هذه المنطقة الأثرية الممتدة من شارع القصر العيني إلى المقطم فيها مساجد وقصور وقلاع وأسبلة لا حصر لها، وكان ينبغي أن يجمعها سياج واحد، وأن تحصن ضد النهب والاستباحة، وأن يكون الاهتمام بها متوافقاً مع مستواها الفني والجمالي والأثري، ولكن لا أحد من حكامنا الأشاوس يدرك ذلك. أضاف صفوان: إن منطقة الجمالية وباب زويلة وباب الفتوح وباب النصر حدث فيها جميعاً استيلاء السكان والباعة والتجار علي المناطق الأثرية: المساجد، والدور، والخانقاة، والأسبلة وغيرها، و الدولة تدعي عدم المعرفة ولا تعير أي اهتمام لذلك.

دخلنا مسجد عمرو بن العاص الفسيح وتجولنا في أنحائه وكانت هناك بداية لترميم بعض ما تشوه منه، ثم انتقلنا إلى مسجد ابن طولون، وتجولنا في مساجد أخرى وخانقانات حتى وصلنا إلى قلعة صلاح الدين. وفي القلعة تركنا العنان لأنفسنا وكأننا سياح أجانب، نلهو ونلعب، ويلف كل منا ذراعه علي وسط الآخر. وقد اقترب مني صفوان في مكان غير مأهول وطبع علي فمي قبلة. كانت سريعة لكنني تمنيت لو طالعت قليلاً. تذكرت في هذه اللحظة

ببتين لأبي دلالة شرحهما لنا الدكتور صفوان في مادة " الأدب العباسي "
هما:

إن كنت تبغي العيش حلواً صافيا فالتشعر أغزبه وكن نحاسا
تتل الطرائف من ظراف نهّد يحدثن كل عشية أعراسا

وذلك أن هذه الأعراس كانت قائمة طوال العصر العباسي، وكان الشعراء يختلفون إليها. ويقال إن الجارية كان يشتريها الخليفة أو وزير أو أمير أو قائد مشهور أو أحد عليّة القوم فيظل الشاعر متعلقا بها وتظل تملك عليه كل شيء من أمره. وهناك قصص مشهورة في ذلك: فقد كانت عتبة إحدى جوارى قصر المهدي تملك قلب أبي العتاهية، وجنان جارية الثقفين تملك قلب أبي نواس، وفوز جارية محمد بن المنصور فتى العسكر تملك قلب العباس بن الأحنف. ولأن الجواري كن منتشرات جدا، وكن من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة فإن كثيرا من الخلفاء كانوا من أبنائهن: فالمنصور أمه حبشية، والهادي والرشيد أمهما الخيزران رومية، والمأمون أمه مراجل و المعتصم أمه ماردة وكتاهما فارسية، وكانت أم الواثق رومية واسمها قراطيس. ويقال إن الرشيد وزوجه زبيدة استكثرا من الجواري حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء ألفي جارية في أحسن زى من الثياب والجوهر. وكان هناك ثلاث يملكن قلب الرشيد هن سحر وضياء وخنث. وقد نسب إليه فيهن شعر يقول:

ملك الثلاث الأنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاو عني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ماذاك إلا أن سلطان الهوى - وبه عززن - أعز من سلطاني

نقلت إلي صفوان هذه الأفكار التي دارت بخاطري فكان تعليقه: لم تكن قد ظهرت بعد جماعات المتعصبين القساة الذين يحرمون كل شيء حتى ولو جاء النص القرآني بحله. فهذه جماعات خارجة عن الأصول الإسلامية الصحيحة. ثم أضاف: لا جرم أن البشر في بعض الأحيان يغالون في الإفراط من الشيء الحلال، ولكن المغالاة في التحريم علي النحو الذي يفعله بعضنا الآن ليس هو الحل الناجع لمنع الإفراط. لقد حمل هؤلاء الدين الإسلامي مالا يحتمل، وحولوا سماحته وبساطته وحبه للحياة إلي قساوة لا تحتمل لدرجة أنهم يحرمون علي المرأة أن تظهر عينيها ويقتعنونها بأن هذا الفعل محرم تحريما قاطعا، بل إن المغالين منهم يشبهونه بالزنا. وبهذا صارت حياتنا كلها مغلفة بالحرمان وكان المرأة كان ينبغي ألا تخلق حتى لا تفتن الرجل.

قال صفوان هذا الكلام ثم أحاط ذراعه بخصري وقبلني في عيني. ولا أدري لماذا قبلني في عيني؟ سألته بالفعل هذا السؤال فقال: لأن عينيك ساحرتان. إنه سحر يتغلغل في قلبي، ويملا علي كل كياني، ويخلق بي في أفاق لا تحدها حدود. أتذكرين أغزل بيت قالته العرب؟ قلت: نعم هو قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور
قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا
فقال صفوان: وأنت يا سناء أجمل امرأة رأيته في حياتي، فكيف تكون عيونك؟ إنها السحر كله، والجمال كله، وهذا الشَّعر الفاتن الذي ينسدل عليها أحيانا فيزيدها سحرا وفتنة. إن عينيك يا سناء تنقل إلي عالما يبدو مثل بحيرة صغيرة تحيط بها أشجار الحور، ويطل القمر من أعاليه فيمتزج بحفيف الأشجار وهبوب الرياح وتغريد الطيور.

لم يكد صفوان يتم كلامه حتى صبغ وجهي احمرار أشبه باحمرار الخجل، ثم أخذ العرق ينسكب من جبيني. قال لي صفوان: إن هذا العرق يبدو مثل اللؤلؤ المنثور، ثم طبع علي جبيني قبلة وهو يقول: لابد أن أخذ حصتي من هذا اللؤلؤ. لم يكن صفوان فقط هو ذلك الرجل الأنيق الواثق من نفسه، بل كان كذلك خفيف الدم، حاضر البديهة، صاحب خبرة في الحياة، يعرف كيف يتغلغل في أعماق المرأة، ويعرف الطريق إلي قلبها. صحيح أنني لم أعرف كل هذه الخصال فيه قبل أن أحبه، ولكني أحسست بها في قلبي حتى لقد غمرتني مشاعر لم تحدث لي من قبل، ظلت مكبوتة طوال عام كامل حتى أخرجتها في ورقة الإجابة.

انتهينا من زيارة معظم معالم قلعة صلاح الدين وتأهبنا للعودة إلي شبين الكوم. كان السائق ينتظرنا خارج القلعة. ركبنا السيارة وكل منا يود لو التصق بالآخر لولا هذا الرقيب الذي معنا. طاف شريط الرحلة بذهني وأنا شبه ملتصقة بصفوان، بل كدت أميل علي صدره ثم قلت له: ما رأيك في هذه الرحلة؟ فقال: أهم ما فيها هو أنت. فأنت يا سناء قطعة من الجمال المتوج، أو مثل الملكة لا ينقصك إلا وضع التاج علي رأسك. انظري إلي ملكات الجمال اللاني نشاهدن أحيانا علي الشاشات، أنت أجمل منهن، لأن رقتك التي تضاف إلي جمالك الأنثوي ليس لها مثيل، وروحك أجمل من منظرك الخارجي، وقلبك شفاف، وكل هذا إذا اجتمع في امرأة واحدة يجعل منها أجمل امرأة في العالم. لم نحس بالطريق ولا ندري ما عدد الساعات التي مرت علينا ونحن في السيارة، وأخيرا وصلنا إلي شبين فودعني صفوان وكأنه يغرس كيانه في قلبي.

لم يكن في الإمكان أن أتخلي عن إقامة حفل زفاف يليق بسناء المهدي. صحيح أنني أتزوج للمرة الثانية لكن هذا لا يمنع من أن تسعد هي بحفل الزفاف. فهذه ليلة لا تنساها المرأة أبداً، ومن حقها أن تدعو صديقاتها، ومن حق الأسرة أن تحتفل بابنتها. ولهذا استأجرت أكبر وأهم قاعة في شبين الكوم، تطل على البحر مباشرة، واتفقت علي الوجبة المقدمة للمدعوين، وتجهيز القاعة، وملئها بالورود الطبيعية، والزفة الموسيقية، ولم تكون الديسكات قد انتشرت بعد. ومن ناحيتي دعوت عددا من الأصدقاء مع أسرهم، لاسيما الزملاء في قسم اللغة العربية، ولم أدع من أقربائي إلا من لديه استعداد للحضور. قضيت أسبوعاً كاملاً أخرج مع سناء للإعداد للفرح، وكنا نختلس بعض الوقت لنجلس في كافيتيريا، أو نتجول في حديقة، أو نذهب إلي حديقة الفيلا، أو ندخل السينما.

ولن أنسي يوماً كان النهار فيه مشرقاً والشمس ساطعة، ونحن في حديقة الفيلا، نشاهد حزماً من السفرجل والرمان، والأعشاب ذات الرائحة العطرة النفاذة، والنعناع، والحبك، وسرو الليمون، والأكاسيا، ونخل السيكا، والريحان، والمشمش، والياسمين، والفلفل وغيرها. كانت شمس الخريف عذبة رقيقة وكأنها تدعونا لافتراش الأرض المنبسطة تحت شجرة زيتون ثمارها دانية. وكانت السحب المتفرقة تمر فوقنا فتحجب الشمس عنا، فنحس بالنسيمات الرقيقة تصافح وجهينا، ثم تعاود الشمس سطوعها في حركة كونية بندولية تجعل من الطبيعة أنيساً للبشر. قلت لسناء ونحن تحت شجرة الزيتون: ألا ترين أن الآن هو الوقت المناسب لتنفيذ ما طلبه قيس من ليلى،

علي لسان أحمد شوقي، في مسرحيته المشهورة " مجنون ليلى "؟ قالت: ماذا قال؟ قلت: قال لها:

مُنِي النفس ليلى قربي فاك من فمي كما لف منقاريهما غردان
نذق قبلة لا يعرف البؤس بعدها ولا السقم روحانا ولا الجسدان
فكل نعيم في الحياة وغبطة علي شفتينا حين تلتقيان
ويخفق صدرانا خفوقا كأنما مع القلب قلب في الجوانح ثاني

قالت سناء: معك حق، ثم أسلمت نفسها لي في قبلة عميقة جعلتني أغوص في بحر لحي، وراحت هي في حالة نشوة لم أرها عليها من قبل. صرنا كأنما نتساقى من كنوس الطلا، ونكشف عن حب ساكن في الأعماق. قلت لنفسي وأنا أتذكر نشأتي الريفية: من أنا حتى أقبل امرأة بهذا الجمال؟! وهل العلم والتفوق لهما دور في ارتقاء المرء وبلوغه قمة لم يتصور أبداً أن في إمكانه الوصول إليها؟ كانت سناء في تلك اللحظة صارخة الجمال، ساحرة العينين، محمرة الوجنتين، منبسطة الأسارير، مفعمة بالحب مثلما هي مفعمة بالسعادة، رائعة المزاج، مشرقة الوجه، شفتاها مثل المرجان، وصدرها سبيكة ذهب فوق قامة مثل غصن البان. احتضنتها فلم تمنع، وقربتني فاقتربت. وكان من الواضح أن الشوق الذي عصف بي عصف بها أيضاً، والحب الذي أمضني أمضَّها كذلك. تذكرت في تلك اللحظة داود الأنطاكي وابتدائه كتابه "تزيين الأسواق في أخبار العشاق" بالجملة التالية: "الحمد لله الذي أطلع في بروج اعتدال القدود شمس المحاسن والجمال، وأهلَّ في منازل السعود بدور اللطائف والكمال، وزين أغصان القدود برمان النهود، ورياض الوجوه بنرجس اللحاظ وورود الخدود، وألفَّ بين ما نظم في الثغور

وقلاند النحور، وجعل تسريح الأبصار لذوى البصائر، ولطافة الأفكار من أسباب الافتنان بتأمل الحسان، فنزلهم وإن اختلفت أغراضهم منزلة الأغراض لرشق قسي الحواجب بسهام الألاحظ".

في ليلة الفرح، وكانت ليلة جمعة، حضر كثير من المدعويين من جهة آل المهدي وأقرباء والدتها، وصديقاتها الكثيرات ومنهن زميلاتها في الدراسة، وبعضهن كن يعرفنني، ولعلهن تساءلن كيف حدثت العلاقة بين الدكتور صفوان وسناء لدرجة أنها انتهت بالزواج. أما من جهتي فقد حضر عدد لا بأس به ممن لا يعرفون زوجتي الأولى ولا تعرفهم. وجاء المأذون في البداية فعقد القران علي مشهد من الجميع، وبذلك صارت سناء المهدي زوجتي علي سنة الله ورسوله ومذهب الإمام أبي حنيفة النعمان. وفي تلك الليلة اصطحبت سناء إلي محل الكوافير، حيث أضافوا لها من الزينة ما يزيد بها جمالا علي جمال. كان فستان الفرح ناصع البياض، تكثر فيه الكرائيش، وبه ذيل من الخلف يمضي وكأنه يمشي وراءها، وكان شعرها مشبكا بطريقة تعكس جمال وجهها، وحمرة خديها، وارتفاع قامتها. أما أنا فكانت أرتدي بدلة زرقاء مفصلة تفصيلا متقنا، وقميصا أبيض ناصع البياض، و رابطة عنق تميل إلي اللون الأحمر. وكانت قامتي تزيد قليلا علي قامة سناء، أي أننا كنا زوجين متكافئين في المظهر، مثلما نحن متكافئان في النسب. وكانت الحاضرات من الشابات في أوضاع أنيقة، بعضهن ترتدين الحجاب الجميل الشفاف، والأخريات ترتدين تنورات قصيرة وبلوزات مختلفة الأشكال والألوان، وجمالهن هو الغالب في كل ما تري حولك.

بدأت الفرقة الموسيقية تعزف، وبها مغنٌ ومغنية يتبادلان الأغنيات وامتلات حلقة الرقص بالشباب رجالا ونساء، وفي وسطهم العريس وعروسه. بدأ الرقص حيا خجولا وكأن الفتیان والفتيات في حالة انعتاق من خجل مكبوت في داخلهم لكثرة ما يسمعون من تحريم للحب، ودعوات للاحتشام والبعد عن الحرام، لكن الشباب في هذه الليالي بالذات ينزعون من داخلهم كل أثر للخوف، وينطلقون بدون أي عوائق في الرقص وتحريك الأجساد، وهنا تستيقظ الأنوثة المكبوتة لدي الفتيات فيحركن المحارم في كل اتجاه حتى تجد الواحدة منهن تهز ثدييها، وتنشر ردفها، وتحرك شعرها، وتبسط كل تضاريسها وكأنها أنثى تبحث عن الذكر، وكنت ألاحظ هذا بالذات لدي الفتيات غير المتزوجات أو غير المخطوبات، أما المتزوجة فإنها تشبك يديها في يدي زوجها وتتحرك بالطريقة التي تنم عن سعادتها بهذه الليلة لا أكثر ولا أقل. الفتيات إذن تشتعل فيهن الحمى التي لم يطفئها الرجل بعد، وتعلو الموسيقى فتزداد معها الحركة حتى تأتي لحظة تبدو فيها الفتاة مثل مخلوقة بدائية تتلوى وجعا ولذة في حفل تبتعد فيه المحرمات، ويتوارى فيه الخجل، وتظهر المرأة بشعورها الفطري الذي لا يمكن أن يقف أمامه أي مانع. وهكذا تخرج الفتاة من ذاكرتها، وتتخلص من القيود التي تثقلها، والجدران التي تقف في طريقها، لاسيما وأن عاداتنا وتقاليدينا التي ننسبها ظلما وبهتاناً للدين قد وضعت المرأة في كهف ليس فيه إلا مخرج واحد يقف أمامه القساة المتعصبون الذين لا يرون في الدين إلا الحرمان والموانع.

لم أنس أبدا وأنا في لحظة فرح ونشوة وتقبيل لسان المهدي أمام الجميع أن أتأمل هذا الموقف، فقد خلقت متأملا وعندي رغبة عارمة في تقويم المعوج وإصلاح الفاسد. ولعل هذا نابع من موهبتي الأدبية، فالأدباء

الحقيقيون يقولون: إن الأدب نار وإنه يسعى إلى إصلاح العالم. تركت سناء المهدي في تلك الليلة نفسها للحب، فكانت تحضني، وتقبلني، وتتشرب صفائرها علي وجهي. وعندما طلب منا منظم الحفل أن نقطع التورته قال لنا: قطع التورته يحتاج أولا إلى قبلة، فانطلقنا في قبلة عميقة صفق لها الحاضرون.

وجاءت ساعة تناول الوجبة التي كانت عبارة عن بوفيه مفتوح جهزته القاعة، وأضفت إليه خروفين مشويين، وبذلك كان الأكل يفيض عن حاجة المدعوين، فأكلوا جميعا فوق طاقتهم، واستمتعوا بليلة سعيدة مدهشة. تذكرت ليلة فرح زوجتي صفاء البطران. لا جرم أنها كانت هي الأخرى ليلة رائعة، لكن صفاء لم تكن بهذا الجمال المشع الذي ظهرت به سناء. فسناء في الأساس صارخة الجمال، وقد أضفت الزينة عليها سحرا لا يوجد إلا نادرا. وأغلب الظن أن الحاضرين، لاسيما من كبار السن، تساءلوا: كيف وقع هذا الشاب المتزوج علي هذه الفتنة التي ليس لها مثل؟! لكنهم لن يلبثوا إلا أن يراجعوا أنفسهم قائلين إنه هو الآخر جميل المظهر، شامخ الوجه، بهي الطلعة، وموقعه الأكاديمي إضافة إلى ما سبق يمنحه الحق بأن يفوز بأجمل امرأة في شبين الكوم، فتاة من بنات الأسر، جميلة، خفيفة الروح، مترببة تربية حسنة، ومثقفة، وساحرة النظرات.

بعد تناول الطعام أخذ المدعوون ينسحبون أسرة بعد أخرى. كانت الساعة قد اقتربت من الثانية صباحا، فجاءت السيارة المجهزة بالورود وحملتنا إلى عش الزوجية. تذكرت في هذه اللحظة أبيات المجنون علي لسان شوقي:

سجا الليل حتى هاج لي الشعر والهوى وما البيد إلا الليل والشعر والحب
ملأت سماء البيد عشقا وأرضها وحملت وحدي ذلك العشق يا رب

ألم علي أبيات ليلى بي الهوى وما غير أشواقي دليل ولا ركب
وباتت خيامي خطوة من خيامها فلم يشفني منها جوار ولا قرب
إذا طاف قلبي حولها جُن شوقه كذلك يطفئ الغلة المنهل العذب

لم تكن خيامي خطوة من خيام سناء، لكني كنت شبه ملتصق بها، وهي تلتصق بي، ولولا وجود السائق لانطلقنا في حالة عشق، وكأننا نستعجله قبل أن نصل إلي البيت. كان الجو رطباً، والليل ساج، واللمبات التي تنير الشوارع تنعكس علي صفحة المياه، والندي بدأ في نشر مظلة علي الكون، والشوارع خالية من المارة، والنسيم العليل يهب من ناحية البحر، والإيقاع الموسيقي الخفيف ينطلق من كل الجوانب، وأنا أقول في نفسي: هذا هو هدفنا المنشود، أن نعثر علي الإيقاع الأعظم، وأن نغوص فيه، وأن نتبعه بثقة. وهل في الكون أعظم من هذا الإيقاع لاسيما في هذه الساعة الساجية من الليل؟! قلت لسناء: تأملي في هذه الطبيعة الجميلة حولنا. إنها تشاركنا فرحتنا في هذه الليلة التي لا وجود الزمان بمثلها. ولا أدري كيف كسرت سناء حاجز الخجل وقبلتني في خدي قائلة: الليل يحتفل بنا، وقلباننا يحتفلان بهذه الليلة. ثم أضافت: هل تصدق يا صفوان أن رسالة في ورقة إجابة تحملنا في النهاية إلي أن نصبح زوجين؟! ثم قالت: هل تعلم أنني حتى هذه اللحظة لا أتصور أن هذا قد حدث فعلاً. فأنت بالنسبة لي كنت طيفاً بعيد المنال خاصة وإنك متزوج ولديك أولاد. قلت لها: تحدثنا من قبل عن أن ماهية الحب سر من أسرار هذا الكون، ولهذا قال ابن حزم: "الحب ليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل". أما عن أن ماهيته لا يدركها أحد فقد تحدثنا في هذا كثيراً.

كان الكثيرون من الأهل والأصدقاء يسرون بسياراتهم، يطلقون أبواق السيارات، وينحرفون بعجلة القيادة، وهي عادات مصرية ذميمة، يظنها الناس احتفالاً وما هي باحتفال. وصلنا إلي البيت وكانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً. سلمنا علي من أوصلونا وصعدنا إلي الشقة، وما إن فتحنا الباب ودخلنا حتى انخرطنا في قبلة طويلة تجتث منابع الشوق من جذورها. كنا مثل فرسي رهان، كل منا يندمج في الآخر، وهكذا جاء الوقت الذي ألتصق فيه بنهدي سناء، وأقبل شفيتها، ووجنتيها، وأنفها، ورقبتها، وأدفن وجهي في صدرها. كل هذا ونحن لم ندخل بعد حجرة النوم. قالت لي سناء بدلال يذوب له القلب: ألا نؤجل اللقاء قليلاً لنلقي نظرة علي الشقة والفرش؟ قلت: معك حق. قالت: أنا أعرف أن العرف عندكم في القرية يجعل الناس تنتظر في مدخل البيت لحين قيام العريس بفض غشاء البكارة، لكننا هنا لا ينتظرنا أحد، فلنؤجل هذا الموضوع لليلة القادمة حتى أتأهب نفسي له. قلت: وهل هو يحتاج إلي تأهب نفسي؟. قالت: نعم، نحن الليلة في حالة تعب من كثرة ما بذلنا من جهد، وأنا في حاجة إلي أن أكون مرتاحة جسدياً ومتأهبة نفسيًا. قلت: لك ذلك، والأهم من كل هذا أننا أصبحنا في مكان واحد، داخل شقة مقفولة علينا، لكنني أريد شيئاً واحداً هو أن تخلعي ملابسك وترتدي قميص النوم، وأنا سوف أخلع ملابسني وارتي بيجامة شفافة.

خلعت سناء ملابسها وارادت قميص النوم المشجر الذي يظهر معالم الجسد أكثر مما يخفيها. ومع أنني كنت أعرف أن جمال سناء لا مثيل له فإني أصبت بالدهشة والانبهار. قلت لنفسي: هل في الدنيا جمال بهذا الوصف: شعر ناعم ذهبي غزير ينسدل علي كتفيها، وبشرة رائقة جذابة، وعينان مثل

عيون المها، وخدان يميلان إلى الحمرة، وعنق كسبيكة فضة، وأسنان مثل اللؤلؤ، وقامة رشيقة مثل غصن البان، وما بين السرة والركبة كيان لا مثيل له ويعجز القلم عن وصفه، وسرة موضوعة في مكانها مثل أوقية مسك، وفخذان سمان كأنهما قدا من رخام مصقول. تحسستها من جميع الجوانب وأنا في حالة ذهول مثل شخص عثر علي كنز لم يكن يتوقع أبداً أن يعثر عليه.

قلت لها: يا سناء: أحس أنك متعبة، فهيا بنا ننام، ونغوص في الأحلام. قالت: هل مازلت تحلم؟ قلت: هل يري إنسان هذا الجسد وكيف عن الأحلام؟ إنك حلم مازلت أعيش تبعاته إلي اليوم. كنا ونحن ندرس في المرحلة الثانوية بالمدينة القريبة من قريتنا نذهب إلي السينما فنشاهد الممثلات الجميلات، ونعود لنعيش معهن في الأحلام ونحن متأكدون أن الوصول إلي مثيلتهن شيء من المستحيل. الليلة أنت يا سناء معي، وأنت أجمل منهن. أنام إلي جانبك وأضمك إليّ، وأحظى بتقبيل شفّتك الجميلتين. فهل تظنين أن هذا قليل؟! كان الأوائل يقولون: لا قيمة للحياة بدون عشق. وقال إيليا أبو ماضي الشاعر المهجري:

إن نفساً لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلي نفسي وبالحب قد عرفت الله

وقال الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي في "ترجمان الأشواق":

سروا وظلام الليل أرخي سدوله فقلت لها صبّاً غريباً متيماً
أحاطت به الأشواق صونا وأرصدت له راشقات النبل أيان يمما
فأبدت ثنايها، وأومض بارق فلم أدر من شق الحنادس منهما
وقالت: أما يكفيه أني بقلبه يشاهدني في كل بيت أما أما

والآن أنت يا سناء في قلبي وفي بيتي، ننام معا علي سرير واحد، ويندمج جسدانا في جسد واحد. قالت سناء: تصور يا صفوان أن النوم يطير من عيني لأنني أريد أن أظل ملتصقة بك. هل يأتي يوم من الأيام يتحمس فيه أحد ليكتب قصة حبنا؟ قلت لها: أنا نفسي سوف أكتب هذه القصة لأنني أحس أنها شيء فريد من نوعه. سوف يخلد هذا الجمال الأنثوي، وسوف يظل نبعا يغترف منه العاشقون. فهناك أناس نذروا أنفسهم للحب مثلما هناك آخرون نذروا أنفسهم للجهاد، علي نحو ما قال جميل في أبياته المشهورة:

يقولون جاهد يا جميل بغزوة	وأَيَّ جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة	وكل قتيل عندهن شهيد

قلت هذا الكلام والتصقت أكثر وأكثر بسناء، وأحسست أنني أغوص في جسدها، وأرتشف من جمالها، مثل غواص ماهر يعرف كيف يستخرج من جسد المرأة المحبوبة كل ما يستقر في أعماقها، ويذوب في روحها، ويتغلغل في مسامها. هل كل هذا كان بسبب الخبرة السابقة أم أنه شيء فطري يعيش معنا ونعيش معه؟ وكان لابد أن نستسلم لداعي الكري، بعد أن ارتشفنا من كؤس الحب، فرحنا في نوم عميق بعد أيام من التعب والسهر لم نصح منه إلا الساعة الثانية ظهرا، وكان لابد أن نصحو في هذه الساعة لنتنظر قدوم المهنئين من الأهل والأصدقاء.

حبيبي صفوان: أخيرا صرت معك تحت سقف واحد، أرتشف من رضابك وترتشف من رضابي، وتنداح في صدري وأنداح في صدرك، وتذوب في كياني وأذوب في كيائك، وتعبث في كل جزء من جسدي وأعبث بكل جزء من جسdek. من كان يصدق أن يحدث هذا وكنت في المحاضرة امرأة خجولة لا تجرؤ علي البوح بحبها لك. لكن الزمان ادخر لنا خاطبة من نوع لم يكن يخطر علي بال: إنها ورقة الإجابة السحرية التي أوصلت إليك الرسالة وكأنها الحمام الزاجل الذي كان يحمل الرسائل إلي أماكن بعيدة، ولا جرم أنك كنت أيضا بعيداً، والآن أنت أقرب إليّ من حبل الوريد، أقرب إلي من أبي وأمي وأخوي. فأنت كل شيء في حياتي.

دارت هذا الأفكار في ذهني ونحن نودع آخر الأصدقاء المهنيين، ومن قبلهم الأسرة وبعض الأهل الذين جاءوا بهداياهم، كما وصلتنا بعض المأكولات الدسمة التي تحملها الأم إلي ابنتها في هذه المناسبة. جهزت نفسي للقاء صفوان علي الرغم من أنني كنت لا أزال أحس بالخوف مما يسمونه فض غشاء البكارة. تخففت من ملابسني وارتديت قميص النوم، ووجدت صفوان يغير ملابسه، ثم اقترب مني وبدأ يداعبني. أحسست أنه ليس متعجلاً في فض الغشاء، بل إنه يريد أن يقضي وقتاً طويلاً في الارتواء من جسدي، وكانت لدي نفس الرغبة في أن أمتع عيني بالنظر إلي جسد صفوان، وأجوس بيدي في كل تضاريسه. كان جسده ينضح رجولة وتدفقا، يغطيه شعر لا أقول إنه كثيف لكنه منتشر بانتظام في جميع أنحاء جسمه. ازداد تعلقي بالقوام المعتدل، والوجه النابض بالحياة، والصدر العريض الممتلئ، والساقين

المفردتين الخارجيتين من منطقة مكتنزة تبدأ تحت السرة، وتضم فيما تضم تجويف ما بين الفخذين. كانت سعادتني غامرة وأنا أتأمل هذا الجسد القوى وأتوه في تفاصيله.

وعلي مدي أكثر من ثلاث ساعات لم نهذاً ولم نحس بالتعب. كنا في حالة متعة لا مثيل لها. سألت نفسي: هل الحياة بالفعل رجل وامرأة في شرح الشباب؟ ووجهت السؤال إلي صفوان، فقال لي: ألا تذكرين الأبيات التي قلتها لك من قبل وقد قرأت في مجلس الخليفة المأمون، ومنها هذا البيت:

لم يخلق الرحمن أحسن منظرا
من عاشقين علي فراش واحد

ثم أضاف صفوان: إن المتعة يا سناء نابغة في الأساس من هذه العلاقة المشروعة التي يباركها الأهل والناس جميعا. رجل وامرأة يتساقيان من ينابيع الحب وقد أسلم كل منهما نفسه وروحه للآخر. أما تلك العلاقات الآثمة التي تمارس في الغرب حاليا فهي علاقات بائسة تقتل الرجل والمرأة جميعا. أنا أحس بالمتعة الآن لأنني أغوص في جسدك وأتغلغل في روحك وفي قلبك، وأنت تحسين بالمتعة لأنني بالنسبة لك لا أمثل جسداً فقط وإنما أنا روح تغرس في أعماقك مثل البذرة النابتة التي نمت وأثمرت وتحولت إلي كيان قائم بذاته يكاد يتفوق علي عالم الجسد. وهكذا من تلامس الروح والجسد ينبع الحب الذي غرس في قلبينا منذ أن التقينا.

قال صفوان هذا الكلام ثم نظر إلي نظرة فهتت مغزاها، تعني أننا مضطرون لفض غشاء البكارة حتى نقوم بعد ذلك بإطفاء هذا الظمأ الذي يحرق جسدنا. قلت له: معك كل الحق، ثم أخذت أهبطي لهذا اللقاء الأول. عانيت من بعض الألم لكنني أجبرت نفسي علي التحمل حتى انتهت المهمة.

وكان من الواضح أن صفوان صاحب خبرة قديمة، ولهذا تم الموضوع في سلاسة وبلا صعوبات كثيرة. قدم لي صفوان قطعة قماش بيضاء قائلا لي: من عادات أهل قريتنا أنهم يستقبلون الدم القليل علي مثل هذه القماشية ويعرضونها علي كل من يأتي لتهنأتهم حتى يقولوا إن الفتاة كانت بكرًا بحق وحقيق، ولم يمسسها رجل من قبل. أما فيما يتعلق بالعريس فإنها تدل علي قدرته الذكورية. أي أن هذه القماشية لها رسالة يعتبرها الناس شيئا طبيعيا جداً. وهكذا كانت الحياة في مصر سلسلة وبسيطة، أما الآن فقد تعقدت الأمور بسبب ظهور الجماعات المتشددة التي لا تعرف من الدين إلا القشور ومع ذلك تدعي أنها تعود إلي الأصول الأولى للإسلام.

أحسست براحة شديدة بعد فض غشاء البكارة، لكن الألم استمر فقلت لصفوان: لن تقربني إلا بعد ثلاثة أيام. رد صفوان: "ليلي بجانبني كل شيء إذا حضر" ثم أضاف: لكن هذا الامتناع لا ينطبق إلا علي الجماع فقط. قلت نعم، وهل يمكن أن أبعد عنك للحظة واحدة. فأنت كل شيء في حياتي. صحيح أنك لابد أن توزع الأيام بيني وبين زوجتك الأولى، لكن هذا لن يحدث إلا بعد انقضاء شهر العسل. سألته عن رحلتنا إلي فرنسا فقال لي: غدا أتسلم الفيزا ونحدد موعد السفر ونحجز في الطائرة. كنت أنتظر هذه الرحلة لأني أرغب في رؤية الأماكن التي عاش فيها صفوان أثناء دراسته في باريس، لكنني كنت في شوق إلي اللقاء الجنسي الحقيقي مع صفوان.

ولهذا ما إن أحسست بالراحة حتى أعددت نفسي لهذا اللقاء. أطفأنا كل الأنوار فيما عدا نوراً خافتاً كان ينبعث من لمبة صغيرة ملونة، كنت أحس برغبة شديدة في التعرف علي كيفية بلوغ الجسد نشوته قبل الروح، وذلك من خلال الإيلاج والمتعة، وهل هذه المتعة الممزوجة بالألم – كما حكى لي بعض

صديقتي - هي التي تعمل علي بلوغ الروح ذروة الاندماج والتفاني والذوبان في كيان المحبوب؟. أخذت أتحمس صفوان بيدي، وانطلق هو في حالة نشوة فائقة لدرجة أنه كان يقبل كل جزء صغير أو كبير من جسمي. وسري في أوصالي خدر لا يقل قوة وتأثيراً عن الأثر الذي تمارسه اللذة في حياة أي إنسان وإن كان يحاول أن يسترها ولا يبوح بها لأحد. وفجأة أحسست بحرارة تسري بين فخذي، ورطوبة تبلل هذا المكان المسحور، فوجدتني أطلب من صفوان أن يبدأ عملية الإيلاج. كانت دقائق لذیذة تجاوزت نصف الساعة ارتفع خلالها صوتي، وزاد لهاث صفوان حتى بلغنا لحظة النشوة الجنسية، وبعدها حدث هدوء لا أقول إنه هدوء ما قبل العاصفة لكنه في الحقيقة هدوء ما بعد العاصفة.

لم ينم صفوان بعد هذا اللقاء المفعم بالنشوة، والممزوج بالحب، ولم أجد لدي ميلاً للنوم. ظل صفوان يلعبني وألاعبه وقد امتزج الحب بالرغبة الجسدية، وفجأة قام صفوان وهو شبه عار وأحضر الجزء الأول من كتاب " قصص العرب " وقال لي ألا تريدان أن أقرأ لك من هذا الكتاب قصة طبيب العرب الحارث بن كُذدة مع كسري أنوشروان؟ قلت بلي. قال: لن أقرأ القصة كلها لأنها طويلة، وهي عبارة عن أسئلة وجهها كسري إلي الحارث، وكان الحارث يجيب عليها بذكاء شديد، وآخر سؤال هو: ما تقول في النساء .. وأيهن القلب إليها أميل، والعين برويتها أسر؟ قال الحارث: " إذا أصبتها مديدة القامة، عظيمة الهامة، واسعة الجبين، قنواء العرنيين (الأنف)، كحلاء، لعساء، صافية الخد، عريضة الصدر، مليحة النحر، في خدها رقة، وفي شفيتها لعس، مقرونة الحاجبين، ناهدة الثديين، لطيفة الخصر والقدمين، بيضاء، فرعاء، جعدة، غضة بضة، تخالها في الظلمة بدرأ زاهراً، تبسم عن

أقحوان، وعن مبسم كالأرجوان، كأنها بيضة مكنونة، ألين من الزبد، وأحلي من الشهد، وأنزه من الفردوس والخلد، وأذكي ريحا من الياسمين والورد، تفرح بقربها، وتسرك الخلوة معها". يقول الراوي وهو صاحب بلوغ الأرب أو صاحب العقد الفريد: فاستضحك كسري حتى اختلجت كتفاه وقال: لله درك من أعرابي! لقد أعطيت علما، وخصصت فطنة وفهما! وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به.

قال صفوان: وهذا الوصف لا ينطبق إلا عليك يا سناء. فهل تعرفين إلي جوار من أضطجع الآن، وألتصق بها التصاق الروح بالجسد، وأتغلغل في كيانه، وأمتص رحيق جسدها؟ قلت لك من قبل إنك حورية من الجنة تسلت في غفلة من الحراس وجاءت لتشاركني في سرير واحد، مهما بلغ به حسن الصنعة فإنه لا يليق بحورية من الجنة. نظرتُ إلي صفوان نظرة تدعوه إلي الجماع لأن شوقي إليه مازال متأججا، وما زالت النيران مشتعلة في داخلي. ولن تطفئ الكلمات مهما كانت عذبة هذه النيران التي تسري في كياني. سهرنا طويلا نمارس الحب مثلما نمارس الحياة، ولم ألاحظ أن صفوان قد تعب، بل أحسست أن لديه طاقة جنسية تتوازي مع قوة جسده ومتانة بنيانه. وكنت أنا مثل جذوة لا تخبو نيرانها بسهولة. فهل هو الحب الذي ظل مكبوتا لفترة غير قصيرة؟ أم هو الشوق الفياض الذي يتدفق مثل نهر النيل في أيام الفيضان؟ أم هي الروح التي تريد أن ترتوي ولن يرويه إلا تعاقب الجسدين وبلوغ حالة الاندماج الكامل؟ قلت لصفوان: أنا لم أشبع منك بعد، فرد علي: وأنا لن أشبع منك أبدا. قلت له: لكننا لا بد أن نتوقف حتى نترك مساحات لليالي القادمة. قال: لا تحملي هما فالحياة تتجدد باستمرار.

وظللنا علي هذا النحو حتى جاءت لحظة غزتنا فيها نسائم الكري، فمنا متعاقين يلفنا أزر الهوى علي النحو الذي جاء في الأبيات التي قيلت في مجلس الخليفة المأمون. وعندما صحونا من النوم وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عصرا، قمت أجهز الشقة لاستقبال من يأتون من الأهل والأصدقاء، ثم سخنت الطعام وتناولنا وجبة دسمة كنا في أشد الحاجة إليها. وحضر الوالد والوالدة جلسا في الصالون. وسألني الوالد قبل خروج صفوان من حجرة النوم. كيف وجدت صفوان؟ وهل هو زوج مثالي فعلا كما عرفناه؟ قلت: إنه أكثر من مثالي، وهو شخص ذو خلق وسجايا لا تتوفر في أي شخص آخر. أحسست بأن والدي كان يريد أن يتأكد من أنه لم يخطئ عندما وافق علي زواجي من صفوان علي الرغم من أنه متزوج بأخرى ولديه أولاد منها. قال الوالد: نحن ندعوكم غدا لقضاء اليوم معنا في الفيلا. كان صفوان قد خرج مرتديا بزته الأنيقة وسمع هذه الدعوة فوافق عليها وبالتالي وافقت أنا، وكأننا كنا نريد أن نسترجع أيام الخطوبة.

صحونا من النوم بعد الظهر بقليل فأخذنا تاكسيا وذهبنا إلي الفيلا. استقبلنا الوالد والوالدة وفتحي الشقيق الساكن بالفيلا وزوجته وولده ، وقد بدت عليهم جميعا سعادة غامرة تتجاوز كل الحدود. كانت والدة قد جهزت وجبة حمام محشي بالأرز ومحمر تحميرا جيدا، إلي جانب أرز مدسوس، وصينية بطاطس بالصلصة مسواة بالفرن، وأطباق سلطة ومخلل ومشهيات أخرى. أكلنا وشبعنا ثم جاء دور الفواكه التي توزعت أصنافها. وفي النهاية شربنا الشاي الذي صنعته زوجة أخي وكانت معروفة بإجادة صنعه. وهكذا اجتمع شمل الأسرة علي وجبة غداء شهية، وقد لاحظت أن السعادة تطل من وجه أبي، وتغمر كل كيان أمي. جلسنا فترة غير قصيرة نتحدث ونتنقل من

موضوع إلي آخر. ثم استأذن فتحي وأسرته قائلاً إنه يجهز لمشروع في العمل سوف يستغرق منه وقتاً. وكانت هذه فرصة لأن نترك الوالد والوالدة يرتاحان، وأتوجه أنا وصفوان إلي الجنيّة نسترجع فيها بعض الأيام الماضية. كان السكون هو العنصر المسيطر علي المكان، والشمس تنحدر نحو المغرب، وسور الحديقة يكتسي باللون الوردي المنعكس عليه من أشعة الشمس الصفراء، وكانت الأشجار العطرية والأشجار المثمرة تفوح بالعبر والأريج والشذى الذي ينتشر في أنحاء المكان، وقد لفت نظري وجود هدهد حسن المنظر، جميل الألوان ينتقل من مكان إلي آخر، لا يهمله أن يقف علي الشجر بل يفضل الغوص بمنقاره في النجيل لعله يعثر علي بعض الديدان التي لابد أن تكون موجودة نتيجة ري الزرع. لاحظت كذلك طائر شحورر أسمر يحط علي غصن شجرة المانجو، وينتقل من شجرة إلي أخرى، وهو يطلق ترنيماته العذبة المؤثرة. اجتمع إليه عدد آخر من الشحارير والعصافير المختلفة وصنعوا جميعهم منظومة سحرية أساسها التغريدات المنطلقة التي تندمج مع الموسيقى الهادئة المنبعثة من سحر المكان.

قال لي صفوان: اتركي هذه التأملات الآن واجلسي إلي جانبي نستروح النسائم المنعشة معاً. جلست إلي جانبه فاحتضنني بقوة، وقبلني قبلة طويلة قائلاً: الآن يا سناء نتساقى كنوس الحب بلا أي معوقات. ثم أضاف: لا ينطبق علينا ما حدث في ليلة الغيل بين قيس وليلي، وهذه الليلة تغني بها قيس، لكن ليلي أنكرتها مثلما كتب شوقي علي لسان ليلي:

قد تغني بليلة الغيل، ماذا	كان بالغيل بين قيس وبينني
كل ما بيننا سلام وردّ	بين عين من الرفاق وأذن
وتبسمت في الطريق إليه	ومضي شأنه وسرت لثنائي

سألت صفوان: لماذا أنت معجب بكل ما أنتجه العرب قديماً؟ فرد عليّ:
العرب يا سناء يا حبيبتي كانوا يصنعون حضارة، وكانوا علي مدي ثمانية
قرون تقريباً هم أكبر قوة في العالم، تعمل حسابهم القوي الأخرى، بل
وترضخ لهم في غالب الأحيان. سيف الدين قطز هزم المغول في معركة عين
جالوت، وصلاح الدين الأيوبي هزم الصليبيين في معركة حطين، وغير ذلك
كثير. انظري الآن: صدام حسين في العراق، والقذافي في ليبيا، وحسني
مبارك في مصر، وحافظ الأسد في سوريا، وعلي عبد الله صالح في اليمن
وسواهم، كل هؤلاء سوف يدمرون العالم العربي، ويمكن أن نصير مثل
الهنود الحمر يري الأقوياء أنه لابد من إبادتنا حتى لا يقع العالم في مستنقع
التخلف والتشدد والإرهاب . ولا جرم أن الأنظمة الشمولية التسلطية في
العادة هي التي تدمر الأمم والشعوب، ومن المؤكد أننا سائرون إلي هذه
المرحلة. وقد رأها أمل دنقل الذي توفي عام 1983 واضحة للعيان. كان أمل
دنقل يحس إحساساً قوياً بأن العرب ينحدرون نحو هوة سحيقة. وقد قال في
حوار أجرى معه: " إذا أردت أن أحدثك عن المستقبل القادم فأنا أعتقد أنه
سيكون فترة ضياع، بمعنى أنه مستقبل أمة فقدت - كما قلت - حلمها،
ومحاطة كلها الآن بغزو ثقافي وفكري، وتتبنى المنجزات المدنية الغربية.
نحن الآن نملك مواطنا عربياً تحت يده أحدث الأجهزة والسيارات، ولكنه لا
يملك العقلية العلمية التي يستطيع بها أن يدير كل هذا: فهو مستهلك وليس
منتجا، متلق وليس مبدعا. ولذلك أعتقد أن العرب في السنوات القادمة لن
يستطيعوا أن يقدموا أي إسهام حضاري ولكنهم يستنشقون كل معطيات
الغرب".

قال صفوان هذا الكلام ثم طبع علي شفتي قبلة طويلة. كانت أستار الليل قد هيمنت علي المكان، والقمر بدأ يطل وتنعكس أشعته الخافتة فوق هامات الشجر، وبيتنا المحاط بالحديقة يسبح في سكون جليل، وموسيقى الليل تبدو مثل أغاريد الطيور التي انسحبت منذ وقت قصير. سحر مكاني وزماني لا وجود الدهر بمثله، وأنا وصفوان زوجان أو عاشقان يذوب كل منهما في الآخر روحا وجسدا وكيانا. تري ماذا أفعل معك يا صفوان وقد حملتني إلي آفاق تتجاوز كل أحلامي وتوقعاتي؟ وهل الثقافة لديها القدرة علي أن تجعل من الإنسان شخصية فريدة ومبدعة تتمتع بحسن الخلق، وبالبرقة، والوداعة، والتزام الأصول؟ طرحت علي صفوان هذا السؤال فقال: إن أسوأ ما ارتكبته الأنظمة العربية الجاهلة المتخلفة أنها خافت من الثقافة ومن التعليم فقضت عليهما قضاء مبرما، ومن ثم أطلق العنان للجماعات الأصولية تصول وتجول في المجتمعات العربية، وتعمل علي استقطاب الشباب الغر المفرغ الذهن والعقل والقلب فصنعت منه كيانا جديدا، يهدم ولا يبني، يدمر ولا يقيم شيئا، وكل هذا بالإضافة إلي القمع ونشر الجهل والخرافات، وتزييف الإعلام مما جعلنا حاليا في ذيل الأمم. ولاشك أن ما حدث في مصر كان هو الأخطر والأسوأ، لأن مصر من المفروض أن تكون قاطرة النمو والتقدم في العالم العربي.

قضينا وقتا لا بأس به في حديقة الفيلا وآن الألوان لأن نغادر المكان متوجهين إلي شقتنا. قال لي صفوان: لا بد أن أحضنك هنا استنكاراً لما فات لأنك لم تكوني تسمحين إلا ببعض التلامس. قلت له: أنا كلي لك الآن يا صفوان، وأعرف أن روحك وجسدك وعقلك كلها خالصة لي، فاقطف من ثمار صدري ما تشاء، ثم غادرنا المكان بعد أن ودعنا الوالد والوالدة.

قمت باستخراج تأشيرتي دخول (فيزا) من سفارتي فرنسا وإسبانيا لقضاء أسبوع في كل من الدولتين. كان استخراج التأشيرة أيامها مسألة سهلة جداً، تقدم الطلب للتصليّة في الصباح وتحصل علي التأشيرة في اليوم التالي مباشرة وربما في نفس اليوم. لم تكن الأمور قد تعقدت علي النحو الذي نراه الآن، فالعالم العربي كان يتمتع بنوع من الاستقرار، ولم تكن الأوضاع قد تفاقمت وبات العالم كله يخشي من أن يكون الشخص القادم من أي بلد عربي أو إسلامي يحمل حزاماً ناسفاً، أو جاء من أجل ارتكاب أي عمل إرهابي.

كان موعد إقلاع الطائرة الذهابية إلي فرنسا في الساعة التاسعة صباحاً. استأجرت سيارة بسائقها وخرجنا من شبين الكوم في ساعة مبكرة. كانت خيوط النهار البيضاء قد أخذت تنتشر حولنا بعد أن ارتحلت خيوط الفجر السوداء، وعندما أطلت الشمس استفاق الكون وغمر النور الأرض بإشعاعاته ذات الألوان المتحولة من صفراء إلي بنفسجية إلي حمراء وفقاً لنحولات الشمس وانعكاساتها علي الأرض وفي السماء. كانت قطرات الندى تتأرجح علي أوراق الشجر، والعصافير تنطلق صائحة ومغردة، والطيور الكبيرة تهز أجنحتها وهي تمضي في الفضاء الرحب علي شكل أسراب أو بطريقة منفردة. تذكرت في هذه اللحظة كيف كنت في أيام الخطوبة أحاول أن التصق بسناء، وألمس يديها، أو أقرب وجهي من وجهها، وهي أشياء كلها مختلفة بسبب وجود السائق. الآن لم أعد في حاجة إلي هذه الاختلاسات، فسناء معي طوال الليل نمتح من معين الحب، وكأننا مزيج من رحيق يجمع بين الروح والجسد وريح الشمال المنعشة الصافية.

وصلنا إلى مطار القاهرة وركبنا الطائرة التي وصلت إلى مطار أورلي في باريس بعد أربع ساعات. قالت سناء: ما أجمل هذا المطار، وما أروع الخدمات التي تقدم لنا!!! قلت لها إن باريس كلها جميلة، وهي – كما يقال عنها – مدينة كونية يأتيها الناس من كل أصقاع الأرض. كانت سناء متوردة الوجنت، متوثبة الصدر، ترتدي جونلة رقيقة وقميصا ملونا وجاكتة حريمي تقيها من لسعات البرد، ممشوقة القوام، رائعة الهندام، لدرجة أنني كنت أنظر إليها في انبهار وأقارنها بفتيات باريس الجميلات فأجدها تتفوق عليهن. فوجئت سناء بأن الحب يمارس علنا في المطار فسألتني: هل هذا يحدث هنا فقط؟ فقلت لها: إن هذا يحدث في كل مكان في باريس، وفي المدن الأخرى، وفي كل الدول الأوربية. إنهم يعتقدون أن الحب مسألة طبيعة جدا وأنه أحد التابوهات أي المحرمات التي تم القضاء عليها. أضفت: كما تلاحظين فإنهم يمارسون الأحضان والقبلات فقط أما الجنس بوصفه علاقة جسدية يدخل فيها الإيلاج فإنه يمكن أن يمارس في الشارع أو في الحدائق لكن إلى حدٍّ ما بعيدا عن أعين الناس.

أخذنا تاكسيا حملنا إلى أحد الفنادق الكبيرة التي كنت أعرفها أيام دراستي في باريس. أعجبت سناء كثيرا بالفندق، وبالمنطقة التي يقع بها، وبالحجرة الجميلة المظلة على الشارع ومجهزة تجهيزا جيدا: سرير كبير، ودولاب، وكنبة صغيرة، وطاولة، وجهاز تدفئة مركزية، وأباجورات في كل الأركان، وكل ما يؤدي إلى الراحة والاستجمام. عانقت سناء، وارتشفت من شفيتها ومن خديها المتوردين، وقضينا معظم الليل نمارس العشق وكأنا لم نمارسه قبل ذلك في شبين. قالت: لي سناء: لماذا أنت متلهف علي الجماع هنا وقد خبرناه أشكالا وألوانا منذ أن تزوجنا؟ قلت لها: وهل يمكن أن أجدك إلي

جوارى ولا أتلُف. فأنت يا سناء مثل كرنفال بهيج من الألوان: فخذان مطويان، وردفان مكتنزان، وثديان بارزان، وشعر منساب، وجسد ينبض بالحيوية وبالنشاط، ووجه جميل جذاب. لقد كنت أنظر إليك في مطار أورلي فأحس أنك أجمل امرأة، وأكمل أنثى. فهل تستكثرين عليّ وأنا وأنت وحدنا في مكان واحد أن أقطف ثمارك الشهية وأندمج في كيانك؟ قالت سناء: هل صدقت مزحتى يا صفوان؟ إنني متلهفة أكثر منك. وهكذا قضينا ليلة باريس الأولى نقطف الثمار، ونغوص في البنيان، وقد نشرت أجنحتها علينا ليلة من ليالي باريس المترعة بالحب والنشوة والصفاء.

صحونا مبكرا، وبدأنا يومنا بالذهاب إلي شارع الشانزلزيه. شاهدنا قوس النصر الذي انطلقنا منه سيرا علي الأقدام، نتوقف عند هذا المحل أو ذلك حتى وصلنا إلي المسلة الفرعونية التي تزدهي بها باريس. ثم انتقلنا إلي متحف اللوفر، وقضينا به أكثر من ثلاث ساعات نشاهد اللوحات القديمة والحديثة لفنانين عالميين كبار، معظمهم مشهورون في كل أنحاء العالم. بعد ذلك توجهنا إلي برج إيفل، ثم قصر فرساي، وأخيرا كنيسة نوتردام التي ذكرتنا بالفيلم المشهور "أحذب نوتردام". كان التعب قد بلغ منا مبلغا كبيرا، وكان لابد أن نأخذ قسطا من الراحة، ونتناول وجبة دسمة. دخلنا مطعما كبيرا كنا نذهب إليه عندما كنت أدرس في باريس. طلبت سناء أكالات باريسية، وطلبت أنا بوفتيك وطبق أرز، وطبق خضار. أكلنا وشبعنا ثم توجهنا مباشرة إلي الفندق. وعلي الرغم من التعب فإني لم اترك الليلة بدون أن أشبع من سناء، ووجدتها هي الأخرى مستعدة لذلك. قالت لي سناء: ألا تري أن ممارسة الحب هنا أجمل مرة من شوارع باريس ومتاحفها وقصورها ومتنزهاتها؟ قلت لها: لأن الحب هو أعظم شيء في الوجود. ولهذا قال ابن حزم في "طوق

الحمامة": " وإني لأعرف فتى من أهل الجد والحسب والأدب، كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حبه، وأكثر من ذلك كارهة له لقلته حلاوة شمائل كانت فيه، وقطوب دائم كان لا يفارقه، ولاسيما مع النساء، فكان لا يلبث إلا يسيرا ريثما يصل إليها بالجماع، ويعود ذلك الكره حبا مفرطا، وكلفا زائداً، واستهتاراً مكشوفاً، ويتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه. صحبه هذا الأمر في عدة منهن، فقال بعض إخوتي: فسألته عن ذلك فتبسم نحوى وقال: إداً والله أخبرك: أنا أبطأ الناس إنزالاً. تقضي المرأة شهوتها، وربما ثنت، وإنزالى وشهوتي لم ينقصيا بعد، وما فترت بعدها قط. وإني لأبقي بمنتي بعد انقضائها الحين الصالح، وما لاقى صدري صدر امرأة قط عند الخلوة إلا عند تعدي المعانقة، وبحسب ارتفاع صدري نزول مؤخري".

قالت سناء: فما بالك إذا كان الرجل بهذه الصفات وهو حلو الشمائل، جميل الطلعة مثلك يا صفوان!! لقد أحببتك وأنا لا أعرف هل أنت كذلك أم لا. وقد تأكدت منذ أن تزوجتك أن فيك فحولة غير عادية. لقد حولتني إلى امرأة شغلها الشاغل حالياً هو التقاء جسدينا وامتزاج روحينا. فهل تعذرني إذا ذبت في حبك، واندمجت في جسدك، وتمنيت لو بقينا هكذا بلا انقطاع؟ قلت لها: أنت يا سناء تنطبق عليك هذه الأبيات التي تغني بها محي الدين بن عربي في "ترجمان الأشواق":

من بنات الخدور بين الغواني	بأبي طفلة لعوب تهادي
أفلت أشرقت بأفق جناني	طلعت في العيون شمساً، فلما
كم رأيت من كواعب وحسان	يا ظلولا برامة دارسات،
يرتعي بين أضلعي في أمان	بأبي ثم بي غزال ربيب

قضينا أيامنا في باريس في زيارة متاحف أخرى، وأماكن أثرية مهمة، والأكل في المطاعم أو تناول المشروبات في الكافيتريات المنتشرة في كل الشوارع، وخصصنا يوماً لزيارة جامعة السوربون، حيث قضينا وقتاً ممتعاً في زيارة قسم اللغة العربية الذي حصلت منه علي دراساتي العليا، وتصادف أن كان الأستاذ الذي أشرف علي رسالتي موجوداً، فأخذت سناء وسلمنا عليه ووجدته بلكنته الباريسية المميزة يقول لي: يا صفوان، زوجتك جميلة جداً، هل لديك في مصر هذا الجمال الأنثوي الخارق؟ قلت له: مصر فيها من الجمال ما لا تجده في أي مكان في العالم: جمال المرأة لاسيما إذا توفرت لها حياة معيشية راقية، أو كانت هي في الأساس جميلة مثل الكثيرات من بنات الريف، وجمال الطبيعة التي هي إلي حد كبير ساكنة ومستقرة لا تتعرض لعواصف أو فيضانات أو زلازل قوية أو غير ذلك. في مصر أيضاً جمال الآثار المنتشرة في كل مكان. كذلك مياه النيل المتدفقة وتفرعاتها في المدن والقرى .. وحتى لا أطيل قلت له: وأنت يا سيدي ربما تعرف عن مصر أكثر مما أعرف أنا، ولديكم الكتب الفرنسية المتخصصة في الحضارة المصرية قديمها وحديثها. رد الأستاذ / معك حق في كل ما تقول.

وكان لابد أن نخصص يوماً لنهر السين. وقد قمنا بذلك فعلاً. لأن نهر السين هو أحد المعالم المهمة في باريس، والرحلة فيه معناها أنك تشاهد وأنت في المركب كل المعالم التي تحدثت عنها. وبما أن العشاق علي المركب كانوا كثيرين فقد اندمجنا معهم سناء وأنا في حالة عشق سحرية، نتبادل القبلات والأحضان، وأنظرنا موجهة إلي المناطق الأثرية، وكأنا في حالة مزاوله للأنساق الجمالية في ساعة يصعب فيها أن تتخلص من أحد الأمرين. لقد تجمعا في وقت واحد لكي يغرسا في أعماق النفس صوراً لا يمكن أن

تمحي من الذاكرة، لاسيما عندما يهدأ ويرق النسيم ويستولي الصمت علي المركب، فلا يسمع فيه صوت إلا ما يبدو من ترانيم عندما يتبادل العشاق القبلات، وإلا صوت خرير الماء، وملاظمته لجدران الشاطئ، وحفيف الأشجار، وشقشقات العصافير والطيور السابحة في الفضاء. وكل هذا الجمال الطبيعي ينسجم مع جمال باريس ومبانيها الفخمة المنظمة، وشوارعها الفسيحة المعمولة بطريقة هندسية علمية. وإذا أضيف إلي ذلك جمال المرأة التي معي فتأمل علي أي نحو يكون الجمال!!.

قضينا أيامنا السبعة في باريس، ولم نجد وقتا للذهاب إلي مدن أخرى، لأننا في الأساس لم نضع هذا في الحسبان. ثم ركبنا الطائرة إلي مدريد، وقد خططنا أن نقضي يومين في مدريد، والأيام الباقية في مدن أخرى. وعلي الأخص منطقة الأندلس في الجنوب. كان معي كتاب الدكتور حسين مؤنس "رحلة الأندلس - حديث الفردوس الموعود" وهو كتاب صدر في القاهرة عام 1963. ومما جاء في مقدمته: "زرت إسبانيا أول مرة في صيف سنة 1940 في غمار الحرب والضرر، والدنيا قائمة وقاعدة .. ومن ذلك الحين لم يخرج الأندلس من خاطري أبدا: إذا كنت فيه فأنا بين آثاره ومغانيه، وإذا كنت بعيدا عنه فأنا مع تاريخه أتأمله وأستوحيه.. و لا أدري كم مرة طوفت فيه، ولكني ما زرتة مرة إلا وشعرت كأني أزوره أول مرة: ألقاه لقاء مشتاق وأودعه وداع مشتاق..".

وكانت هذه هي حالتي أيضا. فليست هذه أول مرة أزور فيها إسبانيا. فقد كنت وأنا أدرس في باريس أنتهز أي فرصة لقضاء بضعة أيام في منطقة الأندلس. والآن وصلت إلي مدريد وبصحبتني أجمل امرأة. نزلنا بأحد الفنادق في وسط مدريد، ولأننا كنا في بداية النهار فقد قررنا أن نذهب إلي متحف

البرادو. يقع المتحف في منطقة تشتهر بمعالمها التاريخية والسياحية قريبة من ميدان بوابة الشمس الذي يعتبره الإسبان وسط البلد، ومن هناك اندرنا إلى منطقة المتحف عبر شارع يضم مجلس النواب والشيوخ Las Cortes. دخلنا المتحف وأخذنا ننتقل بين صالاته الكثيرة، فالصالة الرومانية بها تماثيل تعود إلى تلك الحقبة من تاريخ إسبانيا، وبعض هذه التماثيل كاملة، وبعضها مرمم، والبعض الآخر مازال علي حاله، وذلك علي النحو الذي نراه في المتحف الروماني أو الأماكن الأثرية الرومانية في الإسكندرية. وفي صالة الرسامين القدامى شاهدنا لوحات الجريكو، وبيلاسكيث وجويا وغيرهم. ثم انتقلنا إلى صالة الرسامين المحدثين. وقد قضينا في هذه الصالات وقتا طويلا جدا لدرجة أننا لم نتمكن من مشاهدة المتحف بكامله. قلت لسناء: هذا المتحف وحده يحتاج إلى أسبوع. خرجنا من المتحف وتجولنا قليلا في الشارع الذي يبدأ من ميدان كبير يقع فيه المبنى الرئيسي للبريد وينتهي عند محطة القطارات المسماة أتوتشا. شد انتباهنا طول الأشجار التي تبدو وكأنها تلامس السحاب. تعجبت لأوضاعنا في مصر، حيث أن تعاملنا مع الأشجار والخضرة يدل علي أننا لا نعطي أي اهتمام لها. فنحن نقطعها دائما لنقيم مكانها خرسانات مسلحة، ولذلك تتطلع من نوافذ الطائرة وهي في أجواء القاهرة فلا تكاد تري إلا كتلا مسلحة، وذلك علي العكس من أوروبا حيث تطير الطائرة في أجواء ولا تري علي الأرض إلا مساكن قليلة جدا وسط غابات كثيفة وممتدة.

وبعد أن تناولنا طعام الغذاء في مطعم أنيق توجهنا إلى ميدان إسبانيا. وهذا الميدان واسع جدا، تجولنا فيه كثيرا وشاهدنا تمثال دون كيخوته وتابعه شانصو بانثا، وهما الشخصيتان الرئيسيتان في رواية ميغيل دي سيربانتيس

المشهوره. ثم توجهنا إلى المعبد المصري الذي أهدها الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر لإسبانيا، ومن هناك ركبنا التليفريك المركب في الهواء ويقطع مسافة طويلة وسط الأشجار والغابات. ذهبنا بعد ذلك إلى قصر الشرق، وهو القصر الملكي القديم، وأخذنا نتأمل في لوحاته الكبيرة التي تعبر عن مراحل من تاريخ إسبانيا أو تبرز شخصيات ملكية مهمة، وهي لوحات رسمها كبار الفنانين. خرجنا من قصر الشرق وسرنا في الشوارع المحيطة. كانت المباني تشبه الآثار عالية الجودة، والشوارع واسعة ومزدانة بالأشجار الخضراء، مع أننا في الخريف، من كل الأشكال والأنواع، وإن كان الخريف قد ترك أثره في أوراق الشجر الصفراء التي سقطت على الأرض وامتألت بها الشوارع والمنتزهات. دهشت سناء من جمال الشوارع ونظافتها، وتنسيق المباني التي تمتلئ شرفاتها بأصص الزهور والرياحين. قلت لها قارني هذا الجمال بالقبح الموجود عندنا، حيث المباني تكون في البداية جميلة ومنسقة وخاصة في المناطق الراقية، ولكنها لا تلبث إلا قليلا حتى تتحول إلى شرفات مشوهة لأن البلديات تترك الناس يتصرفون حسب مزاج كل منهم: فهذا يقفل الشرفة بالكامل ليدخلها في الحيز الداخلي في الشقة، و ربما يضع شبابيك صغيرة تشبه الطاقات الموجودة في السجون، وذلك يري أن الشرفة لابد أن تتغير وتختلف عن الشرفات الأخرى، ولهذا يدخل عليها تعديلات تتفق مع مزاجه المعلوم. وآخر – وهذا هو أفضلهم – يقفلها بشباك ألوينيتال. وكل هذا يتم في غيبة الحكومة والأجهزة المسنولة عن التنسيق الحضاري. أي أننا نعيش في حالة فوضى عارمة في كل شئون حياتنا، ولهذا لا تستعربي يا سناء أن تظهر عندنا المناطق العشوائية، حيث المباني عبارة عن أبراج بينما الشارع لا يزيد عن مترين أو ثلاثة. وكان لي صديق يعيش في الدور الخامس بإحدى هذه

المناطق يقول لي: نحن نتبادل المشروبات الساخنة مع سكان الشقة المقابلة لنا.

أصابنا إرهاق شديد في هذا اليوم الأول في مدريد، ولكنني لم أستطع أن أنام إلا بعد أن ارتويت من جسد سناء، فهو عندي أهم من باريس، ومن مدريد، ومن كل شيء في الدنيا، وهل يمكن لرجل مثلي أن يكون عنده هذا الجسد الأثوي الخارق ويبتعد عنه؟. صحونا في ساعة مبكرة وتوجهنا إلي موقف الحافلات قاصدين الذهاب إلي مدينة طليطلة، وهي مدينة مهمة تتبع عن مدريد بحوالي سبعين كم. وهذه المدينة عندما سقطت في يد الإسبان في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، بعد فترة قليلة من قيام ما سمي بعصر ملوك الطوائف، أطلق الفقيه أبو محمد عبد الله بن العسال (عام 1094م) صيحة تحذير تقول:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم	فما المّقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأري	ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا	كيف الحياة مع الحيات في سفظ

وفي طليطلة بدأنا بزيارة مسجدها الأثري الوحيد الذي بقي من مساجدها الكثيرة، ثم توجهنا إلي الكاتدرائية وهي بناء فخم واسع، تجولنا في داخلها، ثم خرجنا لنطوف بالشوارع المحيطة ونشتري بعض التذكارات من المحلات المنتشرة في كل مكان. بعد ذلك ذهبنا إلي متحف الجريكو وهو فنان من أصل يوناني عاش في طليطلة . وكانت خاتمة المطاف القنطرة الأثرية المقامة علي نهر التاجة، وهو نهر كبير يصب في المحيط الأطلسي علي شاطئ البرتغال. كانت رحلة طليطلة ممتعة جدا، وقد لاحظت سناء اهتمام الدولة الفائق

بالآثار، فقلت لها: إن عدد سكان إسبانيا أربعون مليوناً من البشر، وعدد السياح الذين يدخلونها في العام الواحد حوالي أربعين مليوناً، فكيف لا يهتمون بهذه الآثار التي تجلب السياح، ثم إن هؤلاء السياح لا يتعرضون لمتاعب ومطاردات، ومن ثم فإن هذا البلد من الأماكن المفضلة بالنسبة لهم. وسوف تلاحظين هذا بصورة أوضح في الجنوب حيث تقع منطقة الأندلس، واسمها الإسباني "أندلوثيا" Andalucía.

رجعنا إلى مدريد استعداداً للسفر في الغد إلى الأندلس. كنا قد حجزنا ما يسمى الكيلومترى، أي بطاقة للسفر بالقطار لشخصين تحتوي على ألفي كيلومتر أو أكثر حسب الرحلة. ركبنا القطار ولاحظنا أنه نظيف جداً، وعدد الركاب قليل، والقطار كله درجة واحدة. قالت سناء: ألا يوجد هنا درجة أولى وثانية وثالثة؟ قلت لها: هذه الدرجات لا توجد إلا في مصر لأن الناس أيضاً درجات، فراكب الدرجة الأولى من الطبقة العالية، وراكب الدرجة الثانية من الطبقة المتوسطة، وراكب الدرجة الثالثة من الفقراء و المطحونين والمهمشين الذين يقبلون أي شيء، ولذلك ترين المجندين يعتلون أرفف العفش والشنط، ويمدون أرجلهم بأحذيتهم الميري على الجالسين فوق الكراسي المخلوعة أو المضببة، ولا يري الناس في ذلك عيباً، وتنتظرين إلى ممر عربة القطار فتجدين القفف التي كان يسميها نجيب محفوظ بقجة، والسلال، والأمتعة وغير ذلك، بل قد تكون هناك تاجرة معها بط و فراخ، أو جبن وألبان.. وهذه يا سناء هي الحياة في مصر التي لن تتغير إلا إذا أصبح لدينا ما يسمى بحق المواطنة، وهذا شيء بعيد بُعد السماء عن أرضنا.

كانت أول محطة لنا مدينة قرطبة، وكنا قد وضعنا في اعتبارنا أن نزور ثلاث مدن فقط من مدن الأندلس البالغ عددها ثمان، وهي قرطبة، وأشبيلية

وغرناطة. في قرطبة نزلنا في فندق تعودت أن أنزل فيه مع زوجتي الأولى صفاء، وهو فندق ميمونيدس، نسبة إلى الفيلسوف القرطبي اليهودي ابن ميمون. وكان هذا الفندق يثير في شهيتي الجنسية. وإذا كان هذا قد حدث مع صفاء في كل مرة نزلنا فيه فلماذا لا يحدث نفس الشيء مع سناء؟ لم نخرج في هذه الليلة الأولى من الفندق لاسيما وأنا قد وصلنا متأخرين، ومن ثم قلت لسناء: لابد أن تكون لنا مغامرات هنا، فتجهزي الليلة نقطف فيها من ثمار الفلسفة.. وهكذا قضينا وقتاً طويلاً نمارس الحب ونقطف الثمار المشتهاة، ثم نمنا متعانقين يشدنا أزر الهوى.

وفي الصباح بدأنا بمسجد قرطبة الجامع ومنارته أو منذنته التي ليس لها مثل، وتجولنا في أحنائه. وكانت سناء منبهرة بالتقسيمات المعمارية التي تدل على حضارة غابرة، و النقوش والرسومات الموجودة على الجدران، ومكان القبلة وغير ذلك. وقد أراد الإسبان أن يحولوا هذا المسجد إلى كنيسة بعد أن سقطت قرطبة في أيديهم فلم يستطيعوا إلا أن يبنوا كنيسة مشوهة في وسطه لم تنتقص من أصالة المسجد وفخامته شيئاً. ذهبنا بعد ذلك إلى أطلال مدينة الزهراء التي بناها الخليفة عبد الرحمن الثالث أو الناصر لمحظيته المسماة بهذا الاسم، فوجدنا هناك ترميمات وأعمالاً تحاول إعادة المدينة إلى ما كانت عليه. سألتني سناء: هل كان من الممكن أن يبني الخليفة مدينة بفخامة وروعة مدينة الزهراء لأمته أو محظيته؟ قلت لها: هذا لم يكن غريباً على الحضارة العربية الإسلامية، ولم يكن ضد الدين إلا فيما يتصل بالإسراف، لكن تلك الحضارة كانت غالبية، ومهيمنة، ومواردها المالية قوية، فضلاً عن الازدهار والتألق، وهذا ما تعكسه الآثار الإسلامية في مصر، وفي إسبانيا، وفي كل بقاع العالم الإسلامي. ثم أضفت: لا جرم أنك تقارنين هذا

الازدهار بالبؤس الذي نعيشه الآن، والأفكار الغريبة المتخلفة المنتشرة في
أنحاء عالمنا، وكلها تدعي العودة إلي أصول الإسلام مع أنها ليست إلا تعبيراً
عن الجهل والتخلف والانهيـار.

مازلنا في قرطبة، ومازال المسجد الجامع يشدنا إليه فنختلس من وقتنا ساعة أو ساعتين لنذهب إليه، ونطلع إلي واجهته الفخمة ومنذنته العريضة، ونتجول فيه لمشاهدة أعمدته وأقواسه الفريدة من نوعها والتي تدل علي عبقرية هندسية تثبت أن العرب كانوا أعظم مهندسي المعمورة حتى مطلع العصر الحديث. أما المحراب فإنه قطعة فنية ساحرة. ولذلك يقال إن الإمبراطور شارل الخامس عندما دخل الجامع لأول مرة بعد إنشاء الكنيسة في قلبه تأسف لأنه سمح للقساوسة بعمل هذا التشويه، وقال لهم: "لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر، فضيغتم بعملكم هذا ما كان أثرا وحيدا في الدنيا". قالت سناء: أنا لا أحس أن هذه الكنيسة أثرت سلبيا علي المسجد. قلت لها: وأنا أيضا، ثم أضفت: إن المسجد مساحته واسعة جدا، ولهذا فإن هذا التشويه في وسطه لا يحجب منه إلا مساحة قليلة.

وسألتي سناء أثناء تجوالنا في المسجد: أراك أكثر اهتماما بالآثار العربية في إسبانيا مع انك درست في فرنسا، فلماذا؟. قلت لها: لعل أحدا سأل الدكتور حسين مؤنس هذا السؤال نفسه، فرد عليه: "إن السائح الذي يدخل إسبانيا، من أي باب من أبوابها، لا يكاد يستريح من الرحلة الطويلة حتي يسأل عن الطريق إلي الأندلس. يحاولون إغراءه بزيارة الشمال أو الشرق أو الشمال الغربي، فيأبى إلا أن يذهب إلي الأندلس. في أدلة السياحة الإسبانية يجعلون الأندلس في آخر الدليل: يريدون أن يبدأ الناس بالكنائس العجيبة الهائلة في الإسكوريال وطليلطة وشقوبيا وأبله وبلد الوليد وسلمنقة وخاصة شنت ياقب (سنت ياجو)، ولكن السائح يهز رأسه ويقول: الأندلس أولا، لأن

الأندلس في نظر السائحين جميعا هو إسبانيا". احتضنتني سناء - وهذا شيء مباح هنا - وقالت لي: من أين جئت بالوقت للتعلم في علوم وآداب وأشياء كثيرة؟!.

قمنا بعد ذلك بزيارة الأحياء القديمة في قرطبة كي نشاهد الطابع العربي للمدن في إسبانيا، ونلقي نظرة علي البيت الأندلسي. الشوارع مازالت كما هي وكان العرب مازالوا يعيشون فيها: شوارع صغيرة ضيقة مبلطة بنوع صغير من الزلط، والبيوت واجهاتها كبيرة ووراءها أبهاء بها نافورات وبعض الأشجار، والبيوت مصممة بطريقة تجعل الهواء يأتيها من كل الجهات بحيث تقي من حرارة الصيف ومن برد الشتاء وتبدو وكأنها مكيفة علي النمط الحديث. وهنا وهناك تلمح عينا المرء قوسا عربيا أو بوابة بيت تبدو مثل مثيلاتها في القاهرة أو دمشق أو المغرب. أما النوافذ فهي أقواس عربية يظهر من ورائها شجر البهو ويسمع صوت النافورة في الوسط. ويتميز البيت الأندلسي كذلك بأنه في المناطق المرتفعة أو الصاعدة تتراص هذه البيوت صفوفًا مثل اللآلئ المنثورة في الأرض. أما النظافة فحدث ولا حرج، لأنك لا تجد في كل هذه الشوارع الضيقة ورقة واحدة مرمية علي الأرض.

انتهزت تجوالنا في هذه الشوارع القرطبية لأقول لسناء: أتعرفين ما كتبه الشاعر الغرناطي فيديريكو جارشيا لوركا عن قرطبة؟ قالت: لا. قلت: لقد كتب أبياتا من أحسن أبياته، وأكثرها شجنا ورقة، وكأنه كان يتوقع موته في بداية الحرب الأهلية الإسبانية عام 1936، حيث قال:

" قرطبة ...

بعيدة ووحيدة ...

إنني أسير إليها علي بغلة سوداء، يطالعي من بعيد قمر كبير

وتحتي خرج ملئ بالزيتون

ومع أنني أعرف الطرق كلها ...

فإنني لن أصل أبداً إلي قرطبة

آه .. ما أطول هذا الطريق .. !

يا لهذه البغلة الباسلة ..

إن الموت ينتظرني

قبل أن أصل إلي قرطبة ..

قرطبة ..

تلك البعيدة الوحيدة ... "

إن لوركا في هذه الأبيات يبدو وكأنه يرثي قرطبة مثلما يرثي نفسه. وقرطبة فعلاً تستحق الرثاء، فقد كانت درة المدن في أيام ولاية بني أمية لاسيما في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر، ثم ابنه المستنصر الذي اشتهر بمكتبته الغنية بالكتب، وكانت قصور الخلفاء التي تطل علي نهر الوادي الكبير فيما خلف المسجد الجامع درة من درر الفن والعمارة، ولم يبق من هذه القصور الآن إلا بقايا، حتى قصر الرصافة الذي ابتناه عبد الرحمن الداخل ضاعت كل معالمه. أما قصور الأغنياء وحدائقهم، والتي كانوا يسمونها " المنية " فقد تقاسمها القواد الذين دخلوا قرطبة مع فرناندو الثالث الذي استولي علي هذه العاصمة من أيدي العرب عام 1236م، وأطلق كال منهم اسمه علي المنية. ولهذا فإن ما نراه في قرطبة الآن إما أطلال مدن مثل مدينة الزهراء، أو مدينة اندثرت مثل مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر، أو الشوارع والبيوت القديمة، أو بعض أسماء

الشوارع مثل شارع ابن رشد أو شارع أبي القاسم الزهراوى، وهي كلها تسميات حديثة، أو بعض التماثيل أو النصب التذكارية مثل تمثال ابن حزم الذي أقيم عام 1963م، و النصب الخاص بابن زيدون وولادة بنت المستكفي، وبالقرب منه تمثال للفيلسوف الروماني سينيكا الذي عاش في قرطبة.

سألتني سناء في لهجة حزينة: لكن هذه الأطلال، ألم يرثها أحد؟ قلت: بلي، رثاها الكثيرون ومنهم الإمام ابن حزم الذي زارها بعد النكبة وقال يصف حالها: "وقفت علي أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية، ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة، فرأيتها قد أمّحت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيّرها البلي، فصارت صحاري مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وأكاما مشوهة بعد الحسن، وخرائب مفرعة بعد الأمن". وقال الشاعر أنطونيو ماتشادو، وهو من الشعراء المحدثين، في إحدى قصائده "إن مياه الوادي الكبير تتحول إلي دموع عندما تمر بقرطبة".

ولكي أخفف من نبرة الأسى التي أحسنا بها ونحن نتجول في شوارع قرطبة قلت لسناء ضاحكا: سوف أحكي لك قصة لطيفة حدثت في قرطبة أيام العز والفراغ. فقد قيل إن الشاعر يوسف بن هارون الرمادي رأي جارية من جوارى القصر تسير وحدها عند باب العطارين، فهام بها من النظرة الأولى، ومضي يتبعها، حتى إذا صارت في موضع خال من الناس خافت أن يكون شريراً يريد أذاها، فالتفتت إليه وخطبته، وأدركت أنه صب مستهام بها، فرجته أن يدعها وشأنها، و رفضت أن تخبره بشيء يتصل بها، ومن ثم لم تقل له إلا أن اسمها "خلوة" ووعده بأن تلقاه في نفس المكان والموعـد

كل يوم جمعة، لكنها اختفت ولم يعد يراها، وعاش بعد ذلك يحلم بها ويكتب فيها الأشعار.

نمنا ليلتنا نتساقى من كنوس الحب مثلما نتساقى من كنوس الذكريات، ونستعد للسفر في الصباح إلي مدينة إشبيلية. كان جمال سناء في كثير من الأحيان يسبب لي نوعا من الانبهار حتى ونحن في غرفة واحدة بفندق ابن ميمون. نظرت إليها بعد أن فرغنا من الجماع فوجدتها فاتنة الوجه، شعرها الناعم المفروق من وسطه ينسدل علي كتفيها بطريقة تجعلني أقول في نفسي: سبحان من صور هذا الجمال، وحاجباها مثل خط رسمه فنان حاذق، وعيناها لوحتا نخيل ساعة السحر كما قال السياب، وأنفها دقيق ساحر ينسجم مع تقاطيع وجهها، ووجنتاها مثل قطعتين من لؤلؤ، وشفثاها جميلتان تفتران عن ابتسامة تنعكس علي تقاطيع وجهها، وأسنانها مرصوفة رصة فنان يجيد صناعته، وذقنها دقيقة ترسم في أسفل وجهه منسجم الملامح رائع المظهر، أما جيدها فيبدو مثل جيد نفرتيتي. و لا أريد أن أستمّر في وصف نهديها وجسدها وساقها، فهذه مناطق أجدني الآن عاجزا عن وصفها بعد أن عابنتها علي طبيعتها واندمجت معها وغصت في تفاصيلها. أحسّت سناء أنني أنظر إليها بامعان وتدقيق فقالت لي: ألم تشبع بعد يا صفوان؟ قلت: بلي، ولن أشبع منك أبداً. ألم أقل لك من قبل إنك حورية تركت الفردوس وجاءت لتعيش معنا علي هذه الأرض.

في الصباح توجهنا إلي إشبيلية، وقد قلت لسناء: ألا تعرفين أن إشبيلية هي مسرح مغامرات دون جوان؟ قالت: بلي، لقد قرأت عن ذلك. قلت لها: إشبيلية أيام العرب كانت مدينة الفن والموسيقي والرقص والغناء، وكانت ملثقي الشعراء وأهل الفن والموسيقي. وقد سقطت في يد الإسبان عام

1248م. وبمجرد وصولنا إلى إشبيلية توجهنا إلى منارة الخيرالدا، التي يقال إنها أروع منمنة بناها العرب في تاريخهم، ارتفاعها في الهواء 96 مترا، ولها طوابق سبع، وقد صممت بحيث تصعد فيها بدون سلم، وذلك علي ممر منحدر سهل تسير عليه دون مشقة، وهذا المصعد يدور مع الجدار الداخلي حتى أعلاه. وقد ذكر المؤرخون أن بانيها هو المعلم أبو الليث الصقلي. وبعد أن سقطت إشبيلية وقع زلزال كسر الجزء الأعلى من المنمنة، فوضع الإسبان مكان هذا الجزء دواراة تبين اتجاه الريح، ومن هنا جاء اسم الخيرالدا أي الدواراة الذي سميت به المنمنة كلها.

وهذه الخيرالدا القائمة بجوار الكاتدرائية حاليا هي منمنة المسجد الجامع الذي بناه أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، وكانت مساحته تضارع مساحة مسجد قرطبة. وكان في إشبيلية مسجد جامع آخر هو جامع عمر بن عبدس بناه عبد الرحمن الأوسط عام 214 هـ / 830م، ويقال إنه كان من أعظم مساجد الأندلس، وقد أزيل هذا الجامع ومكانه الآن كنيسة السلفادور، مثلما أزيل مسجد يوسف بن عبد المؤمن وأقيمت مكانه الكاتدرائية، وهكذا حوّل الإسبان المساجد، كبيرة كانت أو صغيرة، إلى كاتدرائيات وكنائس، ولم يكونوا يتوقعون أن تكون آثار العرب الباقية هي التي تجلب السائحين إلى إسبانيا. صعدنا الخيرالدا ولم نجد مشقة كبيرة في الصعود، ثم تجولنا في أنحاء الكاتدرائية، وهي علي نحو ما نجد في الكاتدرائيات مباني شاهقة، وأعمدة ضخمة قوية، لكن الفن فيها قليل إذا قورن بالمباني العربية. وقد وصف المؤرخون العرب بناء المسجد الجامع، وتوسعوا في وصف القبة التي بنيت علي المحراب وكانت تعد آية من آيات الفن، كما وصفوا السباط الذي بني في الحائط علي يسار المحراب، وهو عبارة عن قنطرة فوق الطريق

تؤدي من القصر إلى أحد أبواب الجامع، كان الخليفة يستخدمها لشهود صلاة الجمعة. أما المنبر فقد صنع من أجود أنواع الخشب مفصلاً منقوشاً مرقشاً، مرصعاً بالصندل، مجزعا بالعاج والأبنوس، مزينا بصفائح من الذهب والفضة، وأشكال من الذهب والفضة، وأشكال من الذهب الإبريز يتألق نورا. وقد فرغ البناء والصناعات من بناء المسجد الجامع في 14 شعبان سنة 571هـ الموافق 28 فبراير عام 1176م، وبذلك يكون هذا العمل قد استغرق حوالي أربعة أعوام قمرية. وكما شاهدنا في مسجد قرطبة كان في الصحن المسقوف أشجار برتقال، وما زالت بقية من هذا الصحن قائمة خلف الكاتدرائية، يمكن للرائد أن يراها إذا وقف وراء الكنيسة على مقربة من برج الخيرالدا. فأين هذا البناء الذي وصفه فنانون عظام من بناء الكاتدرائية الحالي الذي يكاد يخلو من الفن؟!.

قررنا زيارة الكاتدرائية مرة أخرى بعد أن قلت لسناء: يقال إن هذه الكاتدرائية هي ثاني كنائس العالم بعد كنيسة القديس بولس في روما. دخلناها دخول المتأني الذي يريد التحقق من هذه المقولة، لكننا لم نطق البقاء فيها كثيرا: فالظلام دامس، وأعمدة الحجر الضخمة الطويلة الهائلة تبدو مثل الأشباح المنطلقة في صحاري جرداء، و الصور والتماثيل شاحبة وكأنها تريد ألا تري في الضوء، تجولنا في الكاتدرائية مكرهين حتي وصلنا إلى قبر كولومبوس مكتشف الأمريكتين فوجدنا فوقه مجموعة نحتية رهيبة مكونة من أربعة رجال من الحجر بالحجم الطبيعي يحملون نعش هذا المكتشف المشهور. وكل شيء في هذه الكاتدرائية مزين بالذهب، وهو ذهب حقيقي، جئ به من أمريكا اللاتينية ووضع في الكنائس. ومعروف أن الإسبان نهبوا

من ذهب الأمريكتين أضعاف ما نهبه الإنجليز، لكن الإسبان عملوا علي تجميعه هكذا، أما الإنجليز فقد تاجروا به.

قضينا اليوم بطوله عند ميدان النصر الذي تحيط به مجموعة كبيرة من الآثار من بينها الخيرالداء، والكاتدرائية ، ودار محفوظات الهند الغربية، وقصر بيلاتوس، وكنيسة السلفادور، وشارع سييريس، وحي سانتا كروث، وتركنا بعض الآثار الأخرى للزيارة في اليوم التالي. توجهنا إلي الفندق المطل علي نهر الوادي الكبير. وهذا النهر في إشبيلية ممتلئ بالمياه علي العكس منه في قرطبة، ولهذا كانت البواخر تبحر منه متوجهة إلي المحيط الأطلسي، وهناك يأخذ الراكب عابرة محيطات للسفر إلي أمريكا، وهذا ما فعله الشاعر المشهور خوان رامون خمينيث عندما ذهب إلي نيويورك عام 1916 للزواج من حبيبته زنوبيا كامبروبي، وكتب خلال هذه الرحلة، ذهابا وعودة، ديوانه الفريد "يوميات شاعر حديث الزواج". جلسنا في شرفة الحجرة بعض الوقت نتطلع إلي نهر الوادي الكبير ثم دخلنا. كانت سناء مستعدة نفسيا وجسديا لليلة نقطف فيها ثمار المحبة، فبدت لي امرأة ناضجة، حاضرة الذهن، متوهجة الحس، فاتنة الجسد، وكأنها كانت تريد أن تترك في كل مدينة زرتها بصمات من فنون اللذة، وآهة من آهات الحب. قالت سناء: ما أروعك يا صفوان! خطفت قلبي، وامتلكت جسدي، وتجولت في أنحائي، ثم احتضنتني ونمنا لنقضي يوما آخر في إشبيلية.

في الصباح غادرنا الفندق متوجهين إلي منطقة القصور الملكية. قلت لسناء ونحن في الطريق: هل سمعت بقصة زواج المعتمد بن عباد ملك إشبيلية باعتماد الرميكية؟ قالت: لا. قلت لها: تروي في هذا الصدد قصة غريبة. يقولون إن المعتمد كان يتجول في المدينة فوجد فتاة فائقة الجمال تمد

رجليها في الماء فأعجب بها إعجاباً شديداً وعرفها بنفسه، ثم تزوجها، وبني لها في قصره بركة من المسك والكافور تمد رجليها فيها وهي المرأة التي صحبتته في أيام سعده بإشبيلية ثم في أيام نحسه عندما نفي إلى أغمات بالمغرب بعد أن أستولي يوسف بن تاشفين أمير المرابطين علي إشبيلية مثلما استولي علي كثير من ممالك الطوائف. قالت سناء: إن الأندلس كلها عبر ...! قلت لها: يا سناء، للأسف لا يوجد من يعتبر. إن قادتنا الحاليين سوف يصلون بنا إلي حال أسوأ بكثير مما حدث في الأندلس. فهم يوالون الغرب وأمريكا، ويعتمدون عليهم اعتماداً كاملاً مع أن الله تعالى يقول: "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم". وهم لا يضعون خططا للنهوض تجعل هذه الأمة قوية وتعتمد علي نفسها، ولذلك فإننا نعيش عصر التبعية المطلقة، مع أننا بثرواتنا ومواردنا الطبيعية يمكن أن نكون قوة عظمي. ثم إن الحكام في منطقتنا لا يهتمهم إلا الاستمرار في الحكم حتى إن حدث ذلك علي أشلاء البلاد و العباد، وكل هذا يدفعهم إلي تبديد الثروات أو استحلالها لأنفسهم ونقلها إلي المصارف الأجنبية.

وصلنا إلي المنطقة التي كانت فيها قصور حكام إشبيلية العرب، وهي تقع في مواجهة الكاتدرائية. ويقال إن أول من بني لنفسه قصراً هنا هو عبد العزيز بن موسي بن نصير، وبالطبع لم يبق شيء من هذه القصور التي أقام معظمها المدجنون، أي الذين أقاموا تحت سلطان الغالبين، ومزجوا بين الطراز الأندلسي والطراز المغربي والطراز القوطي. وبالطبع أقام الملوك الإسبان بعد ذلك قصوراً لهم في هذه المنطقة مازال أحدها موجوداً، وكان ملوك إسبانيا ينزلون فيه إذا قدموا إلي إشبيلية. ولهذا القصر حديقة رائعة تشم فيها رائحة البرتقال والريحان الذي حرفة الإسبان إلي الريان.

انتقلنا بعد ذلك إلى برج الذهب، وكان أحد أبراج الحراسة التي أقامها العرب علي ضفاف نهر الوادي الكبير، وهو برج هائل يشبه إلى حد كبير منذنة جامع أحمد بن طولون في القاهرة، وكان الفارس يصعد بفرسه إلى قمته. جلسنا بعد ذلك علي شاطئ النهر واسترجعنا الأيام التي كنا نقضيها علي شاطئ النيل. لم نضيع وقتا في الحديث وإنما فعلنا مثلما يفعل العشاق في إشبيلية، نتبادل القبلات والأحضان وكأنا نختلس من الزمن بعض اللحظات. وأخيرا قالت لي سناء: هيا نذهب إلي الفندق لأنني أريد أن أمنحك هذه الليلة مساحة لم تر مثلها من قبل. فهمت إشارتها وسرنا علي شاطئ الوادي الكبير حتى وصلنا إلي الفندق. وصدقت سناء، إذ كانت بالفعل ليلة لم أر لها مثيلا من قبل.

ثم كانت رحلتنا الثالثة في منطقة الأندلس إلى مدينة غرناطة، و المسافة بينها وبين إشبيلية 257 كم. وغرناطة هي آخر معقل للمسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية، فقد ظلت تقاوم وحدها مع المدن التابعة لها في الجنوب لمدة قرنين من الزمان إلي أن سقطت عام 1492م. وكانت قد سقطت في منتصف القرن الثالث عشر مدن كثيرة من بينها قرطبة (1236)، وجيَّان (1246)، وقرمونة (1247)، و إشبيلية (1248) وغيرها من المدن. وقبل سقوط غرناطة بعام واحد (1491) بني الملكان الكاثوليكان فرناندو وإيزابيلا مدينة سانتا في أي " الإيمان المقدس" ليديرا منها معركة غرناطة الأخيرة، وهذا ما حدث فعلا. فقد استسلمت غرناطة في الثاني من يناير عام 1492م، واحتلت منطقة الحمراء، وانتهت قصة الأندلس. ويقال إن أبا عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة ذهب إلي ربوة تطل علي المدينة وأخذ يطلق زفراته وحسراته تعبيرا عن حزنه الشديد علي هذا الملك الذي ذهب. قلت لسناء: لابد

أن نذهب أولاً إلى هذه الربوة. وصلنا إليها فوجدناها قد تحولت إلى مكان سياحي جذاب به أماكن للراحة ومطاعم وكافيتريات ومحلات لبيع الصور والتماثيل وغير ذلك مما يتصل بغرناطة. قالت لي سناء: إنهم بارعون في استغلال كل شيء من أجل السياحة، فمجرد زفرة أطلقها الملك العربي هنا جعلتهم يتفننون في تجهيز المكان لاستقبال السائحين.

تركنا هذا المكان متوجهين إلى الحمراء. كان الطريق من حولنا روضة يانعة، حيث الخضرة ممتدة إلى مدي البصر، وأشجار فاكهة من كل نوع ولون، وهذه هي منطقة "لاس فيجاس" أي البقاع الغرناطية، وقد أنشأت خلال القرن الأخير من وجود العرب في غرناطة، عندما حفروا فيها شبكة من الأنفاق والقنوات حتى تصل مياه نهر حدارّه (الدارو) إلى كل جزء من هذا السهل الغرناطي، وهو فرع من نهر شينيل الذي يتفرع هو الآخر من نهر الوادي الكبير. ولأن غرناطة تجمع بين سحرين - هكذا قلت لسناء - السحر الطبيعي، والسحر التاريخي والأسطوري فقد عاش فيها عدد من كبار الأدباء والفنانين العالميين، من بينهم الأمريكي المشهور واشنطن إيرفينج الذي كتب " حكايات الحمراء"، والموسيقي مانويل دي فايلا المولود في قادش، والشاعر الغرناطي فيديريكو جارتيا لوركا الذي يعد من أكبر شعراء العالم، وأنخل جاتيفيت أكبر مفكر غرناطي في العصر الحديث وغيرهم كثيرون.

وصلنا إلى منطقة الحمراء الواقعة فوق جبل أخضر يبدو مثل حصن وفوقه قصور وقلاع يطلق عليها تل الحمراء. ولم يكن بنو الأحمر الذين حكموا ولاية غرناطة خلال المائتي عام الأخيرة هم أول من تنبه لحصانة هذه المنطقة بل سبقهم إلى ذلك الثائرون علي حكم بني أمية، ثم اتخذها قاعدة له باديس بن حبوس أحد ملوك الطوائف في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي.

وعندما دخلنا منطقة الحمراء توجهنا إلى القصة وقرأنا الأبيات المكتوبة عليها أو بالأحرى المحفورة فيها لشاعر من العصر الروماني يقول عن شخص أعمى لا يمكنه رؤية جمال غرناطة:

يا سيدتي أعطه حسنة

لأنه لا يوجد في الدنيا

إنسان أكثر بؤسا

ممن ولد أعمى في غرناطة

دلفنا بعد ذلك إلى قصر الحمراء وسط موجة من السائحين الذين جاءوا على الخصوص لمشاهدة الفن الدقيق الموجود على حوائط وأبهاء وقاعات هذا القصر، فضلا عن أعمدته وأقواسه والمادة التي صنعت منها. تجولنا في قاعة قمارش وفتنتنا زخرفتها، وفي بهو السباع، وبهو قمارش، وقاعة بني سراج، والمخادع، وتوقفنا كثيرا أمام الشعار المرسوم في أعالي الجدران في كل أنحاء القصر وهو " لا غالب إلا الله"، ثم انتقلنا إلى الحدائق والرياض التي نصل من خلالها إلى القصر الكبير في جنة العريف، تجولنا في هذا القصر وتحسرنا على سقوط الفردوس المفقود، وفي تلك اللحظة تذكرت أبيات أحمد شوقي التي وصف فيها لحظة تسليم غرناطة وتقول:

بين عرك من الزمان وضرس

باد بالأمس بين أسر وحبس

باعها الوارث المضيع ببخس

عن حفاظ كموكب الدفن خُرس

تحت آبانهم هي العرش أمس

آخر العهد بالجزيرة كانت

فتراها تقول راية جيش

ومفاتيحها مقاليد ملك

خرج القوم في كتاب صم

ركبوا بالبحار نعشا ، وكانت

قلت لسناء: قبل أن نختم جولتنا في منطقة الحمراء أريد أن أريك القصر الذي بناه شارل الخامس بالقرب من قصر الحمراء. ذهبنا إليه فوجدناه مجرد حجارة صماء وأعمدة ضخمة وجدران يتعدي سمكها المتر أو المترين. وهنا قلت لسناء: إن سانحا عربيا لعله الدكتور حسين فوزي الذي لُقّب بالسندباد زار هذا القصر وقال كلمة خالدة هي: "ما أتعس هذا القصر الذي بني إلي جوار قصر الحمراء!".

ذهبنا بعد ذلك إلى الفندق استعداداً ليوم آخر نقضيه في غرناطة. قلت لسناء: ألا تريدان أن نترك بصماتنا هنا؟ قالت: بلي، وأنا أكثر شوقاً منك لذلك. ارتدت سناء قميص النوم وبدأت أجمل من كل ملكات الجمال، وغمرتني بقبلايتها الساخنة الصادرة من شفتي محبة ولهانة، والمستقبلة من قبل محب ولهان يري أن رحلته هذه المرة إلى الأندلس لها طعم من لم يحلم يوماً أن يقضي نهاره في مغاني الأندلس وأن يقضي ليلة في مغاني سناء المهدي.

صحونا من النوم في وقت مبكر، وقد بدت أشعة الشمس أكثر انتلافاً وتداخلاً مع مروج غرناطة ومزارعها وأشجارها التي تنتشر في كل مكان. ذهبنا أولاً إلى حي البيازين، وكان في أيام العرب حي أوساط الناس والعمال والصناع. تجولنا في هذا الحي الذي أدرجته اليونسكو ضمن الآثار المهمة، وتاملنا في طابع الأحياء العربية والمباني التي وصفتها من قبل. ثم ذهبنا إلى الأرباض: ربض القاضي، وربض المنصور، وربض زناته. وهذه الأرباض كان يحيط بها سور منيع له أبواب ضخمة بقي منها باب البيرة، وباب البيازين، وباب الرملة. ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الكاتدرائية التي أقيمت مكان المسجد الجامع، وهي مثل كل الكاتدرائيات: مباني ضخمة شاهقة لكن الفن

فيها قليل. وقد شاهدنا في هذه الكاتدرائية قبور فرناندو وإيزابيلا وابنتهما خوانا المجنونة وزوجها فيليب الجميل، وقد بدأ بناؤها عام 1553م ولم تنته إلا في القرن الثامن عشر.

قلت لسناء: هل تعرفين قصة خوانا المجنونة؟ قالت: لا. قلت: إن فرناندو وإيزابيلا لم يرزقهما الله بولد ذكر، فزوجا بناتهما لملوك وأمراء. وقد تزوجت خوانا الأمير فيليب الجميل وارث مكسمليان الأول إمبراطور الدولة الرومانية ورأس أسرة الهابسبورج. وبعد موت أمها ورثت خوانا عرش إسبانيا، وزوجها هو الآخر ورث عرش الهابسبورج. كانت خوانا في أساس نشأتها تميل إلي الجنون، وقد عشقت زوجها عشقا مبرحا، ولكنه انصرف عنها فزاد جنونها، ثم مات زوجها فجنت تماما، وحنطت جسده، وأخذته معها في تابوت، ومضت تتجول به في إسبانيا شمالا وجنوبا، ومن ثم ساءت حالها. وكانوا قد أخذوا منها ابنها كارلوس (أو شارل) وأرسلوه إلي بلجيكا ليربى هناك. وعندما بلغ سن الرشد حضر ليملك عرش إسبانيا وتسمى باسم الإمبراطور كارلوس الخامس. تأثرت سناء بهذه القصة العجيبة وانطلقنا نجوب في شوارع غرناطة، ونشاهد بعض الآثار العربية التي مازالت تضمها هذه المدينة الجميلة.

وكان لابد أن نعمل حسابا لليلة الأخيرة في غرناطة لأننا في الصباح سوف نسافر إلي مدريد لركوب الطائرة من هناك متوجهين إلي القاهرة. قلت لسناء ونحن في الحجرة: ماذا في جعبتك الليلة؟ قالت: جعبتني كلها لك، يا رجلي الجميل الذي طففت بي في باريس، وفي مدريد، والمدن الأندلسية الكبرى، وكانت هذه الرحلة بالنسبة لي أحلاما شبه مستحيلة، لا لعجز مادي، بل لأنه كان من المستحيل فعلا أن أصحب إنسانا مثلك، واسع الثقافة، قوى

البنية، محب أنيس، لطيف المعشر، واسع الأفق .. هذا هو أنت يا صفوان. ولا
تنس فحولتك وتدفقك الجنسي اللذين أعطيا لهذه الرحلة بُعداً آخر من المتعة
لم أتصور أبدا أن أجده في حياتي.

عدنا إلى شبين الكوم بعد رحلة ممتعة تجولنا فيها في باريس ومديرد والمدن الأندلسية الكبرى. وقال لي صفوان: الآن لابد أن نقسم الأسبوع بينك وبين صفاء، ولكن قبل ذلك لابد أن نبحث لك عن عمل ولو في مدرسة خاصة من هذه المدارس التي أصبحت هي أساس التعليم في مصر. قضينا ليلتنا نتساقى من كنوس الحب، وصحونا مبكرا كي نقوم أولا بزيارة الوالد والوالدة. كنا في نهاية شهر الخريف، ولذلك كانت الأرض مغطاة بطبقة سميكة من الشبورة لدرجة أن صفوان وهو يقود السيارة كان يمشي ببطء و لا يكاد يتجاوز السرعة الثانية، ومع ذلك كان الجو منعشا ولطيفا ويمنح المرء إحساسا بالفرح والنشوة. كانت المدينة تستيقظ، والحياة تدب في كل الكائنات: صياح الديكة المختلط بعضه ببعض، ونهيق الحمير والبغال، والعربات التي تجرها الخيول، وأصوات البشر التي مازالت خافتة، والنسمات الخفيفة المختلطة بجو الشبورة، وأبواق السيارات القليلة التي تمرق في الشوارع في هذه الساعة المبكرة من الصباح. لكن الحياة في هذه اللحظة علي الرغم من الشبورة الكثيفة كانت فاتنة أخاذا، لاسيما وأن قلبنا مازالا مفعمين بكل ما رأينا في فرنسا وإسبانيا.

كان صفوان قد طلب مني أن أضع فوق رأسي غطاء، وأن أرتدي بنطلونا بحيث أبدو محجبة لأن معظم المدارس الخاصة مملوكة للطبقة الجديدة التي تدعي أنها ملتزمة بالقواعد الإسلامية الصارمة، وخاصة الحجاب والنقاب. وصلنا إلى الفيلا واستقبلنا الوالد والوالدة بابتسامة ترتسم علي وجه كل منهما. تناولنا إفطارا خفيفا وتحدثنا عن الرحلة الجميلة التي مثلت أفضل

اختيار لقضاء شهر العسل. وقال والدي معقبا: لقد شوقتموني للذهاب في رحلة كهذه، لكني لا أدري هل يمكنني تحمل مشاق السفر والارتحال من بلد إلي بلد؟ فرد عليه صفوان: إن متعة الرحلة سوف تنسيك أي تعب، ثم إننا مستعدان للذهاب معكما، فأنا أعشق هذه الأماكن، وأعتقد أن سناء الآن باتت تعشقها. وعندئذ قلت: كنت وأنا طالبة أحلم بهذه الأجواء والآثار، والآن صارت هذه الأجواء وهذه الأماكن جزءا من حياتي.

ودعنا الوالد والوالدة وانطلقنا نبحث عن مدرسة. ذهبنا أولا إلي مدرسة "المساعي الحميدة" وطلبنا مقابلة مدير المدرسة أو صاحبها. تحدثنا مع السكرتيرة وقال لها صفوان إننا حضرنا للبحث عن شغل مدرسة لغة عربية. دخلت السكرتيرة إلي المدير وأخبرته بذلك فوافق علي أن نقابله. كانت الحجرة واسعة نظيفة تضم طاقم أنترية فاخراً وعدداً من الكراسي الأخرى، والمكتب الذي يجلس عليه المدير واضح الفخامة، وخلف المدير صورة بالألوان لرئيس الجمهورية، أما جدران الحجرة فكانت مطلية بدهان سمّي يتألف مع لون المكتب والأنترية. ما لم يعجبني في هذه الحجرة الجميلة المنسقة هو شكل المدير. فقد كان عابسا متجهما، يرتدي حلة أنيقة من الواضح أنها من صوف غالي الثمن، لكن ذقنه الطويلة تنم عن شخص آخر، وجسمه المائل للسمنة وطوله الفارع وصحته القوية تعطيك انطباعاً بأنك أمام شخص من هؤلاء الذين فرضوا أنفسهم علي المجتمع بأفكارهم الدينية المتشددة ورويتهم المنغلقة للحياة، ورأسمالهم الضخم الذي يتاجرون به في كل شيء بما في ذلك التعليم وبناء المدارس. وللحق أني لم أرتج لهذا الشخص وتوقعت أن يصطدم به صفوان الذي يري أن الحياة أسهل وأبسط

من ذلك بكثير، وأن حياتنا اليومية في الأساس معقدة جدا، وليس من المطلوب أن نزيدها تعقيدا علي تعقيد.

وبعد أن تفضل المدير وطلب لكل منا مشروبا ساخنا قال لصفوان: تحت أمرك؟ رد صفوان: أنا محمد صفوان عبد الخالق أستاذ في كلية الآداب، وهذه زوجتي سناء المهدي، متخرجة من قسم اللغة العربية ونبحث لها عن عمل، فهل نجده عندكم؟ رد المدير: العمل موجود لكن لنا شروطا، منها أن تكون المرأة منقبة أو محجبة حجابا شرعيا. لم يسمع صفوان باقي الشروط واستبق الرد علي المدير قائلا: نحن نعرف أن هذه مدرسة للبنات فكيف تكون المدرسة منقبة؟ ولماذا لا يكتفي بالحجاب؟ قال المدير: هذا هو الشرع؟ رد صفوان: ومن الذي يحدد طبيعة الحجاب الشرعي؟ قال المدير: نحن. سأل صفوان وكيف تحدده؟ قال المدير: بأن يكون سابغا يغطي كل أجزاء الجسم و لا يسمح برؤية أي شيء من جسد المرأة. قال له صفوان: بما في ذلك الوجه والكفان؟ قال المدير: يمكن كشف الوجه، لكن الكفين لابد من تغطيتهما بقفاز من جلد أو من قماش. لم يطل صفوان في المناقشة لأنه وجد أنها غير ذات جدوى، وقال لي: هيا بنا. ذهبنا إلي مدارس أخرى وقابلنا أشخاصا من نفس النوعية، لكننا في النهاية عثرنا علي مدرسة أصحابها والعاملون بها عندهم درجة من التسامح والأريحية، ولهذا تعاقدنا معهم واتفقنا علي أن أبدأ العمل من الأسبوع القادم مدرسة للغة العربية في فصول الإعدادي.

ونحن عائدون إلي البيت قال لي صفوان: إذا استمرت شعوبنا علي هذا الوضع فربما تنقرض، لأن الحياة لا تتحمل التضيق والتشدد والتعصب لأفكار يمكن أن تؤدي إلي الجنون. وقد ذكر ابن الجوزي في كتابه المشهور " أخبار الحمقى والمغفلين " أن اللحم الكثير الصلب دليل علي غلظ الحس والفهم،

وأن الغباوة والجهل في الطول أكثر. ومن العلامات التي لا تخطئ طول اللحية فإن صاحبها لا يخلو من الحمق، وقال ابن الجوزي: روي أنه مكتوب في التوراة: إن اللحية مخرجها من الدماغ، فمن أفرط عليه طولها قل دماغه، ومن قل دماغه قل عقله، ومن قل عقله كان أحمق. ونقل ابن الجوزي عن بعض الحكماء: الحمق سماء اللحية، فمن طالت لحيته كثر حمقه. و رأي بعض الناس لرجل لحية طويلة فقال: والله لو خرجت هذه من نهر لبيس. أضاف صفوان: ومن العجيب أن الجاحظ كان يكره أصحاب اللحي الطويلة. والدليل علي ذلك أقواله الكثيرة فيهم. ومما نقله عنه ابن الجوزي قوله: " عن أبي عثمان الجاحظ قال: أخبرني يحيى بن جعفر، قال: كان لي جار من أهل فارس، وكان بلحية ما رأيت أطول منها قط، وكان طول الليل يبكي، فأنبهنى ذات ليلة بكاؤه ونحيبه وهو يشهق ويضرب علي رأسه وصدره ويردد آية من كتاب الله تعالى، فلما رأيت ما نزل به قلت: لأسمع هذه الآية التي قتلت هذا وأذهبت نومي، فتسمعت عليه فإذا الآية: " يسألونك عن المحيض قل هو أذي "، فعلمت أن طول اللحية لا يُخلف". ومما نقله ابن الجوزي أيضا: " عن أبي العيناء قال: قال لي الجاحظ: كان لنا جار مغفل جدا، وكان طويل اللحية، فقالت له امرأته: من حمقك طالت لحيتك، فقال: من عبر عُير".

وبعد أن انتهى صفوان من ذكر هذه الطرائف قال: وها أنت يا سناء ترين أن جزءا كبيرا من حياتنا تحول إلي لحي طويلة فاعلة تتحكم في البلاد والعباد وتوجه أفكار الناس نحو التشدد والتزمت لاسيما فيما يتعلق بالمرأة، بل يبدو أن المرأة هي شغلنا الشاغل، ولذلك تقدمت الأمم، ونظمت حياتها وواقعها، وقطعت أشواطاً طويلة في العلم والتكنولوجيا ونحن مازلنا نبحث في لباس المرأة.

كان صفوان يتكلم وهو منفعل، ولهذا نبهته قائلة: لا تنس أننا وعدنا الوالد والوالدة بتناول الغداء معهما. وفي هذه اللحظة انهزم المطر، وتوقعت أن يستمر طويلا لكنه توقف بعد ربع ساعة تقريبا، ولو كنا في أوروبا واستمر المطر يهطل لمدة عشر ساعات ما أحسنا به لأن الشوارع مرصوفة بطريقة جيدة تجعل المياه تمضي نحو البلاعات و بالتالي لا يحس الناس بالمطر إلا إذا كانوا راجلين واضطروا لفرد المظلات الواقية من المطر، أما عندنا فالبنية التحتية مدمرة، و البلاعات حتى لو كانت موجودة فإنها مردومة بالأتربة وبالطين المتراكم. ومن العجيب أن الكناسين موجودون في الشارع بمكانسهم الغليظة لكنهم لا يفعلون شيئا لأنهم لم يعسكروا في الشوارع إلا لكي يمدوا أيديهم للناس، وكأن البلديات قد عينتهم لهذا الغرض.

المهم وصلنا إلى الفيلا بعد أكثر من ساعة مع أن الطريق في الأيام العادية يستغرق مدة عشر دقائق فقط، لكن هطول المطر لمدة ربع ساعة حول الطريق إلي ما يشبه المستنقع، وانحشرت السيارات في الأماكن المكتظة، وعند الميادين، لأن كل السائقين مقتنعون بأن الفوز بالأولوية محتاج إلي جراءة ومجادلة وتحد. وبما أن الجميع يتحدون فإن التداخل فيما بين السيارات واقع لا محالة، والشاطر هو من يعرف كيف يحتفظ بسيارته سليمة. وعندما دخلنا الفيلا ارتسمت ابتسامة عريضة علي وجه والدي قائلا: حمداً لله علي السلامة، وكأنه كان يعرف أننا كنا محشورين. جلسنا، ثم دخلت المطبخ مع الوالدة ورصنا الطعام علي المائدة، وكان عبارة عن أرز معمر معمول في فرن البوتاجاز، لكنه لا يختلف في شيء عن الأرز المعمول في الفرن البلدي، لدرجة أنني أستطعمه ولو كان وحده وليس معه أي شيء آخر، فما بالك وهو مصحوب بديك رومي متوسط الحجم، وصينية من البطاطس مطبوخة أيضا

في الفرن، وطبق سلطة خضراء كثيرة التنوع، ومخللات علي رأسها الزيتون والليمون. أكلنا بشهية قوية، ثم قمت فأحضرت أطباق الحلو المكونة من أرز باللبن أو مهلبية. وقالت الوالدة: أنا أعرف أن صفوان يحب طبق " أم علي"، ولكني لم أتمكن من صنعه هذه المرة. رد صفوان: تسلم يدك يا أمنا العزيزة.

بعد الأكل استرحنا لمدة ساعة تقريبا، ثم قال لي صفوان: هيا بنا نقضي وقت الغروب في الحديقة. كانت السماء في ذلك الوقت شبه صافية بعد أن انقشع جزء كبير من الغيوم. أما الشمس فكانت تطل بقرصها الأحمر القاني بين كل لحظة وأخرى وهي تستعد للغروب لكنها تود أن تغرب والجو صاف، والنسمات المنعشة اللطيفة تغمر الكون، والألوان تتراءى وتتبادل المواقع استعداداً لدخول الليل بظلامه الخفيف الذي يتحول بعد ذلك إلي ظلام دامس تتصارع معه أضواء اللمبات الكهربائية المنتشرة في كل مكان ولاسيما هذه الحديقة التي تفنن الكهربائي في توزيعها داخل مربعات حجرية بحيث تضئ ولا تزعج، وتونس ولا تكشف. قال صفوان: تعالي نجلس تحت تكعيبية العنب، فكنا مثل عاشقين يختبئان تحت مظلة خضراء. قبلني صفوان قبلة طويلة، وامتدت يده إلي صدري وردفي. قلت له: إنك بذلك سوف توصلنا إلي حالة الشبق الجنسي. قال: أنا أراك الآن في قمة الفتنة: شعر مسترسل متمواج، وقوام رشيق، وجسد كأنه منحوت بأدوات مثال ماهر، تبرز معالمه بحدة ونعومة، عريضة الكتفين، بارزة النهدين، نحيلة الخصر، ومما يزيدك فتنة هذا البنطلون الذي يوحى بسحر ردفيك وجمال ساقيك. فقولني لي بالله عليك: هل يمكنني أن ألزم السكون وأنا أشهد هذه الفتنة؟ قلت له: لا بد أن تصبر حتى نذهب إلي شقتنا، هناك افعل ما تريد، أما هنا فيمكن أن نرتكب حماقة ليس لها مثيل.

قال صفوان: ما رأيك في أن نذهب إلي زميلي الدكتور خالد عبد العظيم لنبارك له علي زواجه الذي تم ونحن موجودان في الخارج؟ قلت له: لا بأس، ولكنه يسكن في منطقة شعبية فهل نستطيع الوصول إليه ليلاً؟ قال: سوف نسأل، ومن يسأل لا يتوه. سألنا عن هذه المنطقة فشرح لنا أحد المارة كيفية الوصول إليها. دخلنا في شوارع كثيرة متعرجة حتى وصلنا إلي هذه المنطقة التي وجدناها أقل من الشعبية، حيث اتضح لنا أنها من المناطق العشوائية التي غزت المدن خلال السنوات الأخيرة، وكأنما لا توجد حكومة، ولا حكم محلي، ولا بلديات. قال صفوان: هذا هو أخطر ما حدث في مصر خلال هذه الفترة، فقد تركوا الناس يبنون في مناطق الحقول الخضراء، ويخططون لأنفسهم حسب أمزجتهم وتفكيرهم، ولذلك نرى الشوارع مختلفة المساحة في الطول وفي العرض لدرجة أن عرض الشارع قد يكون مترين أو ثلاثة أو أربعة وفقاً لرغبة المالك، لاسيما وأنه ليس مهدياً بالمسألة من أي جهة، وكان الحكومة وأجهزتها المعنية قد أراحت واستراحت.

وأخيراً وبعد مكابدات وصلنا إلي البيت الذي يسكن فيه العروسان. كان البيت هو الآخر عشوائياً، مدخله في غاية السوء، والمبنى شعبي بامتياز، حيث الصرف الصحي العشوائي أيضاً ناشع علي الجدران، وكل شقة تصرف في الشرفة الوحيدة الموجودة بها بما يروق لأصحابها. قلت لصفوان: أليس خالد عبد العظيم مدرسا بالجامعة؟ قال: بلي، ولكنه من أسرة فقيرة وزوجته كذلك، ولم تتح له بعد فرصة السفر للخارج. وأضاف: تصوري أننا ونحن طلاب ندرس في فرنسا كنا نوفر شهرياً مبلغاً نستعين به عندما نعود إلي مصر، لأن السكن في المناطق الحضرية المنظمة يحتاج إلي أموال كثيرة جداً ولهذا فبني - علي سبيل المثال - رجعت من فرنسا ومعني مبلغ لا بأس به،

لكنه لم يكن كافيا للسكن في مصر الجديدة، فاضطرت إلي بيع قيراطين في المنطقة السكنية في القرية لكي أشتري شقة تملك في منطقة الشيراتون. وفيما يتصل بخالد عبد العظيم فإنه من المؤكد أن المبلغ الذي كان معه لم يسعفه في شراء شقة بمنطقة متقدمة فاكتفي بشراء شقة هنا أو لعله أجراها.

كان مدخل البيت مظلمًا، ربما لأن السكان لم يتفقوا علي وضع لمبة كهربائية في المدخل، أما السلم فكان في غاية السوء، وبما أن الدكتور خالد يسكن في الدور الرابع فإن علينا أن نجتاز هذا السلم بأي وسيلة. تذكرت في هذه اللحظة مجموعة قصصية أعطاها لي صفوان لكاتب من أمريكا اللاتينية هو خوليو كورتاثار الذي كان يعيش في باريس منذ عام 1951. وقد كتب كتابا أثار عاصفة في بلده الأصلي "الأرجنتين"، هو "قصص عن الكرونوبوس والشهرة"، والكرونوبوس مسمي أطلقه كورتاثار علي شخصيات هلامية رآها في باريس، وكأنهم نوع من الميكروبات الطافية في الهواء، أو بالونات خضراء تأخذ شيئا فشيئا خصائص بشرية. كانوا موجودين في المقاهي، وفي المترو، ومن ثم أخذ كورتاثار يكتب بسرعة قصص هؤلاء الكرونوبوس الذين أضاف إليهم الشهرة والأمل. ويضم الكتاب جزءاً آخر هو " مختصر التعليمات"، كتبه كورتاثار بعد أن تزوج، وذلك خلال فترة ذهبها فيها لقضاء عدة أسابيع في إيطاليا. ويقول كورتاثار إن تبعة هذه النصوص تعود إلي زوجتي، وذلك أننا ذات يوم ونحن نصعد بتعب شديد درجا طويلا لأحد المتاحف، قالت لي فجأة: "الحاصل هو أن هذا الدرج ما هو إلا درج للنزول". وقد أعجبتني جدا هذه الجملة، وقلت لزوجتي أورا: "ينبغي علي المرء أن يكتب بعض التعليمات عن كيف يصعد (أو يهبط) درجاً".

ولاشك أن درج البيت الذي يسكن فيه خالد عبد العظيم وزوجته لا تنطبق عليه أية تعليمات. فالأرضية مكسرة، وكذلك الدرابزين، والإضاءة غير موجودة، والدرجات شبه قائمة. لكننا علي أية حال سعدنا، وضربنا الجرس، وخرج الدكتور خالد واستقبلنا استقبالا حاراً، وجاءت زوجته فسلمت علينا وشكرتنا علي الزيارة وقالت إن خالد يذكر الدكتور صفوان دائماً بالخير، ويثني عليه كثيراً، ويعتبره واحداً من أبرز العارفين بالأدب العربي وبالثقافة الأجنبية. وأضافت: لكن الثقافة في هذا العصر لم يعد لها قيمة. لأن الإعلام لم يعد يهتم إلا بالفنانين، والراقصين والراقصات. وهكذا قضينا جزءاً من الوقت في أحاديث شتي، وتناولنا الكحك وبعض المخبوزات، وكان من الواضح أن أهل العروسين أمدوهما بكثير من هذه الأشياء. وأخيراً وضعنا علي المائدة الظرف الذي يضم بعض الأوراق المالية وأخذنا الإذن بالانصراف.

ركبنا السيارة، وخضنا في الشوارع إياها نسأل المارة عن كيفية الخروج، وسمعت صفوان يقول: يا مسهل يا رب، الدخول إلي هنا صعب والخروج من هنا أصعب. وصلنا إلي بيتنا، ولم نكد نغير ملابسنا الشتوية الخفيفة حتى وجدت صفوان يقول لي: أريد أن أراك وأنت بقميص النوم. قلت له: ألا تنتظر قليلاً حتى أقوم بتجهيز العشاء ونتناول طعاماً خفيفاً؟ قال: لي، ولكني أريد أن أراك بالقميص أولاً، ثم تخلعيه وتجهزي العشاء. قلت: ولكن لماذا هذه اللقطة؟ قال: لأنني في شوق شديد للتأمل في جمالك وتلمس مواطن السحر في جسدك الفياض. قلت: وأنا أيضاً أريد أن أراك وأفعل مثلاً تفعل. ثم أضفت: هل هي طريقة جديدة في استخراج مكامن الحب ودمج الروح بالجسد؟ قال: أجل، وهل يمكن لرجل مثلي أن يكون بمنأى عن منابع السحر في جسد رائع مثل جسدك؟ لقد مثلت لي يا سناء عالماً لم أحلم يوماً أن أعيش فيه. قلت:

وأنت بالنسبة لي كيان جسدي وإنساني رائع. وهكذا قضينا وقتنا في هذا التأمل
السحري الذي جمع كل ما عرف الإنسان من شوق وحب وتفان.
ثم جاء وقت المطبخ فارتديت لباسا يصلح لهذا الوقت من العام، وجهزت
العشاء، فأكلنا، وجلسنا بعدها ساعة تقريبا نشاهد التلفاز الذي كان في ذلك
الوقت عبارة عن قناتين فقط: الأولى والثانية. كان صفوان يضع رأسه علي
فخذي، مستمتعا بهذا الوضع، وكنت أنا أحس بمتعة تكاد تساوي متعة
الجماع، ولذلك قلت في نفسي إن مواطن اللذة في حياتنا أشكال وأنواع.

وجاء وقت العودة إلي صفاء البطران امتثالاً للقاعدة الشرعية التي تقضي بتقسيم الوقت بالتساوي بين الزوجين. وقد ذكرت من قبل أن سناء لم يكن لديها أي مانع، فهي بثقافتها الواسعة تعرف أن هذا وضع طبيعي في الإسلام لاسيما إذا كان الرجل قادراً علي إعالة أسرته. ما كنت أخاف منه هو موقف صفاء. فهل ستوافق علي ذلك؟ أم أنها يمكن أن تتركب رأسها وتطلب الانفصال أو الطلاق، وفي هذه الحالة ربما تمنعني من دخول الشقة، وقد حدث هذا مع زميلي الدكتور طارق الكتاتني، وكان لديه سبعة أولاد من زوجته الأولى: أربعة من الذكور وثلاث من الإناث. فقد حظرت عليه دخول الشقة، ولم توافق أبداً علي أن تكون لها ضرة، وفي المملكة العربية السعودية حيث كانا يعملان في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض كتبت مذكرة إلي رئيس الجامعة تتهم فيها زوجها الدكتور طارق بأنه يعاكس البنات، ولم تكتف بذلك، بل أرسلت صورة منها إلي الملك فهد. وقد حققت الجامعة مع الدكتور طارق، لكن التحقيق قضي ببراءته، لأن العرف الشائع في المملكة هو أن من حق الرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة، وهذا شيء لا ينكره الشرع، أما تهمة معاكسته للبنات فلم يثبت منها شيء. لكن زوجته ظلت علي عنادها، ولم توافق إلا علي شيء واحد هو أن يتولي الدكتور رعاية أبنائه، لكن اتصاله بهم يتم أمام البيت فقط. فكان طارق يقطع مسافة طويلة، بعد أن عاد إلي مصر، من مسكنه مع زوجته الثانية في مصر الجديدة إلي مدينة نصر، حيث يلتقي بأولاده في الشارع ويتعرف علي احتياجاتهم ثم يعود إلي مسكنه.

والواقع أنه كان شديد الصبر، ولم ألاحظ عليه في أي يوم تبرما أو استياء.
ويبدو أن زوجته الثانية كانت مريحة جدا، مما هوّن عليه هذا الوضع المتعب.
ولا جرم أنني خفت من أن يحدث معي موقف شبيه بهذا، ومن ثم قررت أن
أقرأ كتاب " فن الهوى " للشاعر الروماني أوفيد من الترجمة الرائعة التي قام
بها الدكتور ثروت عكاشة. وقفت عند الأبيات التالية:

ما أطول ما جهل الإنسان أخاه.

ثم انبثقت تلك اللذة الساحرة التي ترقق المشاعر الوحشية،
حين تلتأ ذكر وأنثي معا في بقعة مستورة،

تري ماذا فعلا؟

لقد علّم كل صاحبه دون معلم بينهما.

وهكذا من غير فن أو حذق،

نجحت فينوس في خلق الفعل الممتع.

فللطير أليف يعشقه،

وفي أعماق البحار تجد السمكة ذكراً يطفئ غلة شهوتها .. الخ

وهكذا مضى أوفيد في نصائحه التي ختمها بقوله:

وعليك بهذه الوصايا الناجعة، لتهدئ من سورة أنثي غاضبة.

فهذا العلاج هو الأوحـد

الذي يفتأ الغضب الوحشي.

وهذا الدواء أنفع بكثير من تلك العصارات

التي أوصي بها الطبيب ماخاؤون.

إذا أخذت به عدت إلي حظوتها

ولو كان فراقك لها قد طال.

قلت في نفسي: إن أوفيد يبدو وكأنه يكتب عني، وبالتالي لابد من وضع نصائحه موضع التنفيذ. وصلت إلي البيت في منطقة الشيراتون مع غروب الشمس. كان الجو صافيا، والهواء عذبا، والنسيم الرقيق ينعش الجو، والطيور تصدح وتتأهب لعمونها الليلي في الأعشاش التي تمتلئ بها ذوائب الأشجار المنتشرة في كل مكان. وكنت أنا في حالة من الاضطراب، تنتابني مشاعر متناقضة، وأسئلة تتوارد علي ذهني من بينها: هل ستستقبلني صفاء أم سوف يكون لها موقف آخر؟ وهل ستعتبر موضوع زواجي الثاني أمراً عاديا وطبيعيا أم سوف تركب رأسها وتطلب الطلاق أو الانفصال؟ قلت في نفسي: إذا سمحت لي بالدخول فسوف أختبر نصيحة أوفيد، وإذا ركبت رأسها وارتكبت حماقة غير شرعية وغير قانونية كما فعلت زوجة طارق، علي الرغم من أن الشقة شقتي، فإني سوف أعود إلي شابين الكوم لأنني لا أريد وقوع أي ضرر علي الأولاد، ولا أقبل أن نصير أضحوكة لسكان العمارة، لاسيما وأني مأمورها، وهذا هو المسمي الذي يطلق علي الشخص الذي اختاره السكان لكي يتولي شئون العمارة.

كانت الشقة في الدور الأول. صعدت السلم وطرقت الباب. فتحت لي صفاء قائلة: أهلا بالعريس. لماذا عدت إلينا؟ هل طردتك الزوجة الجديدة؟ قلت لها: لم تطردني، ولم يحدث أي شيء يعكر الصفو، لكن هذا هو الشرع. وسوف أقسم أيام الأسبوع بينكما. قالت: وهل سمحت لك بذلك؟ قلت: سمحت أم لم تسمح، فهذا هو الشرع. قالت: وهل سوف تقدر علي إعالة أسرتين؟ قلت لها: أنت تعلمين أن الله منحني من القوة ومن الدخل المالي ما يجعلني أفتح بيتين. لم تستمر المناقشة طويلا، ويبدو أن صفاء كانت قد طرحت هذا الموضوع

علي نفسها واقتنعت بأن الاستسلام للأمر الواقع أفضل من التمرد الذي يمكن أن ينعكس بالسوء علي الأولاد. كما يبدو أنها شاورت أهلها وأقنعوها بأن مستقبل الأولاد ينبغي أن يظل هو خيارها الأول. ولذلك وجدتتها تقول لي: لا أستطيع أن أمنعك من شقتك ومن أولادك، لكني أمنعك من الاقتراب مني. فاختر لك في الشقة أي مكان تنام فيه، ولا تقترب من حجرتي. وفي هذه اللحظة أدركت أن نصيحة أوفيد يمكن أن تفيد، فقلت لها: هذا مستحيل. فليس في الإمكان أن تكوني معي في شقة واحدة و لا أتحرك، فأنا أحبك. قالت: هذا كذب. كيف تحبني وتتزوج علي؟ قلت لها: أنا أعلم أم الشرع الذي أجاز زواج الرجل من أربع نسوة؟ ثم أضفت: كان الرجل قديما يتزوج أربع نسوة ويشترى من الإماء علي قدر طاقته المادية، ولم يكن في هذا العمل أي تعد علي الحرمان أو انتقاص من حقوق المرأة.

ولما بلغت المناقشة هذا الحد أحسست أن الموضوع لن يكون صعبا كما كنت متصورا، لكن من الأفضل أن أوجل اللقاء الجنسي لليلة القادمة بعد أن أصل بها إلي حالة من ترقيق المشاعر، وإزاحة العقبات، وإخلاء الطريق من الصخور التي يمكن أن تعوق المسيرة. كنت قد أحضرت معي قرطا ذهبيا ثمينًا. قدمته لها فترددت في قبوله لكنها لم تلبث أن قبلته. جاء الأولاد علي وأحمد ورائيا فقابلتهم بالأحضان. لاحظت أن الأولاد كانوا في سعادة غامرة: علي في الثانية الابتدائية، وأحمد في الأولي، ورائيا مازالت صغيرة، فأخذت تتقافز حولي وتقبلني في شوق واضح، ثم سألتني سؤالًا في غاية البراعة: أين كنت؟ قلت لها: كنت مسافرا. قالت: لماذا لم تأخذنا معك؟ قلت: لأنها كانت رحلة عمل. سأل الأولاد أهمهم: أين العشاء؟ فقامت صفاء وأحضرت عشاء خفيفًا. قلت لها: تسمحين لي بأن أكل معهم؟ قالت: أنت في بيتك. أكلنا، ثم

جلسنا جلسة أسرية نشاهد فيلما أجنبيا في القناة الثانية. كان الفيلم بالصدفة عن إحدى ملكات انجلترا، فيه متعة وجاذبية لدرجة أننا قضينا وقتا ممتعا في مشاهدته، ثم ذهب كل منا إلي مضجعه في هذه الشقة الواسعة المكونة من صالة فخمة، وثلاث حجرات نوم، وحمام واسع وآخر للضيوف، ومطبخ وشرفة تطل علي الشارع،

لا تدري أيها القارئ مبلغ سعادتي في هذه الليلة، فقد تخطيت عقبة ما كنت أظن أنني سوف أخطأها بسهولة، والحق أنني لم أكن أريد أن أنفصل عن صفاء، ولا عن أولادي. فصفاء صحبتني أثناء دراستي في فرنسا، ووفرت لي الراحة التي كنت أحتاج إليها وأنا أعد رسالتي للدكتوراه، وتحملت معي بعض المعاناة التي لا بد أن يواجهها الدارس في بلد أجنبي، ثم إنها أنثي موفورة الجسد وإن كان جمالها ليس خارقا أو صارخا، لكنه في النهاية جمال عادي فيه جاذبية، وسحرها يظهر أكثر في لحظة الجماع، وقد عشت معها سنوات، واستمتعت بكل ما يحتويه جسدها من تضاريس، وكانت هي أول امرأة أمارس معها الحب، وأنهل من منهلها العذب. ثم إنها طبيبة متعلمة وإن كانت الثقافة بمفهومها العام لا تشدها كثيرا، فهي تكتفي بمطالعة الجرائد، ولا بأس من أن تقرأ رواية لكاتب مشهور مثل نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، ويوسف السباعي، وخيري شلبي وسواهم. لكن الثقافة ليست متغلغلة في كيانه علي النحو الذي أراه عند سناء المهدي.

صحونا في الصباح الباكر، وكان اليوم أجازة فطرحنا علي صفاء والأولاد فكرة أن نذهب إلي حديقة الحيوان بالجيزة، ثم نتناول الغداء في مطعم فاخر بوسط البلد. وافقوا، وقامت صفاء بإعداد إفطار أسميه أنا " الإفطار الفاخر": طعمية وفول وجبنة، وبيض، ومخللات، وكلها أشياء مصنوعة في البيت.

وبعد الإفطار ركبنا السيارة وتوجهنا إلى الجيزة. كان الطريق خاليا فوصلنا بسرعة. دخلنا الحديقة ونحن في حالة استمتاع برؤية الأشجار الباسقة من جميع الأشكال والأنواع، والخضرة المنتشرة في كل مكان. لم نترك مكانا إلا وقفنا عنده لبعض الوقت: بيوت الأسود، والقروء، والطيور، والزواحف، والنمور، والفيلة، والزرافة، والثعالب، والذئاب، والخراتيت، وسبع البحر، والغربان، والبجع وغيرها. جاءت الساعة الرابعة عصرا ونحن مازلنا نتجول في الحديقة، وعندما عضنا الجوع خرجنا وتوجهنا إلى وسط البلد. فضلنا تناول وجبة كباب وكفته بكل ما تتضمنه من سلطات ومشروبات. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساء، فركبنا السيارة عائدین إلى منطقة الشيراتون.

جلس الأولاد يشاهدون التلفزيون، بينما أنا أنتهز الفرص لأحتك بصفاء في محاولات للاقتراب منها وإطراء جمالها، عملا بقول أوفيد:

حين تلمح ذرة تراب تهبط علي ثوبها فوق الفخذ،

فبأناملك ادفعها برفق،

وإن تهبط تلك الذرة،

فتوهم واحدة هبطت وادفعها أيضا،

فالمراد أن تنتهز ذريعة تثب بها عليها

وهكذا طفقت أتودد إليها، وأحملق في وجهها، وأؤكد لها أنني عاشق مستهام، وهي تتمنع وترد علي بأن هذا كذب لأنني لو كنت عاشقا مستهما بحق وحقيق ما تزوجت امرأة أخرى، لكنني لم أياس لأنني كنت واثقا من كلام أوفيد:

حينما تطري امرأة،

ينشر طاووس جونغ جناحيه زهوا وخيلاء.

أما إذا قنعت بالحملقة إليها في سكون،

فلسوف تحجب عنك مفاتها.

حتى فرس السباق العريقة في حلبة المباراة، تهفوا إلي أن تمشط لها

معرفتها،

وتهدهد عنقها.

ثم إنني كنت أيضا مقتنعا بكلام أوفيد:

لا تحسب أنني أتمثل الواعظ المتمزمت،

وأحكم بأن تقصّر حبك علي واحدة!

لا ... وقتك الآلهة هذا الشر!

ولهذا لم أتردد أبدا في أن أحتك بها، وأركز حبي حولها فقط، وأغرس

سهامي في قلبها، وهي تحاول أن تتخلص، لكنني ضيقت عليها الخناق،

وحاصرتها، حتى أدركت أنها بدأت تلين، فاقتربت منها واحتضنتها بقوة،

ووجدتها تستسلم شيئا فشيئا. كان الأولاد قد دخلوا إلي مضاجعهم، فحملتها

مثل رجل يحمل حبيبته لأول مرة، وأضجعتها علي السرير، وخلعت ملابسها،

بادنا بمنطقة الصدر إلي أن استسلمت تماما، فأحسست بأني قد فتحت حصنا

قويا كان يمكن أن يستعصى علي الفتح، قضينا مدة طويلة نمارس الحب

وكأنما لم يحدث شيء يعكر الصفو، ثم نمنا بنفس الطريقة التي كنا ننام بها

عاريين تماما وأنا خلفها أحس بالدفع والراحة وهي تحس بالأمان والحب.

وفي الصباح تناولنا الإفطار الفاخر، ثم أوصلت علي وأحمد إلي المدرسة،

وذهبت صفاء إلي عملها في إحدى مستشفيات وزارة الصحة، وتوجهت أنا

إلي جامعة القاهرة حيث عملي الأصلي في كلية دار العلوم. كان الوصول إلي

جامعة القاهرة من منطقة الشيراتون، لاسيما في الأيام العادية، صعبا للغاية، ولذلك كنت أفضل ترك السيارة في الجراج أو أمام البيت، وأركب أتوبيس هيئة النقل العام الذي يخرج من الشيراتون ويصل إلي ميدان الجيزة. وهذا الأتوبيس أول ما نزل كانت حكايته حكاية، فقد كان الأولاد في سن المراهقة يجلسون في الكراسي الخلفية والأتوبيس كبير وبه ستائر ضافية، وهم ينتهزون ذلك ليتبادل الولد والبنت القبلات والأحضان. ذكرني هذا بما كنت أراه في فرنسا، وأحيانا كان يمكن أن يحتج أحد الركاب، لكن الآخرين لا يعيرونه أي اهتمام، ليس لأنهم راضون عما يحدث، لكن لأن الشعب المصري، في ذلك الوقت، كان قد وصل إلي حالة من السكون واللامبالاة ليس لها مثيل، فما دخلهم بما يحدث!! وأعتقد أن هذه الحالة هي التي جعلتنا نتحمل حكم مبارك وزوجته وأولاده ثلاثين عاما متواصلا، باعوا خلالها القطاع العام، ونهبوا الأموال، وبنوا القصور والفليلات. وليتهم وحدهم الذين فعلوا ذلك، بل إن كل من اشتغل معهم، وليس عنده وازع ولا ضمير، أخذوا حظهم من الغنائم الموزعة بلا حسيب ولا رقيب. اللامبالاة إذن هي التي جعلت الشعب المصري لا يحرك ساكنا، وترك أمواله تنهب، وأراضيه توزع علي المحاسيب وأصحاب الضمانر الخربة، بلا تنمية، ولا إصلاح، ولهذا انتشر الفساد في الأجهزة المحلية والدواوين الحكومية، وصار كل شخص يقول لنفسه: خذ الفلوس واجري. وهذه كانت مسرحية مشهورة عرضت لسنوات.

في المساء أردت أن أقدم لصفاء جرعة أخرى من جرعات التودد، وأن أثبت لديها أنني مازلت أقرب الناس إليها، فدعوته - وحدها بالطبع - إلي العشاء في مطعم مشهور بمصر الجديدة، وكأنا متزوجان حديثا. نزلنا بعد

صلاة العشاء متوجهين إلى منطقة روكسي. قمنا أولاً بجولة في الأماكن العامة، حيث الحدائق والمنتزهات. شعرت بسعادة حقيقية وأنا أجدها تضع يدها في ذراعي. أكدت لي هذه الحركة أنها نسيت أو حاولت أن تنسي تماماً موضوع زواجي من أخرى. تذكرت في هذه اللحظة مشهداً قرأته في رواية زوربا اليوناني عن جده الذي ناهز المائة عام، حيث كان يجلس ساعة الأصيل أمام المنزل كي يتطلع بإعجاب إلى الفتيات اللاتي كن يذهبن إلى النافورة، لكن عينيه أصابتهما غشاوة، ولم يعد يميز ما يراه، فكان يصيح قائلاً للفتيات: من أنت يا عروسة؟ هل أنت لينيو ابنة ماستر ادونيس؟ تعالي يا عروسة، كي ألمسك! هيا لا تخافي!. ويقول زوربا: "إن الفتاة كانت تكتم ضحكتها وتقترب منه، وكان جدي يمرر كفه على وجه الفتاة الصغيرة ويتحسسها بتأن ونعومة ونهم، وبعد ذلك كانت دموعه تهطل. وعندما سألتها ذات يوم: لماذا تبكي يا جدي؟ قال: إيه يا ولدي، أفلا أبكي بدمع حار، وأنا صائر إلى الموت، تاركاً خلفي كل هؤلاء الفتيات الجميلات؟!"

الرجل إذا طول حياته، حتى ولو جاوز المائة عام، يهيم بالمرأة، وتشده المرأة الجميلة في ريعان شبابها، فلماذا يظل مرتبطاً بامرأة واحدة؟. دارت في ذهني هذه الأفكار ونحن ذاهبان إلى المطعم، فقلت في نفسي: هأنذا أهيّم حبا بامراتين، إحداهما قريبة من سني، لكنها مازالت رشيقة ناعمة تتفجر أنوثة، والأخرى بيني وبينها اثنا عشر عاماً، فاتنة، صارخة الجمال، ومثقفة، وأنا في الحقيقة أحب الاثنين ولا أريد الانفصال عن أي منهما. فهل ارتكبت خطأً بذلك؟ أم أن هذه حياة طبيعية طالما كانت لدي الرجل القدرة علي إعالة أسرتين وإعطاء كل ذي حق حقه؟

في المطعم فضلنا أكلة سمك مكونة من سبيط، وجمبري، وبلطي، وشوربة. وضعت صفاء الطعام في فمي أكثر من مرة، فتحقت أنها تخلصت تماما من حالة العصيان التي كان يمكن أن تنتابها، وأنها قررت التأقلم مع الوضع الجديد: نصف الأسبوع لها ولأولادها، و النصف الآخر لسناء. شربنا الشاي في المطعم وهو في العادة يكون له طعم خاص، ثم خرجنا منطلقين نحو منطقة الشيراتون. كانت الشوارع شبه خالية، والليل بسحره الفيض ينشر غلالته علي الأجواء، والتي تخفف منها هذه المصاييح التي تبدو وكأن شبكة من الأبخرة تدور حولها. كانت ليلة ساجية ختمناها باللقاء الجسدي الذي عاد إليه اللقاء الروحي المفعم بالحب والهيام.

عندما اتصل بي صفوان قائلاً إنه سوف يحضر في هذا المساء لم أتردد في أن أرد عليه قائلة: هذا بيتك تحضر متى تشاء. لكنني راجعت نفسي بعدها، وهاجمتني الوسوس والشكوك، وبلغ الأمر تأنيب الضمير، وقلت لنفسى: لماذا لم أقل له: إنك خنت العقد الذي كان بيننا وأنا ليس عندي أي استعداد لأن يجمعنا بيت واحد، فابحث لنفسك عن مكان آخر. ولو أنني تصرفت بهذه الطريقة لانتهدت المشكلة وحسنت مثلما حسمتها زوجة الدكتور طارق الكتاتني علي الرغم من أن لديها منه سبعة أولاد، أربعة من الذكور وثلاثا من الإناث. فهل أنا أقل من الدكتورة نوال؟ وقد حاول د. طارق أن يرضيها بكل السبل، لكنها رفضت رفضاً قاطعاً قائلة إنها لا يمكن أن تقبل أبداً ما حدث. وربما كانت لدي د. نوال مبرراتها لهذا الرفض القاطع، وأولها الإحساس بالإهانة، وثانيها أن الطعنة كانت غادرة، لأن نجلاء كانت في الأساس صديقة حميمة لها، وكانت تتردد علي بيتها، ولم تكن تعلم أن هذا التردد تمخض عن علاقة قوية بين نجلاء وطارق. كانت نجلاء بكرةً، وطارق في عز شبابه وفورته الجنسية، وهو من حيث الشكل قوي البنين، جميل الوجه، حسن الطلعة، متوسط الطول، تربى في بيت عز، ونشأ نشأة صحية، وتربوية سليمة. أيامها انتقدت نوال علي رفضها القاطع لطارق، وقلت لها: طالما أن لديه القدرة علي أن يفتح بيتين ويتعامل مع زوجتين فلماذا تنكرين عليه حقه في الزواج من امرأة ثانية، لكنها ردت علي بطريقة قاطعة: لقد غدر بي وأهانني بزواجه من صديقتي.

سألت نفسي: إذا كنت قد وقفت هذا الموقف مع نوال، فلماذا ألوم نفسي الآن علي قولِي لصفوان: إن هذا بيتك، وإنك يمكن أن تحضر متى تشاء. وعلي الرغم من ذلك زادت الوسوساوس، ووجدت نفسي في بحر لجي أقاوم الأمواج والعواصف. وأخيرا هداني الله إلي كتاب كان قد أعطانيه صفوان، رغم أنني لست من هواة القراءة، هو كتاب كليلة ودمنة، الذي يشتمل علي كثير من الحكم. قرأت الكتاب للمرة الثانية، وتوقفت عند موقف يشير إلي عاقبة من لم يفكر في آخر أمره. قال بيدبا الفيلسوف: "ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب، من غير أعمال الروية فيما يقرؤه، كان خليقا ألا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز فظهرت له آثار كنز، فجعل يحفر ويطلب، فوقع علي شيء من عين وورق (أي دنانير وذهب مضروب) فقال في نفسه: إن أخذت في نقل هذا المال قليلا طال علي، وقطعني الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصيب منه، ولكن أستأجر أقواما يحملونه إلي منزلي، وأكون أنا آخرهم، ولا أبقى ورأي شيئا يشغل فكري بنقله، وأكون قد استظهرت في إراحة بدني عن الكد ببسير أجرة أعطيهم إياها. ثم جاء بالحمالين، فجعل يحمل كل واحد منهم ما يطبق، فينطلق به إلي منزله فيفوز به، حتى لم يبق من الكنز شيء. فانطلق خلفهم إلي منزله، فلم يجد فيه من المال شيئا، لا قليلا ولا كثيرا. وإذا كل واحد من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه. ولم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب، لأنه لم يفكر في آخر أمره".

قلت في نفسي: هذه هي الحكمة. فلو أنني تركت صفوان، واتخذت موقفا قاطعا منه لفازت به هذه المرأة الجديدة، وفقدت أنا كل شيء، وحرمت الأولاد من والدهم. ومن ثم فإن الحكمة تقول إنني ينبغي أن أرضي بالأمر

الواقع. ومن يدري، فربما يقرر صفوان العودة إلينا بالكامل، وقد حدث هذا مع كثيرين. ومع أنني قد حسمت الأمر علي هذا النحو، إلا أنني عندما حضر صفوان قمت بتمثيل دور الرفضة لحضوره، مما جعله يبالي في إرضائي، ويستخدم كل أدواته السحرية وغير السحرية للإيقاع بي، حتى وصل إلي فراش الزوجية وتغشاني. كانت ليلة بلغت فيها المتعة أقصى حدودها، لدرجة أنني نسيت تماما موضوع زواج صفوان من امرأة أخرى، وبادلته حبا بحب، وشوقا بشوق، ورغبة متأججة برغبة فاعلة.

قلت لصفوان إن علي وأحمد يحتاجان أشد الحاجة إلي استذكار الدروس معهما فتكفل أنت بهذه المهمة. فقال: سمعا وطاعة. وبدأ يجلس مع الولدين بعد خروجهما من المدرسة، يراجع معهما المقررات المكتوبة باللغة الانجليزية، والأخرى القليلة المكتوبة باللغة العربية. وقد لاحظ أن هناك صعوبة بالغة في قراءتهما للغة العربية، وكذلك معاناة شديدة في استيعاب المقررات الانجليزية. قال لي صفوان: لقد أصرت علي دخول الولدين مدرسة لغات، وها هما يعانيان، ونحن نعاني معهما. قلت له: المدارس الحكومية هي الأخرى معظمها تحول إلي مدارس لغات، بل إن الأزهر صارت فيه معاهد لغات. وهذا هو التعليم عندنا الآن. فهل يمكن أن ننهج طريقا آخر؟! قال صفوان: وللأسف فإن هذا يحدث في معظم البلدان العربية بما في ذلك دول الخليج، أي أن اللغة الإنجليزية صارت هي لغة التعليم في العالم العربي، وانزاحت اللغة العربية لتصبح في المرتبة الثانية، وهذا لا يحدث في أي مكان في العالم. إن شعوبنا للأسف الشديد تفقد هويتها يوم بعد يوم، والشعوب التي تنصرف بهذه الطريقة مآلها الانهيار والذوبان، وقد يصل بها

الحال إلى الانقراض. فاللغة هي صلب الهوية لأي شعب من الشعوب، وعندما يفقد الناس الإيمان بلغتهم يفقدون الإيمان بكل شيء.

أضاف صفوان: أنا لا أفهم أبدا ولا أستوعب أن يدرس طفل في الابتدائي بلغة أجنبية وهو في أمس الحاجة إلى لغته أولا، ثم يستمر كذلك في الإعدادي ثم في الثانوي. وهو بذلك يمثل عبئا على الأسرة لأنه يتحدث في البيت وفي الشارع بلغة، ويدرس المقررات بلغة أخرى غريبة عنه. كان التعليم عندنا فيما سبق يقوم في الأساس على اللغة العربية، واللغة الأجنبية تدرس بوصفها لغة ثانية تجب معرفتها لا أكثر ولا أقل، وربما تكون لغة واحدة مثل الإنجليزية أو لغتين أولاهما بالطبع الإنجليزية ثم لغة أخرى قد تكون الفرنسية أو الألمانية أو الإسبانية. وهذه هي الفترة التي أدت إلى ظهور علماء كبار في كل التخصصات بما في ذلك الفيزياء والكيمياء والطب والهندسة. الآن يدرس الطالب باللغة الأجنبية، ومع ذلك انهار التعليم، وتدهور، وصار الطالب نهبا لهذا الاضطراب الذي صنعه المسؤولون الجهلاء، فلا هو متقن للغته الأم ولا هو عارف باللغة الأجنبية. إنه ممزق بين لغتين وبين هويتين. يحدث كل هذا بينما نحن نعرف أن التعليم في مدرسة أو كلية الطب عام 1880 كان باللغة العربية. معروف كذلك أن التعليم في كليات الطب في سوريا باللغة العربية، ومع ذلك كان اقتناعي أن الأطباء السوريين أبرع من أقرانهم ممن درسوا باللغة الإنجليزية في البلاد العربية الأخرى.

قلت لصفوان: علي أية حال فإن التعليم في البلاد العربية هو أحد المآسي التي يعاني العرب منها الآن، وهي مآسي لا حصر لها لأن من يتحكمون في مصائرهم ينقصهم الوعي والمعرفة والرغبة في الوصول إلى حلول للمشاكل

الطاحنة. ثم إن من يختارون للمناصب الكبرى تنقصهم الخبرة، وهم مجرد منفذين لأوامر الفرعون الأكبر لدرجة أن الجملة المنتشرة هي: " بتوجيه من السيد رئيس الجمهورية"، وكأن هذا الشخص نصف إله أو حتى إله يعرف كل ما يدور في الكون: إنه النفاق والتزلف وتغليب المصالح الخاصة، وغير ذلك من تمثيل وتزييف وقلب للأمر وللحقائق.

ولاشك أن هذه المشاركة الكلامية مع صفوان زادت من اقتناعي بأنني لا أستطيع أن أبتعد عنه: إنه ليس مجرد أستاذ أدب عباسي، وإنما هو مثقف شمولي موسوعي، درس الآداب العربية والأجنبية، وحصل علي شهادة الفلسفة من كلية الآداب قبل ذهابه إلي البعثة، وفي فرنسا أقام علاقات قوية مع كبار المستشرقين، وعندما التحق بقسم الدراسات العليا تلقي دروسا من أحدهم وهو المستشرق المشهور جاك بيرك. ولأني شاركته العيش في باريس كنت علي علم بكل ما يفعل: مواظبته علي حضور المحاضرات، وقراءاته المتواصلة في الكتب فرنسية كانت أو عربية، وإسهاماته في المجلات التي تصدر في مصر أو في دول الخليج. كان صفوان يمتلك طموحا لا تحده حدود بأن العالم العربي يمكن أن يتغير إلي الأفضل لاسيما خلال فترة النفط. فالثروة قد تؤدي إلي حالة من التنمية والتقدم والازدهار، والعالم العربي ينبغي أن ينتهز هذه الفرصة ويقطع أشواطا في مجالات البحث العلمي والصناعة والتكنولوجيا. لكنه كان دائم التخوف من أن فترة النفط يمكن أن تنقضي والعالم العربي مازال علي حاله، يدور ويلف حول قضايا هامشية مثل لباس المرأة الذي يشغل حيزاً واسعا من تفكيرنا وكأن الله لم يخلق المرأة إلا لكي ننشغل بلباسها وزينتها وسلوكها. والشعوب التي تضع وقتها في مجالات من هذا القبيل لا يمكن أن تصنع تنمية أو تقدما.

في يوم العطلة التي أعلنتها الحكومة احتفالاً بإحدي المناسبات القومية صحتونا مبكراً. وبما أننا دخلنا في فصل الشتاء أحسنا ببرودة الجو. وعندما خرجنا إلى الشارع لنركب السيارة وجدناها مغطاة بطبقة من الندي، ولاحظت أن الأشجار هي الأخرى تبدو وكأنها ارتوت بالماء سواء كانت أمام البيت أم في الحديقة المزروعة في المثلث الواقع بين العمارات، والتي كان صفوان يعتني بها اعتناؤه بأبنائه، حيث طلب من بواب العمارة التي نساكن بها أن يعتني بها مقابل مبلغ شهري يدفع له. كانت الشمس الطالعة من الأفق البعيد تخترق الغشاوة التي صنعها تساقط الندي، وقرصها يبدو مثل دائرة شديدة الاصفرار، تحدث لها تحولات وسط جو يوحي بأنه سوف يكون مشرقاً، علي الرغم من تعبيره عن جو شتوي خالص أثناء هذه الساعة من الصباح المبكر. لا أدري لماذا كنت سعيدة بهذا الجو. ويبدو أن ذلك أثر من آثار إقامتي في فرنسا لما يقرب من ست سنوات، حيث كنت أسعد بالمطر الذي يمكن أن يستمر ليوم كامل أو أيام، كما كنت أسعد بتساقط الندي علي المزروعات والأشجار وأرضيات الشوارع، ولهذا أكثر من أصص الزرع في شرفة الشقة ابتغاء أن يصيبه شيء من تساقط الندي.

وعندنا صفوان بأننا سوف نقضي اليوم كله في حديقة الحيوان بالجيزة، ثم نتناول الطعام في مطعم بوسط القاهرة. ركبنا السيارة، وركبت إلي جانب صفوان بينما جلس الأولاد في المقعد الخلفي. كانت هذه أول مرة منذ فترة غير قصيرة أجلس فيها في السيارة إلي جوار صفوان. نظرت إليه وهو يمسك بمقود السيارة فوجدته جليل الطلعة، صبور الوجه، عريض الجبهة، واسع العينين، أقني الأنف، طويل الحاجب، ينسدل شعره علي جبهته بطريقة تزيده جمالاً، حليق اللحية، يطلق شاربه بشكل ينم عن سمة رجولية

واضحة. قلت في نفسي: هل كان من الممكن أن أضيع من يدي هذا الشخص الذي أحببته حبا شديدا بُعيد ارتباطي به، وزاد حبي له بعد أن ذهبت إليه في فرنسا، وعشت هناك متمتعة بجو فرنسا الهادئ الجميل، وهوائها العليل، وأشجارها الباسقة، وشوارعها المنسقة البديعة، ومتاحفها التي تري فيها آثار الأزمنة القديمة وروائع الزمن الحديث، وشارع الشانزلزيه أهم شوارع باريس، وبرج إيفل ، ونهر السين.

ولم نقتصر ونحن في باريس علي المعالم الفرنسية المنتشرة في شتي أنحاء البلاد وإنما كنا نذهب في كل عام تقريبا في رحلة إلي إسبانيا. وتنوعت زيارتنا للمدن الإسبانية. فمرة نقتصر علي مدريد والمدن المحيطة بها. وعندئذ نقوم بزيارة معالم مدريد وزيارة المدن القريبة منها. وبذلك زرنا قلعة هيناريس، وطليلة، وأبيلا، وبلد الوليد، وقوينقة، وسرقسطة، ومدينة سالم، وكانت كل مدينة تستغرق منا يوما كاملا. وذات يوم ذهبنا إلي مدينة الاسكوريال التي تضم مكتبتها المخطوطات العربية المشهورة. مررنا أولا علي وادي الشهداء الذي بني فيه الجنرال فرانكو كنيسة محفورة في الجبل يسمونها "لاباسيليك"، وهي كنيسة عجيبة وواسعة جدا. قضينا هناك وقتنا استمتعا فيه بروية الكنيسة من الداخل، ثم تجولنا في المنطقة الخضراء المحيطة بها، وجلسنا في إحدى الكافتریات المنتشرة هناك. بعد ذلك توجهنا إلي مدينة الإسكوريال. دخلنا أولا القصر الذي توجد به مقابر ملوك إسبانيا، ثم تجولنا في بعض القاعات المزخرفة الجدران بلوحات فنية رائعة. ثم دخلنا المكتبة حيث قضينا فيها فترة نشاهد المخطوطات العربية، وبعضها معروض علي طاولات مستطيلة واسعة.

وكانت أكثر الرحلات إمتاعا عندما نذهب إلى إسبانيا هي رحلة الأندلس، وبالأخص مدينة قرطبة التي كنا ننزل بها في فندق ميمونيدس، نسبة إلى ابن ميمون الفيلسوف القرطبي اليهودي. كان صفوان يقضي معظم الليل، في هذا الفندق، في حالة توقد جنسي متواصل، وبما أننا في ريعان الشباب فقد كان الفعل متبادلا، لدرجة أنني لم أكن أحس بالملل، لاسيما وأن صفوان طفق يجرب في شئون الحب حتى بلغ درجة كبيرة من الإتقان والتفنن في فنون الإثارة والغوص في مكامن الفتنة وكأنه يستنطقها ويحركها وفقا لما يريد.

انتبهت إلى صفوان وهو يقول لي: لقد وصلنا إلى حديقة الحيوان. ومن الواضح أن الطريق كان سهلا لأننا وصلنا بسرعة. ركن صفوان السيارة، ونزلنا. شدني تمثال نهضة مصر فوقفنا أمامه لحظات نتأمل في براعة الممثل المصري يوم أن كانت مصر تعرف كيف تركز علي الموهوبين الحقيقيين. الآن في هذا الوقت المملوء بالتزييف وتمثيل الحقائق علي الورق أو في مسرحيات هزلية مقصودة لم يعد هناك مجال للكفاءات، بل إن هؤلاء الأكفاء الموهوبين قد أزيحوا تماما، وتم التخلص منهم لفتح المجالات لأنصاف الموهوبين، وكذابين الزفة، والمنافقين، وأصحاب الضمائر الخربة، والمتسلقين، والمشعوذين، والصوص، ومن يسمونهم أهل الثقة. هذه هي مصر الآن في عهد الرئيس الحالي حسني مبارك الذي وصل إلي الحكم بالصدفة من خلال تشريع يقضي بأن يكون نائب الرئيس هو الرئيس في حالة خلو منصب الرئاسة. وليس للشعب دخل في هذا الاختيار، وإن كان يتم استفتاءه بأسلوب معروف للكافة أنه قائم علي التزوير. فمتى تخرج مصر من هذا المستنقع؟.

قضينا اليوم كله تقريبا في حديقة الحيوان. وكنت ألاحظ استمتاع الأولاد بالحيوانات وبالخضرة، والأشجار العالية. ولاشك أن الدولة تولي عناية خاصة لهذه الحديقة سواء في تقسيماتها أو الاهتمام بطرقها، وبيوت الحيوانات الموجودة بها، وتنوع هذه الحيوانات المستقدمة من كل أنحاء العالم. وقد وجدت أحمد يصاب بحالة خوف واضطراب عندما رأي الثعابين الضخمة. والحق أني أيضا خفت منها، ولولا اقتناعي بأنها موضوعة في أقفاص كبيرة لوليت الأدبار خوفا منها. كان صفوان يتقدمنا دائما وكأنه مرشد سياحي يعرف الطرق والأماكن، وأحيانا كان يشرح للأولاد أو يقرأ لهم ما هو مكتوب علي اللوحات بالعربية والانجليزية.

بعد حديقة الحيوانات توجهنا إلي المطعم السياحي بوسط القاهرة. كان المطعم قريبا من ميدان طلعت حرب. وعندما دخلنا أحسست بأننا ندخل كهفا. كانت الردهة الخارجية هي المكان الوحيد المضيء، أما الداخل فيشبه الكهف فعلا، لأنه يتكون من ممر شبه مظلم، وليس به إلا لمبات خافتة، وقاعة الطعام هي الأخرى ذات إضاءة خافتة، وإن كانت تحتوى علي عدد من الطاولات حول كل منها عدد من الكراسي المريحة. وقد بدا واضحا أن المطعم معد للسائحين الأجانب. ومعروف أننا من أكثر الشعوب احتفاء بالأجانب، وهذا أمر غير معيب، لكننا - كعادتنا - نبالغ في كل شيء. أذكر أنني ذات مرة كنت مشتركة في مؤتمر طبي أقيم بأحد الفنادق الفخمة في الزمالك، فأخذت الطريق من شارع حسن صبري إلي الفندق مشيا. وكان الفندق يطل علي النيل، فكنت أتطلع إلي المباني الفخمة يمينا ويسارا وأنا في حالة انبهار من روعة هذه المباني، ومعظمها ينسب لسفارات أجنبية أو شركات تابعة لهذه الدولة أو تلك، أو فنادق فاخرة، أو غير ذلك. قلت في

نفسى: هؤلاء هم المصريون ، الغالبية العظمى يعيشون في بؤس في مناطق عشوائية أو غير مؤهلة للسكن، أما الأجانب فليدهم القدرة علي أن يعيشوا في أنظف الأماكن وأكثرها فخامة. لكم الجنة أيها المصريون المحرومون من المتع الموجودة علي أرضهم!!.

بعد ذلك أخذنا طريقنا نحو مصر الجديدة. نام الأولاد، وبقيت أنا وصفوان نتساقى كنوس المتعة وكأننا عروسان جديان، نقضي شهر عسل جديد، علي الرغم من أنني كنت أعرف أن صفوان سوف يتركنا في صباح الغد متوجها إلي زوجته الثانية في شبين الكوم. لكني بدأت أوطن نفسي علي هذا الوضع، ورأيت أنه في كل الأحوال أفضل من الانفصال أو الطلاق. وتذكرت في هذه اللحظة قصة قرأتها في كتاب " أخبار الحمقى والمغفلين " لابن الجوزى الذي قدمه لي صفوان منذ فترة قاتلة: سوف تضحكن كثيرا وأنت تقرئين هذا الكتاب – تقول القصة:- " حدثنا أبو حمزة المؤدب، قال: حدثنا أحمد بن محمد القزويني – وكان شاعرا – أنه دخل سوق النخاسين بالكوفة، فقعده إلي نخاس، فقال: يا نخاس ، اطلب لي حماراً لا بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر، إن أقللت علفه صبر، وإن أكثرته علفه شكر، لا يدخل تحت البوارى ولا يزاحم بي السوارى، إذا خلا في الطريق تدفق، وإذا أكثر الزحام ترفق. فقال له النخاس بعد أن نظر إليه ساعة: دعني، إذا مسخ الله القاضي حماراً اشتريته لك".

وهكذا فإني أري أن الدنيا لا تعطي كل شيء. فإذا كنت أحب صفوان فما المانع من أن أستمر معه ولو زاحمتني في حبه امرأة أخرى، أما فقدانه بالكامل فأمر لا أستطيع تصوره. وبذلك ودعت صفوان بكثير من الحب والشوق وهو يركب سيارته في الصباح ذاهبا إلي المنوفية. كانت السماء

صافية، والشمس ساطعة علي الرغم من النسمات الباردة التي تلسع الوجه. نظرت إلي صفوان المتدفق حيوية ونشاطا، وتطلعت إلي شمس الشتاء التي تسطع من بعيد، وتأملت الخضرة والأشجار اليانعة التي أشرف صفوان علي تنميتها وجعلها صالحة للاستمرار في هذا البرد القارص، وهي عادة نشأ عليها في الريف، ثم ترسخت عنده عندما أقام في فرنسا، ورأي أن الخضرة والأشجار الباسقة داخلة في عمق الحياة، ولها دور كبير في إنعاش الجو، وجعله صالحا للاستمتاع حتى في أشد لحظات البرد الذي تتخلي فيه الأشجار عن أوراقها وتتركها نهبا للريح عند هبوبها.

خلال الأيام التي غاب فيها صفوان انتقلت إلي الفيلا لأعيش مع والدي ووالدي. كانت الفيلا قريبة من المدرسة التي أعمل بها، ولهذا كنت أقطع الطريق مشياً، وكان لهذا المشي – كما هي العادة – محاسنه وسيناته. فمن محاسنه الاستمتاع بالجو في هذه الساعة المبكرة من الصباح، حيث السماء المنعشة في أغلب الأحيان، والشمس الساطعة التي تخفف كثيراً من لسعات البرد في الشتاء، وإن كانت الشمس تختفي خلف السحاب في بعض الأيام وبذلك يصبح الجو شديد البرودة، وأحياناً تهيم الشبورة فيبدو المرء وكأنه يمشي تحت غلاف أبيض تساقط منه حبات الندي المترعة بصنوف العناصر والأنسجة التي يغزلها هذا الطقس الشتوي الأليف. أما البيوت في هذه المنطقة الجميلة التي نعيش فيها فإنها، علي الرغم من بعض الإهمال الذي هو طبع لدي الأجهزة الحكومية وخاصة المحليات، فإنها نظيفة، والتخطيط العمراني فيها واضح. فهي بيوت مختلفة الطول حسب طبيعة البناء من فيلا مكونة من ثلاثة أدوار فقط، إلي عمارة قد تبلغ أدوارها اثني عشر دوراً، لكن هناك نوعاً من الانسجام يجعل هذا الاختلاف ممكناً، لاسيما وأن المباني تفصل بينها مساحات خالية، وفقاً لقوانين البناء في هذه المنطقة المتميزة. ولهذا كنت في طريقي أنظر إلي هذه المباني وأقول في نفسي: ليت مصر كانت كلها بهذه النظافة وهذا التخطيط العمراني!!.

إن لم تكن البيوت كلها بلون واحد، علي النحو الذي عاينته في فرنسا وإسبانيا، لكن البلدية اشترطت عند تسليمها رخصة البناء للمالك أن تكون الألوان متقاربة، وفي هذه المنطقة لا بد أن يكون اللون بنياً، لكن بدرجاته

المختلفة، ولهذا نجد بعض العمارات اختارت البني الفاتح، وبعضها الآخر اختار البني الغامق. كنت أتطلع إلي واجهات البيوت فأجد معظمها مصنوعا من الرخام، يتلألأ تحت أشعة الشمس، وقد زين بنقوش رائعة وفقا لمهارة الصانع ورؤيته وإحساسه بطبيعة المكان. وقد تتداخل النقوش مع زخارف الفسيفساء لترسم لوحة آية في الجمال والروعة. أما الفيلات فقد زينت بأعمدة من المرمر الأصفر أو الأرجواني. والنوافذ من الزجاج المعشق المحلّي برسوم لطيف وزهور ذات ألوان زاهية، تنعكس عليها أشعة الشمس فتبدو وكأنها ألوان قوس قزح. أما أبواب الفيلات أو ما يمكن أن نسميها البوابات الكبيرة فكانت من الحديد المشغول، وبعضها مطعم بالنحاس. وفي الميادين المحيطة بالفيلات تطوع بعض رجال الأعمال والموسرين بعمل نافورات ذات أشكال مختلفة تخرج منها المياه البللورية الصافية سواء من أفواه أسماك أو سباع أو بشابير أو أية أشكال أخرى، وهذه النافورات تضيف لمسة جمالية علي المكان وتجعله متعة للناظرين، وقد رأيت أمثال هذه النافورات بكثرة في الخارج. وعن الأشجار أقول إنها مزروعة في الميادين وعلي جوانب الطرق مما يعطي الانطباع بأن أهل هذه المنطقة حريصون علي تجميلها وجعلها منطقة حضرية بحق، تختلف عن كل المناطق الأخرى المهملة أو الداخلة في إطار العشوائيات.

وهكذا تتجلي محاسن المشي في الشوارع، لكن المساوي كثيرة ومنها الحفر والمطبات الموجودة في كل مكان، وكنا نتصور أنها بعيدة عن المناطق الراقية. وهنا عادة ذميمة انتشرت في زمن حسني مبارك وهي كثرة تغيير الحجارة المستطيلة التي تحدد الأرصفة، وكان الناس يتساءلون دائما: هل هناك رأسمالي متنفذ أو قريب من السلطة يملك المصانع التي تنتج هذه

الحجارة،؟! وكانت الأصابع تشير إلي أحد ابني الرئيس علاء أو جمال. من المساوي أيضا أن هناك كثيرين يتحرشون بالمرأة من الشباب والكهول وحتى الشيوخ. وربما ننتحل الأعذار للشباب لأسباب كثيرة نعرفها جميعا، لكن الكهل أو الشيخ كيف تصل بهما الصفاقة إلي حد التلطف بألفاظ نابية يوجهها لامرأة تسير في الشارع؟! وذات مرة وجدت كهلا يمشي خلفي، ويمطرني بكلمات عن الجمال و الحب، ويقول لي إنه موسر وسوف يوفر لي حياة رغبة ومكان إقامة في هذه المنطقة الجميلة. لم أستطع تحمل هذا الشخص الصفيق، وقلت له: ألا تستحي من نفسك وأنت تغازل امرأة في الشارع لا تعرف عنها شيئا؟ والحق أنه استحي من نفسه فتركني ومضي لسبيله. لكن الشباب وخاصة القادمين من مناطق عشوائية يطلقون الألفاظ النابية الخادشة للحياء بدون حسيب أو رقيب، ولا أستطيع أن أرد عليهم لأنهم يركبون دراجات عادية أو بخارية ويلوذون بالفرار.

في العادة أصل إلي المدرسة قبل طابور الصباح فأقف مع الزملاء والزميلات الذين يبدأون علي الفور في تنظيم الطابور. يخرج ناظر المدرسة والوكيل والمجموعة الإدارية وتبدأ المراسم الصباحية بكلمات مقتضبة من الناظر يحث فيها الجميع علي الجدية والالتزام بالقيم والأعراف التعليمية، ثم تصدح الموسيقى بالنشيد الوطني، وأحيانا يلقي أحد الطلاب أو إحدى الطالبات كلمة قصيرة تعبر عما يدور في أذهان الطلاب والطالبات، ثم تتحرك الطوابير نحو الفصول علي إيقاع موسيقي مخصصة لهذا الغرض. ويقود كل مدرس أو مدرسة طلابه إلي الفصل. كنت أحس بالراحة والاطمئنان في طابور الصباح لأنني رأيته منتظما علي النحو الذي كان يحدث فيما سبق لكنني لم أرتح أبدا لبعض كلمات النفاق التي تصدر عن الناظر أو أحد

معاونيه تجاه رأس النظام، لأنني أرى أن الشعوب العربية ينبغي أن تتخلص من النظام الفردي لتصبح دول مؤسسات. هكذا قرأت عن الدول الديمقراطية المتقدمة في الغرب، وكيف ينظر الرئيس أو الملك إلي نفسه علي أنه فرد في جماعة أو مؤسسة تقود البلاد لا أكثر ولا أقل، وأن الأساس دائما هو الحزب الذي ينتمي إليه، ويستمد سلطاته منه. وبذلك يكون البرلمان هو الركيزة الأولى في الأنظمة الديمقراطية، والنواب الذين جاءوا من خلال انتخابات حرة نزيهة تنافست فيها كل الأحزاب هم القاعدة الصلبة لهذا البناء الديمقراطي. ولا جرم أن صفوان كان يشاطرنى هذه الأفكار، بل إنه أشد إيمانا بها لأنه عاشها في فرنسا بعقله ووجدانه. وكنت أسمعه دائما يقول: متى يصير الحكم عندنا شبيها بما يجرى في فرنسا أو انجلترا أو أي دولة تحكمها ديمقراطية حقيقية؟

كانت المدرسة مشتركة. وعلي الرغم من شقاوة الأولاد والبنات فقد أحببتهم جميعا. كانوا يمثلون أمامي صورة المستقبل. وبما أنني لم أكن محتاجة إلي إعطاء دروس خاصة علي النحو الذي يفعله غالبية المدرسين والمدرسات فإني التزمت في التدريس بالطريقة القديمة. أبذل أقصى طاقتي في الفصل، وأشرح لهم النحو والصرف بطريقة سهلة، تحببهم في المادة ولا تنفرهم منها. وبالفعل كانوا يتجاوبون معي بشكل تلقائي، ويبذلون كل ما لديهم من طاقات لاستيعاب اللغة العربية بنحوها وصرفها. بل إنني حاولت أن أطبق طريقة صفوان باستدعاء أبيات شعرية سهلة الفهم لشعراء كبار من القدامى ومن المحدثين. وأذكر مرة أنني، في ذكرى مولد النبي عليه السلام، قرأت عليهم الأبيات الأولى من قصيدة أحمد شوقي " نهج البردة"، التي تقول:

ريم علي القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
رمي القضاء بعيني جوذر أسداً يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم
لما رنا حدثتني النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المमित رُمي

فتجاوب معها الطلاب - علي صغره - أيما تجاوب . وقرأت لهم مرة
أبياتاً من الهمزية التي مطلعها:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وسناء
جبريل والملك الملائك حوله للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحديقة تزدهي والمنتهي والسدرة العصماء
أدركت من حسن استقبال الطلاب والطالبات لهذه الأبيات أن لديهم
استعداداً لتقبل الثقافة الرفيعة، لكنهم للأسف محاصرون في البيوت وفي
الشوارع وفي الإعلام بأقوال و آراء تافهة وشديدة السذاجة لا تقدم، لكنها
تؤخر وتبني أدمغة لديها استعداد لتلقي التفاهات.

في نهاية اليوم أعود إلي الفيلا وقد شحنت أعماقي بأمرين: أولهما
الأحداث التي جرت لي أثناء النهار في الشارع وفي المدرسة، والثاني
صورة صفوان التي لا تفارقتني أبداً، ونحن نتطarach الحب والغرام في حديقة
الفيلا، ونحن مضطجعان علي سرير الزوجية نمهد للقاء الجسدي الذي يأخذ
فترة غير قصيرة من الليل، وأنا أركب خلفه علي جمل في منطقة الأهرامات
بالجزيرة، ونحن نازلان في فندق ابن ميمون في قرطبة، ونحن قريبون من
برج الذهب في إشبيلية علي شاطئ نهر الوادي الكبير. تحاصرني كل هذه
الصور فأجدني في حالة شوق متلهف لصفوان، بوجهه الصبوح، وشعره
الذي يكاد يغطي فؤديه، وقامته الممشوقة، وروحه الصافية، وابتسامته

الرقيقة، وفحولته الجنسية التي تزيد الحياة متعة وخصوصية. أقول لنفسي:
ترى أين أنت يا صفوان؟ ومتى تعود إليّ؟ هل تعرف أن شوقي لرؤياك لا
يعدله أي شيء آخر؟ وهل تعرف أنني غارقة في حبك من قدمي إلي رأسي؟
وهل تحس أن الشقة بدونك مكان موحش لا حياة فيه؟ بل إن الفيلا نفسها
بدون وجودك معي فيها تبدو لي مثل الأطلال التي كان يبكيها الشاعر العربي
القديم، علي نحو ما قاله طرفة بن العبد:

لخولة أطلال ببرقة تُهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وهكذا هي الفيلا تلوح لي مثل باقي الوشم في ظاهر اليد.
في المساء كنت أشغل وقتي إما في مشاهدة فيلم أجنبي علي القناة
التلفزيونية الثانية. وإما في القراءة حيث أحضر معي من الشقة عددا من
الكتب التي أريد قراءتها. ومن بينها، في هذه الأيام، كتاب "الأذكىاء" لأبي
الفرج بن علي بن الجوزي. وقد استوقفتني فيه أشياء كثيرة أكتفي منها الآن
بحكيتين أولاهما عن " داهية العرب"، والثانية أقوال عن أهمية العقل
وتقدمه علي الشعائر الدينية الخالصة. فيما يتصل بالحكاية الأولى نقرأ ما
يلي: " ومن المنقول عن عمرو بن العاص: قال ابن الكلبي: لما فتح عمرو
بن العاص قيسارية سار حتى نزل علي غزة، فبعث إليه علجها (قائدتها من
العجم)، أن أرسل إلي رجلا من أصحابك أكلمه، ففكر عمرو فقال: ما لهذا
العلج أحد غيري. فقام حتى دخل علي العلج فكلمه، فسمع كلاما لم يسمع
مثله قط، فقال له العلج: حدثني هل من أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن
هواني عندهم إذ بعثوني إليك وعرضوني لما عرضوني، فلا يدرون ما تصنع
بي. قال: فأمر له بجائزة و كسوة، وبعث إلي البواب إذا مرَّ بك فاضرب عنقه
وخذ ما معه. فمر برجل من النصاري من غسان فعرفه، فقال يا عمرو: قد

أحسن الدخول فأحسن الخروج، فرجع، قال له الملك: ما ردك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك ليسع بني عمي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد. قال: صدقت. أعجل بهم، وبعث إلي البواب خل سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن قال: لا عدت لمثلها أبداً. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلي فقال له: أنت هو؟ قال: علي ما كان من غدرك.

أعجبني جدا ذكاء عمرو بن العاص، ودهاؤه، وفهمه، وسرعة تصرفه. لقد فهم من جملة واحدة مبهمة أن العلي يريد قتله، فرسم لنفسه بسرعة خطة محكمة للنجاة. وهكذا كان العرب في فترة حضارتهم، وأنشاء الفتوحات التي سيطروا من خلالها علي جزء كبير من العالم في ذلك الوقت.

أما عن الأقوال فتأتي في بداية الكتاب تحت عنوان: "الباب الأول: ذكر فضل العقل" وهذا أمر له دلالة مهمة. وسوف أكتفي بذكر بعضها: "عن ابن عباس أنه دخل علي عائشة، فقال: يا أم المؤمنين! رأيت الرجل يقل قيامه ويكثر رقاذه، وآخر يكثر قيامه، ويقل رقاذه أيهما أحب إليك؟ قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني عنه فقال: أحسنهما عقلاً، قلت: يا رسول الله أسألك عن عبادتهما، فقال: يا عائشة إنما يُسالان عن عقولهما، فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة". وعن وهب بن منبه قال: إني وجدت في بعض ما أنزل الله علي أنبيائه أن الشيطان لم يكابد شيئا أشد عليه من مؤمن عاقل، وإنه يكابد مائة جاهل فيستجرهم حتى يركب رقابهم، فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيتصعب عليه حتى لا ينال منه شيئا من حاجته.

وقال وهب أيضا: لإزالة الجبل صخرة صخرة، وحجرا حجراً أيسر علي الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل، لأنه إذا كان مؤمناً عاقلاً، ذا بصيرة، فهو أثقل علي الشيطان من الجبال، وأصعب من الحديد، وإنه ليزاوله (أي يراوده) بكل حيلة، فإذا لم يقدر أن يستذله قال: يا ويله، ماله ولهذا ، لا طاقة لي بهذا، ويرفضه ويتحول إلي الجاهل، فيستأثره، ويستمكن من قياده حتى يسلمه إلي الفضائح التي يتعجلها في عاجل الدنيا، كالجلد، و الرجم، والحلق، وتسخيم الوجوه، والقطع، والصلب، وإن الرجلين ليستويان في أعمال البر، ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد إذا كان أحدهما أعقل من الآخر.

وعن خلود بن دعلج قال: سمعت معاوية بن قرة يقول: " إن القوم ليحجون، ويعتصرون، ويجاهدون، ويصلون، و يصومون، وما يعطون يوم القيامة إلا علي قدر عقولهم". ويقول ابن الجوزي: حدثنا عبد الله بن ضريس، عن أبي زكريا قال: "إن الرجل ليتلذذ في الجنة بقدر عقله". ويختم ابن الجوزي هذا الباب بقوله: " وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب العقل أحاديث كثيرة في فضل العقل إلا أنها بعيدة الثبوت، فلنقتصر علي هذا". وعلي الرغم من ذلك يخصص ابن الجوزي أبواباً أخرى للعقل، و الباب عنده يتكون من صفحتين أو ثلاثاً أو أقل من ذلك، مثل: " في ذكر ماهية العقل". وبيان معني الذهن، والفهم، والذكاء"، و " في ذكر العلامات التي يستدل بها علي عقل العاقل وذكاء الذكي". وأختار من هذه الأقوال قولاً واحداً يقول: " أخبرنا أحمد بن محمد بن عيسى قال: سمعت يوسف بن الحسين يقول: سمعت ذا النون يقول: من وجدت فيه خمس خصال رُجيت

له السعادة ولو قبل موته بساعتين. قيل: ما هي؟ قال: "استواء الخلق، وخفة الروح، وغزارة العقل، وصفاء التوحيد، وطيب المولد".

لهذا كنت ألاحظ أن صفوان يتحدث كثيرا في هذا الموضوع. يقول لي: هلي تعرفين يا سناء ما الذي يميز شعبا عن شعب؟ إنه العقل والحكمة والوعي. ثم يقول: وهل تدرين ما هو الفرق بين مثقفي الأجيال الحالية ومثقفي النصف الأول من القرن العشرين عندنا؟ أقول له: لا أدري. فيرد: كان مثقفو النصف الأول واعين، مناضلين، ذوي عقل وحكمة، لهم أهداف محددة مثل الوصول إلى درجة من الحكم الرشيد تجعلنا نسير في ركب الحضارة والتقدم، وكانوا يناضلون لتحطيم السور الفاصل دانا بين الأغنياء والفقراء، ويدعون إلى النهوض بالتعليم، وإلى غير ذلك من إصلاحات تحتاج إليها بلادنا. أما مثقفو الأجيال الأخيرة فمعظمهم لديهم استعداد فطري للانضواء تحت مظلة السلطات الحاكمة، وهم مشغولون بأنفسهم لا تهمهم إلا مصالحهم الشخصية، وبعضهم خدم الأنظمة الدكتاتورية في العالم العربي، وإذا سقط النظام تحولوا إلى غيره، وكثيرون منهم خدموا تحت مظلة اليسار فلما سارت الدولة في اتجاه اليمين انسلخوا داخل اليمين، بل إنهم صاروا يمينيين أكثر من اليمين نفسه. ثم إنهم يزيفون الحقائق، وبعضهم يمتلك موهبة جبارة في تفصيل أثواب علي المقاس، ولهذا أطلق الناس مسمى "ترزية القوانين" علي من عرفوا بذلك. وكان صفوان يري دائما، وهو طالب في المرحلة الثانوية، أن هذه الأوضاع لا يمكن أن تخلق مجتمعا حديثا يسعى نحو التقدم بخطي وثقة.

وبالطبع كان لابد أن يكون للأسرة نصيب من اهتماماتي. أساعد الوالدة في المطبخ، وأتحمل عنها بعض الأعباء الأخرى، وأذهب مع الوالد في فترة

المساء إلي هذا المكان أو ذاك. وكان من عادة الوالدة أن تدعو الأسرة علي الغداء في أحد أيام الأسبوع. في هذا اليوم ينزل فتحي وزوجته وولده من شقتهم. أدخل أنا وسلوى المطبخ لنساعد الوالدة. كنا قد اشترينا بعض الأصناف التي نحبها من محل مشهور في شبين لا تكاد تعثر علي هذه الأصناف إلا عنده، مثل الجمبري، وثعبان السمك، والبلطي المستخرج من البحر المالح، والكابوريا، والبياض الذي يشبه القراميط، والسبيط. تجهز الوالدة هذه الأصناف بطريقتها الماهرة في الطبخ، وتصنع أرزا مخصوصا لهذه الأكلة، وتتفنن في تنويع الأطباق.

عندما جلسنا علي المائدة لتناول الطعام قال لي الوالد وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى: أما كان من الأفضل لك يا سناء أن تتزوجي من شخص ليس لديه زوجة أخرى؟ قلت له: مع احترامي الشديد لرأي سيادتكم فإني لا أجد شخصا يعدل صفوان في راحة عقله، واستقامة سلوكه، وانضباط حياته، وعلو ثقافته، وشدة وعيه، وسمو نفسه، ثم أضفت: أعتقد يا أبي أنني خبرت هذه الصفات فيه قبل الزواج وبعده. وعموما أنا لست نادمة علي ما حدث، بل إن صفوان كان بالنسبة لي حلما لم أتصور أنه يمكن أن يتحقق، لكنه تحقق بالفعل. وتدخل فتحي في الحديث فأكد علي كلامي، وفعلت سلوى نفس الشيء.

بعد تناول الطعام ثم الفاكهة ثم الشاي نزلنا إلي الجنيينة لنقضي فترة قصيرة ساعة الغروب. بدا قرص الشمس مثل جمرة متقدة تنشر أشعتها الحمراء فوق الأشجار، ولأننا في فصل الشتاء كان يخففي للحظات قصيرة خلف السحاب، أما الهواء فبفعل تأثير الحرارة أثناء طلوع الشمس ظل محتملا لدرجة أننا مكثنا في الجنيينة لأكثر من ساعة. تذكرت الساعات التي

كنت أقضيها مع صفوان في هذا المكان يتأمل في وجهي وأتأمل في وجهه،
يثير عواطفني وأثير شجونه، يقترب مني وأنا أحاول أن أسيطر علي
عواطفني وعلي نزغات الشيطان الكامنة في أعماقي، لكنني في بعض الأحيان
كنت أتخفف من بعض القيود لاسيما خلال الأيام التي سبقت عقد القران
والدخلة. وها أنت يا صفوان بعيد عني لكن صورتك ساكنة في قلبي وفي
عقلي، أنتظر في كل لحظة، متمنية أن تطرق الباب في أي وقت، هنا في
الفيلا التي شهدت حديقته توهجات الحب الذي جمع بيننا، والشوق الذي
كان ينطلق من مآقينا، والأحلام التي غزت عالمنا، وكأنك لم تكن متزوجا من
أخري. تري ماذا فعلت معها خلال الأيام الماضية؟ وهل وصلت معها إلي حل
يجنب أولادك السقوط في الهاوية؟ أم أنها عنيدة وشديدة المراس مثل كثير
من النساء؟ عموما أنا واثقة من عقلك ومن حكمتك، و لا أعتقد أنك في
حاجة إلي من يعطيك دروسا في هذا الشأن.

كان مجلس القسم ينعقد في يوم الأربعاء الأول من الشهر الأفرنجي، وكانت تحدد له الساعة الحادية عشرة صباحاً حتى يتمكن العدد الأكبر من الأساتذة من دخول محاضراتهم. انتهت من محاضراتي مع طلاب السنة الثالثة ثم نزلت إلي قاعة رئيس القسم التي يعقد فيها الاجتماع. كان رئيس القسم من أصدقائي الأعزاء لأنه كان أحد زملائي في كلية دار العلوم بالقاهرة، وقد عاني في حياته كثيراً. ومن هذه المعاناة الفقر بسبب نشأته الريفية، ثم أصيب بمرض السكري وهو في سن الخامسة والثلاثين لأسباب كثيرة من بينها المعاناة في الحصول علي الماجستير ثم الدكتوراه، ولأنه لم يحافظ علي نفسه في فترة المراهقة وصار شبه مُدمن للعادة الذميمة التي يمكن أن تقضي علي الفحولة الذكورية، لكنه علي الرغم من وضعه الصحي المتردي لم يفقد أبداً روحه المرحّة. فكانت له دائماً تعليقاته وقفاشاته. ولذلك فوجئت به يسألني ونحن جالسان وحدنا: من أين تأتيك القوة للتعامل مع امرأتين الثانية منهما – وهي متخرجة من هنا – جمالها فائق الوصف؟ قلت له: الزواج من امرأتين متعة لا تعدلها أي متعة أخرى إذا استطعت أن تجعل كلا منهما تحبك وتتمسك بك. ثم إنك تعرف أن العرب كانوا ومازالوا يمارسون حقهم المشروع وهو الزواج بأكثر من امرأة. والغربيون يرون في ذلك اعتداء علي حق المرأة، ولكنهم – في الواقع – يعطون لأنفسهم الحق في العلاقات غير المشروعة، وهذه هي آفة المجتمعات الغربية الآن.

ثم إنني قلت له: يا دكتور سعيد، أنت رجل مهتم بالتراث، ومن المؤكد أنك قرأت القصة التي رواها إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن الخليفة العباسي

أبي العباس الملقب بالسفاح. قال: نعم قرأتها. تذكرناها معا، وضحكنا كثيرا لموقف أبي العباس المتناقض، فعلي الرغم من أنه كان يستحل قتل الآلاف فإنه لم يجرؤ علي مواجهة كيد النساء. وقد روي إسحاق القصة عن شبيب بن شبة الذي قال: دخل خالد بن صفوان التميمي علي أبي العباس وليس عنده أحد، فقال: يا أمير المؤمنين، إني والله مازلت منذ قلدك الله خلافته أطلب أن أصير إلي مثل هذا الموقف في هذه الخلوة، فإن رأي أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفرغ فعل. قال: فأمر الحاجب بذلك، فقال: يا أمير المؤمنين! إني فكرت في أمرك وأجلت الفكر فيك، فلم أر أحداً له مثل قدرك اتساعا في الاستمتاع بالنساء منك، ولا بأضييق فيهن عيشا، إنك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين، واقتصرت عليها، فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت، وإن عركت عركت، وحرمت يا أمير المؤمنين نفسك من التلذذ بأطراف الجواري، ومعرفة اختلاف أحوالهن، والتلذذ بما يشتهي منهن. إن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة التي تشتهي لجسمها، والبيضاء التي تحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك وما يشتهي من نظافتهن. وتخلل خالد بلسانه فأطنب في صفات ضروب الجواري وشوقه إليهن. فلما فرغ قال الخليفة: ويحك، والله ما سلك مسامعي كلام أحسن من هذا، فأعد عليّ كلامك فقد وقع مني موقعا. فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه، ثم انصرف وبقي أبو العباس متفكرا، فدخلت عليه أم سلمة، وكان قد حلف ألا يتخذ عليها ووفي. فلما رآته مفكرا قالت: إني لأذكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث شيء تكرهه وأتاك خبر ارتعت له؟ قال: لا، فلم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد. قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ فقال لها:

ينصحنى وتشتميه. فخرجت إلي مواليتها فأمرتهم بضرب خالد، الذي كان قد قال لنفسه: خرجت من الدار مسروراً بما ألقيت إلي أمير المؤمنين، ولم أشك في الصلة. فبينما أنا واقف أقبلوا يسألون عني فحققت الجائزة، فقلت لهم: ها أنذا، فاستبق إلي أحدهم بخشبة فغمزت برذوني ولحقتي فضرب كفه، وركضت ففتهم واستخفيت في منزلي أياما، ووقع في قلبي أنني أتيت من قبل أم سلمة، فما أشعر إلا بقوم قد هجموا علي وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فسبق إلي قلبي أنه الموت، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لم أر دم شيخ أضيع من دمي. فركبت إلي دار أمير المؤمنين، فلقيته خاليا، فنظرت في المجلس بينا عليه ستور رقاق، وسمعت حساً خلف الستر، فقال: ويحك، وصفت لأمر المؤمنين صفة فأعدها، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن النساء أكثر من واحدة إلا ضرر وتنقص، فقال له أبو العباس: لم يكن هذا للعرب إنما اشتقت اسم الضرتين من الضرر، وإن أحد لم يكن عنده من في الحديث. قال: بلي يا أمير المؤمنين، وأخبرت أن الثلاث من النساء كأنهن في القدر يغلي عليهن، قال: برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعت هذا منك أو مرّ في حديثك. قال: وأخبرت أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبه يشيبنه ويهرمنه. قال: لا والله ما سمعت هذا منك. قلت: بلي والله. قال: أفتكذبني؟ قلت: أفتقتلني؟ نعم، والله يا أمير المؤمنين إن أكار الإماء رجال إلا أنه ليست لهن خصي. قال خالد: فسمعت ضحكا من خلف الستر، ثم قلت: نعم والله وأخبرت أن عندك ريحانة قريش، وأنت تطمح بعينك إلي النساء والجواري، قال: فقيل من وراء الستر: صدقت والله يا عماه بهذا حديثه، ولكنه غير حديثك، ونطق من لسانك. فقال أبو

العباس: مالك قاتلك الله. قال: وانسللت، فبعثت إلي أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتخت ثياب.

تجمع أعضاء مجلس القسم، وبدأت الجلسة متأخرة عن موعدها بنصف ساعة، وهذه قاعدة متأصلة لدينا نحن المصريين، فلا يمكن لشيء أن يبدأ في الموعد المحدد، وكل واحد له طبيعته وله تصرفاته، ولهذا لا يلتزم بالموعد إلا عدد قليل جداً. لم تكن الموضوعات المطروحة كثيرة، لكن موضوعاً واحداً استأثر باهتمام الجميع وهو توزيع الجداول للعام الدراسي القادم. تركتهم يتعاركون حول من يحصل على العدد الأكبر من الطلاب، و الهدف بالطبع معروف وهو توزيع المذكرات، حيث يكسب منها بعض الأساتذة مبالغ مالية كبيرة جداً ربما تغني عن الإعارة للخارج. وبما أن الدولة في واد والجامعات في واد آخر فإن الشاطر هو من يفوز بأكبر منفعة مالية. أخذت أتأمل في الأساتذة وقد تأكد لدي أنهم حبات من عقد منفطر، وأنهم مثال صارخ لفقدان الهوية الذي تعاني منه شعوبنا العربية، وأنهم نماذج لحالة الفوضى والدمار الذي ألمّ بشعوبنا، والأنانية والاستئثار اللذين استوليا على العقول والنفوس؛ فالحكام والمسئولون ينهبون بلا رحمة، ورجال الأعمال، معظمهم بالطبع، لا يهتمهم إلا الربح، والموظفون في كل مكان إن استطاعوا النهب نهبوا وإن لم يستطيعوا مدوا أياديهم، بل إن بعض الحكام العرب يحتكرون كل أموال البلاد ويوزعونها للدول والأفراد وفقاً لرغباتهم وانفعالاتهم. ولا شك أن ما يحدث الآن سوف تكون عواقبه وخيمة على الأمة العربية كلها.

قلت لنفسى: لا ينبغي أن أوسع الدائرة كي أظل في إطار ما هو متاح أمامي لأنه أبلغ من كل شيء في التعبير عن الهوية المنهارة. فالدكتور سعيد الزفتاوي علي الرغم من حبي الشديد له إلا أنني أراه منقوعاً في كتب التراث

التي ليس لها قيمة، ولذلك يختار عناوين كتبه بالسجع وكأننا مازلنا نعيش هذه المرحلة، ويقرر هذه الكتب علي الطلاب. وتخيل طالبا أو طالبة يظلان طوال عام كامل يقتاتان علي أفكار بانسة لا تقدم ولا تؤخر، ومع ذلك فإنه يتباهي بمعرفته بالتراث العربي نحوه وصرفه وبلاغته وعروضه، لكنه بعيد تماما عن كتب التراث ذات القيمة التي مازالت إلي الآن تحظى باهتمام المتخصصين في العالم كله. أما الدكتور فكري عبد الموجود فهو علي العكس منه، إذ لا يهتم إلا بالأفكار المحدثه، ولذلك ينسبه بعضهم إلي ما يسمى بتيار الحداثة، وتقرأ أعماله فلا تفهم منها شيئا علي الإطلاق، وكأنه يكتب لجنس آخر يختلف عن جنس البشر. والدكتور محمد عبد المنصف ترك تخصصه كلية لينخرط في الإعلام الديني وهو فرصة للشهرة والانتشار. والدكتور علي عبد الكبير ترك الجمل بما حمل وتخصص في الاهتمام بنفسه، وله كلمة يكررها دائما وهي: "الأولاد في البيت يحتاجون إلي رعاية"، ولذلك إذا احتاجه البيت تغيب عن الحضور وترك طلابه نهبا للفراغ والضياع. والدكتور محمود عبد الصمد غادر العلم طوعا بعد أن حصل علي الدكتوراه، وهو نفسه يقول إنه لن يقدم أية أبحاث للترقية. وإذا استعرضنا باقي الأساتذة نجد أن كل واحد منهم عالم قائم بذاته، فلا قوانين أو أعراف تضبط سلوكهم، ولا التزام بما هو مطلوب منهم، ولهذا تحولت الأقسام الجامعية إلي ما يشبه العشوائيات. فالحالة العشوائية صارت لها السيادة في كل مكان، وصارت المادة هي المسيطرة والمهيمنة، والمؤثرة أشد التأثير علي سلوك الأفراد.

بعد أن انتهينا من مجلس القسم توجهت إلي مكتب عميد الكلية، وهو بلدياتي، وأعرفه منذ كنت طفلا، وقد توثقت علاقتي به بعد حصولي علي الدكتوراه وعودتي من فرنسا، وهو أستاذ تاريخ له أبحاث كثيرة في هذا

العلم، ويقال إنه قبل أن ينتقل إلي الجامعة كان يعمل في مكتب المشير عبد الحكيم عامر. مررت علي الطلاب الذين بدعوا منذ الصباح يرفعون أصواتهم فيما يشبه المظاهرة، لكن أعدادهم قليلة وهم من طلاب الجماعات الإسلامية الذين يطالبون بمطالب غريبة علي الحرم الجامعي مثل فرض الحجاب والنقاب سواء علي الطالبات أو علي عضوات هيئة التدريس، وقد علقوا علي سلم الكلية كتابات شديدة السذاجة، مثل " اطلع السلم برجلك اليمني"، و " لا تنظر إلي الطالبات" و " صل علي الحبيب" و " حافظ علي الصلاة". ومع أن بعض هذه الشعارات معقولة ومنطقية إلا أن هذا المكان ليس مكانها. بل إنهم أمام دورة المياه وضعوا يافطة تقول: " ادخل برجلك اليمني"، مع أن دورة المياه في غاية السوء و القذارة. ذكرتني هذه الأقوال بموقف لا أنساه أبداً في منطقة عرفات عندما قمت بأول رحلة للحج إلي بيت الله الحرام ضمن بعثة تابعة للجامعة، وكانت المراحلض أيامها بدائية جداً، مجرد برميل يوضع في حفرة ويحاط بستارة من القماش وهو مخصص للجنسين، ولذلك تحدث أشياء خادشة للحياء، ومقززة أحياناً. وقد علمت أن السادة علماء الدين منعوا إقامة دورات مياه في عرفات بذريعة أن هذه الدورات لم تكن موجودة في عهد النبي وأصحابه. لم يضعوا في الحسبان الفروق الضخمة بين أعداد الحجاج في زمن النبي وبين أعدادهم الآن التي تزيد علي المليونين. المهم أن أحد المسئولين عن البعثة قبيل غروب شمس يوم عرفات لم يجد إلا المكان المحيط ببرميل الصرف ليجمع فيه أعضاء البعثة ويبدأ الدعاء الذي استغرق ما يزيد علي نصف الساعة، بينما الروائح الكريهة تنطلق من البرميل لتصب علي رءوس الداعين. قلت لنفسى: هل هذه الشعوب المسلوقة الوعي يمكن لها أن تخرج من مشاكلها الطاحنة وأزماتها المستعصية علي الحل؟!.. علمت

بعد ذلك أن المسؤولين في المملكة أقاموا دورات مياه حديثة في عرفات بعد أن تخلصوا من وطأة أقوال المعارضين لذلك.

دخلت علي عميد الكلية فوجدته مشغولا بأعماله الروتينية التي لا تنتهي. جلست أمامه أشرب القهوة التي طلبها لي، ولما وجدته خاليا كلمته عن الطلاب الواقفين علي سلم الكلية وأن أصواتهم احتبست بعد يوم طويل من الهتاف، فقال لي: دعك منهم، فهؤلاء طلاب ينفذون بعض التعليمات التي يتلقونها في مجالس الجماعات الإسلامية التي أصبحت مثل الهم علي القلب. وهم يُلغون عقولهم تماما، ويفرغون أذهانهم من أي تفكير حتى يصير مثل لوحة بيضاء كلها فارغة. أضاف السيد العميد: هذه هي مشكلة مصر كلها. إن العشوائية المطلقة تتحكم في كل شيء، وأنا لا أدري إلي أي مدي سوف تصل أمورنا؟! أما عن هؤلاء الطلاب السذج فدعهم يخبطون رءوسهم في الحيط، ولا تشغل نفسك بهم.

وجاءت لحظة الذهاب إلي سناء المهدي. و لا أدري لماذا يأتيني طيفها دائما مع البيت العربي القديم الذي يقول:

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرت أدني نورها بصر عال

أي وردت صورتها علي ذهني وأنا في منطقة أذرعات بالشام، وهي وأهلها بيثرب، والذي جاء بصورتها هو البصر العالي أو البصيرة. وبعض من تناولوا هذا البيت بالشرح والتعليق قالوا إنه سابق علي نظريات علم النفس الحديث فيما يتعلق بالذاكرة أو التذكر. ودائما تأتيني صورة سناء المهدي في لوحة تليق بجمالها الساحر: ابتسامتها الرقيقة، وأسنانها المرسومة بدقة وكأنها لوحة منسقة لفنان ماهر دقيق، حيث النصف الأعلى ينطلق من شفا سحرية وينطبق علي شفا أخرى رقيقة ومشهية. وعلي الرغم

من أني قبلت هاتين الشفتين آلاف المرات فإني لم أتخلص أبداً من سحرهما الطاعي. أما الأنف فدقيقة مرهفة، والعينان برموشهما وحاجبيهما الدقيقين يزيدان الوجه جمالا وتألقا وحسنا. والشعر لا مثيل له في النقطة الفارقة بين الجانبين، والتموجات الصفراء التي تتجاوز منطقة الكتف من الخلف وتنسدل علي الصدر من الأمام، وهو منظر يجعلني أتوه في شلال من التدفق المحسوب بدقة. أما عن منطقة الصدر والزراعين فلا مثيل لهما في الصقل ورشاقة النهدين، وإذا أضيف إلي ذلك دقة الخصر، ورهافة البطن، وجمال الساقين فتأمل مع أية امرأة تعيش حياتك، وتمارس نشاطك!! ثم إنني أحب دائما أن أقضي بعضا من الوقت أتأمل ريلة الساق والمسهة، وأقول لنفسني: سبحان من خلق هذا الجمال!! وفي كثير من الأحيان أخاطب الإنسان الكامن في داخلي قائلا: هل تصورت في يوم من الأيام أنك سوف تقترب من امرأة كهذه، بجمالها الفائق، ونفسها الراضية بالتنوع، وخلقتها الحسن، وابتسامتها التي تزيح الهم وتمنع الكدر!!!

وصلت إلي البيت فوجدتها تنتظرني علي أحر من الجمر بعد أن جاءت من المدرسة. وما إن دخلت من الباب حتى انخرطنا في قبلة طويلة تحمل من سمو الروح مثلما تحمل من أشواق البدن. تأملت جمالها وفتنتها، وانطلق صوتها يخاطبني: ما هذا التائق؟! فرددت عليها: هل أكون في عشرة امرأة بهذا السحر ولا أتألق؟! تناولنا طعام الغداء الذي تفننت فيه علي النحو الذي تفعله والدتها، ويبدو أنها علي الرغم من الرفاهية التي عاشت فيها لم تهمل هذا الجانب المنزلي، بل علي العكس من ذلك أتقنت فن الطبخ وبرعت فيه. استرخنا بعد الانتهاء من الطعام، وبعد يوم حافل من العمل، ثم أطلقنا الزمام للمعاشرة الزوجية التي صارت تمثل أهم شيء في حياتنا.

في المساء انطلقنا في جولة في مدينة شبين الكوم. لا أدري لماذا أحببت هذه المدينة؟ هل لأن فيها سناء المهدي؟ أم لأن المدينة، علي الرغم من الإهمال المعتاد، فيها سحر بسبب الأشجار المنتشرة في كل مكان والمزارع الخضراء اليناعة التي تحيط بها، والترع والقنوات المملوءة بالمياه؟ أم لأنني تزوجت امرأة جميلة من بناتها ذات أصل وحسب ونسب؟ أم للصدفة الغريبة التي جاءت بي إلي شبين وأوقعت في حبي امرأة جميلة الجسد، عالية الروح، ذات نفس راضية مطمئنة وقلب مفعم بالحب، وهي إلي جانب كل هذا ودودة متسامحة. وعندما تزوجنا رضيت بأن تقيم في شقة عادية، ولم تطلب مثل النساء أن تقيم في فيلا مثل التي تقيم فيها؟.

ونحن نسير في شوارع شبين الكوم، وننعم بالنسيم المنعش والجو الصافي الرائق تذكرت أبياتا لعمر بن أبي ربيعة، وكنت دائما أحس بأنني قريب منه، وأعتقد أنه هو الصورة المثلي لشخصية دون جوان. وإذا كان الغربيون لديهم دون جوان معشوق فإن العرب سبقوهم في ذلك. كان عمر بن أبي ربيعة محبوبا من النساء كما تدل علي ذلك أشعاره. قلت لسناء: هل قرأت هذه الأبيات لعمر بن أبي ربيعة؟ قالت: ما هي؟ قلت: الأبيات التالية:

قالت ثريا لأتراب لها قطف	قمن نحي أبا الخطاب من كذب
فطرن حدًا لما قالت وشايعها	مثل التماثيل قد مؤهن بالذهب
يرفلن في مطرفات السوس آونة	وفي العتيق من الديباج والقصب
تري عليهن حلّي الدر متسقا	مع الزبر جد والياقوت كالشهب
قالت لهن فتاة كنت أحسبها	غريرة برجيع القول واللعب
هذا مقام شنوع لا خفاء به	ألا تخفن من الأعداء والرُقب

قالت سناء: قرأت كثيرا عن أن عمر بن أبي ربيعة كان محبوبا من النساء، لكن عباس محمود العقاد في كتابه عنه ذكر أن هذه الصفة رذيلة، وأن الشاعر كان ينبغي أن ينأي بنفسه عن صفة تجعله محبوبا من الجنس الآخر. ثم أضافت سناء: لا أعتقد أن شعر ابن أبي ربيعة يقتصر علي هذا الجانب لأنه متعدد النواحي وإن كان معظمه من شعر الحب. لكنه أحيانا يفحش في القول كما نري في الأبيات التالية:

وناهدة الثديين قلت لها اتكي	علي الرمل من جبّانة لم تَوَسَّدْ
فقالت علي اسم الله أمرك طاعة	وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
فما زلت في ليل طويل ملثما	لذيذ رُضاب المسك كالمتشهد
فلما دنا الإصباح قالت فضحتني	فقم غير مطرود وإن شئت فازدد

قلت لها: علي أية حال كان للعرب صولات وجولات في العلاقة بين الرجل والمرأة. فمن حق الرجل أن يحب، ومن حق المرأة أن تحب أيضا. وهناك حادثة مشهورة عن حب المرأة. فقد هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه، فأرسل إليه الخليفة عمر بن الخطاب، فإذا هو أحسن الناس شعرا وأصبحهم وجهها. فأمره أن يجمّ شعره، أي يقصره، فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسنا، ثم أمره أن يعتم فزادته العمامة زينة وغواية، فقال عمر: لا يسكن معي رجل تهتف به العواتق، أي الشابات الصغيرات، في خدورها، وزوّده بمال وأرسله إلي البصرة ليعمل في تجارة تشغله عن النساء، وتشغل النساء عنه.

عندما كنت أدرس في فرنسا شغلني كثيرا متابعة ما يجري علي الساحة السياسية: الحكومة والأحزاب والبرلمان والانتخابات ورئيس الدولة. وكنت أقول لنفسي: متي تصبح بلادنا من البلاد الديمقراطية بدلا من الحكم الاستبدادي المنتشر في كل مكان من البلاد العربية، والإعلام الرخيص المزيف، وتاليه الحاكم، والإشادة بكل ما يقوله حتى ولو كان هراء أو مجموعة من الأكاذيب التي لا يمسه منطق، ولا تتحكم فيها قيم أو أخلاق. وعندما كنت أشتري جريدة في اليوم التالي لإلقاء الرئيس إحدى خطبه العصماء أجد الجريدة كلها عن الرئيس: كلامه، وإشاراته، وقفشاتة إن وجدت، وتلميحاته، وكأننا في العصور الوسطي، حيث لا كلام يعلو علي كلام القائد الأعلي، ولا قدر يساوي قدره ومنزلته، حيث الساحة كلها في يد المنافقين وأصحاب المصالح و المزيفين الذين ينتظرون الكثير من هبات الحاكم، ونفحاته، وإنعاماته، وكأن المجتمع كله تحول إلي أرضية سباق للمصالح الخاصة و المنافع الرخيصة.

قالت كاتبة مشهور في إحدى رواياتها: "أقلب جريدة الصباح بحثا عن أجوبة مقتعة لحدث "عادي" غير مسار حياتي وجاء بي إلي هنا. أتصفح تعاستنا بعد كل هذه الأعوام فيعلق الوطن حبرا أسود بيدي. هناك صحف يجب أن تغسل يديك إن تصفحتها وإن كان ليس للسبب نفسه كل مرة. فهناك واحدة تترك حبرها عليك، وأخرى أكثر تألقا تنقل عفونتها إليك. الآن الجرائد تشبه دائما أصحابها؟ تبدو لي جرائدنا وكأنها تستيقظ كل يوم مثلنا، بلامح متعبة، وبوجه غير صباحي غسلته علي عجل، ونزلت به إلي الشارع. هكذا دون أن

تكلف نفسها مشقة تصفيف شعرها، أو وضع ربطة عنق مناسبة، أو إغرائنا بابتسامة. عناوين كبرى .. كثير من الحبر الأسود. كثير من الدم، وقليل من الحياء. هناك جراند تبيعك نفس صور الصفحة الأولى، ببدلة جديدة كل مرة. وهناك جراند تبيعك نفس الأكاذيب بطريقة أقل ذكاء كل مرة، وهناك أخرى تبيعك تذكرة للهروب من الوطن لا غير. وما دام ذلك لم يعد ممكنا فلأغلق الجريدة إذن، ولأذهب لغسل يدي". وتقول الكاتبة في صفحة أخرى: "ثري هذه الجراند التي تحمل لنا أكياسا من الوعود بغد أفضل ليست سوى رباط عينين يخفي عنا صدمة الواقع وفجيرة الفقر والبؤس الحتمي الذي أصبح لأول مرة يتربص بنصف هذا الشعب؟".

هذا هو وضع الصحافة في العالم العربي، وهي نتيجة طبيعية ومنطقية جدا للحكم الاستبدادي. كنت أعمل في إحدى السفارات الخليجية قائما بأعمال المستشار الإعلامي ومترجما. وكان السفير يأخذني معه في لقاءاته مع أعضاء الحكومة و رؤساء الأحزاب. وقد استفدت كثيرا من هذه اللقاءات. وبعد حصولي علي الدكتوراه نصحتني بعض الأصدقاء بأن أبقى في فرنسا ولا أرجع إلي مصر، ولكني قلت لهم: لقد حصلت علي الدكتوراه كي أخدم بلدي وأقف إلي جانب الفقراء والمطحونين والمهمشين. كانت لدي طموحات كثيرة وآمال عريضة، وكنت أتصور أن الثقافة يمكن أن تنقل أي بلد من حالها السيئ إلي حال أفضل. وهذا ما تعلمناه من قراءتنا لكتب طه حسين، والعقاد، و لويس عوض، ومصطفى صادق الرافعي، وزكي نجيب محمود، ونجيب محفوظ وسواهم. لم أكن أتصور أن الأوضاع وصلت إلي حالة من السوء لا مثيل لها. وكانت أول صدمة لي بعد العودة في إدارة البعثات الموجودة بمجمع التحرير. ذهبت إلي هناك، ووقفت في الطابور الطويل كي أركب المصعد إلي

الدور السابع، وتوجهت إلي مكتب المسئولة عن معادلة الشهادات للحاصلين عليها من الخارج. كانت القاعة مليئة بالموظفين والموظفات وهي تتقدم الجميع. حبيتها، وقدمت إليها الأوراق التي تثبت حصولي علي الدكتوراه من فرنسا، لكنها كانت شديدة التجهم، فنظرت في الأوراق بسرعة وقالت لي: لابد أن تحصل أولاً علي المعادلة من المجلس الأعلى للجامعات. كنت أعرف أن كثيرين قدموا أوراقهم في إدارة البعثات، وهي التي تولت عمل إجراءات المعادلة.

خرجت من إدارة البعثات محزوناً لأن كل أوضاعي مضطربة: فالعفش والسيارة اللذين شحنتهما من مدريد إلي جمرک الاسكندرية اضطراني للذهاب بشكل يومي تقريبا إلي ميناء الاسكندرية، و كنت أعرف أن السيارات بالذات يمكن أن تتعرض للتلف أو السرقة، وهذه السرقة تتم بشكل آلي، ولا أحد يحاسب أحداً. صحيح أنهم يتركون هيكل السيارة الخارجي لأنها لابد أن تسلم لصاحبها، لكنهم يسرقون منها أشياء كثيرة : العفش الداخلي وأجزاء من الموتور بل أحيانا يسرقون الموتور كله، ويضطر صاحب السيارة عندما يتسلمها أن يحضر ميكانيكياً يأتي له بموتور جديد ويركبه كل شئ كان حتي تخرج السيارة من الجمرک، وبعد ذلك يجري لها عمرة كاملة تتكلف مبالغ طائلة. أي أن السرقة في بلادنا صارت هي الأساس وكل ما عداها كذب وتلفيق، بل إنك في الجمرک تقابل أناساً جُبلوا علي السلب والنهب: الموظف، والمخلص، والحارس الذي من المفروض أن يحمي الأشياء من التلف والسرقة، لكن حاميتها حراميتها كما هو الشأن في كل شيء عندنا تقريبا. كنت دائماً أقول لنفسي: لماذا أقمت علي شحن العفش والسيارة؟ وكنت أهدئ من الثورة داخلي بالقول: لو أحياني الله لا يمكن أن أقع في هذا الخطأ مرة أخرى.

وهأنذا موزع بين نارين: نار الجمر في الاسكندرية ونار الإدارة العامة
للبعثات ممثلة في هذه المرأة التي لم تأخذ منصبها إلا ليذوق الناس منها
كنوس العذاب. وكنت أقول لنفسي: تركت الراحة التي تمتعت بها في فرنسا
ونزلت برجلي إلي مصر لأذوق صنوف العذاب .

تذكرت في لحظة الهم التي عشتها بشكل متواصل في هذه الأيام أبياتا
لشاعر البؤس عبد الحميد الديب تقول:
ما أصاب الخير في مصر سوى ساقط في كل درك سمج
والذي خلد من آثارها حجر يُفدي بحر المهج
وقال الديب أيضا:

يا قوم مالي من ذنب أدان به ما بال نوري إن أظهرت تخفوه
لكنها محنة أنتم طواعية فيها لدهرى ما يأمر
تجيبوه
والناس في مصر أعوان الظلوم بها لو قال كونوا ترابا لي
لكأنوه

وتذكرت كذلك أبياتا لبيرم التونسي تقول:

حاتجن ، يا ريت يا خوانا مارحتش لندن و لا باريز
دى بلاد تمدين ونضافه وذوق ولطافه وحاجة تغيط

ما لاقيتش جدع متعافي، وحافى، وماشي يقشر خص
و لا شحط مشمرخ افندى معاه عود خلفه ونازل مص
ولا لب اسمر وسودانى وحمص وانزل يا تقزقيز
حاتجن، ياريت يا خوانا ما رحتش لندن و لا باريز

ولعلي كنت مثل بيرم التونسي، عشت في مجتمع متمدن، ولم أتصور أبداً أن الأوضاع في مصر بهذا السوء. فنحن في حالة كفاح مستمر، علينا أن نحضر ورقة من آخر الدنيا، ونأخذ عليها توقيعات من أماكن أخرى وختم النسر من مكان آخر.. حلقة جهنمية لا تنتهي بسهولة. بل تزيد المرأ إحباطاً علي إحباط. طلبوا مني في الجمرک أن أحضر لهم ورقة من الإدارة العامة للبعثات، فذهبت إلي القاهرة، وطلبتها من السيدة إياها، ولكنها ردت عليّ بأنه لا يمكن الحصول علي هذه الورقة إلا بعد عمل المعادلة. قلت لها: وهل أترك أشيائي في الجمرک لحين الانتهاء من المعادلة؟ قالت: هذا هو القانون! قلت لها: يا سيدتي، القانون في بلادنا يطبق حسب المزاج!. زادت تعنتاً وردت بصلف وعنجهية.

فكرت كثيراً ثم قلت لنفسي: لابد أن أحضر معي زميلاً يكبرني في السن ولديه قدرة علي التعامل مع أمثال هذه السيدة. ذهبت إليه في بيته في مصر الجديدة وركبنا تاكسيا إلي ميدان التحرير. تقدمني الزميل إلي السيدة المذكورة وتكلم معها بود شديد علي طريقته في التعامل مع الموظفين، لكنها لم تبد أي نوع من التنازل فقلت في نفسي: هذه المرأة العنيدة لابد أن أسلقها بالسنة حداد. وهذا ما حدث، ثم غادرنا المكان، وأنا أتمني ألا أدخله مرة أخرى. وبالفعل وطننت نفسي علي أن أحل المشكلة في المجلس الأعلى للجامعات، لاسيما وأنتك في مصر إذا أغلقت أمامك كثير من الأبواب فيمكن أن تجد مخرجاً عند موظف طيب أو مسئول مريح. وهكذا قيض الله لي، بدون مساعدة من أحد، أناسا يخدمون، ويسهلون الأمور، ويزيحون العقبات. وكان قد حدث لي عندما حصلت علي منحة للذهاب إلي فرنسا أمر شبيه بهذا، إذ تعنت نائب رئيس الجامعة وأصر علي عدم الموافقة بحجة أن المنحة لا

تناسبني، ولكن الله قيض لي صديقاً من أصدقائه الأعزاء، عندما ذهب النائب في أجازة، قام بمساعدتي وسهّل لي سبيل الخروج. وهكذا تجد نفسك دائماً في ورطة، ويقيِّضُ الله لك من يخرجك منها.

خلال تلك الفترة التي عانيت فيها من الذهاب إلي منطقة الجمرک في الاسكندرية والذهاب إلي الإدارة العامة للبعثات كنت أعود إلي البيت متهاكاً نفسياً وجسدياً، لاسيما الحالة النفسية التي كانت تزداد سوءاً، لكن صفاء زوجتي كانت تخفف عني كثيراً. أجد الأكل جاهزاً فأتناول الطعام اللذيذ الذي صنعتُه بيديها، ثم أرتاح لبعض الوقت، وفي الليل نخرج لنرفه عن النفس، ثم نعود إلي البيت، و أجدها تتجمل وتزداد إثارة فنقضني وقتاً رائعاً في لقاء جسدي حميم أنسي أثناءه ما عانيتُه طوال اليوم، وكانت صفاء تتعمد أن تريني من صنوف الحب ما لم أره من قبل وكأنها بذلك تريح عن جسدي ما علق به من أدران ومناكفات، لدرجة أنني كنت أقول لها: لولاك يا صفاء ما تحملت هذه الحياة، فترد: وهل تزوجتك إلا من أجل أن أريحك. كانت صفاء في هذه اللحظات تزداد جمالاً وتألّقاً وفتنة، لاسيما وأن جسمها مازال في فورة الشباب، ممتلئاً لكن بدون ترهل، وساقها جميلتان، ووجهها واضح الفتنة، قمحي اللون، وإن كان متورد الوجنتان، أما صدرها فمتوثب يدعو إلي القطف. ولا أدري لماذا كنت أخزن همومي في هذا الصدر وأجد فيه متسعاً لتخزينها؟

فكرت ذات مرة في هؤلاء الذين يعطلون مصالح الناس، وازدادت همّاً وغماً لأنني عائد من الخارج بأعلي شهادة جامعية ومع ذلك ألاقى كل صنوف العذاب. فما بالك بالناس العاديين، أقصد عامة الناس، وكيف تكون حياتهم؟! ولكي أخفف عن نفسي قلت إن هؤلاء المعطلين لابد أن يبعثوا

ويلاقوا العذاب أشكالا وألوانا جزاء وفاقا لما فعلوا في حياتهم، أو لابد أن أرواحهم سوف تتناسخ ليعودوا بأشكال أخرى كالحمير أو البغال وعندئذ سيكونون مقيدين ولن يتمكنوا من إيذاء أي إنسان. وقد أعجبتني جدا هذه الفكرة لأن الانتقام من هؤلاء المعطلين قادم لا محالة، حسبما درسنا في النحل والمذاهب والعقائد.

كنت أقتنص بعض الوقت للذهاب إلي الكلية. السكن بعيد في منطقة الشيراتون والكلية داخل جامعة القاهرة، و لابد إذن من الذهاب في المواصلات لأن السيارة مازالت مركونة في جمرک الاسكندرية. المواصلات صعبة والطريق طويل، والشوارع مزدحمة، وكل يوم تزداد ازدحاما علي الرغم من أن الرئيس أنور السادات شيد كوبري السادس من أكتوبر لتسهيل حركة المرور، وسار علي خطاه النظام الذي جاء بعده، لكن ماذا تفعل الكباري في بلد تجمع معظمه في مدينة واحدة أو مدينتين، يسمونهما " القاهرة الكبرى"، فأني كبري وأي صغري؟! العالم كله يتوسع في الصحاري، ونحن توسعنا علي الأرض الزراعية حتى التهمنا جزءا كبيرا منها، والعالم كله تحدث فيه تنمية اقتصادية وعمرانية، أما نحن فنبيع القطاع العام، ونغلق المصانع، وليس أماننا إلا المضاربات من أجل الربح السريع، والعالم كله يحارب البطالة وينشئ مصانع جديدة ومؤسسات لتشغيل الشباب والقضاء علي البطالة ونحن نستثمر في الساحل الشمالي حيث القرى السياحية والفيلات والقصور. وهكذا أصبحت الحياة خالصة للطبقة الثرية، أما الفقراء فليس لهم إلا الله في هذا الجو المحبط.

في الكلية - كما هو معتاد - كنت أرى الأساتذة يتنافسون في الحصول على أكبر عدد من الطلاب لتوزيع المذكرات التي تدر الآلاف، أما العلم فقد صار غريبا لا يهتم به أحد، وانعكس ذلك على الطلاب أنفسهم. كنت أعود من الكلية مهموما فتسألني صفاء: لماذا أنت حزين هكذا؟ أقول لها: يا صفاء، حزين لأنني عدت من فرنسا. هناك - كما تعرفين - كنت أواظب في الذهاب إلى المكتبات العامة، وكنت أتردد على المكتبات الخاصة، وأذهب إلى أسواق الكتب وما أكثرها. الآن لا أجد وقتا لشيء: فوقتي مقسم بين منطقة الجمرك في الاسكندرية، والتردد على المجلس الأعلى للجامعات في القاهرة، والذهاب إلى الكلية، والمواصلات تهد الحيل. ترى لو أنني فكرت قليلا أكان يمكن أن أعود إلى القاهرة؟.

كانت صحف المعارضة قد انطلقت بقوة، وامتألت بها أكشاك الصحف، فكنت أتخير بعضا منها وأقرأها بنهم، لأنها كانت تنقد الحكم القائم وتكشف عن صور الفساد التي استشرت بصورة خطيرة في المجتمع، وكان نظام حسني مبارك يمضي على قاعدة: "دعهم ينتقدون ولنفعل نحن ما نريد"، لكن النظام كان لا يسلط الأضواء على هؤلاء الناقدين. إنه يعرف أن المساحة التي يتحركون فيها ضئيلة، ولذلك كان يمنعهم فقط من الظهور على شاشات التلفزيون. وبما أن هذه القنوات كانت شبه مقفولة بالنسبة لهم فإن أي دعوة منها كانوا يلبونها على الرحب والسعة. إنها إذن حياة سياسية شبه مغلقة، لكنها تعطي للعالم رسالة بأن مصر فيها حرية تعبير، وفيها ديمقراطية، والعالم بالطبع لن يشغل نفسه بتحقيق هذا على أرض الواقع.

بدأت أكتب في صحف المعارضة، وأنقد الأوضاع القائمة، وكان داخلي يemor بأحلام وآمال عريضة أتمنى أن تتحقق، وأن تقوم في بلادنا ذات يوم حياة ديمقراطية سليمة يتم فيها الفصل بين السلطات علي النحو الذي يحدث في فرنسا وفي الدول الديمقراطية الأخرى: أي الفصل بين السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية. وكان الواقع يقول إن السلطة التنفيذية تجور علي السلطتين الأخريين. في تلك الفترة قرأت كتاب " روح القوانين" لمونتسكيو وتأثرت به كثيرا، وقرأت كتب الماوردي وغيره من الكتاب العرب القدامى، واطلعت بصفة خاصة علي أدب أمريكا اللاتينية المترجم إلي اللغة الفرنسية أو اللغة العربية: قرأت "مائة عام من العزلة" و" خريف البطريق" و" الجنرال في متاهته" لجابرييل جارثيا ماركيز، وقرأت " سيدي الرئيس" لميجيل أنخل أستورياس، و"حق اللجوء" لأليخو كاربنتيير، و" أنا الأعلى" لأوجستو روا باستوس، و " المدينة والكلاب" و " محادثة في الكاتدرائية" لماريو بارجس يوسا، و " المعزول الكبير في القصر" لرينيه أفيليه فابيللا، وغيرها من الروايات التي تكتب عن الدكتاتورية في أمريكا اللاتينية.

و لست أدري لماذا لا يظهر لدينا أدب كهذا؟ فهل هو الخوف الذي يسيطر علي الجميع؟ أم لأن معظم الكتاب عندنا منافقون متملقون، يمالنون أي سلطة ولو كانت غاشمة ظالمة، ويسировون في ركابها، ويحرصون علي إرضائها بكل الطرق؟ صحيح أن لدينا بعض الأعمال التي تنقد الواقع، ولكنها شحيحة ولا تصنع تياراً قويا ومتشعبا، ومعظم الأعمال تكتفي بالتلميح أو الرمز، لكنها لا تواجه الواقع الأليم بصراحة وقوة. ولا شك أن مجتمعا المثقفون فيه ليست

عندهم القدرة علي الدعوة إلي تغيير الواقع سوف يظل متخلفاً، منهاراً، لا يزدهر فيه إلا تزييف الأشياء وطمس الحقائق.

قضيت يومي في الكلية وعدت إلي البيت لأنعم بصحبة صفاء. وكانت عندي عادة لا أدري هل هي ذميمة أم محببة، لكنها كانت تحدث دائماً وهي أن أحثك بها في المطبخ، وفي الصلاة، وفي حجرة النوم، وألمس أماكن حساسة من جسدها، وكانت هي تدعي أنها مشغولة وأن هذا ليس هو الوقت المناسب لذلك، ولكنني كنت ألمح السرور يطل من عينيها، وكان هذا يؤكد لي أن المرأة تحتاج دائماً إلي المداعبة والمناوشة، بل إن البشر جميعاً يحبون هذه المداعبات، وهذا ما تؤكدُه أسطورة الإله زيوس الملقب بـ "زير النساء". فلم يكن يدع في الدنيا بأسرها أنثى تشكو من همٍّ يتعلق بجنس النساء. فقد كان الإله يصبغ لحيته، ويطبع علي ساعديه صور قلوب ونساء من ذوات الجمال الفائق، وكان يمسح نفسه، ويتحول إلي صورة ثور أو بجعة أو تيس أو حمار أو أية صورة تجذب شهية أي أنثى. وقد عرف عن زيوس مكابذته للألم و الشوق، وفهمه لرغبة كل امرأة وما تهفو إليه، ولذلك صار ضحية لهن جميعاً. فعندما كان يري امرأة عانساً فاتها قطار الزواج، وهي تذبل ويذوى عودها من فرط القلق والخوف، أو أنثى لذيدة مشتتة، حتى ولو كانت غير ذلك، أو كانت مسخاً غاب عنها زوجها وأصابها الأرق، كان هذا الإله يرسم علامة الصليب علي صدره ويبدل ملابسه، ويتنكر في صورة الشخص الموجود في خيال هذه المرأة وينفذ إلي مخدعها ويضاجعها حتى ولو كان غير راغب في ذلك. ولأن زيوس كان يحس بالتعب الشديد لمضاجعته نساء كثيرات فاتته عند العودة إلي منزله يقول لنفسه: متى أتمدد علي سريري وأستغرق في النوم؟ لكنه عندما يسمع تنهيدة حزينة، لأن هناك علي الأرض

امرأة نهضت من فراشها، وخرجت إلى شرفة بيتها، وأخذت تتنهد في ألم وحسرة، يذوب قلبه شفقة عليها، ويغمغم: "آه، آه! فلأهبط مرة أخرى إلى الأرض! أجل لابد أن أهبط إلى الأرض، فهناك امرأة تتنهد، فلأهبط كي أواسيها وأخفف عنها – وبهذا استنفدت النساء كل قوته وفحولته، و انقص ظهره، وعاني من القيء، وعاني من الشلل. ثم قضي نحبه، و بذلك يكون زيوس هو الإله الذي قضي نحبه بإصراره علي مضاجعة النساء وتخفيف الآلام عنهن.

بعد زواجي من سناء المهدي غدت حياتي موزعة بين عدد من المشاغل، من أهمها صفاء زوجتي الأولى وأولادها والعناية بتربيتهم وتعليمهم، وسناء المهدي وحببي الجديد لها، واتفاقنا علي تأجيل الحمل لفترة نستمتع أثناءها بحياتنا، وكانت هي أحرص مني علي الالتزام بهذا الاتفاق. كان الغرض هو الارتشاف من كأس الحب حتى آخر نقطة فيه، وكان جمال سناء ورشاقة جسمها ورقتها يحض علي ذلك. أما الشاغل الثالث فهو الاهتمام بالعمل والطلاب سواء في جامعة القاهرة أو جامعة المنوفية. والرابع هو مداومة الاطلاع علي الأدب العربي قديمه وحديثه، والأدب الأجنبي قديمه وحديثه أيضا. كان كل ما يهمني هو قراءة أمهات الكتب، لأنه لا داعي لأن يشغل الإنسان نفسه بالأعمال العادية التي لا ترقى إلي مستوى الإبداع الإنساني الخالد. الشاغل الخامس هو العناية بالوالدة التي أصرت علي أن تظل في بيتها بالقرية مع أن أبناءها جميعا قد انتقلوا إلي المدينة.

كنت أتردد علي القرية كل أسبوعين تقريبا لأقضي ليلة مع والدة وأتناول معها طعام الغداء الذي تطبخه في الفرن البلدي، وفي العادة لا يخرج عن فرخة بلدي تسلق ثم توضع في الفرن، أو يستبدل بها لحوم طازجة مشتراة في نفس اليوم من الجزار، إضافة إلي صينية من البطاطس المعمولة بالصلصة، و أرز معمر، وتسخن الشورية لاحتسانها أثناء الأكل. كنت أستمتع كثيرا بهذه الأكلة التي أكلتها في ضواحي باريس معمولة بنفس الطريقة، وكانت هذه الأكلات تقدم في المطاعم الكبرى والفنادق باعتبارها أحسن الأكلات وأكثرها فتحاً للشهية، وذلك بعد أن اكتشف الأجانب أن الأواني

المصنوعة من الفخار أفضل ألف مرة من الأواني الحديدية المصنعة. كان وجودي بالقرية فرصة للالتقاء بالأصدقاء القدامى الذين يعمل بعضهم في مدارس التعليم العام الابتدائي والإعدادي والثانوي ودار المعلمين ومدرستي التجارة والصناعة. نجلس معا فنذكر الأيام الخوالي، وشقاوات الطفولة والصبي والشباب، وما كان يحدث في الكتاب، أو في المدرسة الابتدائية، أو الألقاب التي كان يطلقها الفلاحون بعضهم علي بعض: فهذا أبو الرقح، وذاك هو محمد التنة، وأنا حتى هذه اللحظة لا أجد معنى لكلمة التنة هذه (بتشديد النون) وإن كنت أعرف أنها تطلق علي الشخص الذي تنطوي شخصيته علي قدر من العبط والخيبة. علي أن أطرف لقب كان يلفت انتباهنا هو اللقب الذي كان يطلق علي شخص اسمه علوان، فقد أسموه علوان أبو طيز عتة. جلست معه ذات مرة فوجدتني أنظر إلي مؤخرته لأري هل هي عتة فعلا؟ وإذا كانت عتة فكيف يستطيع الجلوس عليها، ولأطول مدة ممكنة ولا يشكو من شيء؟. سألته مرة: لماذا أطلقوا عليك هذا اللقب؟ قال: أولاد كلب!. وبما أنه كان يعرف القراءة والكتابة فقد سمعته يغمغم:

إن كنت مش لاقى لنفسك شغلة فافتل حبالا يا أخي قشر بصل

ثم أضاف: هؤلاء ناس ليس عندهم إلا الضحك والسخرية والافتراء. كان وجودي في القرية لمدة يوم أو يومين فرصة للتعرف علي حركة المجتمع. فقد نشأت بعض المساجد التابعة لجماعات متشددة، وهؤلاء يرسلون خطباء تابعين لهم ينشرون الأصولية، ويطالبون بإطلاق اللحية وتقصير الثوب، ويقولون بفرضية الحجاب والنقاب وغير ذلك، ويحذرون الناس من عدم الالتزام بهذه الأشياء، ولذلك ظهرت بعض النساء المنقبات بعد أن لم يكن النقاب موجوداً في القرية علي الإطلاق. وقد علمت أن زميلا لنا

من خريجي مدرسة المعلمين، واشتغل بعد تخرجه مدرسا في الابتدائي انضم إلى هذه الجماعات، وترك المدرسة، وصار يخطب الجمعة في مسجد قريب من منطقة المقابر، ويعطي دروسا للنساء في بيته، حيث يختار لنفسه مكانا مقفلا لكي لا يصلهن إلا صوته. أي يكون الدرس مثل دائرة مغلقة على النحو المعروف في بعض دول الخليج. وقد ذكر لي زميل أنه أرسل لحيته وقصر ثوبه، وعاش مع زوجته التي لم تنجب حياة جديدة مختلفة تماما عما عرفناه عنه في صباه وشبابه. فقد كان في تلك الفترة واقعا في حب فتاة سمراء اللون إلى حد ما، لكن تقاطيع وجهها وتقاسيم جسمها جميلة، وبالمصادفة كانت زميلتي في الابتدائي. ادعي مختار عبد المؤمن – وهذا هو اسمه – أنه يكتب فيها الأشعار، وذكر لنا قصيدة اكتشفنا بعد أن كبرنا أنها للشاعر إبراهيم ناجي، ومطلعها:

أَيُّكُونُ ذُنْبِي أَنْ رَفَعْتُكَ وَارْتَفَعْتَ إِلَى السَّمَاءِ
وَعَلَى جَنَاحِي أَوْ جَنَاحِكَ قَدْ سَمَوْتَ إِلَى الصَّفَاءِ
إِنْ كَانَ حَقًّا أَوْ خِيَالًا فَهُوَ وَثْبٌ لِلضِّيَاءِ
وَتَحَرَّرَ مِمَّا جَنَاهُ طِينُ آدَمَ فِي الدَّمَاءِ

قلت لمحدثي كيف انقلب به الحال إلى الحياة المغلقة التي يعيشها الآن؟ قال: لا أدري، لكن لابد أن هناك أسبابا، منها أنه كان يحلم بأن يكون شخصية مؤثرة في المجتمع، لكنه وجد نفسه مجرد مدرس في الابتدائي يتعامل مع أطفال صغار، ثم إنه تزوج من امرأة من أسرة طيبة لكنها غير متعلمة ولم تنجب، وهو الذي هام حبا بزميلتنا سلوى حداد، أي أن حركته الاجتماعية غدت شبه متوقفة، ومن ثم لجأ إلى كتب ابن تيمية، والكتب الدينية بعامة، ووجد طلبته في التعاليم الصارمة المتشددة التي منحتة قدرا من التأثير علي

الدائرة المحيطة به سواء من الرجال أو النساء، وهؤلاء جميعا من العوام أصحاب الأذهان الخالية والمستعدة لقبول التعليمات مهما كانت قاسية أو بعيدة عن حركة الناس والحياة.

وفي القرية كنت ألتقي أحيانا ببعض القادمين من بلاد أجنبية هاجروا إليها سواء في الشرق أو الغرب مثل استراليا والصين واليابان أو انجلترا وفرنسا واليونان، وإسبانيا وألمانيا. ولعل الجيل الذي أنتمي إليه هو الذي بدأ الهجرة، فقد يعين المتخرج معيدا في الجامعة لكنه عندما يضع رجله في بلد أجنبي ربما يبحث عن زوجة من نفس البلد، وبذلك يمكنه بعد سنوات قليلة الحصول على إقامة دائمة. وبعضهم هاجر وهو طالب في السنة الثانية أو الثالثة بالكلية وبدأ حياة جديدة في دولة المهجر، أو سافر مع زوجته التي ذهبت تدرس الدكتوراه في انجلترا وبقيها هناك، وبعضهم ذهب إلى إيطاليا للعمل هناك في أي مهنة حتى ولو كانت دون مستواه، وبعض الأطباء سافروا إلى الجزائر ثم انتقلوا منها إلى فرنسا واستقروا هناك. وكل هؤلاء بعد أن يتجاوزوا سن التجنيد، وأعتقد أنه محدد بخمسة وثلاثين عاما، يستطيعون القدوم إلى مصر في زيارات، ناهيك عن سافروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والبرازيل. كان يقال إن المصري لا يترك أرضه أبدا ولكننا الآن نرى المصريين يرتحلون إلى أي مكان في العالم بحثا عن حياة كريمة، لأن المصري لم يعد يثق فيمن يحكمونه، فهو يعرف أن المصريين في بداية حياتهم مكتوب عليهم الفقر والهوان والسقوط في مستنقعات الروتين الذي لا يرحم أحدا. و لذلك تحول اعتقادهم من التمسك بالأرض إلى محاولة الخروج منها. ولاشك أن المصريين لن يكونوا هم الشعب العربي الوحيد الذي يبحث عن حياة كريمة خارج أراضيه، لأن معظم العرب سوف يلجئون إلى هذا

المخرج عندما تضيق بهم أراضيهم، وذلك بسبب الاستبداد الذي يعيشون تحت مظلتها، والهوان والفقر الذي يترصدهم، وعجز النخب عن تقديم أي وسائل تؤدي إلى تنمية حقيقية، وانتشار الأثنية والمصالح الضيقة والمصالح المطلقة التي تحكم الحياة في مجتمعاتهم.

ومن العجيب أن أديبا قديما هو الجزائري ركن الدين محمد الوهراني قدم نقوداً للمجتمع في مناماته ومقاماته ورسائله. فظهور اللصوص من الصعاليك والشطار والعيار والزعار والدعار والعياق والحرافيش وأصحاب المهن المحقرة وأشباههم من المعدمين والفقراء والجياح والعاطلين عن العمل في العصر العباسي والعصر الأيوبي كان بسبب سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن مصالح العباد، وانهماكهم في الملذات، فضايقوا ذرعا بغياب القانون، وغيوبية السلطان، وغباءة العسكر وأهل الدولة، أو لانهماك السلطان في القصف والعزف، وإعراضه عن المصالح الدينية والخبرات السياسية. المسألة إذن قديمة ممتدة ومتجددة، وجاء العصر الحديث فلم يغير منها شيئا.

كنت أغادر القرية متوجها إلى القاهرة فأذهب إلي صفاء أو سناء، حسب نوبة كل منهما. أنشغل عند صفاء بدراسة الأولاد، وأستخلص وقتا للمتعة والمؤانسة، وعند سناء تصير المتعة هي الأساس. أذهب أولا إلى الفيلا لنمكث هناك بعض الوقت مع الوالد والوالدة والأخ وأسرته إن وجدوا، وقد نتناول طعام الغداء أو العشاء، ثم ننقل إلي شقتنا. لم تكن سناء تحتاج إلي الزينة، فهي بوجهها الجميل، وابتسامتها الساحرة، ولامحها المنسجمة، وشعرها المفروق المنسدل علي كتفيها تمنحني حب الحياة، وتثير عندي لواعج العشق، فأقول لها ما قاله كثير لعزة:

ومازلت من ذكراك حتى كائنِي أُميمٌ بأكناف الديار سليب
وحتى كائي من جوى الحب منكُم سليب بصحراء البُريح غريب
أبتك ما ألقى وفي النفس حاجة لها بين جلدِي والعظام ديب
فردت عليّ سناء بأبيات جميلة عن طول ليل المحبين تقول:

شكونا إلي أحببنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا!
وذاك لأن النوم يغشي عيونهم سريعا و لا يغشي لنا النوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضير بذِي الهوى جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

قضينا وقتنا طويلا من الليل نبدع في فنون الحب. وفي الصباح قالت لي
سناء: لماذا لا نقضي هذا اليوم خارج شبين الكوم؟ قلت لها: والله فكرة جيدة
لاسيما وأنه يوم أجازة، وعندِي دعوة من أحد الأصدقاء، يقيم في قرية قريبة
من كفر الزيات، وقد بني هناك بيتا جميلا مكونا من عدة شقق، ويمكننا أن
نمضي اليوم عنده ونبيت ونرجع في الصباح. وافقت سناء علي الفكرة،
فخرجنا مع طلوع الشمس التي كانت تسطع في الأفق، وتتلاقى أشعتها مع
النسمات المنعشة التي يطلقها فصل الربيع، فتبعث في الناس حالة من الهدوء
والسكينة والغبطة تتجاوب مع الخضرة الكثيفة المحيطة بشبين الكوم وقراها
وطرقها المتشعبة. قلت لسناء: تألمي هذا الجو الربيعي المنعش، وانظري ما
الذي يثيره فينا من لواعج الحب. ثم أضفت: كان لنا زميل في المرحلة
الثانوية يكتب الشعر، وقد كتب ذات مرة قصيدة بديعة لا أذكر منها الآن إلا
بيتا واحداً يقول:

وتلّوَح الشجار أن دعهم فقد عاد الربيع

قالت سناء: ما أجمل هذا البيت!، إن الشاعر هنا يجعل الكائنات كلها تتواطأ لترك المجال للمحبين. هل مازلت علي صلة بهذا الشاعر؟ قلت لها لا أعرف عنه شيئا الآن. كل ما أعرفه أنه تخرج من إحدى الكليات، ولا أدري ماذا حدث معه بعد التخرج. ثم أضفت: الحياة يا سناء تخط طرقا مختلفة للأفراد، والكل يندمجون بعد ذلك في شئونهم الخاصة.

وصلنا إلي كفر الزيات ثم انحدرنا في طريق شبه ترابي نحو القرية. مررنا علي عدد من الترع الصغيرة والمصارف، وكانت سناء سعيدة بهذا الجو الريفي الممتلئ بالخضرة، والنسائم العطرة، والنخلات الباسقة التي تتناثر هنا وهناك وكأنها زرعت لحراسة الحقول ومنحها نوعا من الطمأنينة والأمان. وأمام البيت كان ينتظرنا صديقي الدكتور جابر محمود. رغب بنا كثيراً وطلب مني أن أركن السيارة في الجراج، بعد ذلك دلفنا إلي صالة الشقة في الدور الأول. كان الأثاث متواضعا لكنه نظيف ويليق بهذه البيئة الريفية. جاءت زوجته وأولاده بنين وبنات وقد بدت عليهم الغبطة والسرور. فهم يعرفون أن صلتني بجابر تعود إلي أيام الدراسة الإعدادية والثانوية، إذ كنت أصحبه في بعض زيارته إلي القرية، وأعيش مع أسرته كأنني واحد من أبنائها. وكان من عادته أن يصحبني لرؤية البيوت القديمة لأثرياء القرية أيام الملك، قائلا: هذا دوار أسرة كذا، وهذا دوار أصهارهم من أسرة كذا، ثم يقول: هؤلاء جميعا تركوا القرية، بعضهم سكن في القاهرة وبعضهم الآخر هاجروا إلي الخارج. وبعد أن انتهي من هذه الجولة يقول لي: هيا بنا نستأجر دراجتين ونقوم بجولة علي الطريق الزراعي بين قريتنا والقرية المجاورة. وكنت أستمع جدا بهذه الجولة وأري أنها فرصة للخروج من الأجواء

الدراسية التي تثقل كاهلنا. احتفي بنا كثيرا الصديق جابر وأسرته، وبدأ كرمهم الريفى بلا حدود.

وعندما حان موعد الغداء تفننت زوجته في أصناف الطعام الريفية التي لا تكاد تختلف عن الأصناف التي أتناولها مع الوالدة في قريتنا: أرز معمر، وصينية بطاطس ولحمة طازجة، وفراخ بلدي، وشورية، وغير ذلك، وكل هذا معمول في الفرن البلدي ذي النكهة التي لا تعدلها نكهة أخرى. قال لي جابر بعد الانتهاء من تناول الطعام: ألا تفكر في بناء بيت في القرية؟ قلت له: أنا أنتظر الإعارة أولا، وبعدها يفعل الله ما يريد. لقد ذهبت أنت في إعارة مبكرة لأنك حصلت علي الدكتوراه من مصر بسرعة طبعاً، أما أنا فقد قضيت في فرنسا سبع سنوات متواصلة. سأل جابر: وهل هناك فرق بين مصر وفرنسا؟ قلت له: الفرق شاسع، ففي فرنسا تخطيط لكل شيء، وعندنا الأمور كلها عشوائية، ويكفي أن تكون هذه هي السمة المميزة لكل من البلدين. سألني: ما الذي استفدته من فرنسا؟ قلت له: لقد اطلعت علي الأدب الغربي قديمه وحديثه، وكنت أحس أنه مازال ينقصني الكثير، ففي الزمن الذي نعيشه لأبد من الاطلاع علي الأدب العالمي. وهذا ما فعلته، لأنني لم أقتصر علي الأدب الفرنسي، بل تجاوزته إلي آداب أخرى مثل الأدب في أمريكا اللاتينية وأدب الأمم الشرقية الذي يعيش حالة ازدهار الآن.

كانت سناء في غاية السعادة مع أسرة الدكتور جابر. وبعد الغداء خرجت مع زوجته، وكانت قد استعدت لذلك بإحضار ثوب طويل وطرحة تغطي بها شعرها. نظرت إليها وهي ترتدي هذا الزى السابغ فوجدتها أجمل من أي وقت. تذكرت بيتاً لأبي تمام لا أذكر نصه ولكن معناه أن المرأة الجميلة حتى لو انتقبت فسوف يتبدى جمالها من قدها الفاتن. وعندما عادت سناء ذكرت

لي أنهما زارتا أسرة الدكتور جابر ومراً علي بيوت بعض صديقاتها، وقامتا بجولة في أنحاء القرية. لم تكن لدي سناء فكرة عن أجواء القرية، وبالتالي كانت هذه الزيارة فرصة للتعرف علي أوضاع جديدة غير موجودة في المدينة، لاسيما هذا الكرم الريفى الذي ليس له نظير.

وفي الليل عندما صرنا وحدنا في إحدى شقق البيت قلت لسناء: هل أعجبك هذا اللباس الجديد؟ قالت: أجل، لكنه لا يصلح إلا للريف. قلت لها: اخلعيه إذن وأريني من محاسنك ما لا طاقة لي علي نسيانه. ردت: سوف تظل طول عمرك شقياً! لكن كان من المستحيل أن نتساقى من كنوس الحب ونحن في مكان غريب، فقلت لسناء: سوف أحكي لك قصة حدثت في مدينة مالقة علي الشاطئ الأندلسي رواها أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد التجيبي، الذي ذكر أنه اعتل بها مدة ولزم منزله، وكان إذا جنه الليل اشتد سهره، وخفقت حوله أوتار العידان والطنابير والمعازف من كل ناحية، واختلطت الأصوات بالغناء، مما زاد من قلقه وتألمه. وإنه لساها ذات ليلة سمع ضرباً خفياً معتدلاً حسناً لا يسمع غيره، فكأن نفسه أنست به وسكنت إليه. قال في نفسه: أما هذا الضرب فلا زيادة عليه، فليت شعري كيف صوت الضارب! وأين يقع من ضربه؟ ولم تلبث أن اندفعت جارية تغني في هذا الشعر بصوت أندى من النوار، غب القطار (أي المطر)، وأحلي من البارد العذب، علي كبد الهام الصب، فلم أملك نفسي أن قمت و رفيقاي نائمان، ففتحت الباب، وتبعت الصوت، وكان قريباً مني، فاطلعت من وسط منزلي علي دار فسيحة، وفي وسط الدار بستان كبير، وفي وسط البستان شرب (أي شاربون) نحو من عشرين رجلاً، قد اصطفوا وبين أيديهم شراب وفاكهة، وجوار قيام بعيدان وطنابير وآلات لهو، ومزامير لا يحركنها، وجارية جالسة ناحية، وعودها في

حجرها، وكل يرمقها ببصره، ويوعياها سمعه، وهي تغني وتضرب، وأنا قائم
بحيث أراهم ولا يروني، وكلما غنّت بيتا حفظته، إلي أن غنت عدة أبيات
وقطعت، فعدت إلي موضعي، يشهد الله، وكأنما أنشطت من عقال، وكان لم
يكن بي ألم، وقد وعيت الأبيات وهي:

أضلت القصد؟ أم ليست علي فك	ما بال أنجم هذا الليل حائرة
كأنما جثت صرعي بمعترك	عادت سواريه وقفا لا حراك بها
بشراه من طول وجد غير متّرك	هل من بشير بنور الصبح، تنقذني
وأضجعتني تباريحي علي الحسك	فقد أحد التواء الليل لي شجنا
فسقنيها ولا تسأل عن الدرك	خذ يا شمول كنوس الراح مترعة
علي شجون المعنيّ سطوة الملك	وهيَج بالحنائك الطنبور إن له

ويختم أبو الطاهر التجيبي قصته بقوله: ثم انصرفت في صباح تلك الليلة،
فلقيت صديقا لي من أهل العلم قرطيبا سكن مالقة، فأخبرته الخبر، وأنشدته
الشعر ووصفت له الدار، فاغرورقت عيناه وقال: الدار للوزير فلان ،
والجارية فلانة البغدادية إحدى المحسنات من جواري المنصور بن أبي عامر،
وصارت إلي هذا الوزير بعد موت المنصور، وتمزق ملكه.

في الصباح قمنا مبكرا. شكرنا أهل البيت علي حسن ضيافتهم، وجميل
صنيعهم، ثم انطلقنا في الطريق إلي شبين الكوم. كان الجو صافيا، والسماء
خالية من الغيوم، والشمس تبدأ دورتها اليومية لتطلق أشعتها الكونية التي
تزيد الحياة بهجة واستمتعا لاسيما في هذا الوقت الجميل من فصل الربيع.
وكان الفلاحون ينطلقون بمواشيهم نحو الحقول، يملنون الطريق،
ويستمتعون بالأصوات الصادرة عن حيواناتهم وكأنها معزوفات جميلة تنسجم

مع أصوات الطبيعة في هذا الجو الصباحي المنعش. وكانت سناء إلي جانبي
أستنشق عطرها الفواح، وأغوص في بحر جمالها الباهر.

كنت قدمت طلبا لوزارة الصحة بالنقل إلى مستشفى التأمين الصحي في مدينة نصر بالقرب من مسجد رابعة العدوية. جاءتني الموافقة وصدر الأمر التنفيذي بنقلي لكن بعد تعب ومعاناة شديدة: أوراق من وزارة الصحة وإليها، وتوقيع الأوراق من أماكن كثيرة، لكن أسوأ ما يمكن أن تقابله في هذه الدورة الجهنمية هو أن تصطدم بموظفة شديدة السوء أو موظف متعنت. إنهما يبحثان في الطلب عن أي خطأ مثل ختم النسر الذي ليس واضحا. وتتصور أن هذا الموضوع سهل لكنك تفاجأ بأن عليك أن تقطع مشوارا للذهاب إلى مكان آخر. وقد يطلب منك الموظف أو الموظفة طلبا تراه غير منطقي وتحقيقه صعب لكنها مصرة علي ذلك ولا تتنازل أبدا مهما حاولت معها أو معه. حياتنا كلها صعبة وأوضاعنا كلها معقدة، وكان كُلا منا حرب علي الآخر. حكت لي صديقة تعمل في الإدارة المالية بإحدى الكليات الجامعية قدمت طلبا للنقل إلى كلية في بلد أخرى انتقل زوجها إليها ووافق رئيس الجامعة، ثم وافقت اللجنة المكونة من نائب رئيس الجامعة وعدد من العمداء، وصدر الأمر التنفيذي بالنقل، لكن عميدة الكلية وهي امرأة سيئة الخلق وشديدة السوء رفضت التنفيذ وكأنها في معركة معها مع أن الفارق في السن بينهما كبير جدا، أي أنها في عمر بناتها إن كان عندها أولاد. إنها إذن النفوس الرديئة التي تتحكم في مصائر الناس في بلادنا وتود لو منعت عنهم الماء والهواء. لكنني علي أية حال لم أستسلم ونقلت بالفعل إلى مستشفى التأمين الصحي، وميزتها بالنسبة لي أنها إلي حد ما قريبة من بيتنا في منطقة شيراتون.

تذكرت السنوات التي قضيناها في فرنسا، وكان كل شيء يتم بسهولة وبساطة، ولعلنا لم نعان بعض الشيء إلا في التعامل مع موظفي السفارة المصرية. وهؤلاء كان من الواضح أن شغلهم الشاغل هو التفنن في الحصول علي الأموال، ويطوعون اللوائح والقوانين لمصالحهم الخاصة. فبمجرد أن يصل الواحد منهم إلي باريس يشتري سيارة فاخرة ربما تكون من ماركة "مارسيدس" بقرض يحصل عليه من وزارة الخارجية المصرية، وقد لا يركبها إلا لماما. ومن ثم يحتفظ بها ليبيعهها في مصر عند نزوله بأغلى الأسعار. بل إن السفير الجديد ما إن يصل حتى يغير بالكامل أثاث الفيلا التي يسكن بها حتى لو كان السفير السابق قد غير الأثاث قبيل نزوله. هو إذن المنطق الذي تسير عليه مصر دائما: الأثرياء لهم كل الحقوق، والفقراء ليس لهم شيء، وطالما أن الخارجية توافق دائما علي الدفع فلا مانع من أن يتبغدد أفراد السفارة من أصغر موظف أو حارس إلي أكبر رأس وهو سعادة السفير.

حكي لي صفوان ذات مرة أن أحد زملائه من البعثة تصور نفسه مهما لأنه دارس دكتوراه، فذهب إلي السفارة وطلب منه الحارس ترك بطاقة هويته، فرد عليه بأنه فلان المعيد بكلية كذا وعضو البعثة الدراسية وأنه مصري، تطور النقاش بينهما حتى كاد الحارس أن يضربه لولا تدخل زميل آخر كان معه عمل علي التهذنة، لكن الزميل الغاضب اعتبر ما حدث إهانة، وهدد بأنه سوف يكتب شكوى للسيد السفير. ولكن ماذا يفعل السفير؟ فهذه هي تعليماته. لم تكن العمليات الإرهابية قد انتشرت في ذلك الوقت، ولكن الاحتياط مطلوب، بينما رأي الزميل أن ترك بطاقة الهوية لا يليق بمقامه، ومن هنا أخذ درسا لن ينساه طيلة حياته.

تسلمت عملي في مستشفى التأمين الصحي، وقضيت اليوم الأول في البحث عن حجرة لي، وجاءت مشرفة الدور ومعها عاملة نظافة فتجهز المكان بالصورة المطلوبة، وبعد انتهاء فترة الدوام ركبت سيارتي الصغيرة التي اشتراها لي صفوان وتوجهت إلي البيت. حضر علي وأحمد من المدرسة في الباص الذي ندفع له مبلغا كبيرا. تناولنا طعام الغداء، ثم نلت قسطا من الراحة. ثم كانت لدي رغبة في القراءة فأحضرت كتابا غلافه أصفر ومزخرف منشور في بيروت عنوانه " ديوان ديك الجن". أعجبني العنوان مثلما أعجبني الطباعة. قرأت المقدمة التي كتبها محققا الديوان، فعرفت أن ديك الجن الحمصي هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن يزيد بن تميم الكلبي الحمصي، وفي أعيان الشيعة: ابن مزيد بن تميم، الذي أسلم علي يدي حبيب بن مسلمة الفهري. وأصله من قرية مؤتة، وقد أخذ محاربا من المستعربة في جيش هرقل. وقد غلب علي عبد السلام بن رغبان لقب " ديك الجن". قال الدميري نقلا عن الإمام زكريا القزويني: " ديك الجن دويبة توجد في البساتين إذا ألقيت في خمر عتيق حتى تموت تترك في محارة وتسد رأسها وتدفن في وسط الدار فإنه لا ثري فيها شيء من الأرضة". وكانت لديك الجن صلة بأبي نواس، كما كان أستاذاً لأبي تمام. وأهم حدث اشتهر به ديك الجن هو قتله لزوجته الجميلة ثم حرقها، وقد عمل من رمادها برنية كان يشرب فيها ويقبلها عند الاشتياق. وقد رويت في ذلك أقوال كثيرة، لكن أبياته بعد قتلها تدل علي أن غيرته تجاهها هي التي دفعته إلي قتلها. ثم رثاها بالأبيات التالية:

يا طلعة طلّع الحمام عليها	وجني لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتي من شفتيها

وَمَدَامَعِي تَجْرَى عَلَي خَدَيْهَا حَكَمَتْ سِيفِي فِي مَجَالِ خَنَاقِهَا
 شَيْءٌ أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ نَعْلَيْهَا فَوْحُ نَعْلَيْهَا وَمَا وَطَى الْحَصِي
 أَبْكِي إِذَا سَقَطَ الْغُبَارُ عَلَيْهَا مَا كَانَ قَتْلَيْهَا لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ
 وَأَنْفَتُ مِنْ نَظَرِ الْحَسُودِ إِلَيْهَا لَكِنْ ضَنْنْتُ عَلَي الْعَيُونِ بِحَسْنِهَا
 وَلَدَيْكَ الْجَنُّ أَبْيَاتٌ أُخْرَى فِي رِثَائِهَا تَقُولُ:

أَوْ أَبْتَلِي بَعْدَ الْوَصَالِ بِهَجْرِهِ أَشْفَقْتُ أَنْ يَدْلِيَ الزَّمَانُ بَعْدَهُ
 لِبَلِيَّتِي وَجَلُوتِهِ مِنْ خُدْرِهِ قَمَرٌ أَنَا اسْتَخْرَجْتَهُ مِنْ دَجْنِهِ
 مَلَأَ الْحِشَاءَ وَلَهُ الْفَوَادُ بِأَسْرِهِ فَقَتَلْتَهُ وَبِهِ عَلَيَّ كِرَامَةٌ
 وَالْحَزَنُ يَسْفَحُ عُبْرَتِي فِي نَحْرِهِ عَهْدِي بِهِ مِيتًا كَأَحْسَنِ نَائِمٍ
 بِالْحَيِّ حُلَّ مَكَانِهِ فِي قَبْرِهِ لَوْ كَانَ يَدْرِي الْمَيِّتَ مَاذَا بَعْدَهُ
 وَتَكَادُ تَخْرُجُ قَلْبُهُ مِنْ صَدْرِهِ غَصَصٌ تَكَادُ تَفِيضُ مِنْهَا نَفْسُهُ
 قَلْتُ لِنَفْسِي: الْحَيَاةُ غَرِيبَةٌ جَدًّا، وَطُوِيْتُ الْكِتَابَ وَنَمْتُ نَوْمًا عَمِيقًا.

في مستشفى التأمين الصحي تعلمت أشياء كثيرة قارنتها بخبراتي عندما كنا في فرنسا. ولعل أبرز ما لاحظته هو أن التأمين الصحي عندنا مسألة عشوائية مثل كل العشوانيات، فحياتنا قائمة علي السلب والنهب وكل من يقدر علي ذلك فالطريق مفتوح أمامه. فالأطباء يعملون معظم الوقت في عياداتهم ويكسبون أموالا طائلة، ويغالون في أسعار الكشف الخاصة للمتريدين علي العيادات، وما أكثرهم! ومعظمهم من الطبقات الكادحة، ومن المنطقي ألا يجد الطبيب وقتا للذهاب إلي عمله، أو إلي كليته إن كان أستاذًا جامعيًا. وبالطبع ليس كل الأطباء كذلك، فهناك عيادات لا يدخلها أحد، والناس حظوظ كما يقال، لأننا شعب يتحول الوهم عنده إلي واقع حتمي، ولذلك نجد بعض العيادات لا تخلو من زبائن ليلا ونهارا، وكثير من الأطباء ليست لديهم

القدرة المادية التي تمكنهم من فتح عيادة، ومن ثم يكتفون بالوظيفة، لكنهم غير راضين عن أوضاعهم، ودخولهم المادية محدودة جدا، وكثيرا ما طالبوا الدولة برفع مرتباتهم لكن الدولة لها ودن من طين وأخري من عجين، وتفضل دائما أن تظل الأوضاع علي ما هي عليه، وأن يزداد الأغنياء غني، ويزداد الفقراء فقراً. أليست هذه هي مصر؟ مصر التي تنتقل من عشوائية إلي عشوائية أكبر.

أما في فرنسا فالوضع مختلف تماما. التأمين الصحي مظلة يتمتع بها الناس جميعا حتى لو كانوا من الأجانب أو المقيمين، وكل الأطباء داخلون ضمن التأمين الصحي، وهناك شركات تنظم هذا الموضوع، حيث يدفع الأفراد مبلغا محدودا من المال، وكذلك الأسر ويحصلون علي بطاقة وقائمة بالأطباء في كل التخصصات، وكذلك المستشفيات التابعة لشركة التأمين، وكلها فخمة ونظيفة وتخدم فيها الراهبات اللاتي لا ينتظرن جزاء ولا شكورا. وبالتالي فإن الاستغلال غير موجود، والمواطن، أي مواطن لا يدفع قيمة كشف للطبيب، بل إن العيادات غير معلن عنها علي النحو الموجود عندنا، إذ قد نجد عمارة كاملة كلها عيادات. وفي العمليات الجراحية أو الولادة لا يدفع أي مبلغ للمستشفى، حتى عند السفر لمدة أسبوع واحد لأي بلد أوروبي لابد أن يكون لدي المسافر تأمين صحي خلال هذه المدة مقابل مبلغ زهيد يدفع قبل السفر، وهذا التأمين القصير ينتفع به الناس أثناء إقامتهم، لدرجة أن بعضهم يستعدون لإجراء عملية جراحية إن كانوا في حاجة إليها. مظلة صحية إذن تشمل المواطنين جميعا والأجانب المقيمين أو حتى الأجانب القادمين من خارج الوطن لمدة قصيرة. ألا يثير في أذهاننا هذا الموضوع كل لواعج الحزن تجاه ما نراه في بلادنا من استغلال رهيب للمرضي لا يختلف عن الاستغلال

في أي شيء آخر؟! إن المريض عندنا يفضل أن يذهب إلي مستشفى خاص بعد أن يبيع كل ما لديه كي يجد الرعاية المطلوبة، ولذلك فإنه لا يضطر إلي اللجوء للتأمين الصحي إلا المعدمون. وهذا ما أراه وألمسه أثناء عملي في مستشفى التأمين الصحي.

حضر صفوان إلي البيت بينما كنت أقرأ في كتاب الدكتور عبد الحليم محمود عن أبي مدين الغوث، وهو شعيب بن حسين الأنصاري، أصله من الأندلس، من " حصن قطنيانة" وهي قرية تابعة لإشبيلية، وقد عاش في القرن السادس الهجري، واستقر به المقام في مدينة بجاية التابعة لإقليم تلمسان بالمغرب. وكان أبو مدين من معاصري الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الذي روى لنا القصة التالية بلغته الرمزية المعروفة:

ذهبت أنا وبعض الأبدال إلي جبل قاف، فمررنا بالحية المحدثقة به، فقال لي البدل: سلم عليها فاتها سترد عليك السلام، فسلمنا عليها فردت، ثم قالت:

من أي البلاد؟ .. فقلنا: من بجاية ..

فقالت: ما حال أبي مدين مع أهلها؟

فقلنا لها: يرمونه بالزندقة.

فقالت: عجباً والله لبني آدم، والله ما كنت أظن أن الله عز وجل يوالي عبداً

من عبده فيكرهه أحد ..

فقلنا لها: ومن أعلمك به؟

فقالت: يا سبحان الله، وهل علي الأرض دابة تجهله؟ .. إنه والله ممن

اتخذ الله ولياً، وأنزل محبته في قلوب العباد، فلا يكرهه إلا كافر أو منافق.

قال لي صفوان: ها أنت تحولت إلي قارئة نهمة! قلت له: وهل أعيش معك ولا أداوم القراءة؟! إن حياتك كلها قراءة، بل إنك مدمن قراءة. ثم سألتها: ما الذي جعلك تدمن القراءة بهذه الصورة؟ قال: لا أستطيع الإجابة علي هذا السؤال. إنها بالفعل نوع من الإدمان، والمدمن لا يرفع رأسه أبداً حتى ولو أدخلوه مصحات. أنا أري أن القراءة متعة لا تعدلها أية متعة أخرى. ولا شك أن الحب متعة، والجماع متعة، ولكن ناقداً فرنسيا اسمه رولان بارت كتب كتابا مهما عنوانه " لذة النص " دلل فيه علي أن لذة النص لا تساويها أية لذة أخرى. لهذا تلاحظين أنني لا أتردد علي المقاهي، بل أجلس في البيت، في وقت الفراغ، وأطوف العالم كله عبر الكتاب وكأنه طائرة تحملني من مكان إلي مكان. كانت ساعة النوم قد أزفت فحملني صفوان حملا إلي السرير لنعيش متعة أخرى كفلتها الحياة لبني البشر. ولهذا يتفنن بعض الناس في تجهيز حجرة النوم مثلما يتفننون في تحريك المياه الساكنة في أعماق كل امرأة. فتراهم ينتقون الستائر بعناية، ويا حبذا لو كانت وردية، ويجلبون السجاد السندسي الدافئ، والسرير الرحب، لاسيما إذا كانت مخداته من ريش النعام، ويضعون أضواء كهربائية صغيرة في زوايا محددة، بنفسجية وحمراء وزرقاء، ولا ينسون المرايا الكبيرة التي توههم عند المضاجعة أنهم يضاجعون حريما كاملا. وهم يهتمون بالروائح لاسيما الصندل المحروق والند، والعطور الحديثة التي تنتجها أفضل الماركات العالمية. بل إن هؤلاء يهتمون بالحمام فيضعون فيه العطور الشرقية النفادة، والدهون، والمساحيق، والعقاقير الكيماوية، والحبوب وغيرها. وصفوان - في الحقيقة - من هؤلاء، إنه يبذل جهدا في أن تكون حجرة النوم والحمام علي النحو المذكور. ولعل هذا جزء من تألقه وحرصه الطاعني علي أن يكون رجلا يمتلك

كل مقومات الرجل. لكن هذا لا يعني أبدا أنه ذو نزعة ذكورية، لأنه في سيرته وفي حياته أبعد ما يكون عن ذلك، فهو شخص ديمقراطي جدا، وبسيط جدا، وينظر إلي الحياة الزوجية علي أنها حياة مشتركة، يغلفها الود، والاحترام، والتسامح، والنزول علي رأي الآخر إن ثبت لديه أنه أصوب من رأيه. وأنا حقيقة لا أدري من أين اكتسب هذه الصفات ونشأته ريفية خالصة؟!.

قال لي صفوان قبل النوم إن أحد أصدقائه دعاه لقضاء يوم الجمعة غدا في مزرعته بالساحل الشمالي. وافقته وصحبونا مبكرا فركبنا السيارة متوجهين إلي المزرعة. كان الطريق طويلا لكنه شبه خال من السيارات، وهذا شيء ألفناه في صباح الجمعة. كان الصباح مثل ابتسامة مشرقة، وقد امتدت سنابل النور الذهبية التي تبعث بها شمس الربيع الدافئة المنعشة. وما إن تجاوزنا مناطق المباني حتى لامست أعيننا غابات النخيل التي تسطع علي جانبي الطريق وكأنها خطوط تمتد في الأفق، والحقول الخضراء متوهجة، زاهية الألوان، تنتشر في مساحات واسعة، وكأنها في حالة تنافسية مع المباهج الحياتية. وكثير من الأشجار العالية تشمخ بخضرة أوراقها الداكنة، وتظهر من حين لآخر قنوات هادئة يطل منها وميض فوسفوري تصنعه أشعة الشمس المذهبة. ومع هذه الخضرة النابضة بالحياة تطل من حين لآخر رمال الصحراء الصفراء الساكنة سكون الربيع في لحظة صفائه وتجليه. كنت أتابع هذه المشاهد وكأنني أراها للمرة الأولى، مع أنني رأيتها كثيرا أثناء زهابنا إلي الاسكندرية بالطريق الصحراوي أو عودتنا منها.

وصلنا إلي المزرعة، فوجدنا الدكتور عبد الخالق عبد اللطيف في انتظارنا ومعه زوجته مدام أنسية وأولاده مصطفى وهيفاء ولبنى قادنا الدكتور عبد الخالق إلي المسكن المكون من دور واحد، ويضم ثلاث حجرات وصالة

واسعة وحمامين وعليه برج حمام. وهناك تكعيبية من العنب تحيط بالمسكن، إضافة إلى أصص من الزرع. أما المزرعة فكانت مقسمة بطريقة منسجمة ومنظمة تدل على أن المسنول عنها لديه معرفة قوية بشئون الزراعة. فالأحواض منتشرة داخل المزرعة، والأشجار متنوعة مثمرة وغير مثمرة، والنخيل مزروع بطريقة تجعله يبدو وكأنه سور يحيط بالمزرعة. وبالقرب من المسكن فرن بلدي. قالت لي مدام أنسية بعد أن تناولنا إفطاراً مكوناً من الفطير والعسل النحل، والعسل الأسود، والجبنة القريش، والجبنة الحادقة: هيا بنا أريك الفرن البلدي، ونأخذ جولة في المزرعة. فرحت جداً بالفرن البلدي، لاسيما أن والدتي كان لديها فرن مثله معمول فوق سطح البيت المكون من دورين. عندما عدنا إلى المسكن قال صفوان لزميله: إن ما ينقصك هنا هو أن تكون لديك أقفاص لبعض الحيوانات مثل الأسود والتمور والذئاب والثعالب وغيرها. قال عبد الخالق: لا أستطيع تحمل نفقات هذه الحيوانات، لأنها تحتاج إلى لحوم كثيرة وإلى رعاية، لكن ادع الله أن يزيد في دخلنا، وعندئذ لن أتردد في جلب هذه الحيوانات.

جلسنا بعد ذلك تحت إحدى المظلات الخضراء في المزرعة، وجرى الأولاد يلعبون في كل مكان، بالعجلات المتوفرة لكل الأعمار، والمراجيح، ولعب التزحلق، وغيرها من لعب الأطفال. والحق أن الدكتور عبد الخالق ملأ المزرعة بكل ما يبهج العين، ويريح النفس، بما في ذلك حظيرة للدواجن يسعى فيها البط و الأوز والدجاج والأرانب، إضافة إلى الماعز والخرفان وأبراج الحمام. قال عبد الخالق: انظروا ماذا تريدون أن تأكلوا اليوم. لم نحدد شيئاً وتركناهم يختارون ما يريدون.

وعندما أوقدنا الفرن أرجعتني هذه اللحظات إلي الفترة التي كنت أساعد فيها أمي بالجلوس أمام الفرن أو أمام طبلية الخبز، وكانت من أسعد اللحظات في حياتي لأنني تعلمت أثناءها الكثير من فنون الطبخ، والتصق في ذهني الفرن البلدي بما له من أصداء وأجواء مشحونة بالعواطف النسائية والتهويمات الحياتية. كانوا يقولون لي في فرنسا إن فنون الطبخ لم تعد هواية ولكنها غدت علما، وها أنذا أجلس مع مدام أنسية أمام الفرن البلدي فأنسي نفسي، وأتفنن معها في صنوف الأطعمة. صنعنا أولا عددا من المخبوزات، ثم سلقنا البط، وحشونا الحمام، وجهزنا الأرز المعمر، وصواني الخضار التي من أهمها صينية بطاطس، ووضعنا كل ذلك في الفرن، ونحن أمامه نشم الروائح المشبهة، والنسمات المنعشة داخل المزرعة التي تبدو وكأنها انتصبت مثل خيمة تلتقي مع سخونة الفرن اللذيذة المحببة.

وبعد أن انتهينا من صنع الطعام البلدي حملناه إلي طاولة السفرة في المسكن. جلس عبد الخالق وزوجته وأولاده في جانب، وجلسنا نحن في الجانب الآخر. قال عبد الخالق موجهها كلامه لصفوان: في مصر أشياء جميلة قد لا نجدها في الخارج. فرد عليه صفوان: الحياة في مصر جميلة فعلا، لكن المصريين لا يعرفون كيف يعيشونها، وكثيرون منهم يقف الفقر مثل جدار قاس يحول بينهم وبين الحياة، علي نحو ما قال أمل دنقل:

أه ما أقسي الجدار

عندما ينبت في وجه الشروق

ربما ننفق كل العمر كي نثقب ثغرة

ليمر النور للأجيال مرة

أضاف صفوان: إن الجدران في حياتنا كثيرة جداً لأننا لم نعرف بعد ما هو حق المواطنة. والمواطنة هي أن يكون كل الناس متساوين في الحقوق والواجبات مهما اختلفت طبقاتهم وتفاوتت حظوظهم. بعد ذلك خرجنا لنتجول في المزرعة، واستمتعنا بالأشجار الطويلة والنخلات الباسقات، والشجيرات المغروسة، والبساط النجيلي الأخضر، والمياه التي تتدفق في قنوات صغيرة. وعادنا الجلوس تحت المظلات المغطاة بتكعيبات من العنب أو من الأشجار الملتفة. كان صفوان يهمس في أذني: ليتنا نقيم مزرعة كهذه نقضي فيها آخر الأسبوع وأيام الأجازات. لكن المشكلة في هذا البلد أن الإنسان إذا لم يحصل علي الشيء في وقته يغدو مستحيلاً، لأن التضخم ليس له مثيل في العالم. فالشيء الذي يعرض اليوم بألف جنيه يعرض بعد سنتين بخمسة آلاف أو أكثر.

قضينا وقتاً طويلاً من الليل في المزرعة ثم قررنا السفر. ودعنا الدكتور عبد الخالق وزوجته وأولاده، وشكرناهم علي هذا اليوم الجميل، فقالوا: نتمنى أن يتكرر. كانت ستائر الليل تلف المكان، ولا يظهر إلا بصيص من الضوء تبيته اللمبات الكهربائية، ونسمات الربيع الحانية تنطلق من مكانها الهادئة لتضفي علي الجو الليلي الصافي سحراً يصب داخل النفس ويوقظ المشاعر التي أوشكت أن تكون غافية بعد رحلة طويلة ويوم حافل بالمسرات. كاد النوم أن يطبق علي عيني، ولكنني كنت أجالده لأنني أخشي أن ينام صفوان هو الآخر. أعطيته قرصين من اللبان الذي أحمله معي باستمرار، ومضينا في طريقنا إلي القاهرة.

وعندما وصلنا إلي البيت ذهب الأولاد إلي مضاجعهم، وتصورت أن صفوان هو الآخر سوف ينام نظراً لما لاقاه من تعب في الطريق، لكنني فوجئت

به يحملني إلى حجرة النوم وهو يقول لي: هل تريد الهروب مني يا صفاء؟
بعد يوم حافل كهذا لابد أن يكون لنا لقاء حافل، لأن القرب منك أهم عندي من
المزرعة ومن السفر ومن أي شيء في هذه الحياة. وهكذا قضينا الليل نشرب
من كأس الحب ونعوم في بحار الشوق. وهذا هو صفوان: عقلية متوقدة،
وجسد متقد، وقلب مفعم بالحب، وذراع مفتوحة للمتعة. قلت لنفسي: هل كان
من الممكن أن أخرج من حياة صفوان لأنه جاء بامرأة أخرى تشاركني في
حياته؟ إن هذا لن يحدث أبدا طالما بقي في نفس يحرص علي الحياة.

السعادة مسألة لا يمكن تحديد أين نعثر عليها، لكنها قد تكون كامنة في أشياء صغيرة جداً مثل كوب ماء بارد نشربه في لحظة ظمأ أو في وقت شديد الحرارة، وقد نجدها في نزهة قصيرة في الصباح الباكر، أو في رحلة نيلية في فصل الربيع أو في أي وقت معتدل. لكن السعادة الكبرى تتمثل عادة في أمور أسمى من ذلك مثل ابن صغير يتقافز حولنا ويظهر جانباً من شقاوته وبراعته، أو امرأة جميلة نعشقها ونتغزل في محاسنها، أو الحصول علي درجة وظيفية أو علي شهادة دراسية تم الحصول عليها بالجهد وبالعرق. وأشهد أنني كنت بارعاً في الحصول علي ما أريد فيما عدا شيئاً واحداً هو توثيق الصلة مع المرأة الجميلة التي طالما غزتني صورها في الأحلام. كان ينقصني الوعي في هذه النقطة بالذات علي الرغم من اعتقادي بأن النمو الروحي يكمن في وعي الإنسان، ولهذا لم أستغل أثناء فترة الصبا والشباب أي إشارات تبديها امرأة جميلة تجاهي. لقد انطبق علي قول الشاعر عبد الحميد الديب:

عطشان للحسن طول الدهر ما رُويت يوما به النفس إلا فيض تشويق
قد أبعد البؤس عني كل غانية كما يُصد الهدي عن كل زنديق
يروج حول سلوكي كل مختلق كما يروج افتياتاً بآثر السوق

لكن الفرق بيني وبين عبد الحميد الديب واسع جداً. فالديب أبعد البؤس عنه كل النساء، ولهذا ظل عطشاناً للحسن طول حياته، أما أنا فقد كنت محبوباً ومقدّراً من الجنس الآخر، لكن شدة الحياء وأشياء أخرى كثيرة أَلقت

علي عيني وعلي قلبي غشاوة حالت ببني وبين استيعاب المواقف ووضعها في نصابها، والتصرف وفق ما تقتضيه اللحظة. والآن أتأمل هذه الأوضاع بعد أن ازددت خبرة فأجد أن الوعي بالمرأة وحبها وعواطفها ومشاعرها كان غائبا عني تماما. ولا أدري إلي الآن ما هو سبب غياب هذا الوعي؟

فهل هي النشأة الريفية الخجولة؟ أم هو الانخراط في مسائل الحرام والحلال؟ أم أنها جينات وراثية تنتقل من الآباء إلي الأبناء؟ كل هذا جائز، لكن من أهم ما يشغلني الآن هو كيف مرت عليّ صنوف من النساء اللاتي تحاشيت أن أرتبط بأية واحدة منهن إلي أن تزوجت في النهاية زواجا تقليديا أسريا عاديا؟ صحيح أنني أحببت صفاء بعد ذلك وعشنا حياة زوجية أليفة فيها عشق ومودة، لكنني لم أنس أبدا المحطات التي مررت بها في عالم المرأة المحاط بالأسرار والمفاجآت.

عندما كنت طالبا في المرحلة الثانوية اتفق أن كان بيتنا في القرية قريبا من بيت أحد أقرباء زوجة والدي الأولى، وكان لديه ابنة شديدة الحسن، بادية الشقاوة، ناضجة الأنوثة علي الرغم من صغر سنها، ويبدو أنها كانت تعرف أن والدي ظل لمدة عشرين عاما متزوجا من عمه والدها ولم يطلقها إلا عندما ينس من إنجابها وتأكد أنها عاقر. هذه البنت الجميلة الشقية التي كانت تدرس في المرحلة الثانوية أيضا فوجئت بأنها تغازلني، وتحاول أن تقترب مني، وقد أحببتها فعلا، بل كتبت الأشعار في حبها. وأعتقد أنها كانت تنتظر مني أن أقرب منها، وأبثها أشواقي، وأصارحها بأني أحبها، لكنني كنت عندما تجمعني بها صدفةً أجد الكلام ينحشر علي لساني. وأغلب الظن أنها وضعت إصبعها في الشق – كما يقال عندنا في الريف – وتأكدت أنني لن تواتيني الجرأة علي أن أبادلها حبا بحب لاسيما بعد هذا الموقف الذي سوف

أحكيه الآن: فبعد حصولي علي الشهادة الثانوية ذهبت إلي القاهرة لاستكمال دارستي الجامعية، وكان قد بقي لها سنة في الثانوية، وتصادف أن ذهبت هي الأخرى للسكن مع أخيها في طنطا الذي استأجر شقة مع اثنين من أقاربي، وأعتقد الآن أن هذه كانت فرصة مواتية للاقتراب منها وتوثيق رابطة الحب بيننا. ولكن الذي حدث هو شيء مضحك جدا يستحق أن يروى بجدارة في هذا الموقف. فعندما كنت أتأهب للمرور علي قريبي اللذين يسكنان في حجرة مقابلة لحجرتها، لم أكن أخطط لكيفية اللقاء بها، والجرأة في مخاطبتها، واستنطاق مشاعرها، وشراء هدية لها مثل زجاجة عطر وما إلي ذلك، وترتيب فرصة للانفراد بها وبثها لواعج الأشواق، وتعريفها بالمعانة التي أكابدها في حبها. والمرأة - كما يقول زوربا اليوناني مخاطبا رئيسه - : " هل ستصدق ما أقوله لك يا ريس؟ إن المرأة سر رهيب، ولديها جرح لا يندمل أبداً. فكل الجروح تندمل، أما جرحها فلا يندمل، وإياك أن تسمع غير ذلك. أجل، جرحها لا يندمل أبداً. فماذا يكون الحال حينما يصل سن المرأة ثمانين عاما؟ إن جرحها يظل مفتوحاً". هكذا كان يفكر زوربا وهو يتعامل مع امرأة عمرها ثمانون عاما، أما أنا وأنا أتعامل مع امرأة عمرها سبعة عشر عاما فلم أكن أعرف ما الذي ينبغي علي أن أفعل.

ولذلك بدلا من أن أفعل ما يفرضه علي الحب والعشق والتوله والاندجاب ألجأ إلي وسائل شكلية تثير السخرية أكثر مما تزيد الحب. وعلي سبيل المثال فإني أرtdي أفضل حلة عندي، وهي مهما كانت جميلة في نظري، فإتها في نظر الآخرين لن تزيد عن كونها مسخرة. وفي هذا الصدد أذكر أننا ونحن طلاب في الجامعة أخذنا مع الأستاذ صورة جماعية، عندما أنظر إليها الآن أموت علي نفسي من الضحك: فأنا أرtdي بنطلونا قصيرا يشبه بنطلون فواد

المهندس في إحدى مسرحياته، وقد شُدَّ البنطلون بحزام رخيص الثمن، فوقه قميص وبلوفر كأنهما مشتركان من سوق الكانتو، ومن أجل الشياكة والأناقة المفرطة وضعت علي عينيَّ نظارة شمسية هي العجب العجائب بعينه. وأذكر أن كل من يري هذه الصورة ينفجر في الضحك لأن المنظر في غاية العجب. ولاشك أنني الآن أرتدي هذه البدلة متوجها إلي قريبي ونيتي في الأساس هي أن تراها سمية. و بالفعل فإن ما حدث عند دخولي الشقة أن سمية كانت ذاهبة إلي المطبخ. نظرت إلي ولعلها وجدتني مثل البلياتشو، أو لعلها استحسنت البدلة، لا أدري، لكنني لم أجرو علي أن أقول لها كلمة واحدة، علي الأقل كان ينبغي أن أحییها لكن خجلي الذي يعقل لساني منعني من ذلك، ولهذا كان كل همي هو أن أنظر إلي بزتي و أغوص في أعماقي لأن هذا هو الطريق الوحيد للخروج من هذا الموقف العجيب.

موقف شبيه بهذا حدث لي في فرنسا قبل أن تأتي إلي زوجتي صفاء، وإن كان أكثر انسجاماً مع الأفكار التي في داخلنا عن المجتمعات الأوربية، فقد كنا نعتقد أن المرأة متاحة في كل وقت وفي أي لحظة. وهذا يمكن أن يكون صحيحا، لكنه لا ينطبق إلا علي الرجل الجريء الذي يستطيع أن يخلق الفرص في أي مكان في العالم، أما الشخص الخجول فإن الفرصة لو جاءت طائعة مختارة - كما هو حالي - لن يستطيع انتهازها. ولذلك كان أعضاء البعثة يختلفون في تعاملاتهم مع النساء مثلما يختلفون في أشياء كثيرة أخرى. فمنهم من كان يأخذ نفسه ويجلس في حديقة أو أي مكان عام ويتأمل البنات من حوله، ثم يقترب من واحدة تجلس بمفردها. يجلس إلي جوارها ويجرجرها في الحديث إلي أن تقع الفأس في الرأس، فتمتد العلاقة بينهما، وقد يأتي الوقت الذي يأخذها فيه لتعيش معه في شفته بدلا من أن تعيش

وحدها في شقة أخرى. وهذا أمر متاح جدا في المجتمعات الأوروبية، فقد كنا نعثر علي إعلانات في بعض الميادين لأشخاص من الجنسين تقول: أريد أن أتقاسم الشقة مع شخص من الجنس الآخر، ويذكر هاتفه ويحدد المواصفات المطلوبة. وبالفعل كان أحد زملائنا العرب يسكن مع فتاة جامعية جميلة في ربض من أرباض باريس.

أما الفاشلون في توثيق أي علاقة نسائية مثل العبد لله فكانوا يقومون بأفعال تثير الضحك مثل صاحبينا اللذين قررا أن يذهبا معا إلي الشارع الذي تقدم فيه العاهرات أنفسهن للزبائن. تقدما إلي واحدة منهن ودفع كل منهما المبلغ المطلوب، وما إن وصلت إلي الشقة المؤجرة لهذا النوع من الخدمة حتى أحضرت طبقا متوسطا من البلاستيك فكت فيه زنتقتها من البول، هكذا عيني عينك، مما أصابهما بالقرف الشديد، وغادرا المكان غير آسفين علي المبلغ المدفوع. أما بالنسبة لي فقد حدث أن تعرفت علي فتاة غير متعلمة، ولعلها كانت قادمة من إحدى القرى للعمل في أي مهنة بباريس. التقينا لفترة غير قصيرة، وكنا نذهب معا إلي حمامات السباحة، وربما نبقى طوال اليوم في هذا المكان، لكن لم تواتني الجراة أبداً للدخول معها في علاقة قوية. وذات يوم طلبت منها أن نقضي يوما في شقتي. حضرت في الموعد المحدد. وكان علي أن أعد لهذا اللقاء: غداء محترم، ومشروبات مختلفة الأشكال والألوان، لكنني لم أنتبه لذلك علي الإطلاق، ولم أفكر إلا في الهجوم عليها بدون أي مقدمات. وبالطبع كانت المفاجأة غير سارة بالنسبة لها فتركتني وغادرت إلي غير رجعة. وهكذا مازلت أنا نفس الشخص الذي لم يجرؤ علي مخاطبة سمية. صحيح أنني استخدمت في باريس خطة الهجوم المباغت، لكن الفعل هو نفسه، والنتيجة واحدة. إذن فالمسألة كانت تحتاج إلي خبرة لا أمتلكها. تقول

لي: إذن كيف عقدت علي صفاء التي تنتظر مجيئها إليك، وهي جامعية متخرجة من كلية الطب؟ أقول لك: إن ما حدث تم من خلال الآخرين: الأهل، والجيران، إضافة إلي الوجه الجامعي المرموق، والمستقبل الذي يبشر بالخير، والاستقامة، والتفوق وغير ذلك من مواصفات يطلبها الأهل. وكل هذا في واد والجرأة علي استمالة المرأة في واد آخر. وإن كان هذا لا يمنع أن تحبك المرأة التي اقترنت بك لأن عامل الجرأة أو عدم الجرأة انمحي تماما، بل إنك في هذه الحالة تنقلب إلي شخص آخر لديه الجرأة، والمهارة، والمكاشفة، وتلمس مواطن العاطفة وإثارة التوهج لدي المرأة.

أيضا جاءتني الفرصة لإشعال موقد الحب مع أجمل فتاة في قريتنا. كانت أجمل من سمية وأكثر نضوجا، وقد التقينا في الليالي المقمرة، وكنت أطلع إليها فأراها أجمل من القمر السارح في أجواز الفضاء. صارحتني بحبها لي، وأنها تريدني في النهاية زوجا وعشيقا ومن أجل ذلك ترفض كل من يتقدم إلي أهلها لخطبتها. كانت طالبة في المرحلة المتوسطة بعد الثانوية العامة، وقالت لي إنها مستعدة أن تنتظرنني لما بعد تخرجي من الجامعة. ومع كل هذا الحب والاعتراف والوعد فضلا عن جمالها الصارخ وجلوسنا وحدنا لم أرتكب معها أي فعل خارج عن حدود العفاف، بل قلت لها: يا أسماء، لا أستطيع أن أعدك الآن بشيء لكنني أحبك. وهكذا مرت الأيام وباعد الزمان بيني وبينها، لكن تصرفي تجاهها مازال يصيبني بالندم لاسيما عندما أتذكر أنني بعد أن تخرجت من الجامعة ذهبت والدتي لتخطب لي هذه الفتاة أو تلك، وكان معظمهم يرفضون لعدم وجود أي صلة بيني وبين أي واحدة منهم. وأقول الآن لنفسني: كانت أمامك أسماء التي أحبتك حبا جما، لم تنتبه إليها، ولم تحس بها

وتركت والدتك وخالاتك يعرضنك علي كل من هب ودب. أين كان عقلك؟
ولماذا بدا موقفك من أسماء شديد التناقض، ظاهر الغفلة، ناقص الوعي؟
وعندما أتأمل ما حدث لي مع أسماء، وكيف لم أستوعب حب هذه الفتاة
الجميلة لي، مع رقتها، وأنوثتها، وعفتها، أرجع الأمر كله إلي حالة الفقر،
هذا إذا تخلّيت عما أسميته قلة الوعي. فالفقر - كما قال عبد الله بن المقفع -
رأس كل بلاء، وداع إلي صاحبه كل مقت، وهو مسببة للعقل والمروعة،
ومذهب للعلم والأدب، ومطية للتهمة، ومقطعة للحياء .. وليس من خلة هي
للغني مدح إلا وهي للفقر ذم. فإن كان شجاعا سُمي أهورج، وإن كان جواداً
سُمي مبذراً، وإن كان حليماً سُمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سُمي بليداً، وإن
كان لسنا سُمي مهذاراً، وإن كان صموتا سُمي عيباً". وما يهمني في كلام ابن
المقفع هو أن الفقر مسببة للعقل. وهذا ما أشعر به تجاه تلك الفترة من حياتي
لأنني لم أستوعب أي اقتراب من جهة الأنتى تجاهي، ولم أحاول أن أكون أنا
البادئ بوضع الشباك أو تجهيز السنارة للصيد. وما حدث مع أسماء حدث مع
أخريات أوقعهن في حبي حظهن العاثر فلم يقابلن بالاستجابة المطلوبة.
يحدثني أصحابي الآن عن أسماء بعد أن عرفوا قصتي معها فيقولون: كانت
لفرط جمالها وروعة جسمها وامتلائه عندما تمر علينا ننهض من جلستنا
ونمشي وراءها لما يقارب المائة متر نتأمل في جمالها ودقة هيكلها، وثقة
خطوتها، وهي بدورها لم تكن تبدي امتعاضها من ذلك، وربما تكون هذه سمة
المرأة الجميلة. فهذه إذن هي أسماء التي اقتربت مني وابتعدت عنها غير
مقدر لخطوتها تجاهي، وعندما قررت أن أتزوج توجهت إلي غيرها فكان
نصيبي هو الرفض و النكران. أليس هذا مظهرا من مظاهر الفقر الذي عشته
بكل صنوفه وأشكاله؟ فقر علي المستوى المادي، وفقر علي مستوى الوعي،

وفقر علي مستوى الاختيار. وها أنت يا أسماء اليوم، بعد أن عاد إلي وعيي، وعاد إلي عقلي، وبعد زواجي من أجمل امرأة وهي سناء المهدي، مازلت تخترقين حواجزي التي أوصدت دونك، ومازلت أتذكر الأوقات التي قضيتها معك ثم انصرفت علي النحو الذي ورد في أبيات لجميل تقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة	بوادي القرى إني إذن لسعيد
وهل ألقين سعي من الدهر مرة	ومارث من حبل الصفاء جديد
وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسه	وقد تطلب الحاجات وهي بعيد
وهل أزجرن حرفا علا شمله	بخرق تباريها سوابق قود
علي ظهر مرهوب كأن نشوزه	إذا جار هلاك الطريق وفود

أما الفتاة التي هامت بي، ولم تلق مني إلا الصدود فهي سلوان سلام. كانت زميلتي في المرحلة الثانوية، ثم التحقت بكلية الآداب والتحقت أنا بكلية دار العلوم، وانتقل كلانا للعيش في القاهرة، أنا في المدينة الجامعية وهي مع أختها التي يعمل زوجها بالقاهرة. كانت هذه الفتاة تحب أحد زملائي في المرحلة الثانوية، وارتبطت به بعلاقة قوية لدرجة أنه كان يفاخر بهذه العلاقة. لم تكن صارخة الجمال، لكنها كانت امرأة عادية، نحيفة القوام، متوسطة الحجم، وإن كانت تمتلك وجها وشعرا كثيفا مسترسلا، وابتسامة محببة، لكن أهم ما يميزها مشاعرها الفياضة، وقلبها المتوهج، وذكاؤها الحاد، وحبها للقراءة، وتطلعها إلي أن تكون امرأة متميزة لها دور في المجتمع، وحضور لا تخطئه العين. ولهذا تخلت تماما عن الشخص الذي أحبته، ووجدتها تحاول أن تقترب مني. كانت تبعث إلي برسائل تطلب مني أن أزورهم في بيتهم الواقع في وسط القرية والقريب من بيوت أقارب والدتي،

وكانت تقول لي إن أهلها لن يعترضوا علي هذه الزيارات لأنهم يعتبرونني زميلا لها. والحق أن أبناء وبنات جيلنا كانوا يعتبرون هذه الأمور طبيعية جدا. لم تكن قد ظهرت بعد الأفكار المتشددة، ولم يكن قد انتشر الحجاب ثم النقاب، والخوف من أي علاقة بين الرجل والمرأة، فجميعنا زملاء في الدراسة، نتبادل الكتب والمذكرات، ونتناقش فيما قرأناه. ولم يكن ثمة خوف من علاقات أئمة أو غير ذلك. فالمرأة هي المرأة والرجل هو الرجل، ويمكن أن يكون الخجل الكامن في أعماق النفس أقوى من الحجاب والنقاب. فالمسألة في النهاية ليست مجرد مظهر، وإنما هي خاضعة للتربية والسلوك والإحساس بالآخر، والعفة، والقناعة وغير ذلك من عناصر تمنع الشخص من الوقوع في الخطيئة.

و ذات ليلة لبيت دعوة سلوان. أخذت الطريق من بيتنا الواقع في أطراف القرية إلي بيتهم في وسطها. مررت بشوارع واسعة وأراض خالية لم تزحف عليها المباني بعد، ثم مررت بشوارع ضيقة لا يتعدي عرضها مترين، ومعروف أن الشوارع في بلادنا حتى في المدن لاسيما في المناطق العشوائية تتسع حسب رغبة السكان أو تضيق حسب رغبتهم أيضا. وصلت إلي بيتهم الواقع في حارة ضيقة لكن أمامها مساحة واسعة، ربما هي أرض لم يبن عليها أصحابها بعد. طرقت الباب فخرج لي أخوها الذي يصغرها بسنتين أو ثلاث، وهو طالب في الشهادة الثانوية. سلم علي بحرارة، ثم مر بي علي والده ووالدته فسلمت عليهما. رَحَّب بي الوالد الذي يعمل مزارعا مثل والدي، ثم دلفنا إلي المندرة، وهي في القرية تساوى ما يسمى بالصالة أو حجرة الجلوس. كانت سلوان جالسة علي كنبه موضوع عليها مرتبة صغيرة ومساند وقماش ملون، وأمامها المكتب الذي تستخدمه في المذاكرة، وعليه

كلوب يمنحها إضاءة جيدة، وعلي الحائط المواجه مكتبة صغيرة من الخشب تحمل كتبها الدراسية، وبعض الكتب الخارجية لكبار أدباء العصر مثل عباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي، ويوسف إدريس، ولويس عوض، ونجيب محفوظ وسواهم. قالت لي إنها مستمتعة حالياً بقراءة ثلاثية نجيب محفوظ، والقاهرة الجديدة، وناقشتني بصورة خاصة حول " القاهرة الجديدة" وكيف استطاع نجيب محفوظ تجسيد شخصية بطلها محبوب عبد الدايم الذي باع شرفه وكرامته في مقابل وظيفة. قلت لها: هذه هي حالة المصريين دائماً: إما فقر مدقع وإما غني فاحش. ثم أضفت: لا أعتقد أن المصريين سوف يخرجون من هذه الحالة. قالت: لكن عبد الناصر فتح أمام المصريين طريق التعليم المجاني والتفوق. قلت لها: وما هو السادات يبدأ في إغلاق هذا الطريق، ولا ندرى ماذا سيفعل من يأتي بعده؟ ثم أردفت: الحاكم عندما لا يترك الحكم إلا إذا توفي أو قتل، وهناك كلام كثير عن أن عبد الناصر مات مسموماً، ثم خلفه نائبه، وهذا النائب يرث الحكم بموجب استفتاء شكلي يتم تزويره كما هو معروف ومعلوم.

قضينا وقتاً لا بأس به نتجاذب أطراف الحديث ومعنا أخوها، وعندما تأهبت للمغادرة أعطتني كراسة بها ثلاث وثلاثون صفحة مكتوبة بخط جميل قائلة لي: اقرأ هذه الكراسة فأنا أحس أن طريقتنا واحد، وسوف نتناقش حولها فيما بعد. قرأت الكراسة فوجدت المكتوب فيها يطرح موضوعات كثيرة، أهم ما فيها حبها لي، وتمنيها أن أبادلها حباً بحب، وأن ما شדהا إلي هو ثقافتها الواسعة وتفوقها، و أنها تتنبأ لي بمستقبل واعد. ثم إنها لم تغفل الجانب الجسدي، فأنا في نظرها رجل بمعنى الكلمة سواء في شكلي المتميز أو

مظهري الجذاب الذي يجعل أي امرأة تعجب بي، هذا إذا كانت تتمتع بنفس توجهاتي.

استمرت هذه العلاقة العفيفة بيننا لفترة إلي أن جاء وقت دعنتي فيه أن أزورها في القاهرة. ركبت الحافلة ذات عصر من أمام المدينة الجامعية متوجها إلي منطقة الحسين التي تسكن بها؟ كانت الحافلات أيامها تتأخر كثيراً، ثم تمتلئ بالركاب من الجنسين. وجدت لي مكانا بالعافية – كما يقال –، ووصلت إلي منطقة الحسين. دخلت في شوارع ضيقة حتى وصلت إلي البيت. كان عبارة عن شقة في الدور الأرضي ضمن مبني مكون من ثلاثة أدوار. طرقت الباب ففتحت لي سلوان، وجلسنا في الحجرة المطلة علي الشارع والمخصصة لها. الحجرة لا تختلف في شيء عن المندرة الريفية، تضم كذلك كنبه مفروشة يغطيها قماش ملون، وأمامها مكتب للمذاكرة، ومكتبه خشبية تحمل عددا من الكتب الدراسية والخارجية. بدت لي سلوان وكأنها نقلت حجرتها التي في القرية إلي هنا. جلست سلوان إلي جانبي علي الكنبه، ودار بيننا حديث ممتع وجددتي أثناءه أنشد لها أبياتاً لابن الفارض عن العشق والعشاق، وهنا وجدتها تلتصق بي وتقبلني، ولا أدري إلي الآن لماذا لم أتجاوب معها؟ هل كان الأمر مفاجأة بالنسبة لي؟ أم أنني لم أكن متأهبا لهذه اللحظة التي جاءتني علي حين غرة؟ أم أنني لم أكن أحب سلوان حبا حقيقيا؟ كل هذه الأسباب جائزة، لكنني سألت نفسي بعدها: ما الذي حدث لي؟. المهم أنني بعد ذلك مباشرة ودعت سلوان وسرت أتخبط في الشوارع والحارات الضيقة، وكأني أنا الآخر قد ضاقت بي الأرض بما رحبت.

ركبت الحافلة وأنا لا أدري بما يدور حولي، وانطلقت بي النفس في فضاء عجيب، مثل شخص تائه لا يدري في أي مكان هو. كان الناس في الحافلة

يتزاحمون ويحتكون وأنا لا أدري بشيء لأنني كنت جالسا أتجول مع سلوان
من يوم أن عرفتھا حتى تلك اللحظة التي حاولت أن ترتشف معي فیھا كأسا
من كنوس الحب. قلت لنفسی: هل أخطأت سلوان فی اختیار اللحظة؟ أم أن
معرفتي بأنها كانت تحب أحد أصدقائي هي التي حالت بيني وبينها؟ لكني
مازلت إلي الآن أتذكرھا وأعيش معها لحظات طويلة حتى بعد أن تزوجت
صفاء البطراوى وسناء المهدي. إنها شئون الحب والحياة التي لا تتقضي
أبدأ.

ذات يوم وجدت صفوان جالسا في المكان الذي يتخذ في العادة للقراءة وهو كنبه الأنترية الأسبوطي الموجود في الصالة الواسعة التي تضم إلي جانب الأنترية طاولة سفرة أو بالأحرى حجرة سفرة كاملة، وصالونا مذهبيا. وضع صفوان علي الترابيزة عددا من الكتب. نظرت إليها فوجدت من بينها "فصوص الحكم" لمحي الدين بن عربي، و"المتنوى" المكوّن من ستة أجزاء لمولانا جلال الدين الرومي، وديوان شمس تبريز لمولانا أيضا، ومقالات شمس التبريزي، وكتب أخرى في التصوف للسُّهروردي وفريد الدين العطار وسواهما. رأي صفوان أحملق في الكتب فقال لي: يا صفاء، إن التصوف أحد العلامات المهمة في حياة البشر. أضاف: وأنا أدرس في باريس سألت أستاذًا مهتمًا بالتصوف: لماذا حصل المسلمون علي مكانة واسعة في مضمار التصوف؟ فرد عليّ قائلا: إن التصوف هو العلم الذي قدم فيه المسلمون إنجازات عالمية لا مثيل لها، ولهذا فإنه يحظى باهتمام كبير من جانب المستشرقين. وأردف: هل تعرفين أن المستشرق الانجليزي نيكلسون قضي ثلاثين عاما من عمره في دراسة المتنوى وترجمته إلي اللغة الانجليزية؟

سكت صفوان قليلا ثم قال لي: هل تعلمين يا صفاء أن كتاب " فصوص الحكم" هو الكتاب الذي يمثل خلاصة مذهب ظل يضطرب في صدر ابن عربي لمدة نيف وأربعين عاما، وهو لا يجرؤ علي الجهر به في جملته، ولا يخرجها في صورة كاملة إلي أن صاغه في هذا الكتاب الذي أثار في نفوس بعض الناس الحيرة والشك وأثار في نفوس آخرين الإعجاب والتقدير. إن كتاب "

فصوص الحكم" هو الأكثر تأثيراً في تشكيل العقيدة الصوفية في عصره وفي العصور التي تلتها، لأنه وضع مذهب وحدة الوجود في صورته النهائية، مدعماً بالمصطلحات الصوفية التي استمدّها من مصادر مختلفة كالقرآن الكريم، والحديث النبوي، وعلم الكلام، والفلسفة المشائية، والأفلاطونية الحديثة، والغنوصية، والرواقية، وفلسفة فيلون اليهودي، إضافة إلى مصطلحات القرامطة، والإسماعيلية الباطنية، وإخوان الصفا، ومتصوفة الإسلام السابقين عليه. ويقول دارسو ابن عربي إن هذه المصطلحات التي استخدمها حملت سمته الخاصة وأخذ كل منها معنى جديداً يتوافق مع روح مذهبه العام في وحدة الوجود.

كان صفوان يتحدث بحماسة شديدة فقال لي: إن التصوف هو أكثر التيارات والمذاهب تسامحاً في الإسلام، ولهذا لا نجد فيه تعصبا أو انحيازاً لفكر معين لاسيما إذا كان ينطوي على نوع من التعصب أو الدوجماتيكية. ومن السمات البارزة في التصوف، وخاصة عند ابن عربي إهمال منهج العقل، والأخذ بمنهج الرمز، والإشارة، والتصوير العاطفي، والاعتماد على الأسلوب الخيالي في التعبير. ولهذا كان ابن عربي أستاذاً لشمس التبريزي الذي أثر بدوره تأثيراً حاسماً على مولانا جلال الدين الرومي. ويقول العلامة الانجليزي نيكلسون واصفاً أسلوب ابن عربي في الفصوص: "إنه يأخذ نصاً من القرآن الكريم أو الحديث النبوي ويؤوله بالطريقة التي نعرفها في كتابات فيلون اليهودي وأريجن الإسكندري. ونظرياته في هذا الكتاب صعبة الفهم، وأصعب من ذلك شرحها وتفسيرها، لأن لغته اصطلاحية خاصة، مجازية معقدة في معظم الأحيان، وأي تفسير حرفي لها يُفسد معناها، ويمثل الكتاب في جملة نوعاً خاصاً من التصوف المدرسي العتيق الغامض".

أعطاني صفوان كتاب" فصوص الحكم" قائلا: لابد أن تقرئي هذا الكتاب لأنه سوف يجعل صدرك أكثر رحابة، وسوف يجعلك بمنأى عن أي فكر متشدد أو متعصب، وسوف يمنحك مرآة جديدة ترين من خلالها أن الأديان كلها واحدة لدرجة أن من يشركون بالله أو يعبدون الأصنام – في نظر ابن عربي – فإنهم عبَاد لِلَّهِ الحق. قرأت الكتاب ووجدت أنه – علي الرغم مما قيل عن صعوبته – أكثر كتب ابن عربي قربا من الفهم. فقد قال الشيخ الأكبر بوحدة الوجود، وصرَّح بأن الحق والخلق حقيقة واحدة لا تمايز بينها إلا في وجوب الوجود الذي هو للحق خاصة. أما العبادة عند ابن عربي فمعناها مختلف عما نفهمه منها. فالمعبود عنده هو الجوهر الأزلي القديم المقوم لجميع صور الوجود، والعايد هو الصورة المتقومة بهذا الجوهر. وهكذا فإن كل صورة ناطقة بالوهمية الحق، وكل معبود من المعبودات وجه من وجوهه. ويستشهد ابن عربي في هذا الجانب بالآية الكريمة: "أينما تولوا فثم وجه الله"، أي أن البشر مهما عبدوا فإنهم لا يعبدون إلا الله. قال تعالى: "وقضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه". وفي هذا قال ابن عربي: "حكم وقدر أزلا أنكم لا تعبدون غير الله مهما تكن صور معبوداتكم".

وقد رتبَّ ابن عربي علي هذه الفكرة ما ورد في آخر الفصل رقم 21 من أن كل البشر سوف تنالهم الرحمة عن طريق الامتنان الإلهي. ونص كلامه: "إن كل اسم إلهي علي انفراده مسمي بجميع الأسماء الإلهية كلها: إذا قدمته في الذكر نعتُه بجميع الأسماء، وذلك لدلالاتها علي عين واحدة، وإن تكثرت الأسماء عليها واختلفت حقانقتها، أي حقائق تلك الأسماء. ثم إن الرحمة تنال علي طريقين: طريق الوجوب، وهو قوله: فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة" وما قيدهم به من الصفات العقلية والعلمية. والطريق الآخر الذي تنال

به هذه الرحمة هو طريق الامتتان الإلهي الذي لا يقتصر به عمل، وهو قوله: " ورحمتي وسعت كل شيء"، ومنه قيل: " ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر"، ومنها قوله: " اعمل ما شئت فقد غفرت لك" فاعلم ذلك".

وكان صفوان قد طلب مني كذلك أن أقرأ كتاب المثنوى، وعقب علي ذلك بقوله: إن هذا الكتاب أثر قليل النظر، وهو من أهم الذخائر الأدبية الإيرانية، ومن أهم الكتب التي يقرأها المتشوقون إلي العرفان، والسالكون درب الطريقة، وهو يبعث في القارئ حالة من الوجد والشوق والتأثر والانفعال. قلت لصفوان: وهل نحن سنكون من السالكين طريق التصوف؟ قال: لا أقصد هذا، ولكني أريد أن تعرفي أن المعارف الإنسانية لا حدود لها، لاسيما عندما تتأملين في معتقد مولانا جلال الدين الرومي من أن الصوفي المؤمن، والسالك المخلص لا يثبت وجود الله بالعقل، بل يحس بذلك علي نحو ملموس بالقلب، وذلك أن الحكمة الصوفية حكمة ذوقية. فالواصل عند المتصوفة الكبار من أمثال مولانا وشمس التبريزي والجنيد وفريد الدين العطار وغيرهم هو الشخص الذي تحرر من نفسه واتصل بالحق، وبناء علي ذلك فإن الوصل هو نهاية السير إلي الله إذا أنهى السالك مراحل السلوك وتطهر من الصفات البشرية. وفي هذا يقول أحد المتصوفة: " الوصل أن يفني العبد عن أوصافه ويبقي بأوصاف الحق". وقد قال مولانا في المثنوى: فالتمس أمر الحق عند أحد الواصلين، فليس كل قلب بمدرِك أمر الحق".

ومن هنا جاء ارتباطه الشديد بشمس التبريزي، وكان شمس مثل كل المتصوفين يؤمن بالقلب لا بالعقل. وهذا ما أكد عليه مولانا في المثنوى، حيث قال:

متى يمضي العقل في طريق اليأس؟

العشق هو الذي يتقدم مسرعا إلى تلك الناحية.

فالعشق هو الذي لا يبالي ، لا العقل.

العقل ينشُد ما يستفيد منه.

وقد تحدث جلال الدين عن الصلة التي جمعت بينه وبين شمس التبريزي قائلا: " تعلمون أنني قبل لقاء شمس كنت عاشقا للكراسة، أجلس متصدراً الأدباء. وعندما رأيت جبين الساقى سكرت وكسرت الأقلام. والآن أقوم بالخدمة. أسعي وأجتهد في سَوْقُ أحبائي أو أحباء المعرفة إلى الجمال والكمال والحال المتصلة بجمال الكشف والوجد والإشراق. ولا شك أن هذا تم بمساعدة ربة العشق، لأن العشق فضيلة، صحة في العمل، أساس لغني الباطن، منبع كل ضروب الجمال والكمال. العشق، لقد وجدت جوهر الحياة وإكسيرا في العشق".

ويري العارفون أن الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها هي العشق. ولشهاب الدين السُّهروردي تعريف دقيق للعشق يقول: " العشق عمل كيميائي يوجب تغير مذاب تراب المعشوق، وببركة ذلك تبرز كل الإمكانيات المتجاوزة لطاقة البشر عند العاشق، حتى إن المعشوق يغدو في النهاية مثل ملاك، تتجلي فيه أنوار الحق. وللعقل سيرٌ في عالم البقاء، وله صفة الماء، وحيثما حل ظهرت الخضرة والحسن والرونق. والعقل والعشق أحدهما ضدٌّ للآخر، ولا يتحدان. وحيثما ألقت شعلة نار العشق شعاعا تجَمَد العقل واشتغلت المطبعة". وكما قال أحد المتصوفة فإن العشق هو بُراق السالكين، ومركب السائرين، وكل ما يدخره العقل في خمسين عاما يحرقه العشق في لحظة واحدة، فيظهر العاشق ويصفيه.

كان صفوان وهو غارق في بحار العشق يضمني إليه ويقبلني، ويتلو علي أبياتا من المثنوى، وأخرى لمحبي الدين بن عربي من ديوانه المشهور "ترجمان الأشواق"، وفي هذه المرة قرأ لي أبياتا لفريد الدين العطار، وهو من مواليد 540 هـ، ويقول العارفون إن روح الحسين بن منصور الحلاج تجلت بعد خمسين ومائة عام في روح العطار، وهذه هي أبياته:

انزع القلب من الروح لكي يؤذن لك بالدخول
وتعطي مُلك العالمين بأهة واحدة
ولو أنك ظللت تحترق كالشمع كل ليلة حتى السحر،
لأعطيت تحفة من النقد الذي يعطي في السحر.
ولو أنك صرت سائلا يقف عند عتبة بابه،
لأعطيت في كل لحظة مُلك مائة ملك.
ومن دون علم الفقر، الطريق مظلم،
ولو أعطيت ألف وجه للألاء كالقمر.

سألت صفوان: إنني لا أستطيع أن أستوعب علاقة العشق القوية التي ربطت بين مولانا جلال الدين وبين شمس التبريزي. رد صفوان: ذكرت لك من قبل كلمة أحد المتصوفة عن أن العشق هو براق السالكين ومركب السائرين، وعقيدة المتصوفة تقوم علي أن سالك الطريق لابد أن يتعلق بأهداب عاشق آخر سبقه في هذا المجال، ومن هنا جاء قولهم: كل ما يدخره العقل في خمسين عاما يحرقه العشق في لحظة واحدة. ولهذا كان مولانا يقول: "كل من يحيا بعشق شمس سيبقي دانما حيا. شمس يعلم الراغبين و الطالبين المصادر الأبدية للسعادة والمحبة. شمس شفقي، شمس فلكي،

شمس انعكاس لأصداء قلبي، شمس مجرة آمالي، شمس تصوير للمحاسن. إنه صوت الحقيقة الموزون، وطنين العشق في الأرض. شمس أيضا يحبني محبته لهدب عينيه. وقد قال مرات كثيرة إن لي في الدنيا كلها محبوبا واحداً هو جلال الدين البُلخي".

كان مولانا يري في شمس التبريزي بحراً زاخراً، وعالماً مطلعاً علي كل علوم عصره ومعارفه. ويقال إن حضور مولانا أمام شمس في أول الأمر كان مصحوباً بشيء من الخوف والاضطراب، لكنه عندما تأكد أن نار الاشتياق التي ظلت تحرق وجوده علي مدي سنوات مشتتة في شمس أيضاً هداً واطمأن. وقد تعلم مولانا من شمس دروس الوجد والحال والهديان، وعلي سلم العشق صعد إلي سقوف الملكوت، وهنا استطاع أن يصف عظمة الكائنات وجلال الخالق الأعظم، وأن يعلن أن العشق معجزة إلهية، وأن العارفين هم مظهر العشق. وقد قال مولانا في "المنثوى":

إن للغيب سحاباً وماء آخرين كما أن له سماء وشمساً آخرين
ولا يظهر ذلك إلا للخاصة أما الباقيون ففي لبس من خلق جديد

وقد قارن مولانا بين ما كان يعلمه السوفسطانيون في اليونان موضحاً أنهم لا شأن لهم بالحقيقة، وبين ما كان يعلمه شمس، فقال: "أما شمس فقد أسمع عشاق الحقيقة نغماً جديداً، وأثار كل ظلمات وجودي - هكذا يقول مولانا - وأرشدني إلي مختلي التوحيد. وبقوة العشق، الذي هو الأساس لتصفية الإنسان وتزكيتة وتعالیه، أضاء قلبي المتعب المشتاق، وأثبت أن حقيقة وجود الإنسان ليست زمانية ولا مكانية، لأن الإنسان العاشق يتخطى حدود الزمان والمكان. نعم، لقد أرشدني إلي أتون العشق".

قلت لصفوان: أريدك أن تشرح لي أيضا ارتباط الطريقة المولوية بالموسيقى والرقص والانشاد. قال: لقد كتب العلامة الانجليزي نيكلسون في تفسيره للمثنوي قائلا: إن ارتباط التأثير الروحي للموسيقى بالروح أمر أزل. ففي أثناء الاستماع تسمع الأرواح من جديد عين الخطاب الإلهي، ذلك لأن كل أرواح البشر في عالم الأبد تجاوبت مع هذا الخطاب، وبنفس الطريقة تناغمت مع أناشيد جيش السماء"، ولهذا قال مولانا جلال الدين في ديوان "شمس تبريز":

يا مطرب الروح إذا صار الدف في يدك فاعزف هذه النغمة،
فإن الحبيب جاء ثملا
وعندما أظهر المعشوق (الصنم الفتان) وجهه صار القمر في
الفلك عابداً للأصنام
وذرات العالم، عشقا لتلك الشمس جاءت راقصة
من العدم إلي الوجود
اعزف هذه النغمة، فإن المشتري جاء من الفلك، من
أجل المنكسرين، إلي القاع

أضاف صفوان: أما عن أهمية الرقص عند الصوفي، فقد أجاب علي ذلك شهاب الدين السهروردي في كتابه "حقيقة العشق" بقوله: يريد الروح أن يرتفع، مثل الطائر الذي يريد أن يرمي بنفسه من القفص. قفص الجسد يكون مانعا، وطائر الروح يقوى فينفصل عن قفص الجسد. فإن كان للطائر قوة عظيمة كسر القفص وانصرف، وإذا لم تكن له هذه القوة واضطرب وحرك القفص معه ظهر أثناء ذلك معني الغلبة من جديد. طائر الروح يريد أن يرتفع،

وإذا لم يستطع القفز من القفص فسيحمل القفص معه أيضاً. ومع أنه يهتم أن يرتفع مائة مرة يعجز الطائر عن تخليص نفسه من القفص والارتفاع وحيداً، إذ يرفع الطائر القفص، ويقع القفص من جديد علي الأرض". ولا شك أن كلمة وحيداً هنا هي التي تحدد وتشرح لنا العلاقة بين شمس التبريزي ومولانا جلال الدين الرومي، فالسالك لا بد له من مرشد يُفسح له الطريق، والمرشد هنا هو شمس. وفي هذا يقول مولانا في "المتنوى":

إن الحق، بين الآخرين، ظاهر جلي كالبرق بين نجوم السماء

فضع طرفي إصبعين فوق عينيك وانظر هل ترى من العالم شيئاً

ألا فلتكن منصفاً فتنبه وارفع إصبعك عن عينيك ثم شاهد بعد ذلك ما تشاء

وقد خاطب شمس مولانا ذات مرة قائلاً: "يعلم مولانا أنه ما دام شمس موجوداً هناك عشق، ومادام العشق موجوداً فإن مولانا أمام عيني يتلأأ مثل كوكب الزهرة. سوف يظل نبض قلبي علي الدوام يتردد نغماً محبباً في فضاء وجودي، وذلك هو صدئ الإسم الشريف لجلال الدين، مولانا. ومع أنني، في الظاهر، لن أراكم مرة أخرى، فإن قلبي وروحي سيكونان، فوق شريط الزمان المرتجف، تحت تصرفكم كلما أردتم، سأكون أمامك دائماً. وبقينا سوف نسمع صوتي المتألم المتهدج عندما أقول ملتصقاً: يا مولانا، أسعف العاشقين، تذكرني".

قلت لصفوان: إن العلاقة بين شمس تبريز ومولانا جلال الدين الرومي هي من أعجب العلاقات في التاريخ وأكثرها إثارة للوجد والمخيلة. قال: فعلا،

إن هذه العلاقة لا تقل في إثارتها عن العلاقة بين موسى عليه السلام وبين الخضر. فقد قال له موسى: هل أتبعك علي أن تعلمني مما علمت رشداً؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر علي ما لم تحط به خُبراً، قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. لكن كما هو معروف في هذه القصة العجيبة فإن موسى لم يستطع أن يستوعب تصرفات الخضر في خرق السفينة، وقتل الغلام وإقامة الجدار، ففسر له الخضر هذه الأمور ثم قال: ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً. أما العلاقة بين شمس تبريز ومولانا فقد بقيت متوهجة، متناغمة، متنامية، ثم أدت إلي التحول الخطير في حياة مولانا من فقيه معلم، ودارس متعمق، إلي عاشق متيم يحمل الأمانة ويصل إلي القصد. ولهذا قال في المثنوى:

تعلم من كليم الحق، أيها الكريم
وانظر إلي ما يقوله الكليم من الشوق
فمع هذا الجاه والنبوة عنده قال:
أنا طالب للخضر، بريء من الغرور والعجب.

قلت لصفوان: منذ فترة غير قصيرة ونحن نتناقش حول العشق لدرجة أننا نسينا عشقنا المتوهج، فهلا دخلنا إلي حجرة النوم وارتويينا نحن من أنهار العشق؟ قال: بلي. هيا بنا نرتوي. ذكرني صفوان بالحديث النبوي الذي جاء فيه: "وفي بضع أحكم صدقة. قلنا يا رسول الله: أيقضي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال نعم، أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟. وفي هذه الليلة كان لكنوس العشق التي شربنا منها كثيراً أثر في احتدام الشوق، وتأجج المشاعر، وامتزاج الشهوة الجسدية بالسمو الروحاني. كانت

سحائب العشق و الذوبان تحلق فوقنا ونحن نتوهج جسداً وروحاً. نسيت نفسي تماماً ودخلت في عالم من النشوة و الصفاء لم أحس به في حياتي. لم أقل لصفوان "لا" في أي شيء اندمج من خلاله مع جسدي، ولم أحل بينه وبين أي طريقة أراد أن يجربها، لدرجة أنه قال لي: لو كنت أعلم أن عشق المتصوفة سوف يجعلك تتحولين من عاشقة عادية إلي عاشقة من نوع آخر لأحضرت إليك كتب التصوف منذ فترة طويلة. قلت له: ولو أنني أدركت هذا السر لاشتريت لك بنفسني هذه الكتب.

صحونا في الصباح الباكر، واجتهدت في أن أقدم لصفوان طعام الإفطار الذي يحبه، وهو المكوّن من فول وطعمية وبطاطس مقليّة، وخيار وخص. وأثناء الأكل قلت له: لقد عشت في باريس، وكان من المفروض أن تحب الإفطار الكونتينيّنال المكون من أجبان ومأكولات بسيطة. رد علي قائلاً: ونحن طلاب في المرحلة الثانوية كان يدرس لنا مادة اللغة العربية أستاذ خفيف الظل، سريع البديهة، يميل إلي التكيّك و التكيّك، حكى لنا ذات يوم أنه ذهب مبتعثاً إلي الصومال، فكان زملاؤه من الصوماليين يسخرون من المصريين قائلين إنهم يدمنون أكل الفول والطعمية، فأسرّ ذلك في نفسه وعزم أن يدعوهم في بيته علي أكلة فول وطعمية، لكنه طلب من زوجه ألا تكثر من الطعمية، وعندما حضر المدعوون وشموا رائحة الطعمية صاروا أسري لتلك الرائحة الجميلة النفاذة، وعندما حضرت المائدة تخاطفوا أقراص الطعمية التي خرجت للتو من الطاسة المملوءة بالزيت. وعلق الأستاذ علي ذلك بقوله: كانت زوجتي بارعة في عمل الطعمية، وهي تضيف إليها أنواعاً من التوابل وقليلاً من التقلية التي تجعلها شهية ولذيذة. سأله: وماذا كان رد

فعل المدعويين بعد ذلك؟ قال: ألقموا حجراً وتوقفوا تماماً عن السخرية من المصريين آكلي الفول والطعمية.

قلت لصفوان: إن ذاكرتك من حديد، لا تكاد تنسي شيئاً حتى ولو كان بسيطاً. وكل شيء عندك مهما كان شأنه له دلالة وله قيمة، فمن أين جاءتك هذه الذاكرة؟ قال لي: وأنا طفل كنت أتمتع بشيء لا يتاح بسهولة لكل الناس، وهو ما يسمى بالحاسة السادسة أو الحدس، حيث يمكن أن أرد علي أي سؤال انطلاقاً من هذه الحاسة. لا أتردد، ولا أتلعثم، وتأتي الإجابة صحيحة. قلت: هل توقعت أن تكون أستاذاً جامعياً وأديباً؟ قال: نعم، بل إنني في أثناء فترة الإعدادي والثانوي كنت أشعر وكأني أمضي علي بساط جامعي، وفي الوقت نفسه، لاسيما في المرحلة الثانوية كنت أتابع ما يكتب في الجرائد، وأقرأ لكبار كتاب العصر، وأذهب إلي قصر الثقافة في المدينة لكي أحضر كتاباً أو كتابين. وبذلك كان طريقي مزدوجاً: تعليم وثقافة.

عندما وصلت إلي باريس وفرغت من إجراءات التحاق بالدراسات العليا كنت أذهب في الصباح إلي الكلية. وقد تعرفت علي عدد كبير من الطلاب والطالبات، وبالتالي لم أعد أحس كثيرا بالغربة، وهي غربة يتصور المرء أنها غير ملحوظة لكنها في الواقع ملتصقة بالنفس وبالحواس والمشاعر وبكل كيان الإنسان. فما الذي يمكن أن يعوض الإنسان عن أشياء كثيرة تعود عليها حتى لو كان من بينها الفقر والتعب والمشقة؟ فهذه كلها أشياء تسكن في المسام وتتغلغل في الأعماق حتى ليصير الانتقال منها إلي وضع آخر بديل مسألة في غاية الصعوبة. وأذكر أنني أجريت حواراً مع شاعر عربي في باريس آثر أن يعيش منفياً لأنه لا يجد نفسه في بلده الأصلي فحدثني عن الغربة بمفهومها النفسي، بمعنى أن الإنسان يمكن أن يعيش في بلده لكنه يحس بالغربة في داخله، وبذلك تتحول إلي غربة نفسية. أما أنا فكانت الغربة عندي ذات شقين: الشق النفسي الذي جعلني في رسالي إلي صفاء أستعجلها في ترتيب أمورها حتى تصل إليّ في أقرب وقت ممكن، والشق الواقعي الجسدي الذي جعلني في حالة توهان علي الرغم من الحياة المريحة الممتعة، والشوارع النظيفة الشفافة، والأمطار التي تهطل كثيرا فتزيح الرماد والأتربة، والحدائق والمنتزهات المنتشرة في كل مكان، والأشجار العالية التي تبدو وكأنها غرست لتفئ علي الشوارع من ظلالها وخضرتها اليانعة. لكن كل هذه الأشياء الجميلة لم تنتشلني من حوارتي القرية وزقاقها المقفولة، ولم تغني عن رفقة الأصدقاء وحياتهم المغلفة بالفقر والفاقة، ولم تبعديني عن المناظر المقرزة التي كنت أراها في المدينة. قلت لنفسي: هل جُبل الناس علي أن

يتعايشوا مع واقعهم حتى ولو كان أليما ومشوها؟ أم هو حب الأوطان الذي قال عنه الشاعر:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

كانت فترة المساء بالنسبة لي طويلة لاسيما في الفترات التي ينشغل فيها الزملاء بأنفسهم، ومن ثم أخذت أقسم وقتي الممتد بين أشياء، من أهمها القراءة، ومشاهدة بعض الأفلام المهمة التي تعرض علي شاشة التلفاز، أمريكية كانت أو فرنسية، وكانت هذه الأفلام مدبلجة، أي ناطقة باللغة الفرنسية، وكانت هذه فرصة لإتقان هذه اللغة التي درستها في المرحلة الثانوية. وقد شاهدت خلال تلك الفترة أفلاما في غاية الأهمية مثل أحذب نوتردام، ودكتور زيفاجو، وأفلام أنطوني كوين وسواه من الممثلين الكبار، والأفلام التي تتناول قصصا ومعارك عن الحرب العالمية الثانية، والأفلام الخاصة بالهنود الحمر .. أفلام كثيرة جدا شاهدتها واستمتعت بها. كذلك من الأمور التي شغلت نفسي بها التجوال في شوارع باريس وركوب الحافلات. وقد جعلني هذا التجوال أتعرف علي أماكن كثيرة مثل الأسوار التي تبيع الكتب القديمة بأسعار مخفضة تتفق مع دخولنا نحن المبعوثين، والأماكن السياحية، والقصور والمتاحف وغير ذلك.

لكن القارئ سوف يعجب مما أقصه عليه الآن: فأتثناء جولاتي اكتشفت وجود إعلانات معلقة علي واجهات بعض القاعات. سألت ففيل لي: إنها قاعات ديسكو ومراقص مخصصة للشباب من الجنسين، تفتح أبوابها ليلا وتستمر حتى ساعة متقدمة من الصباح. قلت لنفسني: من المهم أن أدخل إحدى هذه القاعات وأري ماذا يحدث بداخلها. قطعت تذكرة، ودخلت. كنت مثل

شخص تائه لا يعرف المكان المتوجه إليه. فهذه أول مرة في حياتي أدخل مكانا كهذا لا صلة له بسنواتي الماضية في الريف أو في المدينة. فالريف معروف بعباداته وتقاليده وأجوائه وساحاته. وكان الناس أيامها يخلدون إلي النوم بعد العشاء مباشرة. والسنوات التي عشتها في المدينة كانت مقسمة بين المدينة الجامعية والكلية، وربما دخلت حديقة الحيوانات أو تريضت في مكان آخر، لكنني لم أكن أعرف أن هناك قاعات للتسلية والرقص والترفيه. كنا نسمع عن شارع الهرم لكننا لا نملك الجرأة لا مادي ولا معنوي للدخول في أحد كباريها. كنا نعرف أن هذه الأماكن مخصصة للعرب وللشواح القادمين من شتي أرجاء المعمورة، فهو لاء متاح لهم أن يستمتعوا بما لا يقدر عليه عامة المصريين. وهانذا أدخل قاعة من هذا النوع بتذكرة رخيصة. نظرت إلي القاعة فوجدتها واسعة جدا، وشبه مظلمة، لا يتخللها إلا بصيص من نور ينطلق من أماكن مختلفة علي شكل أشعة تنطلق في القاعة دون أن تمنحها الضوء. وفي مكان جانبي متوسط من القاعة توجد فرقة موسيقية كاملة تصدر عنها أنغام وتوقيعات وأغنيات مخصصة للرقص. والشباب من الجنسين يرقصون علي وقع هذه الأنغام. تأملتهم جيدا في هذه العتمة المهيمنة فوجدت الوجوه مشرقة، والثغور باسمة، والصدور لاصقة بالصدور، والأذرع محيطة بالخصور، والملابس خفيفة تكاد تشف عما تحتها من نهود بارزة، وسيقان متناسقة، ووجوه مؤهلة لقضاء وقت ممتع حتى لو كان العناق والتلاقي بين رجل وامرأة لا يجمع بينهما حب، ولا تربطهما أية علاقة روحية كانت أو جسدية.

تأملت هذا المشهد سويعة ثم قررت أن افعل مثلما يفعل الجميع. تقدمت نحو فتاة جالسة وحدها، وتخيرتها امرأة جميلة طويلة القامة، دقيقة الخصر،

حسنة الوجه، مناسبة الشعر. ألقيت عليها تحية المساء، فردت عليّ. طلبت منها أن تزامنني في الرقص فاعتذرت بحجة أنها لا ترغب هذه الليلة في النزول إلي الحلبة. تركتها وذهبت إلي أخرى لا تقل عنها جمالا، لكنها أقصر قامة. وافقت. نزلنا إلي الحلبة. وجدتها بارعة في الرقص بينما أنا أتعثّر. كنت أبدو أمام نفسي مثل درويش في حفلة ذكر علي النحو الذي كنت أراه في المساجد الكبرى بعد الانتهاء من صلاة الجمعة. أخذت أتمايل لا أكثر ولا أقل ، وأنطلق مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال، لا أعرف كيف أضع يدي علي خصرها، ولا أعرف كيف أقترّب منها قريبا يشبه العناق، لكن الشيء الوحيد الذي أحسست به هو حالة من الإثارة الجنسية لم أستطع السيطرة عليها فقمعتها خوفا من أن تؤدي إلي أن تغادر الفتاة الحلبة. وكنت قد سمعت أن هذه القاعات أماكن للترويح عن النفس، والهياج، والصخب، والانتعاش، والتعرف علي الجنس الآخر، وليست أماكن للتلامس الجنسي. اقتربت أكثر من الفتاة ونحن نرقص، فتعرفت عليها وتعرفت عليّ. علمت أنها طالبة بإحدى الكليات الجامعية، وأنها تسكن في إحدى المدن القريبة من باريس وبالتالي فإنها مضطرة للمغادرة في الساعة الحادية عشرة مساء لأن الحافلة التي تقلها إلي بلدها تنطلق في اللحظة المحددة بدقة متناهية، وهي الحافلة الأخيرة. بعد أن فرغنا من الرقص جلسنا علي طاولة وطلبت مشروبين. وكانت هذه الجلسة فرصة للتعرف عليها أكثر.

حدثتها عن الحياة في بلادنا، وعن الآثار الكثيرة الموجودة عندنا. قالت لي إنها قرأت كثيراً عن الفراعنة وآثارهم، وتمنت أن تأتي ضمن وفد سياحي إلي القاهرة، وتزور أسوان والأقصر لاسيما معبد الأقصر، ومعبد حتشبسوت، والآثر الباقي من طريق الكباش، ومعبد الكرنك، وتستمتع بركوب باخرة نيلية.

أدركت أن لديها إماما شبه كامل بالآثار المصرية بما في ذلك الآثار الإسلامية في القاهرة، لأنها قالت لي: لا أعتقد أن هناك مكانا في العالم به آثار مثل الموجودة عندكم من منطقة القلعة إلي منطقة السيدة زينب. قلت لها: لا ينقصك فعلا إلا أن تأتي إلي القاهرة وتشاهدي هذه الآثار علي الطبيعة. سألتها عن اسمها فقالت سوزان. سجلت عنوانها وتليفونها، وأعطيتها عنواني متمنيا أن تكون لنا لقاءات أخرى. كنت أعرف أن صفاء سوف تصل من القاهرة خلال شهور، ولكني لم أشاء أن أفوت فرصة الاقتراب من هذه الفتاة ولو من خلال صداقة بريئة.

عندما التقيت بالشاعر العربي الكبير، وكنا قد اتفقنا علي أن نلتقي مرتين في الأسبوع علي أحد المقاهي، حكيت له ما حدث لي في المرقص، وتعرفني علي فتاة فرنسية اسمها سوزان، قال لي: ونحن هنا في باريس ليس لدينا وقت للتعارف، وشد الحبال، والمجاذبات، والدخول في قصص حب، لأن الأوضاع الآن في كل أنحاء أوربا اختلفت عن الأزمنة السابقة. فقيما كان يمكن للمبتعث أن يحب فتاة، وتبادل له الحب، وتنتهي العلاقة بالزواج. فعل ذلك طه حسين أثناء دراسته في باريس، وفعل ذلك كثيرون غيره، وكانت القيم التي مازالت موجودة إلي الآن في الشرق هي القيم الموجودة في باريس وفي غيرها من المدن الأوروبية، مثل الشرف، والحب، والوفاء، والرغبة في الزواج لتكوين أسرة. الآن الأوضاع اختلفت، وأصبحت المرأة الأوروبية أسيرة اللحظة، تريد أن تعيشها بكل ما لديها من رغبة في المتعة، ولذلك من السهل جدا أن تترك زوجها لتصير عشيقة لآخر، يستحوذ عليها ويمهد لها طريق المتعة مهما كانت خارجة عن العُرف أو غير مشروعة. بل إن أوربا – في السنوات القادمة – سوف تتحدر إلي نوع آخر من المتعة الشاذة، ولذلك انظر

حولك تجد الشواذ من الجنسين يعلنون عن أنفسهم في بجاجة لا مزيد عليها،
ولسنا ندرى إلا ما سينول بهم هذا الوضع.

أضاف الشاعر الكبير: انس هذه الفتاة وغيرها وتعال معي الآن نقضي
ليلة في شوارع باريس وزقاقها البعيدة عن الأنظار. انحدرنا في الشارع
الكبير الذي كنا نجلس فيه أمام المقهى. مررنا علي بعض دور السينما
والمسارح التي تعلن عن أفلام ومسرحيات جديدة. كانت الأنوار ساطعة وكأننا
في ساعة من ساعات النهار، وما إن دخلنا أحد الشوارع الجانبية علي اليمين
حتى خفت الضوء وتضاءل عرض الشارع. سرنا فيه مسافة غير قليلة، ثم
انحدرنا إلي شارع آخر جهة اليسار. عندئذ قال لي الشاعر: هنا سوف تجد
طلبتك: بنات في عمر الزهور، فانتات الوجه، عاليات القامة، دقيقات الخصر،
ذوات شعر مناسب، وابتسامات رقيقة، يقدمن المشروبات بصورهن العارية
لزبائن المحل. صحيح أن المشروبات غالية لكنها متعة لا تجدها إلا في هذه
الأماكن. وهذا النوع من اللباس العاري والذي لا يستثني منه إلا تلك الغلالة
الرقيقة التي تغطي العضو الأنثوي يسمونه هنا "توبليس".

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة، فقلت له: نحن إذا سنكون
وكأننا في أحد شواطئ العراة؟ قال: أجل، ولكن مع فارق كبير هو أن شاطئ
العراة يضم العجائز ومتوسطات العمر وهؤلاء مترهلات الجسم، كذلك هناك
الشيوخ من الرجال و لا تكاد تعثر إلا علي عدد قليل من النساء في سن
الشباب. أما هنا في حانات التوبليس فإن الفتيات يتم اختيارهن بدقة شديدة:
جميلات، فانتات، طويلات القامة، ممتلئات لكن في غير ترهل. ولا بد أن تكون
الفتاة عريضة الابتسامة، جذابة، تفهم في أصول تقديم المشروب للزبون.

أضاف الشاعر الكبير: أوروبا يا عزيزي تعيش الآن عصر المتعة، وهم يتفننون في ذلك وكأنهم لم يخلقوا إلا للمتعة.

دخلنا الحانة. كانت الأنوار خافتة لكنها كافية للنظر والاستمتاع. تخيرنا طاولة في مكان جانبي تضم كرسيين. ولم نلبث إلا قليلا حتى جاءت فتاة في قمة الرشاقة، عارية الصدر، رقيقة، خلابة. قدمت لنا قائمة المشروبات قائلة: نتمني أن تجدا هنا ما تبثخان عنه من متعة وسعادة. رد عليها الشاعر قائلا: ما جننا إلا لكي نراك ونستمع بالنظر إليك. ضحكت وذهبت إلي زبائن آخرين ثم عادت إلينا. طلب منها الشاعر مشروبا روحيا، وطلبت أنا عصير فواكه. والحق أني في هذه الليلة لم يكن يهمني إلا شيء واحد، هو النظر إلي كل فتاة تمرق من أمامنا، ومحاولة تبين الفروق بين النهود المختلفة التي كان يجمع بينها شيء واحد هو صلابتها وتحديدها لكل غوائل الزمن. قلت في نفسي: من المؤكد أن أمثال هؤلاء الفتيات لم يعملن في هذه الأماكن إلا بدافع من الحاجة الشديدة إلي المال، فالجو بارد ومع ذلك لا يستر أجسادهن الغضة أي ساتر. أليس هذا نوعا من العودة إلي عصر الإمام؟ إن أوروبا الآن تعيش عصر العبودية النسائية بكل تفاصيله. فالكثيرون يتاجرون في النساء إما بافتتاح شقق للدعارة أو بأماكن كهذه تستخدم فيها المرأة عارية لجذب الزبائن. همست إلي الشاعر الكبير بهذه الخواطر، فقال لي: معك كل الحق. إن أوروبا الآن تتاجر في كل شيء بمن في ذلك النساء، اللاتي تضطرن الظروف القاسية إلي قبول أي مهنة. وفي ختام السهرة صافحنا الفتاة التي قدمت لنا المشروبات، ولولا أن حريتي لا تتيح لي أن أتعدى علي حريات الآخرين علي النحو الذي شرحه الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر في فلسفته الوجودية لمددت يدي نحو جسدها البض ولمست مكامن اللذة عندها، لكنني آثرت أن

أكون متحضرا وأن أحفظ للمكان الوضع الذي أنشئ من أجله. قال لي الشاعر الكبير: أرجو أن تكون قد استمتعت هذه الليلة. قلت له: استمتعت، هذه مسألة لا شك فيها، ولكنني خرجت بانطباع سيء عن وضع المرأة في أوروبا، وأتمني من أعماق قلبي ألا نصل إلي هذه الدرجة في مجتمعاتنا الشرقية التي مازالت - علي الأقل في الظاهر - تحافظ علي كرامة المرأة.

في الصباح استيقظت مع طلوع الشمس، خرجت إلي الشرفة وألقيت نظرة إلي الحديقة التي يطل عليها المبنى فرأيت الأفق ينداح في ذلك الخلاء الواسع، ورأيت الشمس وهي تهب من مرقدها، وكأن جفنيها مازالا ينفتحان علي الأفق أو كأنها مازالت تقاوم سنة النوم. جلست قليلا فرأيت الشمس تزيج عن نفسها خيوط الليل لترتدي حلة جديدة قرمزية اللون، تتجهز للتحويل إلي ألوان أخرى علي رأسها اللون الأصفر الزاهي. تأملت المنظر جيدا فوجدت حاشية من الأضواء تفتح الطريق أمامها مثل ملك تتقدمه حاشيته. وعلي الرغم من هذا الطلوع المبهر للشمس كانت السماء ملبدة ببعض الغيوم، ومن ثم بدت السحب وكأن جذوة من نار أو نور قد سلطت عليها. ففي هذه اللحظة بالذات لا يستطيع المشاهد المفتون مثلي أن يفرق بين هذين العنصرين، فهل هي نار تضطرم أو نور يتألق بألوانه المختلفة؟. وعندما بدأت أشعة الكون تداعب الكائنات نظرت إلي الأشجار فوجدت أشعة الشمس تخالط حبات الندي في أوراق الزهر المنتشر فتبدو مثل حبات من الماس يصدر عنها ضوء متلألئ يضيء علي الكائنات كثيرا من الألوان المختلفة البديعة. أما الطيور فكانت تستيقظ من غفوتها، وتنطلق في الفضاء الفسيح صادحة، مجلجلة، ومعبرة عن فرحتها بطلوع النهار، وابتسامة الصباح التي تغزو الكائنات وتعطيها الأمل في الحياة.

وعلي الرغم من أنني عشت في الريف سنوات طويلة لم أنتبه يوما للحظة طلوع الشمس. وهأنذا في باريس أتأمل هذا المنظر بكثير من الشغف والانبهار. فهل الحياة في الريف لم تقدم لنا هذا المنظر بالشكل الذي يليق فنسيناه أو تناسيناه بسبب انشغالنا بهمومنا الخاصة؟ أم أننا كنا بعيدين عن الطبيعة بينما نحن نعيش في داخلها؟ أم أن شئوننا الصغيرة ومعاناتنا المستمرة حالت بيننا وبين الاستمتاع بجمال الطبيعة؟

لا جرم أن تأمل لحظة طلوع الشمس في باريس ملأت عليّ كل كيائي، لكن كانت هناك صورة أخرى لم تفارقتني هي صورة الفتاة الجميلة التي قدمت لي المشروب في الحانة. أخذت أتأمل في هذه الصورة التي اقتحمتني عارية تماما بكل ما تملك من ثمار الأثوثة: قامة ممشوقة، وساقان ورديان، ونهد متماسك، لا يحتاج إلي حامل صدر، وشعر مفروق أصهب، ووجه منسجم الملامح، وشفتان قرمزيتان، و ذراعان ممتلئان. فهل هناك امرأة أجمل من هذه؟ نعم، كل من كن في الحانة كذلك مع بعض الاختلاف البسيط. ولذلك كانت هذه المرة الأولى التي أقول فيها لنفسي: لماذا تعجلت بعقد قراني علي صفاء؟ أما كان بإمكانني أن أنتظر حتى أصل إلي باريس وأختار للزواج امرأة فرنسية؟ ولكني طردت هذه الفكرة بسرعة قائلا لنفسي: صحيح أن صفاء ليست بهذا الجمال الفاتن لكنها تمتلك صفات ومقومات أخرى مهمة: فهي جامعية درست في كلية مهمة، وجسمها متناسق وجميل، وأسرتها طيبة، وهي سوف تعيش معك علي الحلوة وعلي المرة، ثم إنها - وهذا هو الأهم - مخلصة، وقد أحبتك وأحبتها. تدل علي ذلك رسائلك إليها ورسائلها إليك. أما عن المرأة الفرنسية الآن فأنت لا تستطيع أن تتأكد من وفائها وأنت ترى الحياة في الغرب علي النحو الذي رأيته.

قلت لنفسى هذا الكلام ثم دخلت الشقة أجهز طعام الإفطار، وبعد ذلك أذهب إلى الجامعة. وفي الكلية حضر لنا أستاذ لأول مرة ليعطينا مادة تحضيرية عن الروائي الفرنسي جوستاف فلوبيير ورائعته المعنونة "مدام بوفارى". كان من الواضح أن هذا الأستاذ مهتم بنفسه جدا وبمظهره وهو ابن أستاذ آخر في نفس القسم، لكنه يختلف كثيرا عن أبيه من حيث المظهر والأداء.

اتصل بي صفوان وقال لي إنه سوف يذهب إلي الكلية أولاً ثم يأتي إلي في حوالي الساعة الثالثة مساءً. قلت له: وأنا سوف أذهب إلي المدرسة وأعود في نفس الموعد تقريباً لكن إلي الفيلا، وكنت قد تعودت أن أعيش مع الوالد والوالدة أثناء غياب صفوان. نزلت في وقت مبكر، وكما هي العادة قمت بجولة في حديقة الفيلا أتأمل خلالها أشجار الفيكس، والأكسيا، وسرو الليمون، والنخيل البلدي، و الصبار، والجارونيا، والحبك، والفل، والريحان، واليوكا الخضراء، والدورنتا، والورد البلدي، وأطلع إلي الأشجار المثمرة مثل الجوافة، والبرتقال، واليوسفي، والبرقوق، والتفاح، والعنب وغيرها. وكنت قد طلبت من الجنائني أن يحضر لنا شجرة زيزفون تيمنا برواية ألفونس كار الذي عرّبها مصطفى لطفي المنفلوطي تحت عنوان " ماجدولين" أو " تحت ظلال الزيزفون". وهذه الشجرة غير منتشرة في مصر، و لكن الجنائني استطاع أن يحصل عليها وهي تشبه شجرة السرو المنتشرة علي ضفاف الترعة، أو شجرة الكافور.

كنا في فصل الربيع، فبدأ الصبح وكأنه إشراقة ابتسامة راقية، عذبة، تنشر البهجة والصفاء والحب. أما سنابل النور الذهبية فكانت تنداح منطلقاً من شمس الربيع الدافئة، ومختلطة بالنسمات الرقيقة المنعشة، وبدأت الحديقة تتوهج بالخضرة وتكتسي بالأوراق الخضراء الزاهية، والورد البلدي المتفتح يمتد في أنحاء المكان ملوحاً برغبته في أن يقطف كي ينتقل من ذوابة شجرته إلي أيدي البشر. و لا أدري لماذا كان يداخني إحساس قوى بأن صفوان يقطف الوردة ليهدئها إليّ، فأستنشق أريج الورد مختلطاً بنشوة

الحب. إن حبي لصفوان متوهج دائما. وصفوان عندي مثل هذه الحديقة الجميلة التي تبعث في نفسي إشعاعات سحرية تتخطي حاجر العادى المألوف لتصب في عمق الكائن الإنساني بما يحمل من أشواق وآمال وطموحات وأسرار.

كنت أعرف أنني بمجرد خروجي من هذا المكان الجميل سوف أصطدم بكثير من التشوهات التي اخترعناها اختراعا في بلادنا: شوارع مترية وغير نظيفة، تنتشر أكوام القمامة في كثير من أركانها، وفوضى مرورية عارمة، ونفير سيارات مزعج لا يتوقف أبدا، ومضايقات، ومزاحمات حيث يتصور كل سائق لأي سيارة ملاكي كانت أو أجرة أو شاحنة أو عربة نقل صغيرة أو كارو، أو عربة قمامة أنه أحق بالطريق دون غيره، ناهيك عن الحفر والمطبات، وحالات الإزعاج من كل شكل ونوع. ومما لاشك فيه أن كل هذه التشوهات تصب في النهاية في حركة المدرسة بصفة خاصة، وحركة التعليم بصفة عامة. فالناظر والمدير والمدرسون والمدرسات نماذج مختلفة من البشر، وكل منهم صورة طبق الأصل من المكان الذي نشأ فيه مع استثناءات قليلة وفقا للثقافة، وطريقة التعليم، والرغبة الكامنة داخل النفس فيما يتعلق بالانعتاق من هذا الكيان أو الدخول فيه ومسيرته والانسحاق تحت وطأته.

حضر صفوان في مواعده فاستقبلته بالأحضان، وأذبت الشوق الذي بداخلي في قبلة طويلة، وكأنها أول قبلة نتبادلها معا. دلفنا إلي الصالة، وسلم صفوان علي الوالد وجلس معه، وتوجهت أنا إلي المطبخ لمساعدة الوالدة التي تحتفي دائما بقدوم صفوان وتعذ له الأطعمة التي يحبها. تناولنا طعام الغداء في الحديقة، ومن عادة صفوان، أثناء الأكل أن يثني علي براعة الوالدة ومهارتها قائلا: "من حظ أستاذنا زواجه بامرأة جميلة و بارعة في

فن الطهي، ومن حظي أني قطفت ثمرة هذا الجمال واستمتعت بموائد لم تخطر علي بالي من قبل". وكانت هذه الكلمات تنشر البهجة علي وجه الوالدة وتؤدي إلي توردها خديها واتساع ابتسامتها.

جلسنا نستنشق الهواء العليل في الحديقة، ونتذكر الأيام الماضية لاسيما في فترة الخطوبة عندما كان صفوان يود لو اختلس مني قبلة، وكنت أمنيته بأن الأيام قادمة ولا ينبغي الاستعجال. طلب مني صفوان أن أعد نفسي للسفر معه إلي إيران لمدة أسبوع للمشاركة في مؤتمر تعد له وزارة الخارجية الإيرانية يتناول مسائل سياسية وأخرى ثقافية. قلت له: هل عرضت الموضوع علي صفاء؟ قال: أجل، ولكنها لا تستطيع أن تترك الأولاد. ولاشك أني اعتبرت هذه الرحلة من حظي لأنني سافرت من قبل إلي أوروبا والآن سوف أذهب إلي بلد شرقي ، لاسيما وأنني قرأت كثيرا حول تاريخ الفرس وحضارتهم وثقافتهم وإسهاماتهم القوية في الثقافة العربية. لكنني سألت صفوان: هل وافقوا لك علي اصطحاب زوجتك؟ قال: أجل، لأنني اشترطت عليهم ذلك، فقالوا ليس لدينا أي مانع.

في يوم السفر كان موعد إقلاع الطائرة في العاشرة مساء. خرجنا من شابين الكوم بعد الغروب بقليل. كانت الشمس قد جمعت أشعتها، وتركت المكان للنسمات الدافئة تأتي من جميع الأركان، والخضرة التي كانت تزين وجه النهار تحولت إلي لون داكن، وإن كان يتجاوب مع ما بقي من لون قرمزي خلفته أشعة الشمس المنسحبة، وبدأ الليل ينشر رداؤه علي الكون الهادئ الساكن. انطلق بنا قائد السيارة فتمنيت لو كنا في فترة الخطوبة نختلس لحظة اقتراب، ولمس أياد، وتدقيق في النظرات، وترتيب لأشياء نظن أننا يمكن أن نغافل بها السائق المهتم بتلمس الطريق. قال لي صفوان: نحن

لم نزر إيران من قبل، ولكن لدي معلومات بأنها علي الرغم من حربيها مع العراق لمدة ثماني سنوات لم تقع في مستنقع الفوضى التي أراد الغرب وأمريكا أن تسقط فيها. وما هي الآن تستعيد قوتها بفعل التحدي الذي تواجه به القوى الكبرى التي تريد أن تظل منطقة الشرق الأوسط في حالة تخلف متواصلة. أضاف صفوان: إن العلاقات بين إيران وبين نظام مبارك سيئة للغاية، ولهذا فنحن مضطرون للنزول أولاً في الدوحة وركوب طائرة من هناك للوصول إلي طهران.

وصلنا إلي مطار الدوحة في الثانية صباحاً، وكان علينا الانتظار في المطار ثلاث ساعات لركوب طائرة الخطوط الجوية القطرية المتوجهة إلي طهران. قضينا أكثر من ساعتين في منطقة الترانزيت، نشاهد معروضات السوق الحرة ونتأمل في وجوه المسافرين القادمين من كل مكان. كنت أحس وأنا ممسكة بيد صفوان أننا مازلنا في فترة الخطوبة أو شهر العسل، وكان هو يقترب مني وكأنه يريد أن يقبلني أو يحتضني. لكننا - علي أية حال - لسنا في أوروبا، ولا يمكن أن نترك أنفسنا نهبا للعواطف. لكني قلت لصفوان: ألا تشعر أن أشواقك تزداد توهجا كلما كنا في مكان يضم أخلاطا من البشر؟ قال: بلي وكيف أستطيع أن أمسك نفسي وأنا أسير إلي جانبك؟ أضاف صفوان: جمالك يزيد تألقا وإبهاراً عندما نكون في بلد أجنبي. كنت أرتمي بنظولنا وفوقه بلوزة زاهية الألوان، وتركت شعري ينسدل علي كتفي من الجانبين لأنه كان مفروقا. أما صفوان فكان كعادته منسجم الملامح، رشيقا، ظاهر الهندام، يرتدي بدلة زرقاء، تحتها قميص أبيض، يحكمه رباط عنق يميل إلي الاحمرار، أما لون الوجه فكان رائقاً صافياً تطل منه ملامح الرجولة التي يكسوها شعر كثيف محلو، وشارب كث ينسجم مع ملاحظة الوجه. قلت

له: يا صفوان، إنك كرجل جذاب جداً للأنثى. فرد علي: ولكني قبل أن أعرفك كنت خائبا جدا و لا أملك أي جراءة تقربني من المرأة. صحيح أن صفاء هي الأخرى كان لها دور في اقترابي من المرأة، ولكنك كنت – ومازلت – صاحبة الدور الأكبر في جعل عالم المرأة مألوفا بالنسبة لي. وأضاف صفوان: لقد كان حالي قبل أن أتزوج مثل حال الشاعر القديم الذي قال:

شكونا إلي أحبابنا طول ليلنا	فقالوا لنا: ما أقصر الليل عندنا!
وذاك لأن النوم يغشي عيونهم	سريعا ولا يغشي لنا النوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضرب بذى الهوى	جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما	نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

وصلنا إلي طهران في ساعة متقدمة من الصباح، وكان الوفد المصري يضم عددا من رجال الأحزاب والصحافيين والمتقنين يصل إلي عشرة أفراد، وبعضهم اصطحب معه زوجته مثلما فعل صفوان. وجدنا وفدا من وزارة الخارجية في استقبالنا عددهم ثلاثة و سائق الحافلة، وكان الثلاثة يعرفون اللغة العربية معرفة تامة. استفسرنا عن ذلك فقالوا لنا إن اللغة العربية من أهم اللغات التي تدرس في مدارسنا، ثم إنها قريبة من اللغة الفارسية، وهناك تاريخ مشترك طويل بين هاتين اللغتين. أنزلونا في فندق خمس نجوم بني علي ربوة في وسط طهران، وحوله من كل الجهات حدائق غناء. كان أول ما أثار انتباه صفوان هو جمال المرأة الإيرانية ورشاققتها، لاسيما وأن بنات الجيل الجديد تخففن كثيرا من النقاب والحجاب الذي فرضته الجمهورية الإسلامية بعد انتصار ثورة الإمام الخميني وطرد الشاه. قلت لصفوان: إنك

دائما زانغ العينين، فرد قاتلا: وهل يمكن للمرء أن يري الجمال ولا يُعجب به؟

أضاف: ألم تقرئي البيتين المشهورين لجريز اللذين قال فيهما:

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحيين قاتلنا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

قلت لصفوان: لكنك دائما تتغزل في جمالي، ألا يكفيك هذا؟ قال: بلي، ولكني هنا أطرح سؤالا جديدا حول جمال المرأة الإيرانية، وذلك فيما يتعلق بهذه الكثرة من الجميلات، إضافة إلى الرشاقة وهي عنصر فاعل وفعال فيما يتعلق بالجمال. أما فيما يتعلق بك فلا شك أنك استثناء في جمالك الصارخ. أراحتني جدا هذه الإجابة، وانقشع ضباب الغيرة الذي انقض عليّ للحظات وأنا جالسة في بهو الفندق مع صفوان.

تجمع الوفد في الساعة التاسعة صباحا للذهاب إلي أصفهان وفقا للخطة التي وضعتها وزارة الخارجية. وكانوا قد خيرونا بين السفر بالطائرة أو بالحافلة فاخترنا الحافلة حتى نمر علي بعض المدن الإيرانية المهمة مثل قم. في الحقيقة كانت رحلة ممتعة. استرحنا قليلا في مدينة قم، وزرنا قبر الإمام الخميني، وشاهدنا المساحات الخضراء المنتشرة في كل مكان من مزارع وحقول وبساتين وأشجار عالية ونخيل. وذكرني انتشار الخضرة علي هذا النحو بما رأيته في فرنسا وإسبانيا. ودائما المصري في أي مكان في العالم يقارن ما يراه بما يحدث في بلده. فالأساس عندنا هو الكتل الخرسانية التي يمكن أن تزحف علي الأراضي الزراعية، أما الأساس هنا فهو الخضرة التي تمتع النظر وتنتشر البهجة، ولذلك كنت وأنا في الطائرة من دبي إلي طهران أجلس بجوار الشباك الصغير وأنظر إلي الأرض تحتنا فأجد الغابات الواسعة

ممتدة مثل بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض. وهكذا تمثلت هذا المنظر البديع الذي وصفه القرآن الكريم. فقلت في نفسي: لعل رحلتنا من دبي إلي طهران أرادت أن تقرب إلي نظري هذا المشهد القرآني المهيّب.

في أصفهان أنزلونا في فندق راق تحيط به الخضرة من جميع الجوانب، ولذلك كنا كلما خرجنا منه لركوب الحافلة نتطلع إلي المكان بعين تود لو استنطقت كوامن الجمال المهيمنة علي المشهد برمته: اتساع في الرؤية وكائنا في منطقة ممتدة تشبه الغابة، وتنسيق للأشجار وما يحيط بها من خضرة، ورصف معمول بدقة، وروابي مقسمة بطريقة هندسية، وكل ربوة تضم أشكالا من الزهور متناسقة فيما بينها. ذهنا أولا إلي بعض المراكز العلمية في هذه المدينة التاريخية، وكانت المفاجأة بالنسبة لي ولكل أعضاء الوفد أن العاملين في المراكز من الشباب رجالا ونساء، وقد سألت إحدى الفتيات عن عمرها والكلية التي تخرجت منها فقالت لي: عمري خمسة وعشرون عاما، وقد اشتغلت هنا بعد تخرجي من كلية العلوم. أضافت: كما تشاهدين فإن مدير المركز شاب في الثانية والثلاثين من عمره، ونحن نبذل قصارى جهدنا من أجل أن نتقدم إيران في الناحيتين العلمية والتكنولوجية. سألتها: وما هي اللغة التي تدرسون بها؟ قالت: اللغة الفارسية، وإن كنا نتعلم الانجليزية وبعض اللغات الأخرى كالعربية، وها أنت ترين أنني أجيد اللغة العربية. سألتها: لكن أليس لدراسة العلوم باللغة الفارسية تأثير سلبي علي معرفة العلم؟ قالت: كلا، فكل بلاد العالم تدرس العلوم بلغتها الأصلية مع بعض الاستثناءات. وأعتقد أن معظم الدول العربية تفضل دراسة العلم باللغة الانجليزية، بل إن الانجليزية عندكم – كما علمت – صارت هي الأساس في

التعليم من مرحلة ما قبل الابتدائية إلى الجامعة. قلت لها: هذا صحيح. والمشكلة عندنا أن المسؤولين مقتنعون بأن التعليم الآن لابد أن يتم بلغة العلم وهي من وجهة نظرهم اللغة الانجليزية.

بعد أن انتهينا من زيارة المراكز العلمية في أصفهان أحضروا لنا مرشدا سياحيا تجول بنا في المناطق الأثرية التي كان من أهمها قصر الحكام الصفويين، وبعض المساجد الكبرى. وقد لاحظنا سمو النسق المعماري وارتفاع بنيانه وعلو مكائنه، وكان المرشد يدلنا علي مكامن العظمة في هذا البناء أو ذاك، ومن الذي شيده، والهدف من تشييده، وغير ذلك من أشياء تدل علي عظمة الحضارة الفارسية تحت ظل الإسلام. ولم ينس المرشد أن يتحدث عن بعض العلماء من أصول فارسية الذين أسهموا إسهاما واضحا في بناء الحضارة العربية ومنهم الفيلسوف الشيخ الرئيس ابن سينا وقبره في همدان، وإمام النحويين سيبويه، والخوارزمي وسواهم. في المساء أخذونا إلي مبني المحافظة، وهو مبني عريق تحفه الخصرة أيضا من كل الجوانب، حيث التقينا بالمحافظ، ونائبه، وكبار العاملين في المحافظة. وقد أخبرنا المحافظ أن أصفهان مستعدة لاستقبال الطلاب المصريين للدراسة في جامعتها، وهي الآن جامعة مهمة يخرج منها العاملون في مجالات بحثية مختلفة علي نحو ما شاهدنا في بعض المراكز التي زرناها.

في المساء ودعنا أصفهان متوجهين بالحافلة إلي طهران. وعلي الرغم من تعبنا لم يشأ صفوان أن تضيق الليلة هباء، وإن كان قد اقتصد في مناقشاته ومداعباته قائلا لي: إن الأجواء الأجنبية تمدد بطاقة لا مثيل له. قلت له: لكن من الواضح أنك معجب بالمرأة الإيرانية، والزواج العرفي هنا سهل جدا. قال: أما אני معجب بالمرأة الإيرانية فهذا أمر لا أستطيع أن أنفيه، لأنني

فعلا معجب بجمال وجهها ورشاقة قدها، ولكني بعد زواجي منك أراك أجمل
النساء قاطبة، وقد سحرني جمالك ورشاقة قدك، ودقة خصرك، ورقة
ابتسامتك كما لم يسحرني أي جسد أنثوي آخر. ويكفي أنني أزداد منك قربا
كلما زدت توغلا في كيانك. لقد قرأت ذات مرة قصيدة للشاعر الألماني جوته
ترجمها زميلي الدكتور سيد أحمد فتح الله مزج فيها الشاعر بين تألق الكون
والطبيعة وتألق الحب. وقد حفظت هذه القصيدة لأنني وجدتتها تنطبق علي
حالتنا، وهاك أبيات منها. ويجدر بالذكر أن عنوان القصيدة " أنشودة مايو"
وها نحن في شهر مايو. يقول مطلعها:

من الكون ينساب نور بهيج

إلى القلب.

والشمس ألق يدور.

ويصدق في الأفق ضحك الحقول.

وفي كل فرع تفيض الزهور،

تغني الشجيرات ألف نشيد،

تعم السعادة كل الصدور.

فمرحي لأرض ومرحي لشمس،

ومرحي لهذا الرضا والسرور.

ويا حب ... يا أيها الحب أهلا ،

تألفت كالتبر حسنا ودلا،

وحلقت فوق الربا الباهرات،

كسحب الصباح بهاء وظلا.

في طهران زرنا أماكن كثيرة علمية وبحثية، وكنا في كل مكان نجد صورة للإمام الخميني، وإلى جواره صورة للمرشد الأعلى علي خامنئي. ومعظم الأماكن بها صالة للاستقبال واللقاء تضم طاولة مستطيلة تصطف حولها كراسي مريحة. ومن العادات الجيدة عند الإيرانيين أنهم يضعون أمام الحضور المشروبات والمكسرات من أي شكل ونوع، بحيث ينعم الحضور بالنقاش، وفي الوقت نفسه ينعمون بتناول المشروبات وغيرها مما هو موضوع على الطاولة. وعلى الرغم من أنني كنت مرافقة للزوج فإني كنت أشارك في النقاش، وأحاور، وأطرح بعض الأسئلة الصعبة لدرجة أن صفوان كان يغمزني في بعض الأحيان ويطلب مني التخفيف من حدة الأسئلة. ناقشت أوضاع المرأة في إيران، وذكرت أن الجيل الجديد من النساء بدأ يتخفف من قيود الفتاوى الإيرانية بخصوص المرأة، وتحدثت عن أن المجتمع الإيراني ينبغي عليه أن يكون أكثر انفتاحاً. وتحدث صفوان فقال إنه معجب بتحدي إيران للغرب، ومعجب بأنها تعتمد على نفسها ولا تركز إلى الاعتماد على القوى الأجنبية لاسيما الأمريكية والأوروبية لأن هؤلاء مهمتهم الأولى هي وقف زحف الشعوب الأخرى نحو التقدم والازدهار. فبينما هم حريصون على النهج الديمقراطي في بلادهم فإنهم يدعمون حكم الفرد والحكم الشامل المطلق في الدول الأخرى لأنهم يفضلون التعامل مع شخص واحد. أضاف صفوان: وهذه هي أزمنا الكبرى في العالم العربي: نعتد اعتماداً كاملاً على أمريكا والغرب في تسليحنا واقتصادنا وكل مناحي الحياة عندنا، ونخشى المواجهة معهم على نحو ما كان يقول الرئيس أنور السادات: إن 99% من حل القضية الفلسطينية في يد أمريكا، وها هي أمريكا تتبجح دائماً وتعلن أن أمن إسرائيل جزء من أمنها، وتقف إلى جانبها في كل المحافل الدولية حتى لو حصلت

إسرائيل علي صوتين فقط هما صوتها وصوت أمريكا. ومع ذلك فإن العرب لا يدركون أبداً خطأ النهج الذي ارتضوه للتعامل مع أمريكا والغرب. ومعروف أن الغرب لا يفهم إلا لغة القوة، ولكن المشكلة هي أن الحاكم العربي يتصور أن استمراره في الحكم هو النتيجة المنطقية لرضا الغرب عن تصرفاته، ومن ثم يستحيل إقناعه بغير ذلك، وهو الحاكم المطلق.

أحسست أن صفوان وهو يتكلم زادت نبرته حدة فأردت أن أفعل مثلما فعل معي حتى أخفف من حدة كلامه لكنني تراجعت لأتركه يعبر عن نفسه كما يريد قائلة لنفسى: لقد جننا إلي هنا من أجل أن نناقش ونطرح أفكاراً نبتغي من ورائها مصلحة هذه المنطقة ومصلحة الشعب العربي الذي بات من الواضح أنه بدأ ينحدر نحو هوة قاتلة.

من بين الزيارات التي قمنا بها زيارة جامعة طهران. استقبلنا مدير الجامعة ونوابه وعدد من الأساتذة. وكانت طبيعة اللقاء مثل كل مكان: مشروبات ساخنة وباردة، ومأكولات خفيفة، وحوارات، ونقاشات. وفي ختام اللقاء طلب منا رئيس الجامعة التوجه إلي مطعم المدينة الجامعية لتناول طعام الغداء مع الطلاب. دخلنا إلي صالة فسيحة تغص بالموائد التي يجلس عليها الطلاب والطالبات. كان الأكل مكوناً من طبق أرز، وطبق خضار، وفيما يتعلق باللحوم يخيرون الجالسين بين اللحوم أو الدجاج. كان من الواضح أن المطعم نظيف جداً، ومنظم بطريقة مريحة. قلت لصفوان: إنهم هنا يهتمون بإطعام الطلاب مثلما يهتمون براحتهم وإشعارهم بأن كل شيء منظم. قال صفوان: إن هذا جزء من تعويد الطلاب علي النظام، لاسيما وأنهم قادة المستقبل. ثم إنك رأيت أن الشباب هم العنصر الفاعل في كل المراكز العلمية والبحثية،

وهذا إن دل فإنما يدل علي أن إيران تخطط لأن تكون قوة إقليمية لا يستهان بها.

في المساء وفي الأيام التالية حضر إلينا في الفندق عدد من الشخصيات البارزة في النظام الإيراني، وجميعهم اتفقوا علي أمر واحد هو أن الغرب يريد أن يوقع بين طرفي الأمة السنة والشيعة، رغبة منهم في أن تتحول منطقة الشرق الأوسط إلي صراعات طائفية تأكل الأخضر واليابس. وكان النقاش يحتدم أحيانا حول الديمقراطية في إيران وفي العالم العربي، وكان الضيف الإيراني يرد بأن النظام الإيراني يسير في هذا النهج، حيث تجري انتخابات برلمانية، وانتخابات محلية، وانتخابات رئاسية بنزاهة وشفافية. وكان بعضنا يعترض علي هذا الكلام في جو تسوده الحرية والصراحة والمكاشفة، لدرجة أن أحد أعضاء الوفد تحدث عن التصفيات التي حدثت في إيران بعد قيام الثورة الخمينية.

لم تغفل وزارة الخارجية الإيرانية زيارة بعض المعالم الأثرية والسياحية في طهران، فأخذتنا لزيارة بعض الكنائس، وبعض المساجد، وبعض الأحياء الشعبية والأسواق. وكانت الخاتمة زيارة برج طهران. استمتعنا بكل هذه الأماكن وبما يحيط بها من مساحات خضراء. وفي يوم الرحيل أعدوا لنا ما يشبه التشريفة التي استقبلونا بها، فأراحونا من كل الإجراءات التي يقوم بها المسافرين. ركبنا طائرة الخطوط الجوية القطرية، ونزلنا في الدوحة، ثم ركبنا الطائرة المتجهة إلي القاهرة. كان في انتظارنا بمطار القاهرة السائق الذي أوصلنا من قبل. ذهبنا أولا إلي الفيلا وجلسنا لفترة مع الوالد والوالدة، وجاء أخي فتحي وزوجه وأولاده. سألونا عن طهران وما رأيناه هناك. تحدثنا طويلا، ونقلنا إليهم المتعة التي أحسنا بها، وجمال الطبيعة الذي شاهدناه.

وقلت لهم: لقد أعجب صفوان بالمرأة الإيرانية وحصر جمالها في شينين:
جمال وجهها ورشاقتها. علق أخي فتحي: صفوان دائما مولع بالجمال.

ذهب صفوان إلي فرنسا بعد حصوله علي منحة دراسية وتركني في مصر. حصلت علي عمل حكومي في إحدى المستشفيات بالقاهرة. كنت أسافر يوميا من طنطا إلي القاهرة بعد أن استخرجت بطاقة سفر في الدرجة الثانية المكيفة. امتدت المراسلات بيني وبين صفوان، وكان كتابه يضم كلمات خادشة للحياء، باعتبار أننا زوجان لم ندخل بعد، وكنت أسعد بهذه الكلمات، لكنني في ردي عليه أتحاشاها ولا أشير إليها، وذلك من باب الحياء، وأني لم أعاشره بعد، ثم إنني - علي الرغم من عقد القران - لا أدري هل سأستمر معه أم لا؟ فقد ذهب إلي باريس وأمامه سنوات من الدراسة وأنا تسلمت العمل هنا. وكان السفر في تلك الأيام صعبا بالنسبة لأي مصري، وأية مصرية. صحيح أن الجيل الجديد، لاسيما من الرجال، بدأ يحبذ السفر لأنه يمكن أن ينقله من الفقراء المعدمين إلي طبقة المرتاحين، لكن في مثل ظروفنا فإني لم أكن مرتاحة للسفر، فلم يحدث أن سافر أحد من أسرتي قبل ذلك. وكان والدي بحكم عمله يتنقل بين المحافظات المصرية مرة في الصعيد ومرة في وجه بحري، لكنه لم يسافر أبداً للخارج. ثم إنني تعودت علي ممارسة العمل بالمستشفى، وتعودت علي السفر، ولا أدري هل سوف أترك كل هذا وأودع الحياة التي ألفتها وأسافر إلي مجتمع جديد عليّ لا أعرف عنه شيئا؟.

ولا شك أن هذا التردد الذي استشري في داخلي انعكس علي وجهي وعلي تصرفاتي، وأحس به المحيطون بي، وعلي رأسهم والدي. قال لي أبي: ألاحظ عليك هذه الأيام أنك غارقة في بعض الظنون المتصلة بموضوع

اقترائك بصفوان. قلت له: فعلا ، أحس بأننا تسرعنا، وقد عقدتم قراني علي شخص لا نعرف ما هو عدد السنوات التي سوف يقضيها في الخارج، ثم إنني تسلمت العمل هنا، وأحس بسعادة في عملي، ومعني طبيب يكبرني بعامين وكان يود لو أنني غير مرتبطة. رد الوالد: علي أية حال أنت تعرفين أنني أترك لك حق اختيار الزوج، وليس لدي أي نية للتدخل، لأنني أعتبر أن هذا الموضوع أمر شخصي، وقد علمتكم جميعا وكل شخص ينبغي أن يحدد طريقه بنفسه. وفيما يتعلق بعقد القران فهذه مسألة هينة، ولذلك يمكن في حالة النكوص أن ترد الشبكة وكل الهدايا إلي الطرف الآخر، ويتم اللجوء إلي الطلاق، لأنه لا أحد يستطيع أن يجبر أحدا علي السير في طريق لا يجد فيه مبتغاه. أضاف الوالد: وأنا تحت أمرك في كل ما تقررين.

الوحيدة التي رفضت رفضا قاطعا طلاقي من صفوان هي الوالدة التي قالت في وضوح قاطع لا تشوبه أية شائبة موجهة الكلام للوالد: تريد تطليق صفاء من صفوان؟ يا له من عار تلطخ به ناصية هذه الأسرة المستقرة. إن صفوان مشروع كبير لم يكتمل بناؤه بعد. وتخيل ابنتك متزوجة من أستاذ جامعي ناضج، عالي الهمة، واسع العقل والثقافة. صحيح أنه فقير، لكن هذا هو شأن الشباب في مصر، فكلهم – باستثناء نسبة قليلة – فقراء يكدون ويكدحون لتحسين أحوالهم وأوضاعهم المعيشية. أضافت الوالدة: لقد تردد صفوان علينا كثيرا، فلم نر منه إلا كل خير: عزة نفس، ورجولة، وشهامة، ونفس راضية مطمئنة، وألفة، ومحبة. لم نره يوما جافا، متحذلقا، كذابا، ولم يصدر عنه لفظ سيئ أو مشين. فهل يمكن أن تعثر بسهولة علي إنسان يحمل كل هذه الصفات المحببة؟.

وبهذه الكلمة الضافية قطعت جبهة قول كل خطيب، فلم يعد الوالد يتحدث عن تركه الحبل لنا، ولم أعد أنا أفكر في البعد عن صفوان، بل زاد حبي له، ووضعت في نفسي أني تاركة عملي لا محالة، وصرت أنتظر اللحظة التي أسافر فيها إليه، وأقف إلي جانبه، وأربط مصيري بمصيره، ولم أعد أسمع إلي كلمة من شخص هنا وآخر هناك. وبدأت العناصر الجيدة في السفر تتغلغل في كياني، وما فتئت أن ترددت علي المحلات لشراء بعض الملابس التي أحتاج إليها، لكن فيما يتعلق بالعفش والجهاز وما إلي ذلك أرجأت هذه الأشياء لوقتها حين نعود من البعثة إلي مصر. ولم يكن قد حدث اتفاق بين الوالد وصفوان علي هذه الأشياء، بل تركت معلقة استناداً علي أننا سنكون مسافرين، وسنعيش في الغربة لسنوات قد تطول أو تقصر، والموضة في تغير مستمر، وبالتالي ليس هناك ما يستلزم الحسم في هذا الموضوع. وكان من الواضح أن هذا القرار حاز علي القبول من جانب صفوان ومن جانب الوالد علي حد سواء: فالوالد لم يكن يملك من المال الفائض ما يكفي للاشتراك في التجهيز، وصفوان لم تكن لديه شقة في المدينة، ولم يكن عنده فائض من المال كذلك. أي أن قرار ترك الحل في يد الزمن كان هو القرار المناسب لكلا الطرفين.

وجاء يوم السفر، واختلفت الأسرة قسمين: قسم يري أنني مسافرة بوصفي عروساً، ومن ثم لابد أن أصعد الطائرة بفستان الفرح، وقسم آخر يري أن فستان الفرح لا يلبس إلا في باريس. وانتصر أصحاب القسم الثاني. وقد أَرْضاني هذا الحل، لأنه - في رأيي - مريح. فما معني أن أتعثّر في هذا الفستان الأبيض المكرمش طويل الذيل، المزين بالدنتلا، و المحاط بكرانش، وأظل هكذا منذ الخروج من طنطا حتى الوصول إلي باريس؟! وقد

استأجر والدى سيارة بيجو، ركبناها هو وأنا وأخي الأكبر، وانفجرت أُمي في البكاء وهي تودعني، علي الرغم من أنها كانت محبّة للسفر، لكنه قلب الأم علي أية حال.

وصلت الطائرة إلي باريس، وكان صفوان وعدد من أعضاء البعثة ونسائهم في انتظاري، وأقيم حفل زواج حضره عدد كبير من المصريين المقيمين في باريس وعدد من أفراد السفارة المصرية. وبعد انتهاء الحفل، توجهنا إلي الشقة التي كان يقيم فيها صفوان. كانت ليلة ماطرة حيث تلفت الهضاب والربى والأكام بأردية بيضاء من الضباب لدرجة أن العين لم تكن تستبين شيئا، بل إننا سمعنا قصف الرعد، ولم نكد نري إلا البرق يرسل شراراته الحمراء من خلال السحب الكثيفة المترامية. ونحن في السيارة انفجرت السماء عن أمطار غزار سالت بها الأودية والقيعان، لدرجة أن المطر كان يتمشي في شوارع باريس وكأنه نزل خصيصا ليغسلها غسلا، ويزيدها سطوعا وشفافية. وقد شدني هذا المنظر لأنني لم أر مثله من قبل. صحيح أن والدى حكى لي أن طنطا كانت كذلك في يوم من الأيام، ولكن أبناء وبنات جبلي حرموا من ذلك بعد أن سدت العشوائيات وحالات القصور كل المنافذ، وصرنا لا نمشي إلا علي بقايا قمامة متناثرة، وأتربة عالقة، وشوارع مكسرة، ونفايات مبعثرة.

وبعد أن صرنا وحدنا في الشقة وجدت صفوان يقترب منى ويخلصني من فستان الفرح، ويقبلني قبلة طويلة تتم عن شوق جارف وانتظار طويل، وحب غامر، أما أنا فقد بادلتة شوقا بشوق، وحبنا بحب، ونسيت تماما ما نازعتني عليه نفسي خلال الشهور الماضية. وعندئذ أكبرت والدتي وعلمت أن قلب الأم يدرك ما لا ندرك، ويستوعب ما لا نستوعب. ذُبت في أحضان صفوان،

وارتشفت من ثغره ما يشبه العسل المصفي، واستمتعت بجسده مثلما استمتع بجسدي. قال لي صفوان ونحن نتساقى كنوس اللذة في ليلة عرسنا: سوف أذكر لك أبياتاً لأبي نواس علفت بذهني، وهي من أجمل أبياته في الحب:

إني عشقت وما بالعشق من باس	ما مرّ مثل الهوي شيء علي راسي
مالي وللناس كم يلحونني سفها	دينني لنفسي، ودين الناس للناس
ما للعداة إذا ما زرت مالكتي	كلأن أوجههم تطلي بأنفاس!
الله يعلم ما تركي زيارتك	إلا مخافة أعدائي وحراسي
ولو قدرنا علي الإتيان جنك	سعيًا علي الوجه أو مشيًا علي الراس
وقد قرأت كتابا في صحائفكم	" لا يرحم الله إلا راحم الناس".

قلت لصفوان: إنك سوف تحولني من دارسة طب إلي دارسة أدب وثقافة. قال: وما العيب في ذلك؟ أليست الحياة كلها طرقًا ومسالك؟ قلت: بلي، ولكني لم أتأهل جيدًا لذلك. قال: ستتأهلين، وربما سبقتني إلي الأدب، علي نحو ما قال الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

قلت لصفوان: بحسبي أن أقطف منك ثمار اللذات، أدبا كانت، أو جسداً مشتعلا متوهجا، أو نفسا راضية مطمئنة. أحسست وأنا بين ذراعي صفوان في أول ليلة أنني مثل طائر يحلق في أجواز الفضاء، ويختلط بأشعة الكون، ويرسل نغمات شجية، تمتزج بالموسيقى الكونية المعبرة عن كل ما يثور في النفس من انفعالات، وأهازيج، وترنيمات صافية مصفاة. والمرأة، أية امرأة، لا يشتعل الحب في داخلها إلا إذا كان موجها نحو شخص تحبه ويحبها،

وتألفه ويألفها، وتذوب رقة في نفسه وفي جسده، وتختلط عصارته بعصارته. وهذا ما حدث بيني وبين صفوان في أول ليلة من ليالي باريس الشاجية المتوهجة، حيث السماء في الخارج ترسل خلاصة أجوائها الرطبة، ونحن في الداخل نستمتع بكل ما لذ وطاب.

بدأت أعتاد الحياة في باريس. نستقبل الأسر في شقتنا، ويستقبلنا في شققهم، نقيم المآدب، و يقيمون المآدب، ونخرج في أيام العطلات إلي الحدائق والمنتزهات لاسيما في مناطق الغابات، آخذين معنا صنوفا مختلفة من لحوم الضأن والماعز والكندوز والبتلو والدجاج، نفتح الشوايات التي اشتريناها من أرقى المحلات، وننهمك في الشوي. وقد حدث تقارب شديد بيننا وبين أحد موظفي السفارة وأسرتة. كان شخصا أليفا، رقيق الحاشية، هادئ الطبع، ربعة، يميل إلي السمنة في غير ترهل، وجهه منفتح دائما علي الدهشة والإعجاب بكل ما يراه في باريس، لدرجة أنه عندما كان يشاهد سائقا يرتكب فعلا مخالفا لقوانين المرور يعلن بصوت عال: "دي حطة مصرية". وكانت زوجته لا تقل عنه ألفة ومودة، لكنها كانت مهملة بعض الشيء فيما يتعلق بهندامها ومنظرها العام. كنا نقضي اليوم بطوله في الغابات والأحراش، نلهو، ونلعب، ونتمشي، ونشوى، ونأكل، حتى تنزل أستار الليل، وتنحسر الشمس عن كبد السماء فنركب سيارته البيجو الطويلة قافلين إلي باريس. كان صفوان يطلق علي هذا الموظف الأليف لقب "الآنس"، لأنه كذلك بالفعل، وزوجه لا تقل عنه أنسا ومودة.

وقد توثقت علاقتي بنجلاء – وهذا هو اسمها – فكنا نخرج معا أكثر من مرة في الأسبوع، نلف علي المحلات، ونفحص المعروضات التي عليها تنزيلات في الملابس والأغطية، وأطقم المطبخ، والشوك، والمعالق،

والستائر، والأقمشة، وغيرها. وهذه كلها أشياء نحتاجها عندما نعود إلي مصر. وكانت لدي نجلاء قدرة عجيبة علي اقتناص الفرص، وقد نقلت إلي خبرتها الطويلة في هذا المجال، لأنها في باريس منذ سنوات. وأنا، في الحقيقة، كنت حريصة علي أن أتعلم منها. وكلما زادت الألفة بيننا توثقت أواصر الصداقة والمحبة لدرجة أنني وصفوان كنا ننظر إلي كمال ونجلاء بوصفهما الأخ الأكبر والأخت الكبرى. وكان كمال يعجب دائما من مهارتي في الطبخ لاسيما الأكلات المصرية التي تمتعنا في الغربية مثل المحاشي بأنواعها المختلفة، والملوخية، والأرناب، والبفتيك، والأرز المفلفل، والبط، والحمام وغير ذلك. وكان يسألني دائما: كيف تعلمت كل هذا وأنا أدرس في كلية الطب؟!

وكانت نجلاء علي معرفة بكل ما يحدث في أوساط المصريين، حكّت لي أن زكي الموظف أيضا بالسفارة حضرت إليه زوجته من القاهرة مثلما حدث معي، وأقامت لهما السفارة احتفالا مهيبا، لكن الخلافات نشبت بينهما من أول يوم، وقد حاول كمال أن يصلح بينهما فاستدعاهما ذات ليلة، وقال لهما إنهما عروسان ولا بد أن يتحمل كل منهما الآخر، لكنها كانت شديدة الجراءة فتحدثت باستفاضة عن عجزه الجنسي. قال لها كمال: كيف يكون عاجزا جنسيا وهو ما انفك يعاكس النساء ويجري وراءهن؟ قالت: إنه يفعل ذلك كي يجعل فشله في أكتة من أمره. أضافت: وأنا مصرة علي الطلاق منه لأنه لا معني لأن تتزوج المرأة من شاب عاجز، وتظل طول حياتها رهن الحياء. إن الناس لا يتزوجون لكي يظلوا رهبانا. وقد علقت نجلاء علي ذلك بقولها: لم أ ر في حياتي امرأة بهذه الجراءة. وقد قالت لكمال في لهجة حاسمة: لا أطلب منك إلا أن تأمر زوجي بأن يطلقني، وأن يحجز لي في أول طائرة متجهة إلي مصر.

قلت لنجلاء: هل يمكن أن تحسم امرأة مصيرها بهذه الطريقة؟ ولماذا لم تصبر عليه؟ أما كان من الأولي أن تعطيه فرصة؟ ففعله في وضع نفسي متأزم، ويحتاج إلي فسحة من الوقت كي يستعيد قوته، ويسيطر علي مشاعره، ويتخلص من حالة العجز التي أصيب بها، قالت نجلاء: لم نستطع أن نقتعها بذلك، وقد سافرت منذ أيام، وزادت حالته سوءاً، ولا ندرى ماذا يمكن أن نفعل له؟ نحن نبحث له عن امرأة أخرى توافق علي الزواج منه، وأتمنى أن نعثر عليها.

حكّت لي نجلاء أيضاً عن شخص جاء مبتعثاً من إحدى الكليات الدينية. كان في البداية أليفاً، ودوداً، يبتسم للحياة، ويهفو إلي مستقبل أفضل، لكن المناظر التي شاهدها في باريس مثل تقبيل الشباب والشابات بعضهم لبعض، ومزاولة الجنس في الحدائق والمتنزهات حولته إلي شخص آخر شديد النفور، كاره لما يحدث، متألم مما يراه وكأنه مشارك في ارتكاب الجريمة. تقول نجلاء: ذهب إلي السفارة، واستقبله كمال، وحاول أن يفهمه بأنه لا دخل لنا بما يحدث في مجتمع غريب علينا، وأنه مطالب بأن ينسي هذه الأمور، وبإمكانه أن يستدعي زوجته وأولاده من القاهرة إن كان متزوجاً، أو يذهب للزواج ثم يعود، لكنه رفض تماماً كل الحلول وصمم علي السفر. استخرجت له تذكرة السفر وعاد إلي القاهرة.

كنت أعود إلي البيت في الثانية ظهراً أجهز الطعام وأنتظر صفوان وأنا أطل من الشرفة. وأخيراً يأتي صفوان فيضمّني إليه ويقبلني. نتناول طعام الغداء، ثم نرتاح لساعة أو ساعتين، ثم ندخل في عناق طويل كأننا لم ندق طعم الحب من قبل ذلك. ولا يقف تيار الشوق الجارف المتدفق إلا إذا انتهينا من أول لقاء جسدي. وكنت أقول لنفسي: كيف نستطعم الحياة إذا كنا

محرومين من مزاوله طقوس الحب؟. وكنت أري صفوان ينتفض مثل عصفور بلله القطر، ويروح منتشيا مثل شخص مارس واجبه بقوة واقتدار. تذكرت الموقف الذي حكته لي نجلاء، والتمست لصاحبها العذر في طلب الطلاق والنزول إلي مصر.

في يوم عيد ميلاد صفوان قررت أن أحتفل به احتفالاً يليق بالمناسبة. دعونا عدداً من الأسر، ومن العاملين في السفارة، وذهبنا إلي السوق، واشترينا الخضار واللحوم والفواكه، بما في ذلك الباذنجان والكوسة والفلفل لعمل حلة محشي علي الطريقة المصرية. مكثت يومين أجهز الطعام لتسويته قبل العزومة بساعتين. واشتري صفوان تورتة كبيرة وشموعاً من محل حلويات. وحضر المدعون في الساعة المحددة. كانت هذه أول مرة يحتفل فيها صفوان بعيد ميلاده، لأن هذه العادة ليست منتشرة في الريف، بل إن الناس لا يتذكرون هذا اليوم علي نحو ما قال كامل الشناوي:

جنت يا يوم مولدي جئت أيها الشقي
الصبا ضاع من يدي وغزا الشيب مفرقي

ولكن هناك فرقاً واضحاً بيننا وبين كامل الشناوي: فقد كتب هذه الأبيات في شيخوخته بينما نحن مازلنا في مرحلة الشباب، وعلينا أن نمتع أنفسنا قبل أن يدركنا الشيب. هكذا نفعل في لقاءاتنا الجسدية، وفي الفسح، وفي كل شئون حياتنا. بل إن صفوان كان يقتنص مني، وأنا في المطبخ، لحظات يحتك أثناءها بجسدي، أو يلمس منطقة حساسة، أو يقبلني، وكنت أقول له: " لماذا لا تنتظر قليلاً حتى أفرغ من المطبخ؟". أقول هذا الكلام وأنا سعيدة بما يفعله،

بل إنني أتمني في أعماقي أن يواصل هذه التحرشات، وينتزعني انتزاعاً من جو المطبخ.

كان كل المدعويين يحملون هداياهم المختلفة وفقاً لتصور كل أسرة. فهذا يحمل مفرشاً، وآخر يحمل طبق حلويات، وثالث يقدم ماكينة حلاقة .. وهلم جرا. وكان عليّ أن أحتفظ بهذه الهدايا التي لم يسبق لصفوان أن رأي مثلاً. وعندما اكتمل وصول جميع المدعويين وحانت لحظة الأكل اصطف الجميع، بمن في ذلك الأولاد، حول طاولتين وجيء بالتورته التي وضعت فيها الشموع، وترنم الجميع بالكلمات الانجليزية المشهورة. وظلت الشموع مضاءة إلي أن انتهينا من الأكل، ثم أطفأها صفوان ووزعت قطع من التورته علي كل المدعويين. وفي هذه الليلة سمعت من كلمات الثناء والإطراء ما لم أسمعه من قبل. فالكل يسأل ويكرر كيف تفوقت في فنون الطبخ وأنا أدرس في كلية الطب؟ وقال أحدهم لصفوان: أبسط يا أستاذ، من الآن لن تأكل إلا الطعام اللذيذ المشتهي!.

وفي آخر السهرة غادر كل المدعويين، وكنت أعرف أن صفوان لن يترك هذه الليلة تمر هباء فتجهزت لذلك: كنت قد غسلت الستائر الوردية المنتقاة بعناية وعلقتها مرة أخرى في أماكنها، ورتبت السرير، وغيرت طاقمه، ووضعت اللمبات الكهربائية الصغيرة المتعددة الألوان في الأماكن المناسبة، ومسحت المرايا الملصقة بالجدران، وأطلقت البخور التي انتشرت روائحها في غرفة النوم، ووضعت العطور الشرقية النفاذة في الحمام وكذلك الدهون والمساحيق كي نقضي به وقتاً ممتعاً بعد الانتهاء من لقاءاتنا الجسدية. قال لي صفوان: إنك ملمة بفنون الجماع مثلما أنت ملمة بفنون الطب. قلت له: وهل أعيش معك ولا أجيد الكثير من الفنون؟! إنك يا صفوان إنسان منظم،

تعطي لكل شيء حقه. ولا أدري من أين اكتسبت كل هذه القدرة علي التنظيم ونشأتك الأولى ريفية خالصة؟ قال: تعلمت النظام من النجوم وهي تظهر ساطعة في الليل، وكنا ننظر إلي السماء ونحن أطفال ونتعجب من كثرة النجوم الطالعة في فضاء الكون. ولا أدري الآن لماذا لم نعد نراها ساطعة منتشرة مكثفة علي النحو الذي كنا نراه في طفولتنا؟ قال بعضهم: إنه التلوث الجوى الذي استطاع أن يحجب النجوم، وقال آخر: إن النجوم استحت أن تطل علي عالم تفشت فيه الجرائم والانتهاكات لأبسط حقوق الإنسان. وقال آخرون: إن النجوم بريئة مما يفعله البشر بأنفسهم، ولذلك قررت أن تحتجب. أضاف صفوان: تعلمت النظام أيضا من دورة القمر التي لا تتخلف أبداً: يبدأ هلالاً صغيراً حتى يكتمل في ليلتي الرابع عشر و الخامس عشر. وكانت أمي تسعد في الليالي الحالكة وتقول: ها هو قمر 14 ينير الكون وينشر ضوؤه الهادئ في الشوارع وعلي الأسطح وفوق الأشجار.

في فصل الصيف حجز صفوان شاليهين في مارينا لمدة أسبوعين، أسبوع لي وآخر لصفاء وأولادها. صحنوا مبكرا في يوم جمعة وركبنا السيارة التي قادها صفوان. كان الصباح رائقا عذبا في شبين الكوم، والطريق خاليا هادئا حيث تعود الناس في كل أنحاء مصر أن يظلوا نائمين في هذا اليوم حتى الساعة الحادية عشرة صباحا أو أكثر من ذلك، ويستيقظوا قبيل صلاة الجمعة. قال لي صفوان: ما أجمل هذا الجو المنعش!!، كانت مصر كلها كذلك في فترة ما طوال أيام الأسبوع. لم تكن السيارات قد كثرت علي النحو الذي نراه الآن. ولم تكن العشوائيات قد هجمت علي كل المناطق الحضرية. أضاف صفوان: كنا نذهب إلي الامتحانات في المدينة راكبين الحمير وكأننا في موكب احتفالي يتكرر كل عام، وكانت الحمير أنظف ألف مرة من السيارات الآن. قلت له: هل كنتم تستمتعون بهذا الموكب؟ قال: أجل، لقد كنا في حالة نشوة وتوهج وانفتاح علي الحياة علي الرغم من الفقر والمعاناة وشظف العيش، لكن الضحكات النابعة من القلب كانت تزيح كل الصعوبات، والآمال المستقرة في أعماقنا تدفعنا للمجادة و الاجتهاد. بل إننا طوال العام الدراسي، ونحن نقيم بالمدينة، كنا قد درجنا علي اصطناع مواقف تثير الضحك وتستخرج ما في أعماقنا من نظرات وتأملات تحيط بواقعنا. وسوف أحكي موقفا واحداً من ذلك:

ف ذات مرة جاء ليسكن معنا فتي أحقه والده بمدرسة خاصة لأنه تجاوز سن الالتحاق بمدرسة حكومية. وكانت المدارس الخاصة في أيامنا محتقرة جدا ولم يكن يلتحق بها إلا الفاشلون. كان الفتى غريبا في شكله، غريبا في

تصرفاته. فرأسه أقل في الحجم من وجهه، ولهذا أطلقنا عليه كنية "أبو الروس"، وابتسامته تتم عن نوع من البلاهة، وتصرفاته تجعل من لا يضحك ينفجر في الضحك. عندما أحضره أبوه اشترى له كل الأشياء المطلوبة مثل القبقاب الخشبي، والشماعات. وقد أسرع الفتى ونحن غير موجودين بالشقة واختار لنفسه مكانا مرتفعا علي يسار الداخل من الباب، ودق عددا من المسامير علق علي واحد منها القبقاب، وعلي آخر الشماعات، وكتب يافطة بخط رديء تقول: "شماعات الأستاذ حسن". وبالطبع عندما دخلنا الشقة متنا علي أنفسنا من الضحك ونحن نشاهد هذا المنظر، وقررنا أن نوقعه في مطب يليق بإمكانياته العقلية: فقد قلنا له ذات صباح: يا أستاذ حسن، اذهب إلي بائع الفول الواقف علي الناصية، واشتر لنا بقرش فول وقرش طعمية وقرش فلافل، وأعطينا حلة كبيرة. لم يدرك الأستاذ حسن أن الحلة أكبر مما هو مطلوب بكثير، ولم يدرك كذلك أن الطعمية هي الفلافل. ذهب إلي البائع ووقف أمامه وعندما جاء دوره أبرز له الحلة الكبيرة وأبلغه بما هو مطلوب منه، وعندئذ أحس البائع أن هذا شخص يمكن أن يرفه عنه قليلا، فاحتجزه لبعض الوقت، وفي كل مرة يقول له: ماذا تريد؟ فيرد الأستاذ حسن، وقد رفع الحلة: بقرش فول، وقرش طعمية، وقرش فلافل. فيسكت البائع وإن كانت الضحكة تنطلق منه، ثم يصمت برهة ويعاود السؤال، والأستاذ حسن أبو الروس لا يفعل ولا يغضب، بل لا يكل ولا يمل، حتى جاءت لحظة شعر فيها البائع أنه أظال أكثر مما ينبغي فأعطاه الفول والطعمية قائلا: اليوم لا توجد فلافل. وعاد إلينا أبو الروس ليقول لنا إنه لم يجد الفلافل.

كان صفوان يحكي هذه القصة التي استغرقت وقتا وهو يضحك ملء شديقه، ثم قال لي: أعتقد أنك يا سناء لم تمرى بمواقف كهذه، فقد عشت مع

الأسرة، أما نحن فكنّا نرتحل من القرية، إلى المدينة الإقليمية، ثم إلى القاهرة، ثم كانت رحلتي إلى فرنسا. وأنا أعتقد أن كل هذه الأماكن قد تساوت في تأثيرها عليّ، وأنا دائماً أشبهها بكتاب الباحث الفرنسي كلود ليفي شتراوس " الفكر البري ". وفي هذا الكتاب يساوى شتراوس بين كل الأماكن وكل الحضارات وكل الأفكار. فليس معني أن يعيش الإنسان في منطقة بدائية في وسط أفريقيا مثلاً أنه متخلف عمن يعيش في باريس. فالثقافة هي الثقافة حتى ولو كانت في مكان بدائي جداً وآخر متقدم جداً. والإنسان في النهاية هو الإنسان. قلت لصفوان: كائنك تساوى بين ثقافة القرية وثقافة باريس؟ قال: أجل. ولست أنا وحدى المؤمن بهذه النظرية. فالإنسان في القرية يستوعب الثقافة المحيطة به. وأنا أعتقد أن توفيق الحكيم واحد من أهم من عرضوا لهذه الثقافة في روايته المشهورة " عودة الروح "، حيث رأي أن الفلاح المصري الذي يعيش معه عجله في حجرة واحدة لديه ثقافة أعمق من أي إنسان. ومعروف أن توفيق الحكيم عاش فترة من حياته في فرنسا واستوعب ثقافتها بصورة رائعة، ومع ذلك لم تمنعه ثقافته الفرنسية من تقدير الإنسان المصري البسيط. ومعروف أن الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر كان من أكثر المعجبين برواية " عودة الروح ".

أخذ منا الحوار فترة من الوقت لدرجة أننا لم ننغمس في جمال الطبيعة في هذا الوقت المنعش من الصباح، ونحن خارجان من شبين الكوم، ثم ونحن في الطريق الزراعي حيث مررنا ببعض المدن و القرى مثل طنطا، وشبرا النملة، وكفر الزيات، وكفر الدوار، ودمنهو، حتى وصلنا إلى الإسكندرية، ودخلنا إلى طريق الكورنيش. كان جو الاسكندرية في هذه الفترة من العام صافياً يرسل إشعاعاته الذهبية الدافئة، وقد اكتسي لون الصباح المشرق بألوان

بنفسجية وقرمزية، وامتأ رواق السماء بلحظة صمت تسبق لحظة انطلاق مكبرات الصوت إذانا بالاستعداد لأداء صلاة الجمعة، وبدأت دفقات الهواء تجوب في الفراغ وكأنها نذير أو صوت خطيب يتنحج. كانت الدفقات تتتابع ثم تندفع الرياح سكرى بجنون الطبيعة، حيث يمتد عزفها في الآفاق، وقد زاد الهدير وعلا الزبد حتى بلغ حافة الطريق. ركن صفوان السيارة في مكان آمن ونزل ليؤدي صلاة الجمعة في أحد المساجد المطلة علي شاطئ البحر. وعندما عاد كان الجو قد تحول إلي ما يشبه العاصفة، فاندفعت شرارات البرق تخطف الأبصار وتكهرب القلوب، وانهمر المطر بصورة لم نحسب لها حسابا، واختلطت عناصر الكون، وتلاطمت وكأننا في حالة بعث جديد. ولكن في هذا الوقت من العام سرعان ما هدأت العاصفة، وعادت السماء إلي صفائها، وانقشعت الغيوم، وتبعها انقشاع الظلمات، وصار شاطي البحر مثل وجه رائق غسلته المياه، وظهرت الخضرة اليبانة، وتألفت الطرق، وانبعثت النسائم المنعشة مرة أخرى، وهيمت الأشعة الدافئة، والصحو الناعمة، وأخذت الشمس تعود إلي وضعها الذي ألفناه منذ الصباح. كان صفوان يتحكم في مقود السيارة وأنا أزداد انغماسا في الطبيعة الهادئة الصافية أو أغوص فيما وراء الحس، أسترجع اللحظة التي عرفت فيها صفوان وأقول لنفسى: هل كان من الممكن أن أعيش حياتي بعيدة عن صفوان وعالمه الثقافي والإنساني الوضاء؟! صحيح أنه متزوج من أخرى لكني عندما أكون معه أحس بأن الكون كله يحضنني، ويعمل علي إسعادي. إنني أشعر وكأنني ولادة بنت المستكفي التي كتبت لحبيبها ابن زيدون هذين البيتين:

أخاف عليك من نفسي ومني ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني خبأتك في عيوني إلي يوم القيامة ما كفاني

ظل طريق الكورنيش مريحا ومفتوحا إلي أن دخلنا في منطقة الجمرک، حيث بدأ الطريق يزدحم، لكن الزحمة زادت والأمور تفاقت عندما وصلنا إلي منطقة العجمي التي بدت لنا وكأنها منطقة شعبية عشوائية تطل علي البحر. قال لي صفوان: هذه هي الأزمة الكبرى في بلادنا يا سناء. فالذين يحكمون البلد يتصورون أنها لابد أن تكون هكذا: مناطق حضرية وأخرى شعبية عشوائية، وهذا تأكيد لمنطق الفصل الحاد بين طبقتين: طبقة غنية وأخرى فقيرة، وهؤلاء لهم حياة، وأولئك لهم حياة أخرى. وقد حافظ الحكام دائما علي عملية الفصل هذه؛ فالفقير لا يمكن أن يتاح له التمتع بما يتمتع به الغني. أضاف صفوان: لعلك تلاحظين الآن أن الجرائد ممتلئة بهذا الإعلان: "شقة لعظيم"، أي عظيم يريد شقة للسكن، ويقصد بالعظيم هنا الغني الذي يملك ثروة هائلة. لم تعد العظمة في العلم ولا في الثقافة وإنما في المال. وقد تفاقت هذه الأمور في عهد مبارك الذي ترك الحبل علي الغارب، ولم يعد يهتم إلا بمتعته الشخصية ومتعة أسرته، لدرجة أنه يقال إن السيدة الأولى نسيت ذات مرة أن تأخذ الكلب معها وهي ذاهبة إلي الشاطئ، فعدت الطائرة لتحضر الكلب. قلت لصفوان: هل يمكن أن تصل بلادنا ذات يوم إلي مرحلة تصبح فيها تصرفات الحكام مراقبة علي النحو الذي يحدث في معظم أنحاء العالم؟ قال: لا أعتقد أن هذه المرحلة قريبة لأنها تحتاج إلي وعي شعبي عام، وشعوبنا مازالت في حالة ثبات ونوم عميق، بل إن غالبية المتقنين ورجال الدين عندنا ليس لديهم هذا الوعي، لدرجة أنني في كثير من الأحيان أحس أن الفلاح البسيط الأمي يفهم أكثر منهم، لأن وعيه علي الأقل غير مزيف. وقديما قال كليله لدمنة: "لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم، ولا تعالج تأديب من لا يتأدب".

عندما اقتربنا من مارينا أطلت علينا من بعيد مبانيها الفخمة المهيبة. دخلنا من البوابة الأولى، وكان الشاليه المحجوز قريبا من المدخل. حملنا أمتعتنا وصعدنا إلي الدور الأول. كان الشاليه مكونا من حجرتي نوم، وصالة واسعة، ومطبخ وحمام، وله شرفة واسعة تطل علي شارع واسع، أما الأثاث فواضح الفخامة. قال لي صفوان بخفة دمه، ولهجتة الموحية: هنا يحلو العناق. وكعادته لم يصبر إلي أن نأخذ قسطا من الراحة وإنما قال لي: تعالي إلي جانبي. أريد أن نبخر الشقة بأفضل أنواع العشق. لم أعود أبدا منذ أن تزوجت صفوان أن أرفض له طلبا. قضينا وقتا ممتعا بينما أشعة الشمس الصفراء تمتد في الأفق، ونسمات البحر المنعشة تسبح في الفضاء، والعصافير تنطلق في أهازيج صافية شجية فوق الأشجار والخضرة التي تملأ المكان. كانت الأعشاب ذات الرائحة العطرة تبعث إلينا بأصناف من الشذي المنبعث منها في لحظة من لحظات الإشرار الكوني، والبحر من مكانه القريب منا يبدو وكأنه ممتزج معنا في حالة عشق لذيدة لا تتحقق إلا في هذا الوقت الممتع من النهار، حيث تستعد الشمس للمغادرة ناشرة أشعتها الذهبية في عرض الفضاء، وتتساقط قطع أنوارها من بين فجوات الأغصان كأنها الدناير المبعثرة، وتستحيل أوراق الزهر في سكون هذا الجو الهادئ إلي نوع من الأحجار المصنوعة من الزمرد والماس والفيروز والياقوت. وأنا وصفوان نغوص في متاهة اللذة ونتمني ألا ينقضي هذا الوقت المشبع الجميل. قال لي صفوان: ما هو السحر الذي جعلك تحوليني يا سناء إلي شخص يعيش في أسره؟ قلت له: إنه ليس أكثر من سحرك. وأضفت: لم أتصور أبدا أنني سأتزوج إنسانا مثلك. بل إنني عندما كتبت لك رسالتي في ورقة الإجابة لم أتخيل أنك سوف تتجاوب معي، ثم تبحث عني. قال صفوان: كانت مفاجأة لي

عندما رأيته، وقلت في نفسي: هذه هي المرأة التي ظلت طول عمري أبحث عنها، في واقعي وفي خيالي.

أثناء الليل قمنا بجولة في مارينا، ذهبنا إلى السوق التجاري، وجلسنا ساعة وبعض الساعة في مقهى فاخر، وذهبنا إلى شاطئ البحر لنمكث فترة قصيرة، ثم عدنا إلى الشاليه. لم يضيع صفوان فرصة اللقاء الليلي إلي أن ألقى إلينا الليل بردائه. صحونا مبكرا كالعادة، وهي عادة اكتسبتها من صفوان الذي أخبرني أنه أثناء دراسته كان حريصا علي أن ينام ويصحو مبكرا. وها أنت يا صفوان سرت في حياتك علي نمط لم تغيره أبدا سواء كنت طالبا في الإعدادي ثم في الثانوي ثم في الجامعة. وفي باريس لم تغير هذا النمط، بل ازددت حرصا علي الاستقامة والانتظام، لم تضع وقتك في الجري وراء المتع الزائلة المحرمة، ولم تنتهك الحرمات. كنت تبحث دائما عن المتعة الحلال المشروعة، ولم تقع فيما وقع فيه بعض أبناء جيلك. وهأنذا أسلم جسدي لك طائعة مختارة، بل أحاول أن أزيد لك في المتعة حتى تقطف من ثماري الشهية، وتغوص فيما وراء الحس، لأنني أومن تماما بأن متعة الجسد لابد أن تتواكب مع متعة الروح. وأنا قد أحبيتك كما لم تحب امرأة أي رجل. فهل أعطيتك حقك الذي أري أنه أحد واجباتي في هذه الحياة؟

في الصباح الباكر توجهنا إلى الشاطئ بعد أن غيرنا ملابسنا. صفوان ارتدي مايوه كان قد اشتراه من باريس، وأنا لبست المايوه الذي يغطي كل الجسد، وقد انتشر هذه الأيام في المحلات، تنزل به المرأة في مياه البحر، وتخرج منها دون أن يظهر منها شيء فيما عدا وجهها وكفيها. كان معظم الفتيات علي الشاطئ يلبسن ما يسمى بالمايوه البكيني، لكن في الوقت نفسه هناك المنقبات والمحجبات. أي أن الزمن قد تغير، فلم يعد المايوه السائد هو

البكيني علي النحو الذي انتقده الأديب مصطفى صادق الرافعي عندما قال: "يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار". قضينا فترة الصباح علي الشاطئ، وعندما نزلنا إلي المياه لاحظت أن صفوان يضمني إليه ضما شديدا. قلت له: ألم تشبع طول الليل؟ قال: وهل أشبع منك وأنت تزدادين جمالا داخل المياه؟! إن المياه بانعكاس أشعة الشمس علي سطحها تبدو وكأنها تريق عليك ماء الورد، أو كأنها بركة من المسك والكافور تحيط بجسدك علي النحو الذي فعله ملك إشبيلية المعتمد بن عباد مع زوجته اعتماد الرميكية. وأنت لا تقلين جمالا ولا فتنة عن اعتماد التي وصفها لنا المؤرخون أوصافا دقيقة. قلت لصفوان: سوف تظل طول عمرك مولعا بالجمال. قال: وهل في الكون إلا هذا الجمال الذي أتحنف به الخالق عيون الخلق، ومع ذلك يتعمدون إخفاءه استجابة لأوهام كبلوا بها أنفسهم وأهليهم.

وعندما حان موعد الغداء غادرنا الشاطئ، وتوجهنا إلي أحد المطاعم الفاخرة التي أعدت لاستقبال رواد ينسبون إلي الطبقة الراقية. وفي منتصف العصرية عندما كانت أشعة الشمس تستعد لسحب أشعتها الحامية قال لي صفوان: لقد حدثني بعض الإخوة أن الدولة أقامت في بحر مارينا لسانا يسمى "لسان الوزراء"، فهيا بنا نراه. ذهبنا إلي هناك، بالسيارة طبعاً، حتى نتمكن من عمل جولة في هذه المنطقة. وجدنا اللسان الصناعي ممتدا في وسط البحر علي مساحة واسعة، ومخططا بحيث يضم قصرين أو فيلنتين: فيلا تطل علي البحر من ناحية الشاطئ، والأخرى تطل علي البحر من الناحية الأخرى الممتدة. أي أننا أمام صفيين من الفلل أو القصور. قلت في نفسي: ثري كم تكلف هذا اللسان الطويل العريض من أموال الدولة؟! كانت اليخوت الفخمة راكنة أمام الفيلات في مشهد يدل علي أن الطبقة الراقية استحلت

لنفسها كل شيء ولم تترك للشعب إلا الفتات. ذهبنا أيضا إلى الفيلات والقصور المظلة على البحر من ناحية القرية فوجدنا الحدائق الملحقة بالمباني لا تبتعد إلا بحوالي متر واحد عن الشاطئ، علي حين أن الآلاف المؤلفة من المصريين لا يعثرون علي مكان يؤويهم إلا في المقابر.

قال لي صفوان معلقا علي ما شاهدناه: "لا تنسَ كلمة زوربا اليوناني التي قالها لرئيسه: "سبق أن قلت لك يا ريس، إن كل الأمور التي تحدث في هذه الدنيا زخرة بالظلم والعسف والجور! أجل إنها دنيا ظالمة! وأنا لا أقر ذلك، أنا الدودة الحقيرة! أنا الورقة العارية زوربا!". قلت لصفوان: لقد شرحت لنا في مادة "الأدب العباسي" أن الخلفاء العباسيين ومن يلوذ بهم من البيت العباسي، ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة، ومن علي صلة بهم من الفنانين شعراء ومغنين، ومن العلماء والمتقنين كانوا يعيشون في بذخ لا نظير له، وكأنما كتب علي الشعب أن يكبح ليملاً حياة هؤلاء جميعا بأسباب النعيم والرفاهية، في حين يعاني هو من البؤس والشقاء وشظف العيش. وبهذا كانت الحياة في عصر بني العباس مثل حياتنا الآن: فئة قليلة تحظى بالنعيم، وفئة أخرى، وهي الفئة الغالبة من الشعب، تعيش في ضنك شديد. ذكرت لنا أيضا نقلا عن الطبري أن الخليفة المنصور فرض لكل شخص من أهل بيته ألف درهم في كل عام. وقد ذكر المسعودي أن علة الخيزران زوجة المهدي من إقطاعاتها كانت تبلغ سنويا مائة وستين مليوناً من الدراهم. كما ذكر الجهشيارى أن إقطاعات محمد بن سليمان بن علي العباسي والي البصرة كانت تدر عليه كل يوم مائة ألف درهم. وقال ابن تعري بردي إن عمرو بن مسعدة وزير المأمون خلف بعد وفاته ثمانين ألف ألف دينار، ونقل

ذلك إلي المأمون فلم يأخذه العجب، بل قال: " هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا".

قال لي صفوان: ذكرت الخلفاء والقادة، لكن ما بالك بالمغنين! لقد ذكر صاحب الأغاني أن ثروة إبراهيم الموصلي المغني بلغت أربعة وعشرين مليون درهم سوى راتبه وهو عشرة آلاف درهم في كل شهر، إضافة إلي غلات ضياعه. وجاء في "الأغاني" أيضا أن سلما الخاسر خلف حين توفي خمسين ألف دينار. بل إن ما وصل الأصمعي من الرشيد والبرامكة يتجاوز كل حد. أضاف صفوان: أذكر لك أيضا ما ورد في أكثر من مصدر، مثل مقدمة ابن خلدون، والطبري، والمسعودي، واليعقوبي، وابن طيفور، عن زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل، فقد أنفق في هذا الزواج ما يفوق أغرب القصص الخيالية، إذ قيل إن والدها فرّق علي حاشية المأمون رقاعا بأسماء كثير من الضياع، وبذراً من الدنانير والدراهم كل بدرة عشرة آلاف، وأعطى المأمون بوران ألف ياقوتة، وأوقد لها شموع العنبر وبسط لها حصيرا منسوجا بالذهب، مكللا بالدر والياقوت، ونثرت جدتها عليها حين جلس إليها المأمون ألف درة. وقد وصف بعض المغنين مجلس الواثق، حسبما ورد في الأغاني، فقال: " لم يزل الخدم يسلمونني من خدم إلي خدم حتى أفضيت إلي دار مفروشة الصحن، ملبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب، ثم أفضيت إلي رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك، وإذا الواثق في صدره علي سرير مرصع بالجواهر، وعليه ثياب منسوجة بالذهب".

في هذه الليلة من ليالي مارينا أردت أن أذيق صفوان من فنون الجسد ما لا عهد له به. دخلت إلي حجرة النوم، وسويت السرير والملاءات، ومسحت المرايا الموجودة بها، وعطرت المكان بروائح الصندل المحروق والند،

ووضعت في الحمام عطورا شرقية نفاذة، ودهون، ومساحيق، وارتديت قميص نوم مشجر يشف عما تحته، ثم ارتميت في حوض صفوان وكأني أذوب فيه لأول مرة، وكان صفوان في حالة تألق ونشوة، بل إنه كان يبدي انبهاره بجسدي الفارع، وساقَي الممتلئتين، وشعري المفروق. ووجهي الذي قال إنه أجمل من القمر الذي نراه من خلال النافذة التي تركناها مواربة. أما صفوان فكان يبدو لي في تلك اللحظة مثل أسد هثور يداعب حليته، ويغوص في أعماقها الجسدية والنفسية. قال لي صفوان: لا أدري كيف كنت سأعيش بدونك يا سناء؟ إنك حورية من الجنة جاءتني دون موعد، وذابت في كياني، واستولت علي قلبي، وملكت كل جوارحي، فطوبى لك، وطوبى لليوم الذي جئنتي فيه!!

ما فتنت صورة كوثر تطاردني في الصحو، وفي سنة الكرى وأحلام اليقظة. لم أستوعب إلي الآن كيف لم أنتبه إلي حب فتاة جميلة وأنا في مرحلة الشباب عندما كنت طالبا في الجامعة، وقد جمعت بيني وبينها خلوة أليفة لمدة ساعة أو ساعتين علي مدار ثلاثة أيام في الأسبوع في فترة الأجازة الصيفية، وكان حبها يطل من عينيها الرقيقتين الناعستين. كانت كوثر امرأة جميلة، جبهتها كالمرآة الصقيلة، يزينها شعر حالك، إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته رأيته مثل عناقيد الكرم التي جلأها الوايل، أما وجنتاها فمثل الأرجوان في بياض محض كالجُمان، وأسنانها مثل الدر المتألق، قوامها فارع، ونظرتها ساحرة، وجسمها مصقول. مازلت أسأل نفسي إلي الآن كيف لم أنتبه لهذا الجمال لاسيما عندما صارحتني بحبها لي، واستعدادها لأن تتخلي عن الارتباط الذي أراده والدها لها بأن تخطب لأحد أقربائها. إنها تريدني أنا بكل ما للكلمة من معني. لم تصلني كل هذه التصريحات الواضحة وكأني أصبت بالصمم، ولم أقترب منها قريبا يوثق ما بيننا من علاقة مكتفيا بأن أكون بالنسبة لها مجرد خوجة يدرس لها مادة اللغة العربية لامتحان الملحق الذي سوف يعقد في شهر سبتمبر.

لهذا فإني إلي الآن مازلت أندم علي هذه الفرصة التي طرقت بابي لكني لم أفتح لها قلبي، حتى تزوجت زواجا تقليديا بصفاء البطران عن طريق بعض المعارف. صحيح أنني أحببت صفاء بعد ذلك، لكني تركت فرصة ليس لها مثيل. وأحيانا لكي أقتنع نفسي بأنني لم أخطئ أجري بعض المقارنات في داخلي قائلا: إن كوثر كانت تحمل شهادة متوسطة: سنتان بعد الدبلوم، أما صفاء

فحاصلة علي بكالوريوس الطب. كذلك فإن كوثر تربت في بيئة ريفية، أما صفاء فقد نشأت في المدينة وتنسب إلي أسرة متوسطة.. الخ. أشياء من هذا القبيل تدور في ذهني. ولكني، في أغلب الأحيان ألجأ إلي ما يسميه الناس بالبخت أو الحظ أو القسمة والنصيب.

وفي هذه الحالة أستدعي قصة عاتكة بنت زيد، هذه المرأة الجميلة التي أراد عمر بن الخطاب أن يتزوجها بعد أن قتل عنها زوجها عبد الله بن أبي بكر شهيدا في إحدى المعارك فقالت له: "قد كان أعطاني حديقة علي ألا أتزوج بعده"، فقال لها عمر: استفتي علي بن أبي طالب، فأفتاها علي: ردى الحديقة علي أهله، وتزوجي عمر". وقد وصفت عاتكة من قبل معاصريها بأنها امرأة لها جمال، وكمال، وتمام في عقلها ومنظرها، وأنها بارعة الحسن، فأولع بها عبد الله، فأذهلته عن عقله! ولذلك يقال إن أباه مر عليه في يوم الجمعة، فرآه يداعبها، وعاد أبوه من الصلاة فوجده ما انفك يناغيها، فقال له: يا عبد الله، أشهدت الجمعة. قال: أو صلي الناس؟ قال: "قد شغلتك عاتكة عن المعاش وعن تجارة رابحة كنت فيها، ثم أنستك الفرائض! فطلقها". وما زال به حتى طلقها، فتبعته نفسه، فاعتزل الناس يبكيها، فرق له أبوه فأمره بأن يرجعها. فلما ترمّلت منه أقسمت ألا تتزين لأحد بعده! ولكنها حين زفت إلي عمر زفت إليه في أكمل زينة، فأولم عمر، فدعا الصحابة ومنهم علي بن أبي طالب، فقال: "يا عمر قل لعاتكة تتستر فإن لي حاجة أريد أن أذكرها إياها"، فقال لها عمر: "استتري يا عاتكة، فإن علي بن أبي طالب يريد أن يكلمك". فأخذت عليها كساء مقوفا من حرير، فقال لها: يا عاتكة، أين قولك:

فأقسمت لا تنفك عيني سخيئة عليك، ولا ينفك جلدى أغبرا

ضحك علي وعمر، ولكن عاتكة بكت، فقال له عمر: يا أبا الحسن! كل النساء يفعلن هذا؟، فقال علي: علمها ألا تقول ما لا تفعل. وقرأ الآية الكريمة: "كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون". فقال عمر: ما حسن الله فهو حسن يا أبا الحسن. فلما قتل عمر تزوجها الزبير بن العوام، وكان شديد الغيرة عليها، فمنعها من الخروج إلى الصلاة، فلما صممت علي الخروج اختفي في السقيفة قبيل الفجر، وراها مقبلة، فضربها علي عجزتها، فعادت قائلة: "فسد الزمان!" وامتنعت عن الخروج. وعندما قتل الزبير في موقعة "الجمل" كان ثالث زوج يقتل عنها، فقال الناس عنها: "هي أجمل خلق الله وأشأم خلق الله". وكان الإمام علي يقول: "الطيرة، أي الفأل الشؤم، ليست بحق"، وكان يحذر الناس من التشاؤم، ويراه نقصا في الإيمان بالله، وبقضائه وقدره، ولكن عاتكة كانت قد أصبحت شديدة التشاؤم من نفسها، ولذلك عندما خطبها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قالت له: "إني لأضن بك علي القتل يا بن عم رسول الله".

هذه هي عاتكة بنت زيد، فلماذا قارنتها بكوثر؟ لأنني علمت بعد ذلك أن كوثر لم تكن سعيدة في حياتها، بعد أن استسلمت لأبيها وأسرتها وتزوجت شخصا لم يكن يجمع بينها وبينه علاقة حب حقيقية. ولهذا فإني أحيانا أصاب بالندم، وأحاول أن أدفع هذا الندم بقصة أصنعها من خيالي المحض في لحظة أتجول فيها في عالم كوثر الأليف المحبب. فأتصور أنني ارتبط بها بعلاقة قوية جعلتني أخرج كثيرا عن مسار الدرس العلمي لأحدث معها عن الحب، وعن ارتباطي الشديد بها، والأوقات التي أقضيها في التفكير فيها، وأثناء ذلك أظري جمالها وأتأمل في وجهها الذي يشع بالنور، وانسجام ذلك مع جسمها

المعتدل القوام، وملامحها الجذابة، وابتسامتها الصافية الرائقة. وكانت هي - بدورها - تتحدث عن قوامي الفارع المعتدل، ووجهي الحسن الذي تطل منه قسَمات الرجولة، وأنفي المنسجم مع تقاطيع الوجه، وذقني الحليقة المتوائمة مع شارب معتدل ووجنتين ناصعتين، وعينين لهما بريق أخاذ. كانت كلماتها تدل علي إعجابها الشديد بمنظري الخارجي، إضافة إلي ملامحي الخلقية (بضم الخاء) التي تعكس القيم الداخلية في الجدية، والانضباط، والتفوق. وكنت أرد عليها: جمالك وقوامك الفاتن يفوق كل ذلك. وهنا أجد حمرة الخجل قد كست وجهها الجميل، وكأنها المرأة التي قال عنها أحمد شوقي:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن النشاء

وذات مرة سألتها: هل باب هذه الحجرة مغلق جيداً؟ فقالت: أجل، ولا يمكن لأي أحد أن يطرق علينا الباب إلا في البداية لتقديم المشروب، وهذه هي تعليمات والدي. ثم سألتني بدلال: لماذا تسأل هذا السؤال؟ قلت لها: لأن لدي رغبة قاتلة في أن أقبلك. قالت: لن أسمح لك إلا بقبلة واحدة قبل عقد القران. وبهذا أكون قد أخذت منها تصريحاً بتقبيلها في شفيتها. كانت هذه أول قبلة في حياتي، ومن ثم أدخلتني في عالم جديد تماماً، ومن المؤكد أنها جعلتني أزداد هياماً بكوثر، ومن المؤكد أنها كذلك جعلت كوثر تزداد حباً لي. وقد وفّت كوثر بوعدها، فلم تسمح لي أبداً بعد ذلك بتقبيلها، لكن هذه القبلة كانت البداية الحقيقية لحالة عشق قوية، تمثلت فيها قول جميل بن معمر:

وادكار الحبيب يوم الفراق

هل لنا بعد بينها من تلاق؟

مستحناً برحلة وانطلاق

منع النوم شدة الاشتياق

ليت شعري إذا بثينة بانث

ولقد قلت يوم نادي المنادي

ليت لي اليوم يا بثينة منكم
مجلسا للوداع قبل الفراق
حيث ما كنتم وكنت فإني
غير ناس للعهد والميثاق

و بالفعل جاء يوم انتهاء الدروس، وانتهاء المقابلات، ولقاءات الدرس والحب الجميلة المفجرة للآمال و الطموحات، ولكن كان هناك عهد وميثاق بين كوثر وبيني أن أتقدم لخطبتها بعد امتحان الملحق وظهور النتيجة. في ذلك اليوم رافقتي والدي بعد أن أحطته علما بالموضوع، ولم أجد عنده ممانعة، لأنه كان يري أنها من أسرة طيبة وأن والدها محمود عبد الرازق يتمتع بسمعة جيدة، إضافة إلي أن الأسرة تعتبر من الأسر الوجيهة في القرية. أخذنا الطريق من بيتنا الواقع في إحدى الضواحي، مارين عبر شوارع متوسطة، وساحات واسعة، وأزقة متعرجة حتى وصلنا إلي بيت كوثر. صلينا المغرب في الجامع القريب، وأمّ والدي المصلين باعتباره من حفظة القرآن. ولم نمش إلا قليلا حتى وجدنا الباب مفتوحا كما هي العادة في بيوت الفلاحين في ذلك الوقت. طرق أبي البوابة المفتوحة فخرج والد كوثر الذي استقبلنا بترحاب شديد. بعد أن جلسنا دخل والدي في الموضوع مباشرة قائلا للسيد/ محمود عبد الرازق: إننا حضرنا لخطوبة كوثر لولدي صفوان، فهل أنت موافق؟ قال: أجل، ولكن يجب أن نأخذ رأيها أولا. نادي علي كوثر فجاءت في ثوب زاهي الألوان يبرز جمالها الفاتن. مدت يدها لنا بالتحية قائلة: تريدون أخذ رأيي، فأنا موافقة. وكانت هذه الكلمة كافية للبدء في الحديث عن إجراءات الزواج. قال والد كوثر: لا شك في أن أي أسرة بالقرية يشرفها أن ترتبط بعلاقة مصاهرة مع أسرة الحاج عبد الخالق، ولكن عندي فقط بعض الأسئلة عن الشبكة، والمهر، والمسكن، والجهاز؟ رد والدي بأن

الشبكة سوف يتكفل بها هو، أما الأشياء الأخرى فمن حق صفوان أن يتكلم. وهنا قلت: أعتقد أن ظروفى لا تخفى علي أحد. فانا الآن طالب بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة، في السنة الرابعة، أي أنني سوف أخرج في آخر هذا العام الدراسي، وأتمنى أن أكون أول الدفعة كما هو حالى في السنوات الثلاث السابقة. وفي العادة يسافر الطالب الأول، وربما الثاني، في بعثة دراسية إلى الخارج. وبالتالي فأننى أرى أن نقوم أولاً بتقديم الشبكة وقراءة الفاتحة، وبعد التخرج نعقد القران، ونجهز حجرة في بيتنا تجهيزاً بسيطاً، ونوكل التجهيز الفعلي لما بعد العودة من البعثة، لأننى أنوى البحث عن شقة في المدينة. وفيما يتعلق بالدخلة أفضل أن أدخل هنا بدلاً من انتظارها في البلد الأجنبي، وهي في الأغلب سوف تكون فرنسا إن شاء الله.

لم يبد والد كوثر أي اعتراض علي هذا الكلام، بل إنه – كما ظهر علي قسما وجهه – رآه حلاً مناسباً ومريحاً، لأنه لن يكلفه شيئاً، وكأني جنّبتَه أي حمل يمكن أن يتقل كاهله إذا طلبت تجهيزاً كاملاً. قرأنا الفاتحة مبدئياً واتفقنا علي أن يعقب ذلك في الأيام القادمة جلسة موسعة نقدم فيها الشبكة ونقرأ الفاتحة بشكل علني. لكن الفاتحة التي قرأناها مبدئياً كانت هي البداية لترددى علي بيت السيد محمود عبد الرازق للجلوس مع الأسرة أو مع كوثر، وكانت هذه أعراف طبيعية جداً وعادية في تلك الأيام. زاد حبي لكوثر، وزاد حبها لي، بحيث صار كلانا لا يتحمل فراق الآخر، حتى انطبق علينا قول أمير الشعراء علي لسان المجنون:

يلبي تردد في سمعي وفي خلدى كما تردد في الأيك الأغاريد
هل المنادون أهلوها وإخوتها أم المنادون عشاق معاميد

إن يشركوني في ليلي فلا رجعت جبال نجد لهم صوتا ولا البيد

ومن ذلك أيضا قول أحمد شوقي:

أغير ليلاي نادوا أم بها هتفوا فداء ليلي الليالي الخرد الغيد
إذا سمعت اسم ليلي ثبت من خبلي وثاب ما صرعت منى العناقيد
كسا النداء اسمها حسنا وحببه حتى كأن اسمها البشري أو العيد
ليلي، لعلي مجنون يخيّل لي لا الحي نادوا علي ليلي ولا نودوا

وفي يوم الخطوبة حضر عدد كبير من أسرتنا وأسرة عبد الرزاق، ولكن الذي شد انتباهي هو حضور أبو طيز عتة. سألت هل هو قريب لأسرة عبد الرزاق فقل لي: إنه من أسرة قريبة منها - قلت في نفسي: إذا سوف أراه كثيرا، ولم أكن في العادة ألتقي به إلا مازحته، وسألته عن هذه الكنية العجيبة التي التصقت به. ولم أفوت الفرصة في هذه الليلة علي الرغم من انشغالي الشديد، فاقتربت منه وحييته بالطريقة التي كان ينتهجها أحد أصدقائي قانلا: حيا الله الشيخ. رد علي بقوله: ها نحن أصبحنا أقرباء. قلت له: تشرفنا. قرأنا الفاتحة، ووضعت الشبكة في إصبع كوثر. وكانت والدتها قد أعدت لهذا المناسبة وليمة فاخرة: أرز معمر، وبط وفراخ بلدي، وصواني بطاطس معمولة في الفرن، وسلطات، ومخللات، ثم في الحلو أطباق مهلبية وأرز بلبن، وكنافة. أكلنا وشبعنا، وأثنى كل المدعوين علي هذه الوليمة التي تشبه ولائم الأفراح.

بعد انتهاء امتحانات الليسانس ذهبت بصحبة والدي ووالد كوثر إلي المدينة لشراء جهاز بسيط يصلح لحجرة واحدة هي " المندرة" المظلة علي

الشارع التي جهزناها لتكون بيت الزوجية. اشترينا سريراً من أعمدة نحاسية سمراء، مؤهلاً لحمل ناموسية تقي من شر الناموس، وكنبتين بفرشهما، وبعض الأدوات النحاسية لزوم الطبخ، وطشت حمام واسع لزوم الاستحمام، وبعض الأشياء الأخرى. كان أهم شيء عندي هو أن تكون كوثر معي علي سرير واحد وأن نستحم في طشت واحد. وعلي الرغم من أن هذا الجهاز كان شديد البساطة إلا أنني اهتمت به غاية الاهتمام متذكراً كلمة لأديب فرنسي تقول: "علي الإنسان أن يحس بالسعادة ولو كان علي سرير من العشب". فما بالك وكوثر سوف تكون معي بشحمها ولحمها وجسدها المصقول تحت ناموسية واحدة.

ظهرت نتيجة الامتحان وكنت أول الدفعة بامتياز. عُينت معيداً بالكلية، وبدأت أستاذ للحصول علي منحة دراسية، وكانت المنح أيامها كثيرة جداً. لم يكن العالم العربي في حالة تجعل الآخرين يتوجسون شراً من أي فرد عربي يدخل بلادهم، ولذلك كانت المنح سهلة، والحصول علي التأشيرة يتم في يوم واحد، والمسائل كلها ميسرة، ولهذا توقعت أن أحصل علي منحة من البلد الذي أريده في وقت قصير. وفي انتظار ذلك تهيأت للدخول بكوثر. اقترح والدها أن نحضر فرقة موسيقية (فرقة حسب الله) التي كانت في العادة تحضر إلي القرية لتزف العروسين، فقلت له: إن الناس في هذه الحالة يحملون الجهاز علي عربة أو عربات نقل تمضي وراء الفرقة. قال لي: إذاً ماذا تقترح؟ قلت له: نفعل مثلما فعلنا في الخطوبة. وفعلنا أعدنا جلسة في صالة دارهم وأمام الدار، وكانت الصالة واسعة، وحضر المدعوون بعد صلاة العصر مباشرة. كنا في فصل الصيف، والحرارة عالية، والرطوبة خانقة، لكن

مع دوران الساعة أخذت الحرارة في الاعتدال وتوقف الناس قليلا عن شرب المياه من القلل التي أعدت لذلك.

حضر المأذون، وهو من أبناء القرية، في الساعة الرابعة والنصف تقريبا وقبل أن يعلن عقد القران تقدم أحد أصدقائي من الدارسين في الأزهر وألقي خطبة عصماء عن الزواج بدأها بالآية الكريمة: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة". وبعد أن عقد القرآن جاء الشربات الأحمر والأصفر ووزع علي المدعويين الذين تخاطفوه لأنه كان مثلجا، كما وزعت السجائر، وكانت عادة متبعة. ثم انصرف أغلب الناس و لم يبق إلا من دعوا من الأقارب لحضور الوليمة بعد صلاة المغرب. كانت وليمة أفخم بكثير من وليمة الخطوبة، وقد عهد بها إلي طباح مشهور في القرية لديه خبرة واسعة في صنع الموائد الشهيية.

بعد الانتهاء من الوليمة تجهزت لصحبة كوثر. وكانت عادتنا في القرية في أغلب الأسر قبل انتشار المركبات والسيارات هي أن يصحب العريس عروسته إلي بيته في موكب من الأقارب والأصدقاء، يسيرون علي الأقدام ويحيطون بالعروسين. لم تكن مسألة الفصل بين الجنسين قد ظهرت، ولم يكن هناك خوف من اختلاط الرجال بالنساء. أمسكت بخصر كوثر، وأمسكت بخصري، وتوجهنا إلي بيت الزوجية. كانت كوثر ترتدي فستانا أنيقا يصل إلي قدميها، ولم تكن عادة الفساتين البيضاء قد انتشرت علي النحو الذي رأيناه فيما بعد. كذلك لم تكن القرية قد عرفت ما يسمى بالكوافير، وإنما كان يزين العروس أقاربها والماشطة. وقد حضرت الماشطة معنا وسألت إذا كنا نريد أن تدخل معنا الحجرة لتساعدنا في فض غشاء البكارة، ولكني رددت عليها بأننا لا نريد هذه الخدمة، ثم أكرمتها وطلبت منها المغادرة. وكان بعض الأقارب

في القرية ينتظرون لحين فض الغشاء وإخراج القميص لبروه ويطمئنوا علي القدرة الجنسية للزوج، لكنني قلت لهم: أرجوكم، دعونا وليذهب كل إلي بيته.

وهكذا لم يبق في الدار إلا الوالد والوالدة وأخي وأختي، وكلهم ذهبوا إلي مضاجعهم ولم يبق إلا أنا وكوثر. دخلنا عش الزوجية وأضانا اللبة الكهربائية الخافتة التي تمنينا ألا تنطفئ، لأن الكهرباء التي دخلت القرية منذ فترة قصيرة كانت تحضر لفترات قليلة، لكننا علي أية حال جاهزون بالكلوبات ولمبات الجاز، ولا نحتاج إلي أكثر من ذلك. خلعت كوثر ملابسها وارتدت قميص نوم شفاف، وخلعت ملابسني ولم أترك إلا اللباس القصير المسمي "السلب". كان هناك شوق جارف يلف كلينا، فقلت لكوثر: ألا ترين أن من حقي الآن أن أقبلك؟ قالت: بلي، ويمكن أن تفعل ما تريد. قلت: لم أتصور أبدا أن أكون معك في لحظة كهذه، فانت عندي حورية من بنات الجان اللاني قرأنا عنهن في كتاب "ألف ليلة و ليلة": قوامك المصقول، وشعرك الناعم المنسدل علي كتفيك، ووجهك الصبوح المبتسم دائما، وجيدك الناصع، وشفقتك الجميلتان، وسافاك المستقيمتان وكأنهما قُدا من مادة طرية ومصقولة في آن.

قالت كوثر: لن أشبع منك إلا عندما يندمج جسدانا في جسد واحد، وقلبانا في قلب واحد، وروحانا في روح واحدة. قالت ذلك ودخلنا في حالة اندماج يذوب فيها عاشقان يجمع بينهما حب جارف، ووجدُ يتجاوز كل حد. فهل يمكن أن يكون جسد المرأة خلاصا للإنسان من أشياء كثيرة؟ هذا السؤال سألته لنفسي ، وأنا أعلم أن كثيرين من الأدباء والمفكرين و الكتاب تناولوا هذا الموضوع في كتب كثيرة.تعجبت لنفسي وأنا أغوص فيما وراء الحس بينما أنا في عش زوجية يتكون من حجرة واحدة، بسيطة المظهر، بسيطة الأثاث،

لكن جسد كوثر في هذه الحجرة البسيطة يتجاوز حدود الزمان و المكان،
وينقلني إلى عالم أرحب وواقع أسمى وأقوم، وكأني أقول مثلما قال
المجنون: " ليلي بجانبى كل شيء إذن حضر".

عندما أخبرني صفوان أنه تلقى كتاباً من جامعة الملك سعود بالرياض بأنه اختير للسفر في إعاره إلى المملكة ابتداء من العام الدراسي القادم قلت في نفسي: أنا بالطبع لن أستطيع السفر معه بسبب الأولاد والمدارس، وبالتالي سوف تستأثر به سناء المهدي لمدة قد تصل إلى ست سنوات، ولهذا فبأنى أفضل الطلاق لأعيش لأولادي فقط. قلت له: قبل السفر عليك أن تطلقني. قال لي: ولماذا أطلقك؟ إذا كنت تريدين المجئ إلى المملكة فليست هناك مشكلة بالنسبة للأولاد، لأنهم يمكن أن يلتحقوا بمدارس سعودية، لاسيما وأن اثنين فقط علي وأحمد هما اللذان سيلتحقان بالمدرسة الابتدائية. أما عن السكن فيمكن أن نسير علي نفس المنوال المتبع هنا: سكن لك وآخر لسناء، خاصة وأني سمعت أنهم يدفعون بدل سكن قدره ثلاثون ألف ريال في العام وهذا المبلغ يكفي لاستئجار شقتين. قلت له: لا أريد النصيحة بالأولاد في سبيل أن أكون معك، فأنت في النهاية لست خالصاً لي. ثم إنني لا أضمن جودة التعليم في المملكة، ولهذا من الأفضل لي ولك أن تطلقني.

قلت هذا الكلام لصفوان، ثم قمت لتجهيز الشنط والأولاد، وحاول صفوان أن يمنعني، ولكنه استسلم أمام إصراري علي السفر إلي الأهل في طنطا. نادي حارس العمارة الذي حمل الشنط إلي السيارة، وانطلقنا نحو طريق القاهرة – الاسكندرية الزراعي. كنت دائماً أتخوف من هذا الطريق الذي من المفروض أن يستغرق من ساعة ونصف الساعة إلي ساعتين، لكن نظراً للزحام الشديد، وسوء الطريق فإن الرحلة من القاهرة إلي طنطا يمكن أن تأخذ أربع ساعات،

يتخللها بالطبع هلاك الأعصاب، والإهانات والتزامم وغير ذلك، وهذا هو الحال في عهد مبارك الذي ليس له من هم إلا تجميع الملايين إن لم تكن المليارات في يده وأيدي أسرته وحاشيته التي رأت رئيس الدولة غارقاً في الفساد فغرقت مثله. وصلنا إلي طنطا بعد ثلاث ساعات فحمدت الله علي ذلك. وما إن دخلت بيتنا حتى قال لي والدي: مجينك في هذا الوقت يثير الشك. قلت له: معك حق، وأنا بالفعل طلبت من صفوان أن يطلقني. سألني عن سبب هذا التغير، فشرحت له السبب.

في اليوم التالي فوجئنا بحضور صفوان ، الذي سلم علي والدي ووالدتي كأن لم يحدث شيء علي الإطلاق. وهذه هي عادته: يفصل بين الأمور وبعضها البعض، ويرى أن هناك فوارق بسيطة جداً بين الأشياء، والعقل هو من يعرف كيف يضع يده علي هذه الفروق بحيث لا يحدث خلط أو سوء فهم، مهما كان بسيطاً فإنه قد يتطور إلي ما هو أعظم وأخطر. بدا والدي في هذا اليوم مثل غريم يريد أن ينتقم من صفوان، ولذلك تحدث معه بلغة جافة بعيدة عن الأصول المرعية قائلاً: أنت إذاً تستعد للسفر إلي المملكة العربية السعودية، وبالطبع ستكون معك زوجتك الجديدة، فلماذا تربط ابنتي صفاء بك؟ دعها وشأنها أو بالأحرى طلقها وأرحها من هذا الارتباط. رد عليه صفوان: كلام سيادتك يعني أن صفاء لم تخبرك أنني قلت لها: يمكنك الحضور معي إلي المملكة، وسوف أستأجر شقتين: شقة لك ولأولادك، وشقة لسناء المهدي. قال الوالد: أخبرتي بذلك وقالت إنها رفضت هذا العرض، وهي مصممة علي الطلاق، وأنا معها في ذلك. قال صفوان: هناك حل آخر هو أن تحضر مع الأولاد في الأجازات أو أنزل إليهم، لاسيما وأن المملكة تعطي أجازات في العيدين الصغير والكبير أي عيد الفطر وعيد الأضحى إضافة إلي

أجازة الصيف قال والدي: هي أيضا لا تريد ذلك، ولم يعد هناك من حل إلا الطلاق. رد صفوان: علي أية حال لن أطلق صفاء أبدا حتى لو اضطرت إلي إلغاء الإعارة، مع أنها هي المخرج الوحيد لنا نحن أساتذة الجامعة.

لا أدري لماذا أعجبني هذا الرد الأخير من صفوان؟ هل لأنه متمسك بي ولا يريد أن يفارقني؟ أم لأن فيه رجولة وقدرة علي مواجهة الموقف، لاسيما وأنني أعرف أن صفوان لا يهتمه جمع الأموال، وكل مواقفه وتصرفاته تدل علي ذلك؟ وهو كما خبرته رجل مبادئ لا يفرط أبداً في كرامته، ولعل هذه الأسباب هي التي جعلتني أبقى معه عندما تزوج سناء المهدي. قال صفوان هذا الكلام لوالدي، وكانت أمي صامته تنتظر ما سيسفر عنه الحوار، ثم أضاف في لهجة فيها حسم وحزم موجهها الكلام لوالدي: لاشك أنني أحترم رأي سيادتكم جدا ولكني أرجو منك ألا تحرميني من أن أعود إلي القاهرة ومعني صفاء والأولاد.

ثم استأذن صفوان في القيام بجولة في طنطا يزور فيها مسجد السيد البدوي ويلتقي بأصدقائه علي مقهى في أول شارع البحر، وهو مقهى يقال إن الأديب المشهور مصطفى صادق الرافعي كان يجلس فيه. تدخلت والدتي حينئذ مثلما تدخلت من قبل قائلة لي: يا ابنتي لو أصررت علي الطلاق سوف تخسرين صفوان إلي الأبد، وصفوان شخصية ليس لها مثل، فليس فيه ننانة، ولا عدم رجولة، علي الرغم من أن الكثيرين فيهم ننانة وعدم رجولة، وانعدام مروءة. صفوان شخص يخلو من ذلك تماما. صحيح أنه تزوج بأخرى، لكن ما العيب في ذلك؟ ثم إنه وضع أمامك كل الخيارات: السفر معه، والسكن في شقة مستقلة، أو السفر في الأجازات، وطالما أنه مستعد لعمل ذلك فليس من حقه أن تطليبي الطلاق. وكانت كلمات والدتي تجعلني دائما

أعيد حساباتي، لكنني في هذه الساعة لم يكن لدي استعداد لمناقشة هذا الموضوع ولهذا أجلت النظر فيه واتصلت بصديقتي رانيا، وهي زميلة من أيام الدراسة وطلبت منها أن نلتقي في المنتزه المقابل لمبني المحافظة.

كنت أريد أن أفضي إلي رانيا بأشياء كثيرة تتعلق بحياتي الأسرية. حضرت رانيا وتركنا الأولاد يلعبون حولنا، ثم دخلنا مباشرة في الموضوع. شرحت لها الوضع الذي بسببه طلبت من صفوان أن يطلقني، وشرحت لها أيضا أن صفوان مستعد لعمل أي شيء يرضيني حتى أظل علي ذمته. فوجئت برانيا تسألني: هل من بين هذه الأشياء تطليق زوجته الجديدة؟ قلت: لا. قالت: إذن تمسكي بالطلاق. قلت لها: إن صفوان مؤمن بأن من حق الرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة إذا كان قادراً علي ذلك ماليا وجنسياً، وإذا كان حازماً في العدل بين الزوجات. وهو يري أنه في ذلك يقتدي بالنبي صلي الله عليه وسلم وبصحابته الأطهار. فالنبي عليه السلام في أواخر حياته جمع إلي زوجاته جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي بن أخطب، وكانت من أجمل النساء، بل إن صفية بلغ من جمالها وشبابها أن السيدة عائشة - كما يقال - كانت تغار منها. وعمر بن الخطاب تزوج في أخريات أيامه عاتكة بنت زيد وكانت فائقة الجمال، كما تزوج من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، والإمام علي كان مزواجا، لكن الشخص الذي تزوج أكبر عدد من النساء كان هو ابنه الحسن لدرجة أن أباه كان يتدخل لدي القبائل كي لا يزوجه بناتهم. ثم إن صفوان يري أن الزواج بأكثر من امرأة فيه حل لمشكلة العنوسة التي استشرت هذه الأيام بصورة خطيرة يمكن أن تهدد الأمن الاجتماعي.

لم تقتنع رانيا بهذا الكلام لأن الغالبية العظمى من النساء في هذا الجبل مقتنعات بأن زواج الرجل من امرأة أخرى يمثل إهانة لهن، والرضا بذلك فيه امتهان لكرامة المرأة، وهو بمثابة تعذُّ صارخ علي حق المرأة في أن يكون زوجها خالصا لها. ولهذا فإن معظمهن عند حدوث ذلك يطلبن الطلاق. جلسنا في المنتزه فترة طويلة، بعدها قمنا بجولة في أنحاء المدينة. ذهبنا أولا إلي مسجد السيد البدوي، حيث زرنا مقامه ووقفنا لدقائق أمام الصخرة الموجودة في أحد الأركان، وبها الأثر المشهور لقدم النبي، وشاهدنا الناس وهم يقرءون الفاتحة أمام الضريح، وبعضهم يتوسلون إلي صاحب الضريح أن يلبي لهم حاجاتهم، وهذه بلا شك من الخرافات الموجودة في مجتمعاتنا، وبعض الناس قد يبلغ به الأمر أن يبدي سخطه علي صاحب الضريح، وقد وقفت بالصدفة إلي جوار شخص طويل القامة، طاعن في السن، مستطيل الوجه، بارز الوجنتين والشفنتين فسمعتة يبدي سخطه تجاه صاحب الضريح قائلا له: يا أخي خلي عندك دم. ولا أدري ما الذي دفعه إلي هذا القول؟ تقدمنا قليلا لنكون أمام القبلة التي بداخل المقام فوجدنا الشيخ أحمد حجاب الذي يوم المصلين في هذا المكان متربعا يلهج لسانه بالتسبيح والحمد والتكبير. كان هذا الرجل دائما يبدو لي وكأنه خارج لتوه من الفردوس الأعلى، فوجهه ينبض بالصلاح والتقوى، وزهده في هذه الحياة الدنيا ينضح علي وجهه وعلي سماته، وحركاته محسوبة بدقة. سلمنا عليه فرد علينا السلام دون أن ينظر إلينا، ثم عاد إلي استغراقه الكامل في ملكوت الله.

قمنا بعد ذلك بزيارة ضريحي سيدي عبد العال وسيدي مجاهد، وهما من مريدي صاحب المقام، ثم قمنا بجولة في المسجد الواسع، وتذكرت كيف كان والذي يحدثني عن إقامته شبه الدائمة في المسجد أيام الدراسة والذاكرة.

خرجنا من المسجد وقمنا بجولة في المنطقة المحيطة به، وكانت وجهتنا في البداية شارع درب القطر الذي اشترينا منه أشياء مهمة مثل الطحينة، وزيت الكتان وغير ذلك. ذهبنا بعد ذلك إلى شارع الخان، وهو شارع تجاري مهم فيه محلات الأقمشة، ومحلات الأحذية وغير ذلك من منتجات كثيرة، إضافة إلى بنزايون وشركة بيع المصنوعات والباعة الجائلين الذين يملنون كل الأركان لدرجة أن الناس تجد صعوبة كبيرة في اختراق هذا الشارع المكتظ. توجهنا بعد ذلك إلى شارع سعد الدين، وهو شارع تجاري في غاية الأهمية، فيه الملابس والأحذية والمأكولات ومحلات الساعات، وكل ما يبحث عنه المشترون. اشترينا بعض الأشياء المهمة.

وبعد انتهاء الجولة أخذت كل واحدة منا مع أولادها تاكسيا، حيث وصلنا إلى البيت مع أذان المغرب. وجدت صفوان ينتظرني، وقد استقبلني بابتسامة لا مثيل لها، ثم قال لي: تعالي معي نذهب إلى الشقة ونحضر بعض الأشياء التي أحتاجها. لا أدري لماذا وافقته؟ وما إن دخلنا الشقة – وكنا قد أجرناها عندما كنا في فرنسا ودفعنا لها مقدما من خمسة آلاف جنيه – حتى وجدته يستعد لإثارتي جنسيا. حاولت أن أقاومه بكل ما أوتيت من قوة، لكنه كان أقوى مني كثيرا، مما سهل عليه انتزاع ملابسني، وجعلني في وضع لا أستطيع منه فكاكا. المهم أنني استسلمت له تماما. بل إنني اندمجت معه وكأني أتطهر من ذنب جنيته، لدرجة أنني تمنيت أن يواقعني مرة أخرى، وهذا ما حدث. فهل أراد صفوان بذلك أن يمسح تماما ما علق من شوائب خلال اليومين الماضيين. لا جرم أنه نجح في ذلك، وهذا جانب من جوانب البراعة والمهارة لدي صفوان. فهل أستطيع أنا بعد هذا اللقاء المترع باللذة أن أقول له طلقني؟!

جلسنا لبعض الوقت في الشقة، فوجدت صفوان يتغني بأبيات لعمر بن أبي ربيعة في إحدى صواحباته واسمها عفراء - هكذا قال لي -، تقول الأبيات:

ألم بعفراء إن أصحابك ابتكروا وسلم هل لديها اليوم مُنتظر
واها لعفراء إن دارَّ بها قُربت فما أبالي ألام الناس أم عذروا
وإن تبين غربة عنا بها قُذِفَ فما تَقْضِي الهوى منا ولا الوتر
خوذةً مهفهفة الأعلى إذا انصرفت تكاد من ثقل الأرداف تنبتر
تفتر عن ذي غروب طعمه عسل مفلج النبت رفاف له أشُر
كان فاهها إذا ما جنت طارقها خمر ببيسان أو ما عتقت جدرُ
شُجت بماء سحب زل عن رصف من ماء أزهر لم يخلط به كدر
والعنبر الأكلف المسحوق خالطه والزنجبيل ورند هاجه السحر
حوراء ممكورة الساقين بهكنة لا عيب في خلقها طول ولا قصر
كأنها الشمس وافت يوم أسغدها أو درة شُوِّفت للبيع أو قمر
تقول إذ أيقنت أنني مفارقها يا ليتني مت قبل اليوم يا عمر

ثم قال لي صفوان: وأنت يا صفاء المرأة التي ينطبق عليها هذه الأوصاف. فكيف تتصورين أنني أستطيع أن أفارقك. فهذا يوم أتمني أن أموت قبل أن يأتي.

نزلنا بعد ذلك من الشقة، وتوجهنا إلى بيت والدي، الذي لاحظ أنني نسيت تماماً حكاية الطلاق، ولهذا عندما قال له صفوان إننا ذاهبون إلي القاهرة لم يعلق بأية كلمة وبدا علي وجهه أنه لم يحدث شيء علي الإطلاق. وظهرت السعادة والرضا علي وجه الوالدة التي تنفست الصعداء وقالت: لماذا لا تنتظرون حتى أجهز لكم طعام العشاء؟ قال لها صفوان: لقد وعدت صفاء أن

نتعشى في برج المنوفية الموجود في قويسنا. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء. انطلقنا في الطريق الزراعي نحو القاهرة. صفوان يقود سيارته، وأنا والأولاد في سيارتي. الخروج من طنطا إلي الآن مازال مشكلة، حيث علي السائق أن يتخطي مزلقان السكة الحديد الواقع في آخر شارع حسن رضوان بجوار ترعة القاصد أو يقوم باجتياز شارع البحر وصولا إلي قحافة، ومن هناك ينتظم في طريق الاسكندرية / القاهرة. اخترنا الطريق الأول، فعبرنا المزلقان، ثم دخلنا في شارع ضيق يمكن أن تقابلك فيه شاحنات ضخمة أو تريلات، وبما أن السائقين ينطلقون بصورة عشوائية فإن الطريق يمكن أن يكتظ إلي أن يتطوع شخص ويقوم بمهمة عسكري المرور، ثم إن علينا بعد ذلك أن نعبّر جسرا صغيرا علي ترعة القاصد حتى نصل إلي الطريق السريع. وها نحن المصريين قد تعودنا علي المتاعب، وأنا أعتقد أن الشعب لو وجد الحياة سهلة مريحة فلن يسعد بها لأنه متعود علي الصعاب. الناس في كثير من دول العالم غزت الكواكب ونحن مازلنا نتعثر في المزائق والحارات، و الطبقة الحاكمة تستمتع بكل أنواع الرفاهية بينما الشعب في حالة ضنك وصعوبات متواصلة. ولا أدري إذا استمرت الأوضاع بهذا الشكل فماذا سوف يحدث لجموع الشباب التي تزداد أعدادها يوما بعد يوم.

وصلنا إلي قويسنا وركنا السيارتين أمام مطعم البرج. جاء النادل وقدم لنا قائمة المأكولات (المينو). قال صفوان: كل شخص يختار ما يريد، وأنا شخصا أفضل الفطير المشلتت بالعسل النحل والجبنة الحادقة. أما أنا فكنت أحس بالجوع فطلبت زوج حمام إحداها محشية بالأرز والأخرى بالفريك، وطلب علي وأحمد طبقي أرز وفراخ. كل هذا مع سلطات متنوعة: سلطة طماطم وخضار، وبابا غنوج، وسلطة زبادى. كان جو المكان يتسم بالشاعرية

والألقة. أكلنا وشبعنا ثم انطلقنا إلى القاهرة. كان الوقت متأخراً فلم نعان من زحمة الطريق.

لاحت أمام أعيننا مباني منطقة شيراتون. ونحن داخلون إلى العمارة لمحنا الساكن المسمي إلهامى، وهو يسكن في الدور الثاني أي فوقنا مباشرة، جالسا في الشرفة. وبما أننا في الصيف فإنه يتخفف من كل ملابسه ويقعد بلباسه القصير المسمي " سلب" أو كلوت. وهذا الشخص صاحب أطوار في غاية الغرابة. فهو لا يهتم إطلاقاً بأنه يجلس في الشرفة أمام الناس وهو شبه عار، وصوته دائما مرتفع لاسيما إذا كان يتشاجر مع زوجته أو مع طفلتيه، وقد رآه صفوان ذات يوم ينزل إلى الدور الأرضي مرتديا السلب فقط لكي يضرب البواب. حال صفوان بينه وبين البواب وقال للبواب: انزل بسرعة إلى حجرتك في الجراج، وعمل علي تهدئة إلهامى الذي اقتنع بذلك وصعد إلى شقته. لا أدري أية امرأة يمكن أن تتحمل رجلا كهذا، لكن هذا النموذج، علي أية حال، موجود في كل أنحاء القطر المصري، وغالبا ما تنتهي حياته نهاية مأساوية، بل إنه يمكن أن يدمر الأولاد وهم بعد أطفال، ويقضي عليهم قضاء مبرما.

دخلنا شقتنا، واستسلم الأولاد للنوم بعد يومين طويلين من التعب، وبقيت أنا وصفوان في الصالة. لم أتصور أن يقترب مني صفوان بطريقته التي اجترحها أثناء اللقاء الحميم في شقة طنطا، ولكن حدث ما لم أكن أتوقع. احتضنني صفوان وهو يقول: لقد خفت من أن أفقدك، وأنت أول امرأة عاشرتها، وعشت معها أوقاتاً من المتعة لا يمكن أن أنساها، ثم إنك شاركتني في فترة الغربة التي استمرت لسنوات، وهيات لي الجو الذي ساعدني في الحصول علي الدكتوراه، وتركت عملك في القاهرة لتعيشي معي في باريس،

بلد النور كما يطلقون عليها، ورزقت منك بالأولاد الذين لا أتخيل أنني يمكن أن أبتعد عنهم، وها أنت مازلت تشاركيني حياتي. أما الزواج بامرأة أخرى فلا أدرى لماذا لا تتخلص بنات الجيل الحالي من الفكرة المسيطرة عليهن وهي أن الزواج بأخرى إهانة للزوجة الأولى لاسيما إذا كان هذا هو النهج الذي انتهجه النبي عليه السلام والصحابه والتابعون، ومازال معمولاً به إلي الآن في دول الخليج؟

قال ذلك صفوان، ثم دخل إلي حجرة النوم فجهزها بطريقته الخاصة، وطلب مني أن أتجهز للقاء حميم يليق بهذه المناسبة. قضينا جزءاً كبيراً من الليل نقطف من ثمار الحب، وقد أحسست في تلك الليلة وكأني أبدأ شهر عسل جديد. ثم نمنا متعانقين كعادتنا بدون أي ملابس تستر جسدينا. وفي الصباح قال صفوان: ينبغي أن نقضي هذا اليوم في إحدى الحدائق. اخترنا قرية سياحية في ضاحية من ضواحي الجزيرة. وصلنا إليها في وقت قياسي. دلفنا إلي القرية فوجدناها منسقة بطريقة جميلة تجذب السائحين والأسر المصرية. فالمساحة واسعة، والأشجار من كل صنف ونوع ممتدة بامتداد قنوات صغيرة تجري فيها المياه. والنخيل الباسق موجود في جميع الأركان، إضافة إلي تكعيبات العنب، والاستراحات المظللة بالأشجار، وملاعب الأطفال التي قضي فيها الأولاد وقتاً ممتعاً.

وبعد منتصف النهار بساعتين أو أكثر قليلاً انتقلنا إلي المطعم الواسع، وجاء العاملون بالطعام المعمول في أفران بلدية، وكان متنوعاً ولذلك علي الشخص أن يختار ما يأكله: حمام محشو بالأرز، وبط بلدي، وفراخ بلدي، وديوك رومية وأرز معمر أو مكرونة، وفطير مشلتت وغير ذلك. اختار كل منا ما يريد أن يأكله، وكنت أنتهز الفرصة لأضع في فم صفوان اللقمة التي

تعجبني، وصفوان يثني علي عملي هذا ويشكرني. كنت أحس بأن عليّ أن أرضيه بعد كل ما حصل، في الوقت الذي كان فيه يجتهد من أجل أن يشعرني بالسعادة، وكأنه يقول لي: إن زواجي من أخرى لا يمكن أن يؤثر علي علاقتي بك. ففي كل الأحوال أنت الأصل، وأنت الأساس الذي بنيت عليه حياتي.

قضينا يوما ممتعا في هذه القرية السياحية. وفي آخر اليوم أخذنا طريقنا نحو القاهرة. كان الطريق شديد الازدحام لدرجة أننا لم نصل إلي البيت إلا بعد ساعتين ونصف الساعة. وفي مثل هذه المواقف يزداد صفوان تقرّيعا لحكام البلد الذين لم يمهّدوا الطرق علي النحو الذي يؤدي إلي راحة الناس. وكان دائما يذكر كلمة لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين يقول مضمونها: "لو عثرت دابة في العراق أخشي أن يسألني ربي: لم لم تمهد لها الطريق يا عمر؟". ثم يضيف صفوان: إن حكامنا الحاليين لا يُفزعهم شيء علي الإطلاق، وسوف يظلون سادريّن في غيهم وضلالهم.

في يوم السفر إلى المملكة العربية السعودية، وكنا في منتصف شهر سبتمبر، قالت لي سناء: ماذا فعلت مع صفاء؟ قلت لها: اتفقتا علي أن تحضر مع الأولاد في الأجازات، وأن أنزل إليهم كلما أتيت لي ذلك. سألت: وهل وافقت علي ذلك؟ قلت: أجل، لأنها حريصة علي أن يتعلم علي وأحمد في مدارس ممتازة، وعندها خشية من أن يكون التعليم في المملكة مختلفا عن التعليم في مصر. أضفت: عرضت عليها أن أوجر لها شقة في الرياض، وأن نلحق الولدين بمدارس تحظى بالثقة لاسيما وأنهما مازالا في الابتدائي، ولكنها رفضت مفضلة الحل الآخر.

خرجنا من شبين الكوم في الساعة الثامنة مساء، لأن موعد إقلاع الطائرة في الواحدة بعد منتصف الليل. كان الجو ملبدًا بالغيوم، والظلام الدامس يغطي كل شيء حولنا فيما عدا بعض المصابيح الحكومية المتباعدة عن بعضها البعض، وبصيص من النور ينطلق من هذا الكوخ أو ذاك، أو نور السيارة التي تقلنا وهي من ماركة بيجو المخصصة للسفر والمجهزة بشبكة علوية لحمل الشنط. تذكرت أيام خطوبتي لسناء وقطعنا لهذا الطريق في الرواح وفي الغدو، وأيامها كنت أحاول أن أقترب من سناء وأن ألمس يدها أو أضع إحدى يدي علي ساقها في محاولة مني لعدم لفت نظر السائق المنهمك في القيادة. ورغم الظلام الدامس فإنني أحسست بالنشوة والانتعاش من لطافة الجو ونسائمه العليلة، وقد تمثلت قول المجنون: "ليلي بجانبك كل شيء إذن حضر". ولا شك أن سناء هي الأخرى كانت في غاية الانتعاش من هذا الجو

الساحر، لاسيما وأني الآن صرت وكأني شأن من شئونها الخاصة لا يشاركها في أي شخص آخر حتى ولو كان صفاء البطران وأولادها.

وصلنا إلي مطار القاهرة، وكان في حالة سيئة: زحام، وضجيج، وضيق، وعدم تنسيق في وقت أصبحت فيه المطارات في الخارج شديدة الاتساع ومنظمة بطريقة تجعل المسافرين يحسون بالمتعة. وصلنا إلي الرياض مع إطلالة الصباح. أنهينا كل الإجراءات وخرجنا من المطار، فكان أول ما استقبلناه هو الحر الشديد الذي يلفح وجوهنا لفحاً، لكننا لم نستمر في ذلك طويلاً، فقد ركبنا تاكسيا مكيفاً وقلنا للسائق: نريد أن نذهب إلي منطقة وسط الرياض بالقرب من البطحاء. وكانت لدي معلومات عن العمارة التي ينزل فيها المصريون من أساتذة الجامعة. وكان العثور علي هذه العمارة سهلاً لأن السائق كان لديه علم بها. أنزلت الشنط التي معنا أمام بوابة العمارة ونقدت السائق أجرته، وسألنا الحارس: هل في هذه العمارة شقة خالية؟ قال نعم، وتستطيعون استئجارها الآن من المكتب المقابل. ذهبت إلي المكتب وأخبرتهم أنني قادم الآن من القاهرة، وليس معي ريبالات سعودية، وسوف أذهب إلي جامعة الملك سعود اليوم لصرف بدل السكن. قال رئيس المكتب: لا بأس. خذ مفتاح الشقة وضع أغراضك وسوف نتحاسب فيما بعد. رجعت إلي سناء، وكانت ونحن في الطائرة قد ارتدت عباءة سمراء جهزتها لهذا اليوم ووضعت علي رأسها إيشارب أسمر، فبدت مثل لؤلؤة تشع جمالاً وروعة لدرجة أنني لم أملك نفسي حين دخلنا الشقة الخالية فقبلتها قبلت أكثر من اللازم.

بعد ذلك أخذت تاكسيا وذهبت إلي الجامعة. مر السائق بشارع الملك فهد الواسع المنظم، ثم دخل إلي شوارع أخرى واسعة حتى وصل إلي إدارة الجامعة وسط أشجار وأماكن خضراء متفرقة أبرز ما فيها النخيل الباسق،

بثمار أو بدون ثمار. أنهيت كل الإجراءات بسرعة وحصلت علي الشيك المخصص للسكن، ثم توجهت إلي البنك القريب من مبني الإدارة وصرفت الشيك. وكنت قبل ذلك قد تسلمت العمل في الكلية، وسلمت علي العميد والوكيل وباقي المسؤولين، وكلهم من الشباب السعودي العائد من الخارج بعد الحصول علي درجة الدكتوراه.

عدت إلي الشقة فوجدت سناء قد تصرفت بعد أن وجدت بساطا متروكا في الشقة فنظفته وفرشته في الصالة. وكنت قد أحضرت معي غداء من أحد المطاعم الكثيرة المنتشرة في الرياض فتناولنا طعام الغداء. قالت لي سناء هل فكرت ماذا سنفعل اليوم؟ قلت لها: اتفقت مع بعض الزملاء أن نذهب إلي الحراج، وهو مكان بيع الأشياء القديمة، لشراء بعض الأثاث. أما الأجهزة الكهربائية فسوف نشتريها من محل قريب من هنا. ولسنا في حاجة إلي مكيفات لأنها موجودة في الشقة: ثلاثة مكيفات تغطي الصالة وحجرتي النوم. بعد صلاة العصر توجهنا إلي الحراج. كنا أربعة من أساتذة الجامعة. أخذنا نقطع مساحة الحراج الواسعة ذهابا وعودة حتى أدركتنا صلاة المغرب. لم نكن نعرف أن سيارات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقطع الحراج أيضا بحثا عن كل من تخلف عن الصلاة في وقتها. كنت بالصدفة متوضئا ومعني اثنان متوضئين فذهبا إلي المسجد بينما تخلف زميلنا الدكتور عصام. عدنا من الصلاة فوجدنا أن البوكس قد أخذه. لم نعرف إلي أي مكان ذهب؟ أخذنا نبحث عنه حتى عثرنا عليه في مبني يوضع فيه كل من تخلف عن الصلاة. دخلنا إلي الشخص المسئول عن المكان وعرفناه بأنفسنا قائلين: إننا حضرنا من القاهرة اليوم للعمل في جامعة الملك سعود وليست لدينا أية معلومات عن

هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أحس الرجل أننا صادقون فأمر بإطلاق سراح الدكتور عصام.

عدنا من مهمتنا في الحراج، واشترى كل منا ما يلزمه، واستأجر كل منا سيارة نقل حملت العفش ثم توجهت إلي الشقة. طلب كل منا عددا من العمال الذين نقلوا العفش إلي الشقة ونصبوه وجهازوه كما ينبغي. وأثناء عملهم توجهت إلي محل الأجهزة الكهربائية واشتريت ثلاجة وغسالة وبوتاجاز. وبهذا تم تجهيز الشقة في يوم واحد لتكون مريحة في أول ليلة نبيت فيها بالمملكة.

تنفست الصعداء، وجاء وقت الاختلاء بسناء المهدي، وسناء تعرف أن أول ليلة لنا في أية مدينة نزورها لأول مرة لها طعم خاص، وذكريات لا تمحي. حدث ذلك في باريس وغيرها من المدن الفرنسية، وحدث في قرطبة وإشبيلية وغرناطة. والآن نحن في الرياض أول مدينة نزورها في دول الخليج. قلت لسناء: عليك أن تتجهزي لهذه الليلة. قالت: تجهزت وفرشت الأغطية الموشاة بالحرير علي سرير حجرة النوم، وقد أحضرت معي من مصر العطور التي تفضلها أنت، والآن سوف أقوم بتجهيز الحمام ورش العطور، وسوف أريك الليلة قميص نوم لم تره من قبل. هل يعجبك كل هذا؟ قلت: أجل، لاسيما وأنت الليلة متألفة بصورة لم يسبق لها مثيل: شعرك الجميل المسترسل، وحواجبك المزججة، وصفحة وجهك المشعة مثل قمر 14، وابتسامتك الرقيقة المغربية، وصفحة عنقك المصقولة مثل المعدن النفيس. تمددت سناء عل سرير فوقه قماش مبطن بالحرير، فبدا جمالها الساحر اللانهائي. كل شيء فيها عميق ومثير للفتنة، فحذاها المصقولان مثل فخذ امرأة لم تمس من قبل، وجلدها يبدو مستويا علي نار هادئة، وثدياها

رجراجان مدهشان، ولثتها شفافة رقيقة تكشف تحتها عن أسنان نضيدة ناصعة البياض، وفمها الرقيق يدفع إلي القطاف. وقد بدت لي سناء وكأن كل قطعة من جسدها يخرج منها بخار ينم عن قوة صحتها، ويدل علي البيئة النظيفة التي عاشت فيها.

قضينا الليل بطوله نمارس الحب دون أن نضع في الاعتبار أنني في الصباح لابد أن أتوجه إلي الجامعة. قلت في نفسي: هذه ليلة من ليالي العمر لا ينبغي أن تنسي. وفي الصباح توجهت إلي الجامعة نشيطا فرحا بالتعرف علي مجتمع جديد. والحق أننا بوصفنا مصريين نقارن دانما بين ما نراه في المجتمعات التي نزورها أو نقضي فيها فترة وبين واقع حياتنا في مصر. ولا يفعل ذلك من هم في حالة صمم وعماء " صم، بكم، عمي فهم لا يعقلون".

أعرف كثيرين درسوا في فرنسا وفي غيرها من البلاد الأوروبية وعادوا كما ذهبوا، لم يستوعبوا أي شيء، ولم يفهموا أن الشعوب لا تتقدم إلا بالحرية والعدالة والتنمية والمواطنة والكرامة. و للأسف الشديد فإن هذا هو حال الكثيرين من المثقفين شعراء وكتابا وقصاصين ومسرحيين. إنهم يؤيدون الاستبداد والقمع والتفاوت الطبقي، ويعملون من أجل ما يتوهمون أنه مصلحتهم الخاصة. ويبدو أن هذه هي حالنا منذ فترة طويلة. وقد رصدها قاسم أمين في كتابه " تحرير المرأة" المنشور في نهاية القرن التاسع عشر، حيث قال: " ولم يركن إلي حب السكينة إلا أقوام علي شاكلتنا. فقد أهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالأرض البائرة التي لا يصلح فيها نبات، وحتى مال بنا الكسل إلي معاداة كل فكر صالح ما يعده أهل الوقت حديثا غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الأولى أو قضت به المصالح في هذه الأزمنة".

تحدث قاسم أمين أيضا عن أن القوانين واللوائح التي توضع عندنا لإصلاح

حال الأمة تنقلب في الحال إلى آلة جديدة للفساد. وليس هذا بغريب - هكذا يقول قاسم أمين - فقد تغلب العادات علي الدين نفسه فتفسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه.

تحدث قاسم أمين أيضا عن الحكومات الاستبدادية ودورها الرهيب في تخلف المجتمعات الإسلامية. فقد تجردت الجمعيات الإسلامية علي اختلاف الزمان والأماكن من المنظمات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام. بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادي دائما فكان لسلطانهم وأعوانه سلطة مطلقة فحكموا كيف شاءوا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبة وأداروا مصالح الرعية بدون أن يكون له (أي للشعب) صوت فيها. ويرى قاسم أمين أن الاستبداد المطلق هو سبب تخلف المجتمعات الإسلامية. وفي هذا يقول: " لهذا مضت القرون علي الأمم الإسلامية وهي تحت حكم الاستبداد المطلق، أساء حكامها في التصرف، وبالفوضى في اتباع أهوائهم و اللعب بشئون الرعية، بل ولعبوا بالدين نفسه في أغلب الأزمات. ولا يستثنى منهم إلا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة إلي غالبهم". وقد رأى قاسم أمين أن أول أثر يظهر في الأمة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق. ولا أدري ماذا كان سيقول قاسم أمين لو عاش في عصرنا هذا الذي شهد فيه عالمنا العربي بالذات أسوأ حالات الاستبداد؟! و لا شك أنه سوف يأتي وقت علي العالم العربي ينهار فيه بالكامل و يصير مجالا للتنافس واستعراض القوة من جانب القوى الكبرى و القوى الإقليمية.

وصلت إلي الكلية، وسلمت علي العميد في مكتبه، وأخذت جدولتي الدراسي. والحق أن الدراسة في جامعة الملك سعود منتظمة ومنظمة.

أعطوني مادة " أدب عباسي" للسنة الثالثة، ومادة " أدب مقارن" للسنة الرابعة، ومادة " بلاغة" للسنة الثانية، ولم آخذ أية مادة في الدراسات العليا لأنني كنت برتبة مدرس في مصر، وهنا يسمونها: " أستاذ مساعد". كان الجدول موزعا علي ثلاثة أيام، لكن مطلوب منا أن نذهب إلي الكلية يوميا فيما عدا العطلة الرسمية (يوم الجمعة). لم نعترض علي ذلك لأننا حضرنا إلي هنا للعمل اليومي، لاسيما وأن المواصلات سهلة عن طريق التاكسي، وشراء السيارة الخاصة سهل أيضا. دخلت للفرقة الثانية وأعطيتهم قائمة بالكتب البلاغية المطلوب شراؤها أو استعارتها من مكتبة الكلية أو الجامعة. و بعد أن انتهيت من المحاضرة ذهبت إلي القسم، فوجدت عددا كبيرا من الأساتذة موجودين هناك. تعرفت عليهم، ومعظمهم يكتبون في الجرائد والصحف. ومنهم من هو سعودي، لكن بعضهم قدموا من سوريا، ولبنان، وفلسطين، وتونس، والمغرب، ومصر. و هؤلاء جميعا شكلوا خلية تسهم بشكل ملحوظ في الملاحق الثقافية التي تصدرها الجرائد في المملكة، وهي ملاحق واسعة تضم أربع صفحات كاملة أو أكثر، مثل جريدة "الرياض"، وجريدة " عكاظ"، و " المدينة المنورة" وسواها. وجدت ترحيبا من كل الأساتذة لأنهم سمعوا عني من قبل قدومي إلي الرياض لاسيما وأني تعرضت لحملات صحافية نظمت ضدي بسبب بعض الأفكار التي طرحتها في الصحف السيارة، وكانت تدعو إلي التحرر مما نحن فيه من تقاليد بالية.

تركت القسم و توجهت مع أحد الزملاء إلي بهو الجامعة. كان البهو شديد الاتساع، متناول السقف، بدون أعمدة، و به طاولات ومقاعد للجلوس. جلسنا فترة، وكنت أتأمل البهو، وأنظر إلي الناس وهم متوجهون لإدارة الجامعة أو عاندين منها، كما هو الشأن في فترة الصباح. وأخيرا سلمت علي

الزميل قانلا له: لقد اتفقت مع عدد من الزملاء أن نذهب إلي حراج السيارات اليوم بعد صلاة العصر لشراء سيارة لي، أري دائما أنها مهمة ومطلوبة، وقد فعلت ذلك من قبل في فرنسا. خرجت من البهو وطلبت سيارة تاكسي حملتني إلي بيتنا في عمارة الثنيان بأعلى شارع الخزان وبالقرب من مستشفى الشميسي، وهو مكان من أهم المناطق الحيوية في الرياض.

طرقت الباب ففتحت لي سناء بوجهها الجميل الباسم، وشعرها المنسدل علي كتفيها، وابتسامتها الرائقة الصافية، وخدها الأسيل الذي يشبه التفاح الناضج، وقامتها المنسجمة، وعطرها الفواح. قلت في نفسي: كيف ادخر لي الزمان امرأة بهذه القامة الفريدة، وهذا الوجه الذي لا أشبع من النظر إليه؟! وجدت طعام الغداء جاهزا فأكلنا، ثم قلت لسناء: لابد أن تكون لدينا سيارة، و السيارات هنا كثيرة، ويمكن شراؤها من الحراج بسعر معقول. صليت العصر ونزلت أمام باب العمارة أنتظر الزملاء. جاء أحدهم بسيارته فركبت وتوجهنا إلي الحراج. كان الحراج واسعا جدا وممتدا في منطقة صحراوية. لم نلبث إلا قليلا حتى عثرنا علي سيارة تويوتا كريسيда، وهي من السيارات المنتشرة هنا. كانت السيارة بحالة جيدة واشتريناها بثمن معقول. لكن أسوأ ما أثار استيائي في هذا الحراج هو جلوسي مع حارس مصري حكى لي أن كثيرا من المصريين الموجودين هنا يصابون بالأمراض بسبب الحر الشديد، حيث لا توجد مكيفات مثل الموجودة بالمدن، وليس لهم رعاية صحية، ولهذا أصيب منذ أيام قليلة حارس مصري بحالة هبوط شديدة وانخفاض في الضغط، ولولا أن له قريبا يعمل مهندسا لقضي نحبه في الحال، لكن قريبه حمله إلي المستشفى وعولج، ثم جمع له تبرعات وحجز له تذكرة علي الطائرة، وسافر إلي مصر. فالسعودية إذن مثل أي مجتمع رأسمالي لا يهتمه الفقراء، ودعك

من تعاليم الإسلام وغير ذلك من أقوال دعائية، فالفقير دائما هو الفقير، والغني هو الغني.

ركبت السيارة المشتراة، وشكرت الزملاء الذين صحبوني في هذه المهمة و توجهت إلي شارع الخزان. كانت سناء تنتظرني علي أحر من الجمر، فوعدها أننا في الغد وبعد الخروج من الجامعة سوف نقوم بأول جولة بالخروج بالسيارة للتجول في كل أنحاء الرياض. وكانت المفاجأة أن سناء في هذه الليلة حدثتني عن الاتفاق الذي كنا قد توصلنا إليه في بداية زواجنا بشأن تأخير الحمل لعام علي الأقل نستمتع خلاله بأهم مرحلة في حياتنا وهي فترة الشباب. قلت لها: من حقك أن تحملي وأن يكون لك أولاد، ولهذا اعتبري من الآن أن هذا الشرط قد سقط وأنت في حل من أمرك. فرحت سناء بهذا الوعد، وقالت: من حقك الليلة أن أريك من صنوف الحب ما لم تره من قبل. كانت ليلة أرخي الدل فيها زمامه – كما قال العقاد – وأرخص فيها الشوق ما كان غالبا. وأكملت أنا بيته الآخر: "ويا ليلتي لما أنست بقربه / وقد ملأ البدر المنير الأعليا".

في الغد رجعت من الجامعة بعد صلاة الظهر مباشرة، ووجدت سناء في انتظاري. قلت لها: هيا بنا نقوم بجولة في مدينة الرياض، ونتناول الغداء في أحد المطاعم. وكنت أعرف أن منطقة العليا من المناطق الحديثة التي تضم عددا من المولات. ذهبنا إلي هناك وركنا السيارة وتجولنا في بعض الشوارع. كانت الشوارع واسعة مرصوفة بطريقة جيدة، تمرق فيها السيارات الفخمة من كل الماركات والأنواع. تأملت هذه السيارات الفخمة وراكبيها وتأكدت من الفكرة التي كانت لدي من قبل وهي أن بلادنا لم تستثمر الثروة التي أنعم الله بها علينا من النفط في عمليات تنمية حقيقية تشمل المصانع من كل نوع،

ومن بينها مصانع الأسلحة، وإنما وظفت كل الأموال من أجل الترفية باستيراد السيارات الفخمة والبضائع الاستهلاكية، ولذلك فإن دول الخليج مازالت تستورد الأسلحة من أمريكا والغرب بمليارات الدولارات. وسوف يظل الوضع كذلك إلي أن يصبح أضعف منطقة في العالم، وتتداعي علينا الأمم كما تتداعي الأكلة إلي قصعتها. أدركت سناء أنني دخلت في حالة مناجاة للنفس فقالت: سوف تظل طول حياتك مشغولا بمشاكل العالم العربي. دع عنك هذا الآن وتعال ندخل هذا المول.

تجولنا في المول لأكثر من ساعة وشاهدنا فخامة البضائع المستوردة، ثم دخلنا مطعما أحسسنا أنه من المطاعم الفخمة. طلبت سناء أكلة سعودية مكونة من أرز ولحم خروف وبعض المشهيات. ولم أشأ أن أختلف عنها فطلبت الأطباق نفسها. قالت لي سناء أثناء الأكل: كل وانس مشاكل العالم العربي، فلن نستطيع أن نغير شيئا. كنت أنظر إليها ونحن نأكل، وقد غطت شعرها، وتلفتت بالعبادة السمرء التي زادتها جمالا وإبهاراً. ثم وجدتتها تقول لي: أنت أجمل وأنبل إنسان رأيته في حياتي، و لا أدري الآن ماذا كنت سأفعل لو لم يضعك الله في طريقي؟. أضافت: أنت إنسان كبير ومثقف ليس له مثيل. ولا أدري هل الريف عندنا فيه كل هذه الكنوز؟. قلت لها: الريف عندنا ملئ بالمواهب: أم كلثوم جاءت من ريف المنصورة، وطه حسين جاء من ريف المنيا، وعباس العقاد جاء من أسوان، وكانت أيام مولده تعتبر ريفاً، ويوسف إدريس جاء من ريف الزقازيق .. وهلم جراً. فالأرياف عندنا مخزن للمواهب ولعروق الذهب. ومن يتصور أن الريف المصري بعيد عن الحضارة مخطئ كل الخطأ. فالريف عندنا كنز من كنوز العلم والأدب و الثقافة، وإن كان – للأسف الشديد – لا يحظى باهتمام الحكومة الغارقة في مشاكلها الخاصة.

هكذا أكلنا و تناقشنا وملأت ناظري من جمال سناء، وحبها للمعرفة و
فضولها الذي لا يقل عن فضولي. فهل هناك في هذا العالم امرأة مثل سناء
المهدي؟.

ما إن استقربنا الوضع في الرياض حتى طلبت من صفوان أن نقوم بجولة للبحث عن مدرسة أعمل بها مدرسة للغة العربية سواء كانت خاصة أو تابعة للحكومة. دخلنا مدارس كثيرة وقابلنا مدير المدرسة أو المسئول عن شئون التعليم. أحسست بأن المدير أو المسئول ينظر إلينا بشيء من التجهم، فأتانا محجبة فقط ولست منقبة. ويبدو أن النقاب شرط للعمل في هذه الأماكن، ولا بد أن يكون نقابا محكما، يغطي الوجه كله ولا يترك إلا العينين للنظر فقط، ولولا ذلك لغطيت العينين أيضا. أما القدم فلا بد أن يغطي بشارب أسود حالك السواد. ولا أدري من أين أتى القوم بهذه التعليمات؟ فهل التعاليم الإسلامية بهذه القسوة أم أنها تراكمات من آراء بائدة لا تمت إلى الدين بصلة؟ ومن العجيب أن هذه التعليمات لها وقع السحر علي الرجال والنساء جميعا. وقد سمعت حديثا يقول إن من مبطلات الصلاة مرور ثلاثة كاننات أمام المصلي: الحمار، والكلب الأسود، والمرأة. فهل ورد هذا الحديث في كتب الصحاح أم أنه من الأقوال المختلفة التي لا أساس لها؟.

رجعنا من هذه الجولة الطويلة بخفي حنين. ومن ثم كان لابد أن أبحث لنفسي عن شيء يشغلني أثناء وجود صفوان في الكلية. تعرفت علي عدد من النساء ممن يقمن معنا في عمارة الثنيان وليس عندهن شغل مثلي. كنا نخرج صباحا اثنتان أو ثلاثا أو أربعاً، فنأخذ شارع الخزان من أوله وننحدر في طريقنا إلى البطحاء، وهي المنطقة التجارية الشعبية. الشارع مرصوف بطريقة جيدة والبيوت والمحلات علي جانبيه. كانت معنا سيدة سورية حجابها ليس محكما، لكنني كنت ألاحظ أن راكبي سيارة الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر يتغاضون عنها، لكنهم إذا وجدوا واحدة من المصريات لا ترتدي شرابا أو تكشف وجهها ينادون عليها ويقولون لها: يا حُرمة تحشمي ولا تخرجي بدون شراب أو غطاء يستر الوجه. وهكذا يطاردنا دعاة الأمر بالمعروف مثلما يطاردون الرجال، وليس ببعيد ما فعلوه مع الدكتور عصام في الحراج، وهي واقعة ظل يضحك عليها صفوان لعدة أيام، حيث قال لي: تخيلت عصام وهم يجرونه إلي البوكس، ثم وهم ينزلونه ويضعونه في الحجز، إلي أن علمنا بالأمر وذهبنا لإتقاذه قائلين إنه جديد، وليس لديه أي علم بمهمة الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. قلت في نفسي: هل هذه الشعوب التي مازالت تفكر بهذه الطريقة يمكن أن تنجز شيئا في مجال الحضارة؟! لقد سبقنا العالم بمسافات طويلة، وغزا الكواكب، وصنع الأسلحة الفتاكة للدفاع عن النفس، وتقدم في كل المجالات، ونحن مازلنا نرغم الناس علي أن يلبسوا بطريقة معينة، ويتصرفوا وفقا لأهواء الأنظمة الحاكمة، ويعيشوا في الماضي دون أن يفكروا في صنع المستقبل.

وصلنا البطحاء، وكان لابد أن نقوم في البداية بجولة نتعرف فيها علي الأسواق الممتدة علي مساحة واسعة. رأينا بضائع مستوردة من كل أنحاء العالم : أجهزة كهربائية، وبطانيات، وسجاجيد، وكاميرات تصوير، وأجهزة راديو، ومكيفات باردة أو ساخنة، وأقمشة وغيرها، إضافة إلي المنتجات المحلية التي توقفنا عندها كثيرا مثل الحناء والعطور والتمر، وكلها معروضة بكميات كبيرة. أخيرا توجهنا إلي سوق الذهب، ويمتد علي مساحة كبيرة، وفيه كل ما نبحث عنه من عيارات وأشكال وألوان مصنعة بطرق متقدمة جدا. أعجبتني أسورة فقلت في نفسي: لابد أن أطلب من صفوان أن يشتريها لي. أما الشيء الذي افتقدناه في هذه الجولة فهو أننا لا نجد مكانا نجلس فيه،

ونتناول مشروباً بارداً لاسيما وأن الجو شديد الحرارة. تذكرت الرحلة التي قمت بها مع صفوان إلى فرنسا وإسبانيا، وكيف كانت البارات والكافتريات منتشرة في كل الشوارع يدخلها الرجال والنساء علي حد سواء. قلت في نفسي: إن هذه الشعوب تجاوزت مرحلة الفصل بين الجنسين، كما تجاوزت مرحلة تقديس الجسد، وخاصة جسد المرأة الذي مازال عندنا عورة، وكأن الله خلقه من أجل أن يحكم حوله الحصار.

عند العودة إلى البيت ركبنا تاكسيا كان سائقه يحاول ألا ينظر إلينا، لكنني لاحظت أنه ينظر من تحت لتحت، ولم أفهم هذا علي أنه شيء خارج لأنه مهما كان فهو يحمل طبيعة البشر. في البيت وجدت صفوان في انتظاري، وكنت قد أحضرت معي طعاماً جاهزاً، وهم هنا في المملكة يبالغون في كميات الطعام، فيعطونك كمية من الأرز المطبوخ تكفي لعدة أشخاص مع أنك طلبت طلباً واحداً أو اثنين، كما أن كمية اللحوم أو الفراخ لا تقل عن ذلك. أكلنا ثم نمنا لساعة أو أكثر قليلاً، ثم انطلقنا بالسيارة لنزور منطقة أخرى من مناطق الرياض. ذهبنا إلى منطقة تكثر فيها الحدائق و المتنزهات. دخلنا إحدى هذه الحدائق فوجدناها منسقة تنسيقاً بديعاً: أشجار النخيل الباسقة، والصفصاف، والورود، والرياحين، والحشائش، والأكاسيا، والياسمين البلدي، والصبار، والجارونيا، ومسك الليل، وغيرها. وكل هذه الأشجار تفصل بينها تكعيبات مغطاة وبها كراسي من الخشب لجلوس الزوار. قضينا وقتاً طويلاً في الحديقة، وكنت أحس أن صفوان أراد منذ البداية ألا أشعر بالوحدة لاسيما وأننا في مجتمع شبه مغلق، وليس فيه من ترفيه إلا الحدائق والأسواق.

وأثناء الليل قال لي صفوان إنه يفكر في دعوة بعض الأساتذة والشعراء والكتاب من المصريين الموجودين في الرياض لزيارتنا وعقد ما يشبه الندوة

الأدبية، مضيفاً أن ذلك لن يكلفني أي مجهود لأنه سوف يشتري الحلويات والسندويشات من أحد المحلات القريبة منا. قلت له: لا بأس، وعلي الأقل فإنها فرصة للتعرف علي عدد أكبر من الناس لاسيما إذا حضرت معهم زوجاتهم. قال لي: من معه زوجته هنا قليلون، لكننا علي أية حال سوف نوجه الدعوة للأسرة. اتفقنا علي أن تعقد الندوة بعد عشرة أيام من الآن في يوم الجمعة بعد صلاة المغرب. كان صفوان ينتقي زملاءه الذين يتعامل معهم وبعضهم في عمر أساتذته. وقد حضر منهم عدد كبير في هذا اليوم المحدد، حيث استقبلتهم جميعاً وسلمت عليهم، بينما صفوان يعرفني بهم، حيث قدمني لأكبرهم سناً قائلا: هذا هو أستاذنا الدكتور عبد النعيم محمد، وهو من أساتذة اللغة العربية البارزين، وله نشاط متواصل في القاهرة والمنيا، وشديد الاهتمام بطله حسين، وله كتاب في "الوسطية" لا مثيل له، مكون من عدة أجزاء. عرّفني صفوان كذلك علي شعراء وكتاب يسهمون بالكتابة في الجرائد والمجلات السعودية. وكان من بين الحاضرين زوجتان دخلت بهما إلي حجرة مجاورة، وتركنا الندوة كي تبدأ فعالياتهما. سمعنا الشعراء يلقون قصائدهم بالفصحى أو العامية، والكتاب والنقاد يعلقون علي القصائد. وأحيانا كنا نسمع حوارات في مجالات أخرى مثل الحديث عن الأوضاع في مصر، واضطرار المصريين للسفر للخارج لتحسين أوضاعهم المعيشية وغير ذلك. وطلب من صفوان أن يتحدث عن الأدب الفرنسي فصال وجال بادنا من عصر النهضة وخاتماً بالوضع الحالي.

انتهت الندوة في حوالي الحادية عشرة مساءً، وغادر المدعون، ودخل علي صفوان وإشعاعات الحب تطل من عينيه. كان في قمة النشوة، بطوله الفارع، وعينيه الرائقتين، ووجهه المنسجم الملامح، وذقنه الكثيفة المحلوقة

بعناية، وشاربه الكث، وشعر صدره الأسود المجسم، وشعر ذراعيه الذي يبدو وكأنه رتب بطريقة معينة. قلت لصفوان: أحس أنك تتأهب لشيء. قال: وهل أكون معك ولا أتأهب. قلت له: انتظر حتى أكون جاهزة بأفضل مما تريد. ذهبت إلي الحمام، وسويت شعري، وملأت الحمام بالعمور، وفعلت نفس الشيء في حجرة النوم، واستبدلت بملابسي قميص نوم شفاف مشجرا اشتريته من البطحاء، ثم قلت لصفوان: أنا جاهزة بأكثر مما ينبغي. كانت ليلة جميلة من ليالي الرياض انخفضت فيها الحرارة علي نحو ملحوظ بحيث لم نكن في حاجة إلي تشغيل المكيف، بل تركنا شباك الحجرة مواربا حتى نشاهد القمر وهو يطل علينا من عليائه، وكأنه يشاركنا البهجة، وينشر حبه في ربعا، ويحنو علينا. عجبت لنفسي كيف تغزوني هذه المشاعر تجاه القمر؟ لكني قلت لنفسي: إن المحبين ينظرون هكذا إلي القمر، وإن كان بعض الشعراء وعلي رأسهم الشاعر الإسباني لوركا جعله رمزا للإطالة علي المآسي التي يصنعها بعض البشر، علي نحو ما نجد في قصيدته المشهورة " قصيدة القمر القمر " التي تقول:

القمر يأتي إلي المصهر

بأردافه المصنوعة من الفل

الطفل ينظر إليه ... ينظر،

الطفل يديم النظر إليه

في الهواء المستطار

يحرك القمر ذراعيه

ويبدي في شبق ترانبه

من القصدير الصلب.

اهرب يا قمر، يا قمر، يا قمر.

فإن العجر إن قدموا

سوف يصوغون من قلبك

قلائد وخواتم ببضاء.

أيها الطفل، دعني أرقص.

عندما يأتي العجر

سوف يجدونك فوق السندان

وعيناك مغمضتان.

اهرب يا قمر، يا قمر، يا قمر

فانا أحس بوقع جيادهم.

أيها الطفل، دعني ولا تطأ

بياض ثوبي المنشئ.

في يوم الجمعة قال لي صفوان: هيا نتناول الغذاء في مطعم يشبه الواحة في بداية الطريق المؤدي إلى المدينة المنورة، وقد ذكر لي الإخوة في الكلية أنه مطعم جميل، وأكله معمول بطريقة جيدة. ركبنا السيارة بعد صلاة الجمعة وتوجهنا إلى هناك. أعجبنى كثيرا أننا وجدنا هناك ما يشبه حديقة حيوان صغيرة تضم أقفاصا لأسود وقرود، وفهد، وذئب، وثعلب، وثعبان كبير. وكان من الواضح أن هناك اهتماما بهذه الحديقة. تنقلنا بين الأقفاص، ولا أدري لماذا شدني الذئب، وكذلك الثعلب، وهذان كنت أسمع عنهما كثيرا في قصص وحكايات تحكيها الجدة أو الأم أو أقروها في قصص الأطفال واسعة الانتشار هذه الأيام.

ثم دخلنا المطعم الذي لم ينس صاحبه أن يكون معبراً عن الطابع الصحراوي: أعمدة مبطنة بالرخام اللامع، وسقوف تنتشر فيها رسوم ذات طابع إسلامي، وردحات مغروسة بأشجار النخيل، وطاولات تركز علي قواعد من سيقان أشجار الكافور أو الصنوبر، ونافورات تخرج منها مياه صافية، وأنواع أخرى متفرقة من الأشجار. كان من الواضح أن صاحب المطعم أراد له أن يكون واحة بمعنى الكلمة، يمكنه أن يجذب أهل الرياض والمقيمين الذين يريدون قضاء وقت ممتع في الصحراء. جاء النادل وقدم لنا قائمة بأنواع الطعام. اخترت بفتيك وأرز ومتبل، واختار صفوان لحم خروف رضيع مع طبق أرز وطبق سلطة. قال لي صفوان أثناء انتظارنا للطعام: هل تعرفين ما هو أجمل لحم خروف رضيع أكلته في حياتي؟ قلت له: لا أعرف . قال: كنت في قرية قريبة من إحدى المدن الفرنسية، وقيل لي إن هناك بيتاً أهليا يقدم لحم الخروف الرضيع. دخلته وأكلت طعاما لم أكل مثله في حياتي. كان اللحم معمولا في برام من الفخار، والأرز معمولا في فرن بلدي يشبه أفراننا في مصر، ولهذا كان يشبه الأرز المعمر عندنا. ومهما عشت فلن أنسي هذه الأكلة ما حييت.

جاء النادل بالطعام فأكلنا بكل شهية، ثم طلبنا الحلو طبقا من الأرز باللبن أو المهلبية فجاءوا لنا بالاثنتين. بعد ذلك شربنا الشاي، ثم خرجنا ندور مرة أخرى علي أقفاص الحيوانات. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساء، فركبنا السيارة متوجهين إلي الرياض. لم يكن صفوان يكف عن معاكستي حتى وهو يقود السيارة، فأجده يضع يده علي فخذي، أو علي وجهي، وقد يمدحنا نحو نهدي. قلت له يا صفوان: تبدو وكأنك لا تشبع من هذه الأمور. قال: وهل الحب يستطيع أحد أن يشبع منه؟ إنك يا سناء، بجمالك، وحسن

قوامك، وهدوء طبعك لا مثيل لك بين النساء. وقد عرفتك بالصدفة، بل إنك كنت صاحبة المبادرة، ولن أنسي لك هذا ما حييت. أتريدين أن أنذكرك بما جاء في رسالتك لي عبر ورقة الإجابة؟ قلت له: أنا أحفظ كل كلمة فيها، وأستطيع أن أعيدها عليك الآن. لكنني كتبتها وأنا لا أتصور أن هناك إنسانا يحمل كل هذه العواطف، وتتطوي نفسه وجسده علي كل هذا الحب. أضفت: هل ثقافتك هي التي جعلتك كذلك؟ وهل تأثرت بالحب العذري أو بحب جماعة التروبادور؟ قال صفوان: لا أرد عليك إلا بأبيات من قصيدة لابن عربي في ديوانه المشهور " ترجمان الأشواق " تقول:

هتفت الورق بالرياض وناحت	شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادي	من بنات الخدود بين الغواني
طلعت في العيان شمسا فلما	أفلت أشرقت بأفق جناني
يا ظلولا برامة دارسات	كم رأت من كواعب وحسان
بأبي ثم بي غزال ربيب	يرتعي بين أضلعي في أمان

ومما جاء في هذه القصيدة الجميلة:

الهُوى راشقي بغير سهام	الهُوى قاتلي بغير سنان
عرفاني إذا بكيت لديها	تسعداني علي البكا تسعداني
واذكرا لي حديث هند ولبني	وسليمي وزينب وعنان
ثم زيدا من حاجر وزرود	خبرا عن مراتع الغزلان
واندباني بشعر قيس وليلي،	وبمى، والمبتلي غيلان
طال شوقي لطفلة ذات نثر	ونظام ومنبر وبيان

أضاف صفوان: وأنت يا سناء، سوف تظلين هذه الطفلة الجميلة التي لن أنسي أبداً ضحكتها، وابتسامتها، ووجهها المزدان بالبراءة و النقاء والصفاء.

بعد أن قضينا هذا الوقت الممتع في الصحراء، وشاهدنا الطرق المنظمة و المرصوفة بعناية وصلنا إلي عمارة الثنيان. قال لي صفوان إنه يريد أن يصلي العشاء في المسجد. توجه إلي مسجد قريب منا، ولكني وجدته عائدا بسرعة قبل أداء الصلاة. سألته: لماذا لم تصل في المسجد؟ قال لي: حدث ما جعلني أخرج من المسجد غاضبا. قلت له: لماذا؟ قال: تصادف أنني اشترت جريدة " الحياة" قبل دخولي المسجد، أخذتها معي ووضعتها أمامي، وبعد أن انتهيت من ركعتي تحية المسجد وجدت شابا في سن العشرين تقريبا يتقدم مني ويقول لي: يا أستاذ، ممنوع اصطحاب جريدة إلي المسجد. قلت له: من الذي أصدر هذه الفتوى؟ قال: ألا تعلم أن الجريدة مملوءة بالصور، والصور لا يصح أن تدخل المسجد؟. تذكرت أنني سمعت أحد كبار المشايخ في المملكة يقول إن الصور حرام، وإن الإسلام يحرمها فقلت في نفسي: هل هذا الشيخ ليس لديه صور جواز سفر؟ وهل وصل بنا التناقض إلي هذا الحد؟. أضاف صفوان: لم أجد أن هناك فائدة من مناقشة الشاب فقررت أخذ الجريدة ومغادرة المسجد، وقلت لنفسي: إن الصلاة في البيت أفضل. قلت لصفوان: هذه المواقف سوف تقابل منها الكثير هنا، ثم تذكرت ما حدث للدكتور عصام في الحراج فضحكت ملء شديقي.

قال لي صفوان بعد أن صلي صلاة العشاء: هيا بنا نخرج من أسر هذا العالم المتخلف ونعيش حياتنا. ثم أضاف: لو أن المسلمين الأول كانوا يفكرون بهذه الطريقة ما استطاعوا صنع حضارة باهرة استمرت لثمانية قرون. لقد

رأيت بعض الآثار في الأندلس، وتأكدت أن العرب كانوا صنّاع فن، وصنّاع حضارة، وصنّاع علم وثقافة. أما عرب اليوم فقد أتيحت لهم الثروة ولم يتح لهم العقل.

قضينا بعد ذلك وقتاً نشاهد التلفاز، وتصادف عرض فيلم عن الحرب العالمية الثانية، تابعناه باهتمام شديد، وصفوان يضع رأسه علي فخذي ولا يكف عن المناكشة والمناوشة، وأنا بين الحين والآخر أقبّله وأتحسس صدره، وأمرر يدي علي شعره، وأتلقى أنفاسه، لدرجة أننا في بعض الأحيان كنا ننسي الفيلم وما يدور فيه من أحداث. ولا أدري هل كل المحبين بهذا التوهج، وهذه العواطف الغامرة. تذكرت رواية جابرييل جارثيا ماركيز المعنونة " الحب في زمن الكوليرا" والتي قرأتها في ترجمة رائعة أحضرها لي صفوان، وهي بحق ملحمة من ملحم الحب. قلت لصفوان: هل قرأت هذه الرواية بعناية كما قرأتها؟ قال: أجل، قرأتها مرتين، وفي المرة الثانية اكتشفت فيها أشياء لم أظن إليها في قراءتي الأولى. أضاف: لقد أعجبتني فيها إخلاص فلورونتينو أريثا لفرميندا داثا حتى بعد زواجها من غيره، وقد انتظر وفاة زوجها لمدة تناهز أربعين عاماً ليعاود حبه لها، ويلتقي بها وقد جاوز كل منهما السبعين عاماً.

قلت لصفوان: إنك واسع الثقافة في زمن لم تعد فيه الثقافة تشغل إلا عدداً قليلاً من أبناء العرب، ينتجون الثقافة ويتعاطونها. رد صفوان: وهذه هي مأساة العرب في العصر الحديث، فهم لا ينتجون العلم، ولا أدوات التكنولوجيا، ولا يسهمون بشيء في الإنتاج العالمي، وكل حاجاتهم مستوردة بدءاً من السلاح وانتهاء بالأدوات الاستهلاكية، أما الثقافة فقد غابت تماماً، ولم يعد هناك انتشار إلا للفتوات التليفزيونية التي لا تمل من نشر التفاهات

والأفكار الساذجة التي تغيب العقل وتقضي علي الأحاسيس والوجدان. ولذا
سوف يكون سقوط العرب مدويا. وهذا تنبأ به نزار قباني.

ذات يوم اتفق أعضاء قسم اللغة العربية من الإخوة السعوديين، علي دعوة الأساتذة المهتمين بالأدب، إلي بيت أحدهم، في سهرة ليلية نبحث فيها شئون الثقافة والفكر والأدب، ونتناقش ونتبادل الآراء. وكانت أول سهرة في بيت رئيس الجامعة، وهو من قسم اللغة العربية. توجهت بالسيارة إلي ضاحية جديدة من ضواحي الرياض. شاهدت الأبنية الفخمة والفيلات، وطالعت أشجار النخيل الباسقة، والأشجار المزروعة بطريقة منظمة، وسرت في الشوارع الواسعة التي تكاد تخلو من المارة لدرجة أنني لم أجد أحداً أسأله عن موقع الفيلا. لكنني أخيراً وصلت. طرقت الجرس ففتح لي خادم اتضح من سحنته أنه من جنوب شرق آسيا.

حضر اللقاء عدد لا بأس به من الإخوة الأساتذة. طرح موضوع ثقافي اشترك في مناقشته الجميع، وعندما تطرق النقاش إلي الموضوعات السياسية لاحظت أن الإخوة السعوديين عازفون عن المشاركة في هذا الشأن. ذكرني هذا العزوف بموقف حدث لي في قاعة الدرس، وكنت أشرح قاعدة بلاغية تقوم علي ذكر بيتين لأبي الطيب المتنبي يقولان:

ولا يقيم علي ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد

هذا علي الخسف مربوط برمته وذا يُشج فلا يرثي له أحد

في هذه السهرة، عندما وجدت السعوديين قد أحجموا عن مناقشة وضع سياسي اندفعت لأقول: إن جراند المعارضة في مصر تسلق النظام بالسنة حداد، وتبحث في كل التفاصيل بما في ذلك أوضاع الفساد وانهيار القيم وغير ذلك، وهنا وجدت أحد الأخوة السعوديين من الأساتذة الكبار يقول: إننا

نهنكم علي هذه الخطوات الجريئة ونتمنى أن نصبح ذات يوم مثلكم. لم يعلق
الباقون وتركوا الملاحظة تمضي في الهواء الطلق الذي كان يأتينا من
الشبابيك الواسعة المفتوحة علي مصراعيها.

بعد انتهاء امتحانات الفصل الدراسي الأول وظهور النتائج وجدت وكيل
الكلية، وهو شاب دارس في جامعة أدنبرة في بريطانيا، يستدعيني ويستدعي
أحد الأساتذة الكبار من المصريين. دخلنا عليه فوجدناه ثائراً يرغي ويزيد،
ووجه الحديث لي قائل: هل هذه نتيجة؟ معظم الطلاب حاصلون علي ممتاز
وجيد جداً. لابد أن ثمة خلا في هذه النتيجة. رد عليه زميلي المصري: لا أظن
أن هناك خلا، لأن عدد الطلاب محدود، ويمكن أن يكونوا قد استوعبوا
الدروس بالطريقة السهلة البسيطة التي استخدمها الأستاذ. تركت الوكيل يتكلم
بلهجته التي تنطوي علي اتهام واضح، وبعد أن انتهى من كلامه فاجأته
بقولي: "الدكتور صفوان عبد الخالق عندما يخرج نتيجة بهذا الشكل فهذه
هي النتيجة". وكان كلامي مثل الدش البارد الذي نزل علي رأس الوكيل
وعلي رأس زميلي المصري. هداً الوكيل تماماً فودعناه وانصرفنا. هذا
الموقف كان يمكن أن يؤدي بي إلي النزول من المملكة، وأنا مازلت في
البداية، ولكني لم أتعود طول حياتي أن أقبل الإهانة في مقابل أي نفع مادي.
فعقيدتي الراسخة هي أن الأرزاق لا يتحكم فيها أحد من البشر وإنما هي ملك
خالص لله وحده. و الحديث النبوي المشهور واضح الدلالة في ذلك: "لو
اجتمع أهل الأرض جميعا علي أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله
لك، وإن اجتمعوا علي أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.
جفت الأقلام وطويت الصحف".

في المملكة لا تجد وسائل الترفيه متاحة حتى في الأعياد التي لا يحتفلون بها. ففي الأعياد تجد كل شيء في حالة صمت، وكذلك رأس السنة الهجرية، وعيد الميلاد، ومولد الرسول عليه السلام وغير ذلك. ولهذا تجد المصريين هنا، لاسيما من عامة الناس، عندما يصلون إلى المملكة، ويواظبون على صلاة الجماعة في المسجد تتغير سحتهم وهيأتهم بسرعة: يطلقون اللحية، ويقصرون الثوب، ويضعون علي رءوسهم الطاقية أو الغُترة لأنهم، في العادة، يربطون بين الرفاهية المادية والالتزام بأصول الدين، وبالطبع فإنهم لا يدركون أن الالتزام بالأصول مجرد مظاهر لا تمت إلى تعاليم الإسلام بصلة. ولو أن هذا الالتزام كان حقيقيا ما وصل العرب إلى ما هم فيه من جهل وتخلف وابتعاد عن الحضارة والتقدم.

ومثما أوجدت سناء لنفسها مجموعة من النسوة تصحبهن إلى الأسواق والمولات التجارية، فقد وثقت صلتى ببعض الأخوة من المصريين، يقودنا أحدهم إلى المطاعم لاسيما المطعم التركي حيث نتناول طعام الغداء كل يوم جمعة، وقد نذهب إلى المطعم الموجود في الصحراء نشاهد أفقاص الحيوانات ونقضي وقتا ممتعا في المطعم. قالت لي سناء: لماذا لا نأتي معكم؟ قلت لها: لأن معظم الأخوة ليس معهم زوجاتهم، ثم إن الاختلاط هنا في الأماكن العامة ممنوع منعاً باتاً. أضفت: وأنا علي أية حال أخرج معك كثيرا حتى لا تحسي بالغربة. ويمكن أن نساfer إلى مصر قريبا لنقضي هناك فترة الأجازة في نصف العام.

وصلنا إلى مصر في منتصف شهر يناير، وتوجهنا مباشرة إلى شبين الكوم. ذهبنا إلى الفيلا وكنا في منتصف النهار. رحب بنا والد سناء ووالدتها وأخوها وأسرته كثيرا، وقدمت لنا الوالدة طعام إفطار شهى مكون من فطير

بلدي وعسل نحل وعسل أسود وجبنة حادقة بها قرون من الفلفل. قلت
لحماتي: أنت دائما كعادتك تتفننين في الأكل. لقد اشتقنا كثيرا لأكلاتك
المشهية، وإن كانت سناء قد أخذت عنك الكثير. جلسنا جلسة عائلية طويلة
تناولنا خلالها شئونا كثيرة عن الأوضاع في المملكة، وعن وضعنا هناك.
وقال لي الوالد: من الواضح أنك تسعد بهذه الانتقالات من بلد إلى بلد. قلت
له: كيف لا أسعد وسناء معي؟ قال: ولكنها لم تجد عملا هناك. قلت له: لأن
خريجات اللغة العربية في المملكة كثيرات، وبالتالي فإن المسؤولين عن
المدارس الحكومية أو الخاصة يضعون شروطا لا تستطيع سناء أن تتحملها.
بعد العصر نزلت مع سناء إلى الجنية. عاينا أشجار الفيكس، والسرو،
والأكاسيا، والنخيل البلدي، والجوافة، والمانجو، والريحان، والبرتقال،
واليوسفي، والمشمش، والفل، والورد البلدي، والياسمين، والصبار، ومسك
الليل، والبوكا الخضراء، والجارونيا، والحبك وسواها. جلسنا تحت تكعية
العنب. قالت لي سناء: أريد أن أقبلك هنا وأتذكر الماضي. رددت عليها بقبلة
طويلة تغلغل في أعماقي وأعماقها. ثم جاء وقت الذهاب إلى مصر الجديدة.
ركبت السيارة التي كانت مركونة في الجراج وتوجهت إلى القاهرة. كان الليل
قد أرخي سدوله، والسماء ملبدة بالغيوم، والندي يلف الجو بغلالة رقيقة
تنسحب على المزروعات الخضراء اللينة، والترع الصغيرة تجرى فيها
المياه القادمة من بحر شبين.

وصلت إلى بيتنا في شيراتون المطار في حوالي الساعة التاسعة. وجدت
صفاء في انتظاري. احتضنتها بقوة، واحتضنت الأولاد، وكانوا جميعا في
شوق كبير إلي. وكانت صفاء قد أعدت طعاما فاخراً، فتعشنا، وجلسنا ساعة
نحدث، ثم ذهب الأولاد إلى مضاجعهم لأنهم، في العادة، يصحون مبكراً

للذهاب إلى مدارسهم. وكانت لحظة اللقاء مع صفاء. وجدتها، علي العهد بها، مهمة بنفسها وبصحتها. حدثتني عن عملها في مستشفى التأمين الصحي التي لا يتردد عليها إلا فقراء المصريين، الذين يعانون أشد المعاناة من الفوضى والاستغلال، وشح الأدوية وغير ذلك من روتين قاس ومعوقات لا حصر لها.

في هذه الليلة كانت صفاء في غاية التألق: وجه جميل، ووجنة متوردة، وشعر مسرح بعناية بالغة، وقامة متوسطة مدكوكة، وذراعان مصقولان، وابتسامة رانقة. قلت لها: لقد زدت جمالا يا صفاء!! قالت: وهل أنتظر ولا أزيد جمالا؟ صحيح أنك بعيد عنا الآن، ولكنك في القلب دائما، أراك معي في كل لحظة، وأسترجع أيامنا في فرنسا، وأعيش معك اللحظات المتفجرة التي كانت غذاءنا الدائم. فهل مازلت علي العهد أم أن المرأة الأخرى أخذتك مني؟ قلت لها: لا يمكن أن يأخذني منك أحد. فأيامنا معا لا تنسي. قامت صفاء إلي حجرة النوم ورشتها بالعبور، ووضعت ملاءة موشاة بالحرير علي السرير، واستبدلت بملابسها قميص نوم فاتن اشترته خصيصا لهذه الليلة، وبدأنا نمارس الحب حتى فترة متقدمة من الليل، وصفاء تحاول أن تقدم أروع ما عندها.

في الصباح ذهب الأولاد إلي المدارس وانطلقنا نحن للتجوال في أنحاء مصر الجديدة. كنت قد اشتريت لها أسورة ذهبية فاخرة وبعض المصوغات فلبستها، وبدأت أكثر زينة وأكثر تألقا، كما كنت قد أحضرت بعض الملابس الغالية لها وللأولاد، وكانني بذلك أعوض الجميع عن فترة من الغياب استمرت لعدة أشهر. قضيت فترة الأجازة كلها مع صفاء نتجول هنا وهناك ونذهب إلي طنطا لنسلم علي الأهل، ونقضي ليلاات عشق لا مثيل لها. وقبل السفر إلي

المملكة بيوم واحد ذهبت إلي شبين. وصلنا إلي المملكة في منتصف النهار. كان الجو بارداً، وفترة البرودة في المملكة لا تتجاوز أربعين يوماً، لكننا كنا مستعدين لذلك بالملابس الثقيلة. قالت لي سناء: الميزة الأهم لأساتذة الجامعة هنا في المملكة أن لديهم حرية السفر في الأجازات. قلت لها هذا ليس خاصاً بأساتذة الجامعة بل بكل الوظائف العالية مثل الأطباء والمهندسين والصيدالة وسواهم. أما الفئات الدنيا فإنهم يعانون معاناة شديدة. حكيت لها أنني قابلت يوماً شخصاً أبوه ابن عم والدتي يعمل في أحد المحلات ودعاني لزيارتهم. ذهبت إليهم في مكان قريب من البطحاء ومبانيه مازالت من الطوب اللبن. دخلت المبنى فوجدت فيه تسعة أفراد كلهم يشتغلون في مهن البيع في المحلات المخصصة لهذا الغرض، ويقضون في الشغل إحدى عشرة ساعة يومياً. لم يكن بالدار القديمة إلا ساحة للنوم والقعدة، فرشوا فيها أبسطة قديمة عثروا عليها في صناديق القمامة. جلست معهم مدة قليلة جداً وأرادوا أن يحضروا لي مشروباً مثلجاً فمنعتهم. وعندما قام فيصل بتوصيلي قلت له: إن والدك من أعيان القرية فكيف تقبل لنفسك أن تعيش في مكان كهذا؟ قالت لي سناء: إن هذه حال بائسة، فكيف يقبل السعوديون أن يكون وضع العاملين عندهم بهذه الصورة؟ قلت لها: هناك حالات أسوأ من هذه، فعندنا في الكلية عمال من بنجلاديش والهند وباكستان يتقاضى كل منهم ثلاثمائة ريال في الشهر، والمشكلة ليست في قلة المبلغ، وإنما في تأخر الرواتب لشهور متواصلة ونضطر نحن أن نجمع لهم كل شهر أموالاً ليعيشوا منها.

في الكلية عاينت ظاهرة غريبة جعلتني أشن حملة علي عدد من المصريين. والسبب في ذلك أنهم لا يحافظون علي كرامتهم، ولا يلتزمون بالعفة التي ينبغي أن يتحلي بها الأستاذ الجامعي – فقد كانوا – وأقصد هذا

البعض - يقبلون الهدايا من الطلاب، ويقبلون منهم أن يعزموهم علي أكلة شهية في الصحراء. ومما أنكره من ذلك، أنهم عزموهم ذات مرة وأحضروا لهم سيارتين، وشووا لهم خروفا كاملا، فأكلوا وشبعوا ولكن الطلاب عند العودة حشروا جميع الأساتذة في سيارة واحدة، ولذلك احتج كبير الأساتذة مدير هذه العزومات قائلًا للطلاب: كيف تحشروننا في سيارة واحدة ونحن أساتذة؟! ولكن الطلاب لم يأبهوا بقوله لأنهم يعلمون أن أمثال هؤلاء الأساتذة يستحقون الصفع أكثر مما يستحقون التكريم. وهناك موقف آخر لا أنساه أبداً وهو أن الأستاذ الكبير المذكور كانت لديه سيارة تويوتا كريسيда عائلية، فكان يستغلها في حمل عدد من الأساتذة معه في مقابل خدمات تقدم له مثل عزمه علي أكلة أو غير ذلك. وذات يوم توقفت السيارة واحتاج إلي ميكانيكي فطلب من أحد الطلاب أن يوصله إلي بيته بعد انتهاء اليوم الدراسي. كان الطالب يملك سيارة نصف نقل. لكن المفاجأة تمثلت في أن من تعودوا علي أن يركبوا معه في سيارته احتشدوا من أجل أن يركبوا معه العربة نصف النقل. في هذا اليوم شاهدت منظرا عجيبا، فهذه هي المرة الأولى التي وجدت فيها الأستاذ ينفعل ويشخط فيهم قائلا: هل ستركبون مثل عمال التراحيل ومعكم أموال لا حصر لها؟

علي أن شخصية هذا الأستاذ كانت في غاية العجب: فهو يمتلك أموالا وعقارات وتجارة رائجة في مصر، لكنه مقتر علي نفسه تقتيرا ليس له مثيل. إنه يصرف المرتب من البنك، وقيمته أربعة عشر ألف ريال، ويرسله بعد ساعة إلي زوجته في مصر، ولا يُبقي لنفسه إلا أقل القليل، ويبدو طوال الشهر وكأنه يتسول الأكل من فلان أو علان ممن يحملهم معه في سيارته. وهو يسكن في شقة عجيبة في إحدى حارات منطقة البطحاء، وكان من

الصدف أنه دعانا ذات يوم لنزوره في شقته، أو لعله كان مريضا فذهبنا إليه نعوده: كانت الشقة مكونة من ممر طويل بعرض متر واحد، يعني أنك لكي تدخل لابد أن تدخل بالجنب، أما السرير فموضوع في حجرة ضيقة لا تكاد تستطيع أن تقعد فيها. قلت لنفسى: هذا الرجل يصرف من الجامعة بدل سكن قيمته ثلاثون ألف ريال وأعظم شقة في الرياض لا يزيد إيجارها في العام عن خمسة عشر ألف ريال، فلماذا يحرم نفسه بهذه الطريقة القاسية؟! لأنه يريد أن تصل الفلوس كلها إلي الزوجة المصون؟ أم أنه عقاب إلهي وفقا للآية الكريمة: "ولا تعجبك أموالهم و أولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون".

قالت لي سناء عندما أقيت علي سمعها هذا الحديث: وهل هناك في الدنيا من يحرم نفسه من أمواله ويعطيها لغيره طانعا مختارا؟ قلت لها: يا سناء المصريون في هذا الزمن فعلوا أشياء لم يكن من الممكن أن نتصورها أو نتخيلها. ألا تعلمين أن بعضهم يتركون بناتهم وحدهن في مصر، ويواصلون العمل في دول الخليج لأكثر من عشرين عاما، بل يتجاوز بعضهم الثلاثين، ثم يعودون بعد أن يكون كل شيء قد ضاع. إنني أعرف نماذج كثيرة من هذا النوع. وبعضهم يتركون أولادا ذكورا ومع ذلك ينحرف الأولاد إما جنسيا ويصابون بأمراض كالزهري أو يدمنون المخدرات، وكل هذا من أجل جمع الأموال التي لا تساوى ظفر شاب يتمتع بالصحة النفسية والجسدية.

في هذه الليلة خرجت أنا وسناء لنتناول طعام العشاء في مطعم دلني عليه أحد الأصدقاء في منطقة العليا. كان المطعم فسيحا، فخما، جدرانها مطعمة برخام من أرقى الأنواع، منها نوع أخضر اللون يقال إنه مجلوب من الهند، وأصص الزرع منتشرة في كل الأركان ومنسقة بطريقة تبعث علي حب

النظام. وطلبنا أسماكاً من أرقى النوعيات علي رأسها الجمبري الكبير مشوياً ومقلياً، و الاستاكوزا، وسمك السبيط. أكلنا بشهية واضحة، ثم طلبنا الحلو، حيث فضّلت أنا طبق أم علي، وكثير من الأطباق المصرية موجودة في الرياض، وطلبت سناء فاكهة، ثم أحضروا لنا الشاي الذي نفضله بعد أكلة دسمة كهذه.

بعد ذلك توجهنا مباشرة إلي البيت، وكانت سناء تعرف ما أريد فخلعت ملابسها وارتدت قميص نوم فاخر اشترته أثناء إحدى جولاتها بالأسواق، وتعطرت بصورة قوية لدرجة أن الروائح العطرية النفاذة ملأت كل أركان الشقة. قلت لها: لم يبق إلا أن تخلعي لي ملابسني وتعطيني. كان لدي كلينا إحساس بأن فترة الشباب هي الفترة التي ينبغي أن يعيشها الناس بالطول والعرض. والشباب أساسه الحب واللقاء الجسدي، وكل هذا يمكن أن يفتر عندما يتقدم السن، وقد عرف عن بعض الخلفاء أنهم عندما امتلكوا الزوجات وأعداداً لا حصر لها من الإماء كان الزمان قد ألقى عليهم بكلّله، فلم يستطيعوا عمل شيء، وبعضهم له أقوال في ذلك.

قالت لي سناء إنك متيم بقصص العرب، تقرأها مرات ومرات، وتتوقف عند مضامينها ودلالاتها. قلت لها: إن قصص العرب من أجمل القصص في العالم. وسوف ألقى علي سمعك إحدى هذه القصص لتعرفي كم نحن مقصرون في تراثنا. والقصة عنوانها " لبيد والوليد بن عقبة"، ولبيد أحد الشعراء المخضرمين، والوليد بن عقبة كان أميراً علي الكوفة. تقول القصة: كان لبيد بن ربيعة جواداً شريفاً في الجاهلية والإسلام، وكان قد آلي في الجاهلية أن يطعم ما هبت الصَّبَا. ثم أدام ذلك في إسلامه، وكانت له جفتان يغدو بهما ويروح في كل يوم علي مسجد قومه فيطعمهم. ونزل لبيد الكوفة،

وأمرها الوليد بن عقبة، فبينما هو يخطب الناس إذ هبت الصَّبَا، فقال الوليد في خطبته علي المنبر: قد علمتم حال أخيكم أبي عقيل، وما جعل علي نفسه: أن يطعم ما هَبَّت الصَّبَا، وهذا يوم من أيامه، وقد هَبَّت ريحها، فأعينوه وأنا أول من فعل. ثم انصرف الوليد، فبعث إليه بمائة من الجُرز وبهذه الأبيات:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه	إذا هبت رياح أبي عقيل
أشم الأنف أصيد عامري	طويل الباع كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعفرى بما نواه	علي العلات والمال القليل
بنحر الكؤم إذ سحبت إليه	ذيول صَبَا تجاذب بالأصيل

فلما وصلت الهدية إلي لبيد شكره، وقال: إنني تركت الشعر منذ قرأت القرآن ثم قال لابنته: أجيبيه، فلعمري لقد عشت دهرأ وما أعيأ بجواب شاعر، فقالت:

إذا هبت رياح أبي عقيل	دعونا عند هَبَّتْها الوليدا
أشم الأنف أصيد عبشميا	أعان علي مروته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركبا	عليها من بني حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً	نحرناها وأطعمنا الوفودا
فعد، إن الكريم له معاد	وظني بابن أروى أن يعودا

فقال لبيد: أجبته وأحسن، لولا أنك سألت في شعرك. قالت: إنه أمير وليس بسوقة، ولا بأس بسؤاله، ولو كان غيره ما سألناه! قال: أجل، إنه علي ما ذكرت، وأنت يا بنية في هذا أشعر!.

ثم قلت لسناء: إن تراث العرب لا مثيل له، ولكنهم في العصر الحديث ضيعوا كل شيء بسبب الجهل والاستبداد والفساد. وهم إن بقوا علي هذه الحال سوف يكونون من أضعف الأمم علي وجه البسيطة، والحياة ليس فيها مجال للضعفاء. إن اهتمامنا بالتراث لا يمنعنا من أن ننتج في الوقت الحالي، ونمتلك المصانع كما نمتلك القوة، ونحمي أنفسنا بكل أنواع الأسلحة التي يمكن أن نصدرها ولا نستوردها، ونسهم في مجالات الحضارة والتقدم. قالت سناء: مشكلتك يا صفوان أنك تحرث في أرض بور غير موهلة للزراعة، ولكن ماذا تفعل أكثر من ذلك؟! فليس في يدك إلا الطباشير تكتب بها علي السبورة، أما القرارات فإنها في أياد أخرى.

دخل علينا منتصف الليل، فأخذت سناء في حضني ونمنا نحلم بيوم آخر، ونتأهب لما يمكن أن نفعله في الغد. قالت لي سناء: إن حياتي باتت جزءا من حياتك، حتى كأني مثل موجة تطارد أو تطاردها موجة أخرى في بحر زاهر بالمتعة والصفاء والمحبة. قلت لها: أنا الآن يا صفاء مازلت أستعيد الكلمات التي خطتها يدك في ورقة الإجابة، وما كنت أتصور أنها سوف تجعلني أنت وأنا جسدين في كيان واحد.

في هذه السنوات التي عشتها في الرياض أحسست بأني وسناء المهدي نعيش فترة شهر غسل طويلة ممتدة، نقضي الليل في حالة عشق وحب، ونذهب خارج الرياض، ونتجول في الأحياء الراقية، ولا ننسى الذهاب إلي أسواق البطحاء، ونسافر في رحلة طويلة إلي مكة المكرمة لأداء العمرة، ثم نتوجه إلي المدينة المنورة للزيارة، ونقضي الليالي في فنادق فاخرة نسترجع فيها أيام الرحلة إلي فرنسا وإسبانيا. كانت السيارة تساعدنا لأنها من السيارات المتينة القوية. ولن أنسي أبداً رحلة الحج، حيث ذهبنا إلي المدينة المنورة أولاً، وعند العودة منها متوجهين إلي مكة أحرمانا للحج في منطقة آبار علي، ثم ذهبنا إلي الفندق الذي حجزنا فيه في مكة إلي أن جاء يوم التروية فانطلقنا إلي منى. كان معنا في هذه الرحلة صديق عزيز يكبرني بعشرين عاماً ومعه زوجته. وكان هذا الأستاذ المصري خفيف الدم مشهوراً بتعليقاته المدهشة وقفشاته المضحكة، مما جعل الطريق من الرياض إلي منطقة الحجاز سهلاً وميسراً.

في يوم عرفات ذهبت وحدي إلي جبل الرحمة، دون أن أخبر أحداً، ولأني تسلقت الجبل لاكتشاف تضاريسه ومرتفعاته تأخرت لمدة طويلة، وعندما عدت وجدت سناء منهارة تبحث عني في كل مكان ومعها الدكتور وزوجته، إلي أن رأوني قادما من ناحية جبل الرحمة، فأجهشت سناء بالبكاء، وقال لي الدكتور: لقد تصورت أنه قد حدث لك مكروه. لماذا فعلت ذلك؟ قلت لهم: أنا متأسف لكل ما حدث، لكنني لا أستطيع أبداً الوقوف ضد نزعة حب الاستطلاع التي يمكن أن تسيطر في بعض الأحيان علي تفكيري. لقد كنت أريد أن أكتشف

جبل الرحمة، ومن ثم نسيت كل شيء ما عدا هذا الهدف الذي ترونيه غريبا وأراه أنا قريبا ومتاحا، لاسيما وأنا لا نضمن متى نأتي مرة أخرى إلي هذا المكان.

كانت النفرة من عرفات إلي المزدلفة في غاية الصعوبة، فالحافلات والسيارات شبه متوقفة، لدرجة أننا لم نصل إلي المزدلفة إلا مع أذان الفجر. صلينا الفجر ثم قمنا بجمع الجمرات، ونحن في طريقنا إلي مني. في الخيمة دار حوار بيني وبين شاب مصري ملتج حول موعد رمي الجمرات، وكان الشاب مصرا علي أنه لا يجوز الرمي إلا بعد الزوال. قلت له: آراء العلماء مختلفة حول هذا الموضوع، وبعضهم أجاز الرمي منذ الصباح الباكر أو بعد صلاة الفجر. أصر الشاب علي موقفه مما اضطرني لأن أسأله عن دراسته. وكان رده صادقا لأنه قال لي: أنا من راسبي كلية التربية / جامعة الأزهر - قلت له: من الراسبين وتريد أن تفرض رأيك علي الناس!! أدركت في هذه اللحظة أنه ولد جاهل، وللأسف فإن هؤلاء الجهال المتخلفين يمارسون سلطاتهم وسيطرتهم علي الناس في كل مكان في عالمنا الإسلامي المنكوب. في ذلك اليوم ذهب الحجيج بعد الزوال لرمي جمرة العقبة الكبرى، وأدت الصدمات والتدافعات إلي موت ما لا يقل عن ثمانمائة وخمسين حاجا حسب الإحصاءات الرسمية.

بعد أن انتهينا من أداء مناسك الحج توجهنا ليلا إلي الرياض، كان الطريق طويلا والظلام دامسا، ولذلك كنت أحس وأنا أقود السيارة كأنني داخل نفق، لكنه نفق وهمي أجوس من خلاله، وأمضي نحو الهدف المنشود، بينما سناء و الدكتور وزوجته شبه نائمين، وإن كانت سناء من خوفها أنني يمكن أن أنام تحاول أن تظل صاحبة مستيقظة.

وصلنا إلى الرياض في الساعة العاشرة صباحاً، فأوصلنا الدكتور وزوجته إلى حيث يقيم بالقرى من حديقة مشهورة أسفل شارع الخزان. وعدنا إلى بيتنا لننظر نائمين طوال النهار، لم نستيقظ إلا بعد صلاة المغرب. طلبنا وجبة جاهزة من أحد المطاعم، وهنا كانت أستار الليل قد فرضت هيمنتها على الكون وإن كانت أنوار الشوارع الباهرة تحول دون استئراء هذه الهيمنة. قلت لسناء: حان وقت اللقاء بعد هذه الرحلة الطويلة التي استغرقت أياماً وليالي. قالت: وأنا أكثر شوقاً منك إلى هذا اللقاء. استعدت سناء وتطمرت، فقلت لها: أنت الزهرة الجميلة التي تفتحت في حياتي. لقد منحك الله جسماً لم يمنحه لامرأة غيرك. بدت سناء في هذه اللحظة متدفقة الأثوثة، جميلة المنظر، وردية الوجه، مشوقة القوام، بارزة الصدر، مصقولة الذراعين، مكتنزة الفخذين، ملفوفة الساقين، عالية الحضور مثل القمر المنذور، في سماء صافية، وأجواء متسامية. ولم تنس سناء - كعادتها - أن تعلن لي عن حبها المتواصل، وأنها منذ أن رأيتني وأنا أدرس لهم منهج الأدب العباسي دخلت في قلبها ولم أخرج منه أبداً.

في الصباح توجهت إلى الكلية. استدعاني العميد وقال لي: هناك شكوى منك من بعض الأساتذة المصريين. قلت له: خيراً، ما هذه الشكوى؟ قال: إنهم يقولون إنك جمعت منهم مجموعة من المقالات صدرت في كتاب ضمن سلسلة "كتاب الرياض" التابعة لهذه الجريدة، وكان من المفروض أن تصرف لهم حقوق النشر لكنك لم تعطهم شيئاً. قلت له: أولاً لقد اتفقت معهم - وهذا ما أبلغني به المشرف على هذه السلسلة - أن هذه المقالات مجانية. ثانياً: إذا كانوا يريدون حقوق نشر فليتوجهوا إلى الجريدة، لأنني لست المسئول عن صرف هذه الحقوق. وأنا شخصياً لم أتناقض سنتاً واحداً عن مقالتي. قال

العميد: الواضح إذن أن هذه المطالبة نوع من احتقان النفوس لأنك دائم الكتابة في الملحق الثقافي بجريدة الرياض. ثم أضاف العميد: وعلي أية حال انس هذا الموضوع، وسوف أخبرهم أن من يريد منهم حقوقه المادية فعليه أن يذهب إلي جريدة الرياض ويطلب بحقه.

وهكذا لم تخل حياتي في الرياض من بعض المنغصات. فذات يوم وأنا أشرح درسا في العروض وجدت طالبا كثير الكلام فحذرتة من ذلك، لكنه رد عليّ ردا لا يصدر من طالب لأستاذه، وهنا وجدتنني أنفعل، وأنسي نفسي، وأقول له: لا تتصور أنك سعودي وأنا لن أستطيع أن أعاقبك - سوف أعاقبك مثل أي طالب في أي بلد، وأنا لا أخشي من أن أنزل اليوم إلي مصر. وهنا تدخل زملاؤه الطلاب، وكنت قد طلبت منه أن يخرج من الفصل فأقتعوه بالخروج، وبالتالي هدأت الأمور وعدنا مرة أخرى إلي الدرس.

ذكرتني هذا الموقف بموقف آخر حدث لي في باريس، وكنت أعمل مترجما ومستشاراً صحفيا في إحدى السفارات الخليجية. دخل علي ذات يوم ملحق بالسفارة، واختلفنا حول موضوع ما، وتمسكت برأيي، فرد عليّ محتدا: يبدو أنك نسيت أنني كويتي. قلت له: وأنا مصري، ولا يمكن أن أتنازل عن رأيي لمجرد أنك كويتي. وهنا علا صوتي وطلبت منه أن يخرج من مكتبي. احتكنا إلى السفير، وكان رجلا عاقلا مثقفا، فخطأه، وطلب منه ألا يعود لمثل هذا الكلام، فنحن جميعا عرب نخدم في هذا المكان. أعجبني هذا الإنصاف من السفير علي الرغم من أن الملحق قال له إنني طردته من مكتبي.

أعجبتنني جدا في الرياض طريقة الامتحانات. فالأستاذ هو المسئول مسنولية كاملة عن امتحان طلابه في المادة أو المواد التي يقوم بتدريسها: يكتب الامتحان، ويراقب وحده في قاعة الامتحان، ويصحح أوراق الإجابة

وحده، ثم يعلن النتيجة، أي أنه ليس هناك كونترول بالطريقة التي تتم في مصر، حيث يأتي مراقبون موظفون من أي مكان، يتكون الطلاب يغشون، وتنزع أسماء الطلاب من ورق الإجابة لتقدم الأوراق للأساتذة، وبعد التصحيح تعاد الأسماء. إنها عملية تنطوي علي شك في كل شيء: الأستاذ، والتصحيح وغير ذلك. ومن العجيب أن هذه الطريقة العقيمة مازالت هي السائدة إلي اليوم، ويبدو أننا شديدا حرص علي الشك، فهو أسلم الطرق، وأكثرها يقينا. ولا جرم أن هذا تناقض رهيب لن نخرج منه أبداً.

قبل النزول إلي مصر في فترة الأجازة الصيفية، وتستمر في العادة لمدة شهرين، قالت لي سناء: هيا بنا نشترى بعض الهدايا للأقارب. لبست سناء فستانا جميلا، وارتدت عليه العباءة السمراء، ووضعت علي رأسها الإيشارب الأسمر. لم أتمالك نفسي وأنا أراها بهذا المنظر الجميل فقبلتها قبلة طويلة، واحتضنتها وكأني أحتضنها لأول مرة في حياتي. وعندما تأهبنا للخروج قلت لها: من الأفضل أن ترتدي شرابا أسمر حتى لا تستوقفنا سيارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان قد حدث لنا ذات مرة أن سيارة من هذه وقفت بإزائنا، وناداني أحد ركبها قائلا لي: لماذا لا ترتدي الحرمة شرابا؟ وهنا أدركت أن الجدل معهم لن يفيد فقلت له: أنا كنت أتحدث معها في هذا الموضوع، وهذه آخر مرة تخرج بدون شراب. عندئذ تركوني وذهبوا في طريقهم. وهكذا تستطيع أن تسير أمورك حتى لا تقع في شرك الجهل والتخلف. فمجتمعاتنا العربية في العصر الحديث لم تعرف إلا هذا التخلف، ونسيت أن الحضارة علم، وفكر، وثقافة، وتقدم، واختراعات، وأقمار صناعية، ونزول علي سطح القمر و المريخ، ومصانع، وأسلحة متقدمة، ووسائل اتصال، وتعليم، وصناعة وتكنولوجيا. أما نحن فننشئ أجهزة للأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، ونخصص لها سيارات فاخرة مستوردة، ونعطيهم الحق في فرض أفكارهم المتخلفة علي الناس. إن شعوبا بهذه الصورة يمكن أن يأتي عليها وقت تمحي من الوجود بالكامل مثلما حدث للهنود الحمر في الأمريكتين.

أخذنا طريقنا من أعالي شارع الخزان سائرين، متوجهين إلي أسواق البطحاء. كنت أشعر دائما وأنا أمشي إلي جانب سناء أي أمشي مع ملكة متوجة، لا يجردها من ملابسها في الليلة الساجية إلا أنا، ولا يطلع علي كل صغيرة وكبيرة من جسدها إلا أنا، ولا يغوص في أعماق هذا الجسد إلا أنا بكل ما أوتيت من رغبة ومن قوة، ومن عشق جسدي يتعانق ويألف مع العشق الروحي. كنت أقول لنفسي دائما: إن السعادة لا تتحقق إلا بأن تسير إلي جوارك امرأة من نوعية سناء المهدي: جمال يفوق الوصف، وقَدَّ مياس، ووجه وردى يحمل ابتسامة صافية، وكنوز أنثوية تختفي تحت البرقع والعباءة لتظهر أكثر تألقا وإبهاراً. ولا شك أن السعادة تطل من أشياء كثيرة: الحقول، والغابات، والسهول، والجبال، والشمس، والقمر، والنجوم، وظلام الليل، وتآلق الضحي، ولحظة الغروب مع ما يصحبها من شفق أحمر، والحدائق، والجدول، والترع، والأنهار، والبحار، وغير ذلك من فنون الطبيعة، وسحرها، ونسائمها، ولكن حبي لسناء أمر مختلف تماما، فهي المكان، وهي المستقر، وهي الشوق المحتدم، والابتسامة الحارة الصادرة من الأعماق، والجسد المصقول المضطرب، والصوت المفعم بالشوق والأحلام، والنهر المتدفق المترع بالنسائم الرطبة والأحاسيس المشتعلة، واللقاء الجسدي الذي تتركز فيه خلاصة الروح. كل هذا يتمثل في سناء التي تكاد تلتصق بي وهي تسير بجانبني علي الرغم من تلصص هيئة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر. فما هو المنكر هنا؟ هل إذا وضعت المرأة ذراعها في ذراع زوجها يكون ذلك منكراً؟ وفي هذا الصدد أذكر أن امرأة أربعينية كانت تعمل صحفية، وكنت معها ذات مرة في ميدان طلعت حرب بالقاهرة، فرأت بالصدفة فتى وفتاة في سن العشرين تقريباً يمشيان وقد اعتنقت يداهما، فقالت: الله !! هذا منظر جميل أتمنى أن ينتشر مرة أخرى في حياتنا بدلاً من فرض ما يسمونه بالمحرّمات التي أصبحت هي القاعدة، وما عدا ذلك استثناء.

وصلنا إلى البطحاء، وأنا في مثل هذه الأماكن أتوه ولا أدري ماذا أفعل؟ لكن سناء كانت مرشدتي. ذهبنا أولاً إلي محلات الملابس واشترينا عدداً من الهدايا، ثم توجهنا إلي محلات الذهب واشترينا إسورة لوالدتها، وعدداً لصفاء، وأشياء أخرى، وكان لابد أن نشترى حذاء وبعض التمور، إضافة إلي هدايا منزلية وغير ذلك. وبالطبع لم أنس أن أشتري عقداً ذهبياً لسناء لا يختلف في شيء عن العقد المشتري لصفاء. وفي الختام ركبنا التاكسي وتوجهنا إلي البيت. فرحت سناء بالعقد الذهبي عيار 23 وجربته في البيت فزاده جمالها جمالاً. بدت لي ساعتها فتاة طويلة القامة، رشيقة القد، في الرابعة والعشرين من عمرها، شعرها كستنائي، وعيناها زرقاوان عميقتان، وخدها أسيل، وأنفها يشبه أنف الملكة نفرتيتي، ومظهرها وقور يدل علي أريستقراطية هادئة لمحتها في وجه أمها. وكانت أصابعها البيضاء الرقيقة وعنقها العاجي وخداها المصطبغان بألوان وظلال شتي تذكرني بالحسان الفرنسيات اللواتي قارنهن الشعراء بالبعجات ذوات الجلال والعظمة. قلت لها: إنك يا سناء أكثر رشاقة وانسجاماً وتألقاً من أي فتاة رأيتها سواء في مصر أو في السعودية. وكنت قد رأيت فتاة سعودية غير منقبة من أجمل ما رأيت

في حياتي. قلت لها: إنك يا سناء أجمل من تلك المرأة السعودية التي لم أمل من النظر إليها، و كنت أتمني أن تطول جلستي في ذلك المكان الذي رأيته فيه. قالت سناء: ستظل عينك زائغة دائما!! قلت لها: إن الله جميل يحب الجمال. وهل خلق الله المرأة الجميلة من أجل أن نسترها ونخفيها، ونجعل علي قلبها وعقلها وجسدها أكنة؟

لم أترك الليلة تمر سدي، فطلبت من سناء أن تجهز لليلة ينزل قمرها من عليائه، وينشر أشعته البنفسجية الهادئة علينا، ويحيطنا بصبواته، ويحنو علينا حنو المرضعات علي أطفالهن، لاسيما وأن السماء صافية والجو حار لكنه مضمخ برطوبة حانية، وظلال مشعة تنعكس عليها أشعة القمر، فتتلاها الظلال، ويحلو الجهاد والنضال، وكأننا نتمثل قول جميل بن معمر:

يقولون جاهد يا جميل بغزوة	وأبي جهاد غيرهن أريد
ومن كان في حبي بثينة يمترى	فبرقاء ذي ضال علي شهيد
لئن كان في حب الحبيب حبيبه	حدود لقد حلت علي حدود
وأحسن أيامي وأبهج عيشتي	إذا هيج بي يوما وهن قعود

قالت سناء: لقد تزوجت خزينة فكرية وشعرية وإنسانية، ورجولة وفحولة لا أتصور أنها تتحقق في شخص آخر، إضافة إلي حسن المظهر، وطول القامة، وجمال الوجه، وصلابة الجسم، وحسن العشرة. فهل كنت أحلم أن أتزوج شخصا مثلك؟

في الصباح ذهبت إلي الكلية، وقضيت وقتا ممتعا في التدريس، وكان الطلاب قد زاد اقتناعهم بي، وتفاعلم معي. انتهيت من الدروس ثم جلست علي مكتبي في القسم. حضر أحد الأساتذة الذي نعهده أكبر ناقد في السعودية.

تحدثنا كثيرا عن رؤيته لما يسمى بالحدثة، فقال لي: مشكلتنا أن حدثتنا ليس لها رجل ولا عينان. إنها لا تختلف في شيء عن مدارس اللغات التي انتشرت في المملكة انتشارا واسعا وهي تتخذ من الإنجليزية لغة أولى للتعليم، وإذا استمر الحال علي هذا الوضع سوف نفقد هويتنا. مشكلة حكامنا الجهابذة أنهم ليست لديهم رؤية حول التعليم. كان جيلنا يتعلم اللغة العربية ويدرس لغة أجنبية أو لغتين. الآن التلميذ الصغير في الحضنة وفي الابتدائي يدرس له بلغة ليست لغة قومه. فماذا تنتظر من هذه الشعوب؟. قلت له: أنا متفق تماما معك بشأن هذا الموضوع، ولدي خوف شديد من أن نصبح شعوبا ليس لها لغة قومية.

بعد انتهاء اليوم الدراسي ركبنا السيارة متوجها إلي الرياض، وكان يركب معي أستاذ مصري مسرف في التدخين، لا ينتهي من سيجارة إلا أشعل أخرى، و لذلك كانت السيارة أثناء وجوده تمتلئ بالدخان، فكنت أفتح كل النوافذ لكي يدخل الهواء من الخارج، وأحاول أن أنصحه بأن يكف عن التدخين أو علي الأقل يقلل منه، لكن يبدو أن النيكوتين كان قد تمكن منه. ولذلك كانت النتيجة أنه أصيب بذات الرئة، وتوفي وهو في عز شبابه كما يقال.

قضينا في الرياض مدة الإعارة كاملة، وكان يتخللها نزول إلي مصر كلما ساحت الفرصة، في أجازة عيد الفطر، وفي موسم الحج، وفي منتصف العام. ولم أترك سناء أبداً وحدها كما يفعل بعض المصريين. وفي هذه الفترة رزقنا بمحمد ومحمود، وقد بدأت سناء، بمجنيهما، فصلا جديدا من حياتها. صحيح أن جمالها ظل كما هو، بل زاد تألقا وإبهارا في بعض الأحيان، لكنها بدأت تشغل بالولدين، وتحنو عليهما، وتلاعبهما، وتشترى لهما ألعاب الأطفال

المنتشرة في كل مكان. عاكستها ذات مرة قانلا لها: من الواضح يا سناء أنك بدأت تنشغلين عن محمد صفوان عبد الخالق. ردت: أنت في عيني وفي قلبي وفي كياني، ولن أنشغل عنك أبداً. ضحكت وقلت لها: لا شك أن محمد ومحمود جزء من كياني، لكنك أنت الجزء الأكبر، وسوف تظلين كذلك. عدنا إلي مصر ومعنا محمد ومحمود، وبدأنا حياة جديدة، لكن العشق ظل هدفنا الأول، علي نحو ما قال عمر بن أبي ربيعة:

أصبح القلب للقتول صريعا	مستهماً بذكرها مردوعا
سلبتني عقلي غداة تبدت	بين خودين كالغزالين ريعا
وهي كالشمس إذ بدت في دجاها	فأبانت للناظرين طلوعا

تمت